الحمد لله

مُهاجِرٌ إلى الجَنَّةِ

مدحت القصراويّ

دارُ الفِطرة

MORB3.COM

مُهَاجِرٌ إِلَى الجَنَّةِ

النَّجَاةَ.. النَّجَاةَ

خُطُوَاتٌ فِي التَّرْبِيَةِ

فَضِيلَةُ الأُسْتَاذ

مِدْحَتْ القَصْرَاوِيّ

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ
لِلمُؤَلِّفِ

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

رَقَمُ الإيدَاعِ: ٦/ ١٤٣٨-٢٠١٧

دَارُ الفِطرَةِ
لِنَشرِ الوَعيِ الإِسلَامِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

هَذَا الكِتَابُ..

إِلَى المُرَبِّينَ وَالدُّعَاةِ..

وَإِلَى مَنْ يُرِيدُ أنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ..

اسْتِئْنَاسًا بِهِ وَمُعَايَشَةً فِي الطَّرِيقِ..

وَاللهُ الهَادِي إِلَيْهِ سَبِيلًا..

مُقَدِّمَةٌ

الحمْد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحْبه ومنْ والاه وبعْد..

فإنّ الله تعالى أخْبرنا أنّ لنا نفوسًا لها هوًى، وأنّ هذا الهوى مصادمٌ للمصْلحة وللخيْر في أغْلبه..

وأخْبرنا تعالى أنّنا لوْ اتّبعْنا أهْواءنا لهلكْنا وأوْردْناها الهلكة في الآخرة، ولخسرْنا في الدّنْيا كثيرًا، ولضيّعْنا مصالح وفرّطْنا في واجباتٍ، ولظلمْنا غيْرنا وتعدّيْنا الحدود، ولهلكْنا في الدّنْيا والآخرة..

وأخْبرنا تعالى أنّ الهوى مفْسدٌ، ولوْ اتّبع الحقّ أهْواءنا لبلغ الفساد مبْلغه ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون:٧١].

والهوى يَصْنع الطّغْيان والإلْحاد والإباحيّة والظّلْم المفْسد والمظْلم..

وقدْ يكون الإلْحاد نابعًا منْ الهوى، لا منْ نقْص الدّليل.

وكلّ اتّباعٍ للهوى ضياعٌ لأغْلى ما نمْلك، وهو العمر واللّحظات الّتي نقْضيها هنا قبْل لقاء الله تعالى؛ فالهوى يصْرفنا عنْ التّجْهيز للقاء الله تعالى

إلى اللّعب والعبث، ولم نُخلق لهذا، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]؟، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر:٣]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدّخان].

وأخْبرنا تعالى أنّه لا ينْجو منّا إلّا منْ غلب هواه، ونهاه، وكفّ نفْسه عن اتّباع ما تهْواه، وجنح بها إلى موافقة أمْر ربّها تعالى، لا اتّباع ما تهْواه، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات].

فأوْضح تعالى أنّ هناك ناهٍ ومنْهي ومنْهيًّا عنْه، فأنْت النّاهي، والنّفْس هي المنْهيّة، والهوى هو مدار النّهْي ومحلّه.

فأخْبر تعالى أنّ الكفّ القليل والنّهْي المؤقّت للنّفْس عنْ هواها يعْقبه سعادةٌ وخلْدٌ وإطْلاقٌ لما تهْوى النّفْس وتشْتهي وتتمنّى، بلْ لها أكْثر ممّا تتمنّى، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السّجْدة]، «**أعْددْتُ لعبادي الصّالحين ما لا عيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَرَ على قلْب بشرٍ**»[1]، وجاء في الأثر أنّ الله

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٣٢٤٤) كتاب بدْء الخلْق- باب ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخْلوقةٌ، =

تعالى خلق جنّة عَدْنٍ بيده الكريمة، وغرس لأهْلها كرامتهمْ بيده سبْحانه[1]، وأنّه لمْ يطْلعْ عليْها أحدًا منْ خلْقه، لا ملكًا ولا غيْره، وأنّه تعالى ينْظر إليْها كلّ سحرٍ، وأنّه يقول لها: «**تزيّني؛ فإنّه يوشك عبادي أنْ ينْقلبوا إليْك**»[2].

=

ومسْلمٌ في صحيحه ٢ (٢٨٢٤) كتاب الْجنّة وصفة نعيمها وأهْلها، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) روى مسْلمٌ في صحيحه ٣١٢ (١٨٩) كتاب الإيمان- باب أدْنى أهْل الْجنّة منْزلةً فيها، عن الْمغيرة بْن شعْبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنْ رسول الله ﷺ قال: «**سأل موسى ربّه، ما أدْنى أهْل الْجنّة منْزلةً، قال: هو رجلٌ يجيء بعْد ما أدْخل أهْل الْجنّة الْجنّة، فيقال له: ادْخل الْجنّة، فيقول: أيْ ربّ، كيْف وقدْ نزل النّاس منازلهمْ، وأخذوا أخذاتهمْ، فيقال له: أترْضى أنْ يكون لك مثْل ملْك ملكٍ منْ ملوك الدّنْيا؟ فيقول: رضيت ربّ، فيقول: لك ذلك، ومثْله ومثْله ومثْله ومثْله، فقال في الْخامسة: رضيت ربّ، فيقول: هذا لك وعشرة أمْثاله، ولك ما اشْتهتْ نفْسك، ولذّتْ عيْنك، فيقول: رضيت ربّ، قال: ربّ، فأعْلاهمْ منْزلةً؟ قال: أولئك الّذين أردْت غرسْت كرامتهمْ بيدي، وختمْت عليْها، فلمْ تر عيْنٌ، ولمْ تسْمعْ أذنٌ، ولمْ يخْطرْ على قلْب بشرٍ**»، قال: ومصْداقه في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السّجْدة:١٧].

(٢) روى أحْمدٌ في مسْنده (٧٩١٧) منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعْطيتْ أمّتي خمْس خصالٍ في رمضان، لمْ تعْطها أمّةٌ قبْلهمْ: خلوف فم الصّائم أطْيب عنْد الله منْ ريح الْمسْك، وتسْتغْفر لهم الْملائكة حتّى يفْطروا، ويزيّن الله عزّ وجلّ كلّ يوْمٍ جنّته، ثمّ يقول: يوشك عبادي الصّالحون أنْ يلْقوا عنْهم الْمئونة والأذى ويصيروا إليْك، ويصفّد فيه مردة الشّياطين، فلا يخْلصوا فيه إلى ما كانوا يخْلصون إليْه في غيْره، ويغْفر لهمْ في آخر ليْلةٍ**» قيل: يا رسول الله، أهي ليْلة الْقدْر؟ قال: «**لا، ولكنّ الْعامل إنّما يوفّى أجْره إذا قضى عمله**». وقال شعيْب الأرْنؤوط (١٣/ ٢٩٥): «إسْناده ضعيفٌ جدًّا»، وقال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (٣/ ١٤٠): «رواه أحْمد

=

وكلّ هذا الخير مترتّبٌ على كفّ النّفْس عنْ أهْوائها، وحمْلها على أمْر ربّها تعالى ومراده، لا على مرادها، وعدم إطْلاق العنان لها.. فقدْ أخْبر تعالى أنّ النّفْس إنْ تركتْ وما تهْوى مالتْ إلى الشّرّ، ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ [القيامة]، ومعْنى ﴿أَمَامَهُۥ﴾ يعْني فيما يسْتقْبل منْ الزّمن والعمر، «ليدوم على فجوره فيما يسْتقْبله منْ الزّمان»[1].. فهو «يريد أنْ يمْضي أمامه قدمًا في معاصي الله، لا يثْنيه عنْها شيْءٌ، ولا يتوب منْها أبدًا...»[2]، ثمّ ذكر عنْ السّلف أنّه يسوف التّوْبة.

فللنّفْس داعٍ إلى الهوى والشّرور، بلْ والفجور ﴿لِيَفْجُرَ﴾ في زمانٍ ممْتدٍّ ﴿أَمَامَهُۥ﴾..

وهذا نابعٌ ممّا هو لازمٌ لها، وهو أمْران:

=

والْبزّار، وفيه هشام بْن زيادٍ أبو الْمقْدام، وهو ضعيفٌ». وأوْرده المنْذريّ في «التّرْغيب والتّرْهيب» (٢/ ٥٦) كتاب الصّيام- باب التّرْغيب في صيام رمضان احْتسابًا وقيام ليْله، منْ حديث جابر بْن عبْد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقال فيه: «**وأمّا الرّابعة فإنّ الله عزّ وجلّ يأمر جنّته فيقول لها: اسْتعدّي وتزيّني لعبادي أوْشك أنْ يسْتريحوا منْ تعب الدّنْيا إلى داري وكرامتي**»، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة» (٥٠٨١) وقال: «ضعيفٌ».

(١) تفْسير البيْضاويّ (٥/ ٢٦٥) [القيامة:٥].

(٢) تفْسير الطّبريّ (٢٣/ ٤٧٤) [القيامة:٥].

أ. الجهْل بما ينْفعها ويصْلحها على وجْه الحقيقة لا الخيال..

ب. والظّلْم اللّازم لها بانْحراف إرادتها، فتضع الأمْر في غيْر محلّه، وتنْقص نفْسها حقّها وحظّها – وهما أبْرز معاني الظّلْم– وقدْ جمع الله تعالى هاتيْن الآفتيْن في آيةٍ واحدةٍ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحْزاب:٧٢].

فالظّلْم يكون في الأعْمال والمقاصد والإرادات، والجهْل يكون في العلْم والتّصوّرات.

وقلْب كلّ إنْسانٍ فيه علْمٌ وعملٌ، واللّازم لنا هو الجهْل في العلْم والظّلْم في العمل والإرادة، والهوى يحْمل عليْهما ويسوق الإنْسان إلى ما يهْلكه في الدّنْيا، وما يتْعسه ويهْلكه في الآخرة.

ولهذا أمرنا تعالى أنْ ننْهى نفوسنا عنْ اتّباع الهوى، وأنْ نكفّها عنْ اتّباع جهْلها وظلْمها.

والجهْل والظّلْم لا ينْتفي بالعلْم الدّنْيويّ والتّكْنولوجْيا الحديثة، بلْ قدْ يحْملان النّفْس الجاهلة الظّالمة على مزيدٍ منْ الهوى والجرائم والفساد العظيم؛ لتعاظم القدْرة.

ولكنّ الجهْل والظّلْم ينْتفيان بعلوم الوحْي، وهو العلْم اليقينيّ المنزل منْ السّماء، وهو خطاب الله المتضمّن لرحْمته وكرمه وفضْله للمخْلوق البشريّ لسعادته ونجاته وخروجه منْ المهالك، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ ﴾

[سبأ: ٥٠].

ولهذا إذا اتبع العبد هواه؛ فاتبع جهله وظلمه، كانت مفاسد لا تنحصر وشرور لا تنتهي بل تكون شرور مرعبة ومدوخة ومترابطة في سلاسل لا تنتهي إذا الْتقى بأمثاله..

ولو اتبع الحق سلم، ولكن للنفس هوى ضاغط وشهوات قد تنحرف به..

ومن هنا فمن أراد الطريق إلى ربه وصلاح نفسه وحياته وحياة الخلْق، وأراد نجاته من حساب يوم القيامة وفوزه يوم اللقاء وجد نفسه في صراع بين داعي ربه، ونزوات نفسه، فكان لا بد من أمر نفسه ونهيها؛ إذ إن لها داعٍ ولربه داعٍ ولو تركها وما تريد فهي لا تدري أين الخير، وجهلها وظلمها يرْدي بها وبصاحبها.. فالنجاة في إجابة داعية الرب تعالى ولهذا صرخنا هنا النجاة النجاة.

ومن لم يستشعر الخطر فهو في وهْم كبير، فإن الله تعالى لم يخلق الحياة عبثًا ولا سدًى، وأفعالنا وأقوالنا، بل ومشاعرنا، غير متروكة، وهي ليست شيئًا هامشيًّا على جانب الحياة، بل إن هذا الوجود ما وجد إلا لأجل العمل البشري، والنظر إليه، والمجازاة به.. ويكفيك مثل هذا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملْك:٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ

زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٧]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق]، ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾ [الجاثية].

فقد كان العمل البشري محل مراقبة ونظر، ومحل إحصاء وكتابة، ليكون حجة على صاحبه ومناطًا للجزاء.

فإذا انفضت الدنيا وانتثر نظامها وهلك الوجود لم يكن هذا صفحة طويت وانتهى أثرها، بل كان هذا إيذانًا برؤية العمل الذي حضر به كل إنسان، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير]، يعني من عمل، وعلمت حينئذ حقيقته وجزاءه.

فمن اتعظ وارْعوى وأراد الإعداد للقاء ربه تعالى وسلوك السبيل إليه وجد نفسه في هذا الحال من المجاهدة وكف النفس عن الهوى؛ هي تأمره بالهوى والمخالفة والمعصية وهو ينهاها إجلالًا لربه وإنجاءً لها.

وهذه مجاهدة في الله ومن أجله، وهي في الحقيقة كمجاهدة الغريق للنجاة، فنحن الغرقى وأهواؤنا غمرات مُرْدِيَة ويد النجاة هي لداعي ربنا، والسفينة المنجية شريعته الغراء المتضمنة لرحمته، وهداه الموضّح للمصالح والناهي عن المفاسد والمقيم للدنيا على استقامة والمقيم للآخرة على سعادة.. وعلى الله قصد السبيل.

❁❁❁❁

ولكن من رحمة رب العالمين تعالى أنه جعل للهوى في النفس مقابلًا، وهو الفطرة التي تعرف ربها وتحبه وتريده ولا تطمئن إلا إليه ولا تَقَرُّ إلا بالوصول إلى مرضاته، فكما جعل الهوى صادا جعلت الفطرة معاونة، ووجد الإنسان في نفسه أيضًا داعي الخير وحبه والراحة إليه.

ولما كان الأمر على ما وصفنا، كان السؤال كيف نأخذ بأيدينا وكيف نطلق نفوسنا من عقال شهواتها إلى رحب وسعة طريق ربها.

وكم من نفوس صادقة تشكو من العثرات مرة بعد مرة، فتستقيم ثم تعصي، وتتذكر ثم تغفل، وتطيع ثم تضعف، وترى ثم تعشى.. حتى أن منهم

من أحبط وكاد أن ييأس من نفسه ولا يرى فيها خيرًا ولا من نفسه أملًا.

فقلت أن الشكوى مشتركة، والألم عند الجميع، وزوال الألم هو مطلب نفوس هؤلاء الراجين الطريق، فرغبت أن أتقدم إلى كل من رجا طريق ربه وأراد الوصول؛ أذكّر نفسي وكل من رغب الطريق كيف نخطو إلى ربنا تعالى.

فكانت هذه الكلمات، أردت بها الإختصار، ووَصْف الأمر على عجل؛ وللتفصيل محل آخر.. لكن من صدق الطريق والرغبة سيجد فيها ما يكون له دلالة.

لعل الله يصلح بها قلبا ويطهر بها نفسا وينقذ بها غريقًا، ويصل بها عبدٌ إلى ربه، فإذا وصل فليحمد الله ما كان إلا محض فضله وإحسانه.. رزقنا الله وإياك الوصول.

❋ ❋ ❋

بداية الطّريق

أفضل ما يعين على سلوك الطريق إلى رب العالمين هو النظر إلى هذه الدنيا والاعتبار بها، وسؤال النفس هل هذه دار مرضية، بحيث تقنع بها النفس؟

وللإجابة يجب فقط التدبر في شأنها..

▪ دارٌ منْقضيةٌ:

ومن تدبر في شأنها وجد أنها دار بطبيعتها منقضية ولها أوان وللحياة أمد، ولا بد من توفية الأجل والخروج منها والرحيل عنها، لإكمال المسير فهذه فقط بداية الرحلة..

فالدار بنغصها وفرحها، وبشهواتها ومتعها وبآلامها، كلها منقضية.. ولا يماري في هذا مؤمن ولا كافر، مقر بالبعث أو جاحد له؛ لكن الفرق أن المؤمن يعد لبقية الرحلة فيستقيم، وأما الملحد الجاحد فينتهز من الشهوات بقدر ما يرتع في الدنيا، فيتسابق في عفنها بقدر الاستطاعة مسابق للموت؛ فيحيا كالبهيمة ويموت نافقًا مثلها.

فمن وجد الدار راحلة أو هو راحل وهي خلف ظهره، كانت متعها إذن - بل كل ما فيها- قليل، ولهذا قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا**

﴿قَلِيلٌ﴾ [النّساء:٧٧]، أن كل ما هو منقضٍ وزائل فهو قليل، كما أن كل ما هو آتٍ فهو قريب.

وانظر إلى كلمة «عمر» رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «لوْ كانتْ الدّنْيا منْ أوّلها لآخرها لعبْدٍ، ثمّ مات لكانتْ حلمًا».

❁❁❁❁

▪ صفْوٌ قليلٌ:

ومن نظر في مقدار مكوثه في هذه الدار وجد أن بها أفراحًا وأتراحًا، والأتراح والأحزان غالبة على المتاع، بل يعمل الإنسان كثيرًا على أمل أن يستمتع ما بقي من عمره، وقد لا يدرك المتعة ويبقيها لأولاده..

وقد جاء في قصة ملك الأندلس «الملك الناصر»، وقد ملك خمسين عامًا، فوجدوا بعد وفاته كتابًا له كتب فيه أنه ما صفا لي من عيش هذه الدنيا دون كدر إلا يوم كذا عام كذا، ويوم كذا عام كذا.. فعدوا أيامه التي تنعم فيها، وهو ملك متوج على بلاد نعيمها مخملي وترفها فاحش، فوجدوها أربعة عشر يومًا خلال خمسين سنة ملكًا.. فليعتبر إذن المعتبرون.

❁❁❁❁

▪ كدرٌ لا بدّ منه:

ومن تدبر وجد أن ما صفا من عيشها مشوب بالكدر، يسبق تنعمها للحصول عليه، أو يعقبه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما مليء بيْتٌ فرْحةً إلّا مليء ترْحةً»[1]، يعني أن الدينا تتعاقب فيها اللذات والأحزان فإذا أتت هذه خلفتها هذه عقبها.

بل ما من متعة في الدينا خالصة فلا بد من مشقة ما أو خشونة ما؛ إذ إنها دار ما خلقت خالصة للنعيم، ولا خلقت خالصة للشقاء بل هي دار بنيت على المزج بين الأمرين، أما دار الآخرة فثمة دار نعيم بلا شوب مشقة ولا حزن، ودار أحزان وغموم وآلام بلا تنفيس ولا راحة ولا انقطاع عذاب..

فالآخرة بنيت على الخلوص لأحد الأمرين، والدنيا بنيت على المزج والتبادل بينهما للاختبار والامتحان ولهذا أثنى تعالى على من نجح في الأمرين، فمدح الصّبّار الشكور[2].

فالدار الحالية بنيت على المزج، وغلب شقاؤها نعيمها، وهي منقضية

---

(١) رواه ابْن أبي شيْبة في مصنّفه (٣٤٥٧٤) بلفْظ: «مع كلّ فرْحةٍ طرْحةٌ»، وكذا الإمام أحْمدُ في «الزّهْد» (٩٠١) بلفْظ: «مع كلّ فرْحةٍ ترْحةٌ، وما ملئ بيْتٌ حبْرةً إلّا ملئ عبْرةً»، كلاهما موْقوفًا على ابْن مسْعودٍ رضي الله عنه. وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٥٢٦٣)، وقال: «ضعيفٌ».

(٢) راجعْ «الموافقات» للشّاطبيّ (٢/ ٤٤).

بالموت ومنغّصة به وبذكره، واعتبر بيوم ينادى على أحدنا قد استوفى مدة اختباره وسلم أوراقه وذهب للقاء ربه تعالى..

❁❁❁❁

▪ هناك ينْسى:

ولو سلمت للعبد أيامه متنعمًا لا يتنغص أو يتألم أو ينقص من نعيمه شيء أبدًا، لانتهى كل هذا في التراب فنسي في ليلة ما كان في سنوات امتدت..

تــالله لــوْ عــاش الفتــى في دهْــره ❁ ألْفًــا مــنْ الأعْــوام مالــك أمْــره
متمتّعًــا فيهــا بــكلّ نفيــسةٍ ❁ متنعّمًــا فيهــا بنعْمــى عــصْره
لا يعْتريــه الــسّقم فيهــا مــرّةً ❁ كــلّا ولا تــرد الهمــوم ببالــه
مــا كــان ذلــك كلّــه في أنْ يفــي ❁ بمــبيت أوّل ليْلــةٍ في قبْــره[1]

❁❁❁❁

---

(١) منْ قصيدةٍ نسبتْ لأبي يوسف ابْن عبْد البرّ النّمريّ القرْطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وقدْ سيقتْ بعْض أبْياتها بغيْر هذا السّياق، ومطْلعها:

مــنْ ذا الّــذي قــدْ نــال راحــة فكْــره ❁ في عمــره في عــسْره أوْ يــسْره
يلْقــى الغنــيّ لحفْظــه مــا قــدْ حــوى ❁ أضْــعاف مــا يلْقــى الفقيــر لفقْــره

▪ مَنْ انْزعج فلْيرْحلْ إلى ما هو خيْرٌ:

فلما كان الأمر كذلك كان الأمر مزعجًا، وكانت دارا مقلقة.. وهي كذلك؛ فقد ضرب الله تعالى لها مثالًا بانقضائها هكذا ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني بسببه كثر النبات والتفّ بعضه ببعض، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

فلما أخبر تعالى بتأقيت الدنيا وكونها لا تكتمل ولا تدوم لأصحابها وأن الآفات تكتنفها من كل جانب فلا قرار بها أو اطمئنان لها.. عندئذ أخبر تعالى بدار أخرى سلمت من كل آفة حتى سميت دار السلام، ودعا خلقه إليها فقال بعدها: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥].

فمن انزعج من الدنيا لما رأى هذا يموت وذاك يمرض وهذا يفتقر بعد غنى وآخر يذل بعد عز وذاك يضعف بعد قوة، وكل من ارتفع إذا به يذبل يومًا وتطويه الحياة، فتضعف القوى وينكسر الجمال ويتبدد المال وتنطفيء الأضواء.

من تدبر حال الدنيا وما تصنع بأهلها انزعج ونفر منها ولم يركن إليها ولا اطمأن بها، ولا بد له من أن يوجه وجهه تلقاء أمرين.

أولهما: أن يحقق المقصود من بقائه في هذه الدار فهي لم تخلق لمجرد إزعاج الخلق بالفناء والآفات، بل لتحقيق غاية مقصودة وهي إقامة أمر ربهم ثم يكملون رحلتهم وطريقهم إليه، فمن ابتغى منها غير هذا ضيع نفسه وأضاع فرصته ولم يجد ما أراد إذ لم تخلق الدنيا للتنعم الخالص ولا الخلود.

والثاني: هو طلب دار البقاء والسلامة، وهي موجودة، وقد دعانا ربنا اليها؛ فهل من مجيب؟..

لا بد من إيقاف نفوسنا كثيرًا على هذا المعنى، ويجب أن نلتفت إليه ولا نصرف تفكيرنا عنه، فالتفكر عبادة عظيمة، وأخْذ العبرة من شأن العقلاء.

لا نلتفت للتحطم أو اليأس بل عندما ننخدع ببهرجتها وزينتها لا بد أن ننظر إلى انكسارها وخداعها، وعندما تركن نفوسنا إليها لا بد أن ننفّرها منها لتكمل المسير وتعلم أن هذه ليست دار قرارها، وعندما نضعف عن العمل نوقفها على اقتراب زوال دارنا إلى دار أخرى.. ننظر لنعتبر ولننفر عن الركون ونجدّ في المسير.

❁❁❁❁

▪ نصيحةٌ عمليّةٌ:

فمن أهم الأمور أن نقف طويلًا على آفاتها لبدء المسير، هذا أمر عملي لا بد أن تقوم به.. انظر إلى آفات دنياك، انظر إلى حوادث أهلها، رقق قلبك واصرفه إلى الآخرة بزيارة القبور وانظر إلى تواريخ من مات ومنذ كم هم في القبور، وانظر إلى أسمائهم، وانظر إلى غرفهم الصغيرة كم ابتلعت من أجساد وتراكمت فيها أسماء وألقاب، وأكلتهم جسدًا بعد آخر، وأكلت معهم الأحلام والأماني..

انظر إلى مصاب الناس في المشافي.. اعتبر بحال الناس من حولك ولا تنخدع بها فزينتها قليلة..

أعتذر اليك؛ لكن انظر مثلًا إلى أسماء هذه الأمراض عرضت على من يعمل في مجال الطب «سرطان الثدي، سرطان اللسان، سرطان العضو الذكري، سرطان العين، سرطان المخ...» إلى آخره، فقط انظر إلى هذه الأسماء المرعبة، هذا شلل رباعي وآخر قد يتعرض لبتر، آخر حادث يغير مجرى حياته.. وغير ذلك كثير..

لا أقول هذا لترك المال أو لترك التمتع بالطيبات على وجه شرعي، بل أقول فقط للتذكر ولعدم القرار لها أو الركون إليها أو الغفلة عن وظيفة وجودك فيها، أقول هذا لإقناع النفس بالمسير إلى الله، وجدية المسير، ولبدء

المسير لمن كان متبطلًا..

إن نفوسنا صعبة وهي في أغلب أحوالها نافرة، وهذا النظر إلى الآفات يكسر طغيانها ويهديء من سوْرتها وكبرها، ويوقظها من غفلتها، ويسهل عليها كثيرًا الانطلاق واستماع داعي الله تعالى.. بلّغنا الله وإياك.

❁❁❁❁

▪ دار أبينا ودارنا:

وكلمة أخيرة أخاه.. إن هذه ليست دارنا فإن أصل موطننا الجنة، فيها عاش أبوك، ومنها أخرج، ولقد وعد بالعودة هو وصالحو ذريته..

ولهذا قال بعض السلف:

وهلْ نحْن إلّا سبْي العدوّ فهلْ ❁ ترى نعود إلى أوْطاننا ونسْلم؟[1]

---

(١) منْ جمْلة أبْياتٍ لابْن القيّم، أوْردها في غيْر موْضعٍ منْ كتبه، منْها «مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾» (٣/ ٢٠٠)، يقول فيها:

وحيّ على جنّات عدْنٍ فإنّه ❁ منازلك الْأولى وفيها الْمخيّم
ولكنّنا سبْي الْعدوّ فهلْ ترى ❁ نعود إلى أوْطاننا ونسلّم
وأيّ اغْترابٍ فوْق غرْبتنا الّتي ❁ لها أضْحت الْأعْداء فينا تحكّم
وقدْ زعموا أنّ الْغريب إذا نأى ❁ وشطّتْ به أوْطانه ليْس ينْعم
فمنْ أجْل ذا لا ينْعم الْعبْد ساعةً ❁ من الْعمْر إلّا بعْد ما يتألّم

إننا نريد العودة إلى الديار، حيث كنا، والله المبلّغ للمنزل..

▪ قوْمٌ مسافرون:

وإذا علمت نفوسنا حقيقة الدار الحالية فزهدت فيها ونفرت عنها وطلبت دار القرار ورضوان الرب والتنعم بقربه والفوز بشرف الدرجات في الجنات فلا بد من المسير طوعًا إلى رب العالمين، وإلا فنحن مسافرون شئنا أم أبينا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق]؛ ولذا قال ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «عِشْ في الدّنْيا كأنّك غريبٌ أوْ عابر سبيلٍ»[1].

فإن كان الأمر كذلك رغب العاقل عن الدنيا وهرب إلى حيث يستقر، وعاش بنفسية الغريب وشخصية المهاجر، المهاجر إلى الجنة، راحلًا طوعًا قبل أن يرحل كرهًا..

وعندئذ فلا بد من خطوة تالية..

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٤١٦) كتاب الرّقاق- باب قوْل النّبيّ ﷺ: «كنْ في الدّنْيا كأنّك غريبٌ أوْ عابر سبيلٍ».

العلْم واليقين

العلْم قبْل أنْ تخْطو في الطّريق

- **البصيرة فريضةٌ:**

اعلم أنه قد يضل الإنسان عن الطريق إذا لم يصْدق في الطلب، ولم يضرع ويتوكل، ولم يطلب العلم قبل المسير، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وكمْ منْ مريدٍ للخيْر لنْ يصيبه»[1].

وكم ضل كثيرون الطريق، كما أن للطريق قُطَّاعًا يخدعون الناس ويضلون ويضلون غيرهم، ولهذا لا بد للسالك أن يكون على بينة من أمره.

وطلب البينة والبصيرة من فرائض الله تعالى، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف:١٠٨]، ففيها أن البصيرة من الفرائض[2].

---

(١) رواه الدّارميّ في سننه (٢١٠) بابٌ في كراهية أخْذ الرّأْي، موْقوفًا على عبْد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك قبْل روايته لحديث الخوارج وقراءتهمْ للقرْآن، قال حسيْن سليم أسد (١/ ٢٨٧): «إسْناده جيّدٌ»، وقال الألْبانيّ في إسْناد الدّارميّ في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٢٠٠٥): «وهذا إسْنادٌ صحيحٌ».

(٢) التّوْحيد لمحمّد بْن عبْد الوهّاب (ص٢١)، باب الدّعاء إلى شهادة أنْ لا إله إلّا الله.

وقـال تعـالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمّد:١٩]، وقال البخاري: «باب العلْم قبْل القوْل والعمل»[١].

فلا بد من قدر من العلم لكل سالك.. فقد تصدّق أقوام وصلوا وحجوا وظنوا أنهم ملاقوه في الآخرة فأخبر تعالى أنه كسراب لن يجدوا عنده ريًّا يوم لقائه، وأخبر أنه كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، ولن يحصّلوا من ثواب أعمالهم شيئًا..

فإن قلت: هذا في الكافرين، فاعلم أن هناك من المكفّرات المعاصرة ما يحبط الأعمال، وهناك من البدع العظيمة أيضًا ما يحبط الأعمال أو كثير منها.

ونذكر هنا جملًا نافعة ومختصرة...

▪ أحقّ وأهمّ شروط صلاح العمل وقبوله:

أصل هذا الدين الذي لا يقبل الله تعالى عملًا إلا ممن جاء به أولًا، ثم وقع العمل بعد على وفقه ومقتضاه، هو إفراد الله تعالى بالعبادة وقبول الشرائع منه وحده بلا شريك؛ فالمسلم لا يعبد إلا الله ولا يلتزم شريعةً ولا

---

(١) الباب رقم (١٠) منْ كتاب العلْم منْ صحيح البخاريّ.

قانونًا إلا ما أنزل الله تعالى أو ما استمد سلطانه من الله باجتهاد صحيح..

والخوف هنا هو أن يعمل أحدنا عمره، ويحج ويتصدق ويظن أن هذا نافعه يوم لقاء الله بينما هو متلبس بشرك ينقض عمله، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف]، ولهذا نحذّر من أمور مناقضة للدين لا ينفع معها عمل صالح.

ومما يجب علمه أن المشركين كانوا يقرون بوجود الله وكانوا يعبدون الله ويعبدون غيره معه، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦]، فكانوا يصرفون لله ولغيره العبادات، فلما وقع منهم هذا لم يقبل الله منهم ما عملوا، بل وأعظم من هذا أنه تعالى نفى عنهم أنهم يعبدونه، وجعل تعالى ما وقع منهم من عبادة لله كأنها لم تقع فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون]، فنفى عنهم عبادة الله وأكذبهم في زعمهم أنهم يعبدونه، بسبب أن عبادتهم وقعت مع الشرك فكأنها لم تقع، وكذا كل من تَلَبَّسَ بمُكَفِّرٍ، عافانا الله وإياك.

لا تتهاون بهذا فقد خشى «إبراهيم» عليه السلام الشرك فتضرع لربه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم]، كما خاف «يعقوب» عليه السلام

على بينه – وهم أنبياء– من الشرك ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ [البقرة:١٣٣]؟، لم يستهينوا بسؤاله، ولم يروه خرف الموت بل رأوه من علمه وإيمانه وإرث النبوة العظيم فأجابوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

❁❁❁❁

▪ احْذرْ شرْك العبادة تحْت أيّ حجّةٍ:

فمن صرف عبادة لغير الله من الدعاء أو الاستعانة أو الاستغاثة أو طلب المدد والعون من غير الله، كضريح أو قبر رجل صالح سواء كان من أهل البيت الكرام أو من غيرهم من الصالحين أو العلماء، أو مكذوبًا على الصالحين..

أو نذر لهذه القبور أو ذبح لهم أو تمسح بها تبركًا أو اشتكى إليهم فاقته وحاجته..

أو ظنَّ لهم تأثيرًا غيبيًّا، أو أنهم يعلمون ما به من حاجة..

أو خافهم بالغيب أن يضروه أو خضع لهم وسكن وانحنى فهذا سجود..

كل هذه عبادات لغير الله واعتقادات مبطلة للتوحيد، فمن عمل على هذا

الأصل فعمله مردود وباطل إلا أن يتوب ويراجع ويترك هذا الشرك بالله تعالى ويصرف حق الله الخالص إليه لا إلى غيره؛ فبهذا بعث رسول الله ﷺ وعلى هذا كان هؤلاء الصالحون يعملون ويأمرون، وهم كانوا ينكرون على من قام بهذا الضلال.

وأما الصالحون فنحبهم ونعرف لهم قدرهم وندعو لهم - لا أن ندعوهم- ونتبع طريقتهم ونتأسى بهم.. قال تعالى فيمن هو خير منهم من الأنبياء: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران]؟.

❁❁❁❁

▪ واحْذرْ شرْك التّشْريع:

والله تعالى أنزل شرائعه لتكون هي القانون العام للمسلمين، يلتزمونها فرداى وجماعات ويقيمون على أساسها ووفقها نظامهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ويزاولون على وفقها نشاطهم الفكري والأدبي والفني، ويربون على مبادئها وغاياتها الأمة في الإعلام والتعليم، وبهذا تتحقق الغاية من الرسالة.

فمن رفض شريعة الله تعالى أن تكون قانونه العام واعتذر عن هذا بتطور الزمان والاستغناء عنها أو طعن في حكمتها، أو طعن في رحمة أحكامها، أو صلاحيتها، أو غير ذلك؛ فالطعن في هذا راجع إلى رب العالمين فهو يطعن في حكمته تعالى أو رحمته، أو يطعن في عدله تعالى بين خلقه، أو يطعن في علمه تعالى بتطور الحياة وتجاوز الزمان الحاجة إلى الشريعة فيدّعي أنه تعالى ألزم خلقه بما لا حاجة بهم إليه، حاش لله.

وكذلك من جعل مجاملة غير المسلمين سببًا لعدم إقامة ما أنزل الله، أو كان منبهرا بالحضارة المادية لغير المسلمين فرأى كل ما هم عليه حسنًا، ولم يفرق بين ما يجب أخذه وما يجب رده، وظن أن سبب تقدمهم هو تنحيتهم للدين عن الشأن العام فترك دين الله تعالى المنزل الصحيح ليتقدم بزعمه، وساوى بين الدين المبدل المحرف وبين دين الله تعالى وهدايته المحفوظة إلى يوم القيامة.

فكل من رفض شرع الله تعالى كان هادمًا للتوحيد، ومن لم يحقق قاعدة العبودية «قبول شرع الله ورفض ما سواه»، فهو لم يحقق معنى لا إله إلا الله، والله تعالى لا يتقبل من الأعمال إلا ممن وحّده وأفرده بالعبادة، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، يعني موحد، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل].

▪ البدع العظام ضلالاتٌ مرْدودةٌ في وجْه صاحبها:

فالقاعدة النبوية العامة أن «**كلّ بدْعةٍ ضلالةٍ**»[١]، وأن «**منْ عمل عملًا ليْس عليْه أمْرنا فهو ردٌّ**»[٢].

والبدع اختراع واستحداث أمر لم يكن عليه رسول الله ﷺ وأصحابه..

والبعض ينصرف ذهنه إلى مفردات البدع، وهو صحيح، ولكن يدخل قبل مفردات البدع المتمثلة في بعض المظاهر المنتشرة ما هو قواعد عامة مبتدعة تستلزم الكثير من البدع المفصلة.

وهنا ننوه إلى أصول بدع عظام منتشرة...

• بدع غلاة المتصوّفة:

هناك متصوفة السنة الملتزمون بها باطنًا وظاهرًا، فلا كلام في هذا؛ فهم من العبّاد الكرام..

ولكن من البدع العظام التي يجب الحذر منها هو غلو المتصوفة القائلين أن هناك شريعة للظاهر وحقيقة للباطن، وزعموا أن الشريعة لعموم الناس

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٤٣ (٨٦٧) كتاب الجمعة- باب تخْفيف الصّلاة والْخطْبة، منْ حديث جابر بْن عبْد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٨ (١٧١٨) كتاب الأقْضية- باب نقْض الأحْكام الْباطلة، وردّ محْدثات الْأمور، منْ حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والحقيقة لخواصهم، ويقصدون بالحقيقة التحلل من الشريعة بزعم أنهم يوافقون القدر[1]! أو لاعتقادهم ما هو أفحش من هذا وهو حلول الله تعالى واتحاده بمن يرونه وصل لمرتبة الوليّ! وهو اعتقاد مكفر كاعتقاد النصارى في المسيح عليه السلام.

ويجب أن تعلم أن من لم يلتزم الشريعة باطنًا وظاهرًا، فقد استحلّ ما حرم الله ورفض أوامره وفرائضه، ومن لم يعتقد أنه ملزم بما أمر الله في باطنه وظاهره، فقد نقض دينه وهدم الإسلام وخرج منه لم يبق له منه شيء؛ فإذا عمل من أصحاب هذه الاعتقادات الفاسدة من عمل صالح يظنه يلقاه عند ربه فهو مخادع ومخدوع، وعمله باطل؛ إذ إنه لم يسلم لله وجهه كما أمر تعالى، ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ** ﴾، يعني بعبادة الله وحده، ﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾، يعني ملتزم لشرعه المنزل، ﴿ **فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ** ﴾ [البقرة:١١٢]، فهذا هو المأجور.

أما من عبد غير الله أو لم يلتزم شرعه فعبده بهواه لا بما أنزل، فعمله

(١) فموافقة القدر عنْدهمْ هي الحقيقة، وهذا مأْخذ المشْركين!؛ إذْ يروْن العاصي والكافر والفاجر مُطيعًا للقدر وإنْ خالف الشّرْع!، فيجْعلونه والمطيع للشّرْع سواءً، ويعْتذرون عنْ مخالفته للشّريعة بموافقته للقدر، بيْنما الإيمان بالقدر وكوْنه جاريًا على الخلْق جميعًا، مؤْمنهمْ وعاصيهمْ، أمْرٌ، والاحْتجاج به على الكفْر والفسوق والعصْيان، ورؤْية الكافر مطيعًا أمْرٌ آخر.

مردود، وباطل قد أحبطه صاحبه.

- **الرّافضة باب الضّلالات والزّنْدقة التّاريخيّ:**

ومن البدع العظام التي يجب الحذر منها هو بدع الراوافض الشيعة الذين يسبون أصحاب رسول الله ﷺ ويلعنونهم ويرونهم شر الأمة لا خيرها ويكذبون بآيات الكتاب العظيم التي تثني عليهم وتخبر برضا رب العالمين عنهم، والأخبار لا تنسخ، وقد رضي الله سبيل أصحاب رسول الله ﷺ واشترط لرضاه عمن بعدهم أن يأتي منتهجًا سبيلهم، ﴿**وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ [التّوبة: ١٠٠]، وذكر الله أصنافهم من المهاجرين ثم الأنصار ثم من بعدهم ذكر الله له الخير إذا جاء يستغفر لهم.. فعن هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: «**يا ابْن أخْتي، أمروا أنْ يسْتغْفروا لأصْحاب النّبيّ ﷺ فسبّوهمْ**»(١).

ولهذا قال أهل العلم يوضحون فحش هؤلاء: «قيل للْيهود: منْ خيْر أهْل ملّتكمْ؟ قالوا: أصْحاب موسى، وقيل للنّصارى: منْ خيْر أهْل ملّتكمْ؟ قالوا: أصْحاب عيسى، وقيل للرّافضة: منْ شرّ أهْل ملّتكمْ؟ قالوا: أصْحاب

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٥ (٣٠٢٢) كتاب التّفْسير.

محمّدٍ!!»[1].

فلما كفّروا أصحاب رسول الله ﷺ ولعنوهم واحتفلوا بقاتل عمر رضي الله عنه وأقاموا له ضريحا يدعونه من دون الله، فلم يقتدوا بهم ولم يأخذوا دينهم كما أخذوا..

والأفحش من هذا أنهم لما كفّروا أصحاب رسول الله ﷺ بينما أصحاب رسول الله ﷺ هم نقلة القرآن ونقلة الحديث والعلوم والسير والمغازي وقول رسول الله ﷺ وعمله، وهم الذين أقاموا الدين ونقلوا العبادات وفتحوا البلاد وأقاموا النظام السياسي الراشد..

فلما عادى الرافضة أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا باب الطعن في هذه الثوابت فطعنوا في القرآن واتخذهم الزنادقة بابًا للطعن في الدين والتشكيك في ثوابته فانتحلتهم أغلب فئات الزنادقة من القرامطة والحشاشين، والزنادقة القرامطة الذين سرقوا الحجر الأسود سنين طويلة بل ومنعوا الحج في بعض الأعوام..

كما أنهم فرّقوا بين أصحاب رسول الله ﷺ وآل بيته رضي الله عنهم وأقاموا حربا بينهما! بينما هم في الحقيقة أحِبَّة يُجلّون بعضهم بعضًا، وقد «أخذ حبْر الأمّة

---

(١) شرْح العقيدة الطّحاويّة لابْن أبي العزّ الدّمشْقيّ (٢٩٣) (٢/ ٦٩٦-٦٩٧).

عبْد الله بْن العبّاس بركاب زيْد بْن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال: هكذا أُمِرْنا أنْ نصْنع بعلمائنا، فقبل زيْدٌ يده وقال: هكذا أُمِرْنا أنْ نفْعل بآل بيْت نبيّنا»[1].

ثم أقاموا عداوة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجاته وآل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فأخرجوا زوجاته من آل بيته، ثم فرَّقوا بين أهل البيت بين آل العباس وآل أبي طالب، ثم فرَّقوا بين نسل «الحسن» و «الحسين» ونصروا نسل «الحسين» لزواجه من امرأة فارسية.. وهكذا الأمور، مع عدم أخذهم العلم إلا عن المتسبين لآل البيت بينما العلم الشرعي غير منحصر، مع ادعاء علم أئمة آل البيت بعلم اللوح المحفوظ ومعرفة الغيب إلى آخر الترهات..

أطلتُ قليلًا في بيان فحش عقائدهم لما غلب من فتنتهم في زماننا، وكثرة أموالهم يغرون بها الناس، مع شدة كذبهم ونفاقهم، وادعائهم نصرة الإسلام بينما هم مع الصليبيين والوثنيين واليهود ضد المسلمين في أي مواجهة أو عداء.

واحذر؛ فبين الصوفية والشيعة دهليز ينقل من التصوف إلى التشيع، فهم

---

(١) روى الحاكم في مسْتدْركه (٥٧٨٥) في ذكْر مناقب زيْد بْن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (٧٩٥٦) كتاب الفرائض، وقدْ اقْتصر في روايته على الجزْء الأوّل دون تقْبيل زيْدٍ ليَدِ ابْن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثمّ ذكْر مقولته الّتي قال، وقال: «صحيح الإسْناد على شرْط مسْلمٍ ولمْ يخرّجله»، وأوْرده الصّنْعانيّ في «التّنْوير شرْح الجامع الصّغير» (٣٣٠٧) (٥/ ٦١).

باب للشيعة والشيعة باب للزندقة، أقصد غلاة المتصوفة ومبتدعتهم لا متصوفة السنة المستقيمين الكرام.

- **واحْذرْ الغلوّ:**

واحذر الغلوّ والإبتداع بتكفير عامة المسلمين ومن يرى أن الأصل في الناس الكفر، واحذر من يكفّر بالذنوب والمعاصي وليس بالشرك والتبديل.

لا تنخدع باجتهادات أحد في العبادات مع التلبس بهذه الفواحش العقدية العظام والتلبس بالبدع المهلكة؛ فاحذر ردّ الشرائع في صورة العلمانية والليبرالية والإباحية، واحذر غلاة المتصوفة وعبادة غير الله، واحذر التشيع المبغّض لأصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد نبيهم قد اختارهم الله اختيارًا، واحذر الغلوّ فإن هذا الدين عدل بين طرفين ووسط بين جانبين وخير قويم واستقامة جامعة..

إذا وجدت متلبسًا بشيء من هذا مع اجتهاد في عبادة فلا تنخدع واعلم أن الشيطان غرّهم بهذه العبادات لما ظفر به منهم من انحرافات عظام؛ فإنه لا يبالي بما عملوا بعد ذلك؛ إذ أخذ منهم نهمته.. عافانا الله وعافاك.

❋ ❋ ❋

لا يسْتقيم الطّريق إلّا باليقين

- اطْلبْ اليقين.. فإنّ الطّريق لا يسْتقيم إلّا به:

فهذا الطريق لا يصح معه شك ولا ارتياب، والحق أنه ليس هناك مجال لشك ولا لريبة فيما جاء من عند الله تعالى، فهو طريق أصحاب اليقين والرسوخ..

وإذا دخل عليك فيما سبق من العمر شك أو ارتياب فاعلم أن للانحراف أثره في الشك والارتياب، واعلم أن طريق ربك تعالى لا بد فيه من اليقين، بل هو أوضح اليقينيات وأعلاها ولهذا قال «موسى» عليه السلام لـ «فرعون»: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشّعراء:٢٤]، يعني إن كنتم توقنون بشيء فهذا هو أعظم وأوضح وأول اليقينيات وإلا فأنتم لا توقنون بشيء ولا تعلمون شيئا[١].

وبرْد اليقين نعمة عظيمة يمنّ الله بها على المصطفين من عباده وهم المؤمنون، ومن سواهم مُتحيِّر ومُرتاب وفي سعير الشك ولهيب الارتياب والتساؤل عن البدهيات حتى يلقون الله فيعلمون حيث لا ينفع العلم، ﴿وَلَوْ

---

(١) راجعْ مجْموع الفتاوى (١٦/ ٣٣٥).

تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السّجْدة]، لكنه يقين لا ينفع إذ إن اليقين النافع هو ما كان على الغيب، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملْك]، ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة]، ﴿ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ [المائدة:٩٤].

واعلم أن اليقين يأتي بطريقين أمامك، من طلبهما وجدهما بإذن الله تعالى..

أولهما: النظر في أدلة اليقين، وأدلة الوحدانية وصحة الرسالة واليوم الآخر، وهذا هو طريق **التفكر**.

والثاني: أن من أطاع ربه تعالى وأدام ذكره ولزمه بقلبه تنزلت عليه الملائكة بالفهوم والعلوم والتصديق؛ فازداد يقينا ونعم ببرده وطمأنته وسكينته.. وهو طريق **التذكر**.

أما الطريق الثاني فهو عمل ولزوم الطريق وكلما ولجت في الطريق وجدت هذا اليقين حتي تصير السماء لك كأنها لوح زجاجي ترى الحقيقة بقلبك وترسخ العلوم به.

وأما الأول وهو النظر في الأدلة فأسوق لك جملًا تليق بالمختصر العاجل..

- **اليقين بالخالق:**

فمن افتقد اليقين في شأن وجود الرب تعالى ووحدانيته، فليعلم إنه لم يزعم أحد أنه خلق الخلق أو أوبدع السماوات والأرض **بل أخبر بذلك إله واحد لا إله إلا هو**.. وإنما غاية المخلوقات البشرية الجاحدة أن تنكر ربها وترد الأمر لمحض الصدفة أو البقاء الأزلي! وكل هذا كذّبه العلم الحديث.

وقاعدة العقول والفطر كلها مؤمنها وكافرها، مقرّها وملحدها، أنه ما من أثر إلا وله مؤثر؛ فالأثر يدل على المؤثر، والمؤثر هو صانع الأثر، وما من موجود إلا وله موجد ولا بد، فوجودنا نفسه دليل على من قصد إلى ذلك.

وقيل لأعرابي من البادية: «بم عرفْت ربّك؟ فقال: الأثر يدلّ على المسير، والبعْرة تدلّ على البعير، فسماءٌ ذات أبْراجٍ، وأرْضٌ ذات فجاجٍ، وبحارٌ ذات أمْواجٍ، ألا تدلّ على السّميع البصير؟»[1].

وإذا نظرت إلى آلاف التوافقات في الوجود من مواد كثيرة ومتنوعة في الحيوان والنبات والمعادن ونسب البحار والهواء واليابسة، ودقة الخلق وتوافق كل هذا على إنشاء الإنسان علمت أن هناك من خلق وسخّر للإنسان هذا.

---

(١) أوْرده ابْن الوزير القاسميّ في «إيثار الحقّ على الخلْق» (ص٥٢).

وإذا وجدت الحكمة في وجود كل موجود علمت أن حكيمًا أراد حكمة عليا من وراء كل هذا.

وإذا وجدت تنوعًا لتفكر هذا المخلوق فليس الطعام نوعًا واحدًا ليقيم حياته بل أنواع وطعوم وأزهار وألوان، فعلمت أن خالقًا رحيمًا قصد إلى إيصال هذا إلى الإنسان.

وإذا نظرت إلى فطرة كل إنسان وهي تطلب الخالق في السماء تعرفه وتسأله وترجوه، فهي دليل على أنه تعالى هو فاطر هذه القلوب التي تعرفه وتهفو إليه وترجوه وتقصده وتسأله، حتى لو أنكر هذه الحقيقة منكر فهو كالبصير يغطي عينه، فكذلك هذا يغطي على فطرته ويتعامى عنها.. ولهذا يخاطبنا ربنا في كتابه بمثل قوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ومن المعانى المقصودة بالتذكر هو أن يتذكر الإنسان ما في فطرته من المعرفة الضرورية التي فطر عليها وأدعت فيه.

- **اليقين باليوْم الآخر:**

ومن طلب اليقين باليوم الآخر فلينظر في وجوده نفسه؛ فوجوده هذا دليل على الإبداع على غير مثال سابق فالإعادة أيسر وأولى في مقاييسنا.

وانظر في حكمة الوجود فكل شيء له غاية وحكمة منه، فالوجود كله إذًا ليس عبثًا بل جادًّا، ولما مات الظالم، والمظلوم لم ينتصف منه، علمنا أنه

لابد من اليوم الآخر للحساب والمجازاة.. وبهذا استدل بعض مستقيمي الفطرة قبل مبعث رسول الله ﷺ.

وانظر في إحياء النبات؛ فهو إحياء وبعث كل لحظة وهو شاهد على البعث، ولذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩]، فهم يرونه كل لحظة فكيف يعمون عن الآخرة؟.

وبعد ذكره تعالى إخراج النبات من الأرض يقول: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾ [الروم]، ويقول: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر]، ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف].

وانظر إلى خلق السماوات والأرض هل خلقهما أعظم أم خلق الإنسان؟، بل خلقهما، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر]، فإذا خلق الله تعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان كان خلق الإنسان وإعادته بعد مماته أيسر وأهون في مقاييسنا.

وانظر إلى الوجود تجده دالًّا وشاهدًا على قدرة الخالق وعلمه، ومن علم كل شيء وأحاط به علمًا وقدرة لم يعجزه شيء ولا يغيب عنه شيء.

وقد جعل الله في النوم دليلًا فهو كالموت، والاستيقاظ كالبعث، ولذا قال

ﷺ للمشركين في «مكة» أول الرسالة: **«والذي نفْسي بيده لتموتنّ كما تنامون ولتُبْعَثُنَّ كما تسْتيْقظون»**[1].

- **اليقين بالرّسالة والكتاب العزيز:**

ومن طلب صحة الرسالة فلينظر فيما أتى به رسول الله ﷺ، فإن صادم الشهوات والأهواء وأقام المصالح فليس دعيًّا بل هو نبي.

ومن نظر فيما جاء به الأنبياء من قبله، وفيما جاء به «محمد» ﷺ وجده من نفس جنس النبوات، بل أعلاها وأوضحها وأكملها وأتمها وأشرفها وأكثرها علمًا وتفصيلًا، مع تصحيحه انحراف من سبقوه، بل وأخبرهم بما يكتمون، وأخبرهم بما لا يعلمون.

ولتنظر في فعله مع قوله، فلما كان مأتمرًا بما أمر ومنتهيًا عما نهى وأعظم الخلق قيامًا بالرسالة؛ فليست هوًى ولا كذبًا، بل نبوة يأتمر نبيها بما يأمر وينتهي عما ينهى ويتقدم الخلق في امتثال أمر الله تعالى.

وانظر فيما أخبر به من حوداث من سبق، وما كتمه أهل الكتاب فأخبرهم

---

(١) أوْرده البلاذريّ في «أنْساب الأشْراف» (١/ ١٣٥)، وابْن الأثير في «الكامل في التاريخ» (١/ ٥٨٥) بلفْظ: «**والله لتموتنّ...**»، وكلاهما وغيْرهمْ رفعه للنّبيّ ﷺ، وأجابتْ اللّجْنة الدّائمة للإفْتاء بديار الحرميْن عنْ سؤالٍ عنْ صحّة نسْبة هذا القوْل إلى النّبيّ ﷺ (٤/ ٣٣٨): «لا نعْلم له أصْلًا عنْ النّبيّ ﷺ، وإنّما يرْوى منْ كلام قسّ بْن ساعدة».

به – راجع قصة إسلام «عدي بن حاتم» رضي الله عنه وكان نصرانيًّا، وإقرار حبرين من اليهود له بالرسالة، وغيرهما كثير– وصحح لهم العلوم وأخبرهم بما لا يعرفون – راجع قصة المائدة، وأخباره عن أهل الجنة لما احتجت اليهود وأنكرت بعض نعيمها– وغير هذا كثير.

وانظر فيما أخبر به من خبر المستقبل فوقع وفق ما أخبر سواء بعده بقليل أو بعده عبر القرون ويجد الناس أزمانًا بعد أزمان وقوع ما أخبر به على وفق ما أخبر صلى الله عليه وسلم.

وانظر في نبوءات أهل الكتاب فعندهم نبي يبعث، ولم يرسل مصدقًا لما عندهم غير «محمد» صلى الله عليه وسلم وإلا فأين من ادعوه؟.

وانظر فيما أخبروا به في كتبهم من اسمه ونعته ووصفه ووصف مكان مولده وبلد مهاجره وسمت أصحابه، حتى وصف صاحبيه «أبا بكر» و«عمر» رضي الله عنهما.

كما عندهم من صفاته في معاملة أصحابه وأعدائه وبشارات نصره وفتحه البلاد وإذلاله لأعدائه، حتى قطع وأزال عذرهم وأبطل حجتهم.

وانظر في سمو تشريعه وحاجة الأمم إليه وتوازنه وعدله..

❁❁❁❁

وأدلة صحة الرسالة هي أدلة صحة القرآن وصدقه، وصدق القرآن مضمن فيه نفسه في بلاغته وأسلوبه، وفي علومه وأخباره السابقة والماضية، وإخباره أهل الكتاب بما كتبوا، مع سمو تشريعه، وخطابه للفطرة.

❁❁❁❁

▪ التّفكّر فضيلةٌ:

يقول ابْن كثيرٍ: «وقال الشّيْخ أبو سليْمان الدّارانيّ: إنّي لأخْرج منْ منْزلي فما يقع بصري على شيْءٍ إلّا رأيْت لله عليّ فيه نعْمةً ولي فيه عبْرةٌ... وعن الْحسن الْبصْريّ أنّه قال: تفكّر ساعةٍ خيْرٌ منْ قيام ليْلةٍ... وقال سفْيان بْن عييْنة: الْفكْرة نورٌ يدْخل قلْبك، وربّما تمثّل بهذا البيْت:

إذا المرْء كانتْ له فكْرةٌ ❁ ففي كلّ شيْءٍ له عبْرةٌ

وقال وهب بن منبه: ما طالتْ فكْرة امْرئٍ قطّ إلّا فهم، وما فهم امْرؤٌ قطّ إلا علم، وما علم امْرؤٌ قطّ إلّا عمل. وقال عمر بْن عبْد الْعزيز: الْكلام بذكْر الله عزّ وجلّ حسنٌ، والْفكْرة في نعم الله أفْضل الْعبادة.

وقال مغيثٌ الْأسْود: زوروا الْقبور كلّ يوْم تفكّركمْ، وشاهدوا الْموْقف بقلوبكمْ، وانْظروا إلى الْمنْصرف بالْفريقيْن إلى الْجنّة أو النّار، وأشْعروا قلوبكمْ وأبْدانكمْ ذكْر النّار ومقامعها وأطْباقها. وكان يبْكي عنْد ذلك حتّى يرْفع صريعًا منْ بيْن أصْحابه قدْ ذهب عقْله.

وقال عبْد الله بْن الْمبارك: مرّ رجلٌ براهبٍ عنْد مقْبرةٍ ومزْبلةٍ، فناداه فقال: يا راهب، إنّ عنْدك كنْزيْن منْ كنوز الدّنْيا لك فيهما معْتبرٌ: كنْز الرّجال، وكنْز الْأمْوال.

وعنْ ابْن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنّه كان إذا أراد أنْ يتعاهد قلْبه يأْتي الْخربة فيقف على بابها فينادي بصوْتٍ حزينٍ، فيقول: أيْن أهْلك؟ ثمّ يرْجع إلى نفْسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وعنْ ابْن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّه قال: ركْعتان مقْتصدتان في تفكّرٍ، خيْرٌ منْ قيام ليْلةٍ والْقلْب ساهٍ. وقال الحسن البصْريّ: يا ابْن آدم، كلْ في ثلث بطْنك، واشْربْ في ثلْثه، ودعْ ثلثه الْآخر تتنفّس للْفكْرة. وقال بعْض الْحكماء: منْ نظر إلى الدّنْيا بغيْر الْعبْرة، انْطمس منْ بصر قلْبه بقدْر تلْك الْغفْلة..

وقال بشْر بْن الْحارث الْحافي: لوْ تفكّر النّاس في عظمة الله تعالى لما عصوْه. وقال الْحسن عنْ عامر بْن عبْد قيْسٍ، قال: سمعْت غيْر واحدٍ ولا اثْنيْن ولا ثلاثةً منْ أصْحاب النّبيّ ﷺ يقولون: إنّ ضياء الْإيمان أوْ نور الْإيمان التّفكّر...

وعنْ أمير الْمؤْمنين عمر بْن عبْد الْعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنّه بكى يوْمًا بيْن أصْحابه، فسئل عنْ ذلك، فقال: فكّرْت في الدّنْيا ولذّاتها وشهواتها، فاعْتبرْت منْها بها ما تكاد شهواتها تنْقضي حتّى تكدّرها مرارتها، ولئنْ لمْ يكنْ فيها عبْرةٌ لمن اعْتبر

إنّ فيها مواعظ لمن ادّكر.

وقدْ ذمّ الله تعالى منْ لا يعْتبر بمخْلوقاته الدّالّة على ذاته وصفاته وشرْعه وقدْره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف](١).

راجع الآثار التي ذكرها «ابن كثير» عند تفسير الآية في آل عمران ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمْران:١٩١].

طريق التّذكّر:

ثم تبقى العبادة والذكر والطاعة تزيد اليقين، يقول «ابن تيمية»: «فكما أن هناك ملائكة موكلة بالقطر فما من قطرة إلا وملك موكل بمكانها، فكما أن هناك ملائكة موكلة بقوت الأجساد، فهناك ملائكة موكلة بقوت القلوب والأرواح، فتتنزل بالعلوم والفهوم(٢) واليقينيات المتنزلة على أساس شاهد لها في فطرة كل مخلوق بمعرفة الله ومحبته، فتؤكده وتشهد له وتكمل علمها.. والحمد لله».

(١) تفْسير القرْآن العظيم (٢/ ١٦٢-١٦٣) [آل عمْران:١٩١].

(٢) يقول الإمام البيْضاويّ في تفْسيره (٥/ ٧١) [فصّلتْ:٣٠]: «تتنزَّل عليْهم الْملائكة فيما يعن لهمْ بما يشْرح صدورهمْ ويدْفع عنْهمْ الخوْف والحزَن، أوْ عنْد الموْت أوْ الخروج منْ القبْر».

وأنقل لك هنا هذا الكلام النفيس لـ «ابْن تيْمية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ..

«وكما أنّ لله ملائكةً موكلةً بالسّحاب والْمطر فله ملائكةٌ موكلةٌ بالْهدى والْعلْم. هذا رزْق الْقلوب وقوتها وهذا رزْق الْأجْساد»(١).

«والْعلْم يحْصل في النّفْس كما تحْصل سائر الْإدْراكات والْحركات بما يجْعله الله منْ الْأسْباب وعامّة ذلك بملائكة الله تعالى. فإنّ الله سبْحانه ينْزل بها على قلوب عباده منْ الْعلْم والْقوّة وغيْر ذلك ما يشاء. ولهذا قال النّبيّ ﷺ لحسّان: «**اللّهمّ أيّده بروح القدس**»(٢)، وقال تعالى: ﴿**كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة:٢٢]، وقال ﷺ: «**منْ طلب الْقضاء واسْتعان عليْه وُكِّلَ إليْه ومنْ لمْ يطْلبْ الْقضاء ولمْ يسْتعنْ عليْه أنْزل اللهُ عليْه ملَكًا يُسدِّده**»(٣)، وقال عبْد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كنّا نتحدّث أنّ السّكينة تنْطق

---

(١) مجْموع الفتاوى (٤/ ٤١).

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه (٤٥٣) كتاب الصّلاة- باب الشّعْر في المسْجد، ومسْلمٌ في صحيحه ١٥١(٢٤٨٥) كتاب فضائل الصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- باب فضائل حسّان بْن ثابتٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأحْمدُ في مسْنده (٧٦٤٤) عن ابْن الْمسيّب، أنّ حسّان قال في حلْقةٍ فيهمْ أبو هريْرة: أنْشدك الله يا أبا هريْرة، هلْ سمعْت رسول الله ﷺ يقول: «**أجبْ عنّي، أيّدك الله بروح الْقدس**»؟ فقال: اللهمّ نعمْ. قال شعيْب الأرْنؤوط (١٣/ ٨٣): «إسْناده صحيحٌ على شرْط الشّيْخيْن».

(٣) رواه أبو داود في سننه (٣٥٧٨) كتاب الأقْضية- بابٌ في طلب القضاء والتّسرّع إليْه، منْ حديث أنس بْن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كتاب وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٥٦٨٨) وقال: «ضعيفٌ». وكذا رواه التّرْمذيّ في جَامِعِهِ (١٣٢٤) كتاب الأحْكام- باب ما جاء عنْ رسول الله ﷺ
=

على لسان عُمَرَ»[1]، وقال ابْن مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيْضًا: «إنّ للْمَلَكِ لَمّةً وللشّيْطان لمّةً فلمّة الْملك: إيعادٌ بالْخيْر وتصْديقٌ بالْحقّ. ولمّة الشّيْطان إيعادٌ بالشّرّ وتكْذيبٌ بالْحقّ»[2]، وهذا الكلام الّذي قاله ابْن مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو محْفوظٌ عنْه وربّما رفعه بعْضهمْ إلى النّبيّ ﷺ. وهو كلامٌ جامعٌ لأصول ما يكون منْ الْعبْد منْ علْمٍ وعملٍ منْ شعورٍ وإرادةٍ. وذلك: أنّ الْعبْد له قوّة الشّعور والْإحْساس والْإدْراك وقوّة الْإرادة والْحركة وإحْداهما أصْل الثّانية مسْتلْزمةٌ لها. والثّانية

=

في القاضي، بلفْظ: «منْ ابْتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وُكّلَ إلى نفْسه، ومنْ أُكْرِهَ عليْه أنْزل اللهُ عليْه مَلَكًا يسدّده»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وهو أصحّ منْ حديث إسْرائيل، عنْ عبْد الأعْلى».

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (٨٣٤) عنْ وهْبٍ السّوائيّ، قال: خطبنا عليٌّ، فقال: «منْ خيْر هذه الْأمّة بعْد نبيّها؟» فقلْت: أنْت يا أمير الْمؤْمنين. قال: «لا، خيْر هذه الْأمّة بعْد نبيّها أبو بكْرٍ، ثمّ عمر، وما نبْعد أنّ السّكينة تنْطق على لسان عمر»، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٢/ ٢٠١): «إسْناده قويٌّ». وكذا ابْن عساكر في «تاريخ دمشْق» في غيْر موْضعٍ منْه، منْها (٤٤/ ١٠٨) بلفْظ: «عنْ الشّعْبيّ قال: قال عليٌّ: كنّا نتحدّث أنّ السّكينة تنْطق على لسان عمر وقلْبه».

(٢) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٩٨٨) أبْواب تفْسير القرْآن- بابٌ: ومنْ سورة البقرة، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرْفوعًا بلفْظ: «إنّ للشّيْطان لَمّةً بابْن آدم وللْمَلَك لَمّةً فأمّا لَمّة الشّيْطان فإيعادٌ بالشّرّ وتكْذيبٌ بالحقّ، وأمّا لَمّة المَلَكِ فإيعادٌ بالخيْر وتصْديقٌ بالحقّ، فمنْ وجد ذلك فلْيعْلمْ أنّه من الله فلْيحْمد الله ومنْ وجد الأخْرى فلْيتعوّذْ بالله من الشّيْطان الرّجيم»، ثمّ قرأ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]. قال التّرْمذيّ: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ وهو حديث أبي الأحْوص لا نعْرفه مرْفوعًا إلّا منْ حديث أبي الأحْوص». وقدْ أوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (١٩٦٣) وقال: «ضعيفٌ».

مسْتلْزمةٌ للْأولى ومكمّلةٌ لها»[١].

«فمبْدأ الْعلْم الْحقّ والْإرادة الصّالحة: منْ لمّة الْملك. ومبْدأ الاعْتقاد الْباطل والْإرادة الْفاسدة: منْ لمّة الشّيْطان. قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥]، أيْ: يخوّفكمْ أوْلياءه، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [الأنفال:٤٨]. والشّيْطان وسْواسٌ خنّاسٌ إذا ذكر الْعبْد ربّه خنس فإذا غفل عنْ ذكْره وسْوس فلهذا كان ترْك ذكْر الله سببًا ومبْدأً لنزول الاعْتقاد الْباطل والْإرادة الْفاسدة في الْقلْب ومنْ ذكْر الله تعالى: تلاوة كتابه وفهْمه ومذاكرة الْعلْم كما قال معاذ بْن جبلٍ رضي الله عنه: «ومذاكرته تسْبيحٌ»[٢][١].

---

(١) مجْموع الفتاوى (٤/ ٣١-٣٢).

(٢) رواه ابْن عبْد البرّ في «جامع بيان العلْم وفضْله» (٢٦٨) (١/ ٢٣٨) منْ حديث معاذ بْن جبلٍ رضي الله عنه يرْفعه في حديثٍ طويلٍ، وعلّق أبو عمر قائلًا: «وهو حديثٌ حسنٌ جدًّا ولكنْ ليْس له إسْنادٌ قويٌّ»، قلْت: ولعلّه يقْصد بالحسْن هنا ما ورد منْ موافقة جمْلة معانيه ومراميه لغيْره منْ الأدلّة الصّحيحة، وقدْ ساق ابْن عبْد البرّ بعْد طرقًا له موْقوفةً على معاذ بْن جبلٍ رضي الله عنه فقدْ ضعّف هذا الحديث وأشار إلى نكارته جمْعٌ منْ المتقدّمين والمتأخّرين، وقدْ ذهب الشّيْخ حسن أبو الأشْبال الزّهيريّ إلى أنّ إسْناده موْضوعٌ مرْفوعًا في تحْقيقه لـ «جامع بيان العلْم وفضْله»، وكذا الشّيْخ محمّد عمْرو عبْد =

«وهذا حال أئمّة الْمسْلمين وسلف الْأمّة وحملة الْحجّة فإنّهمْ يخْبرون بما عنْدهمْ منْ الْيقين والطّمأْنينة والْعلْم الضّروريّ كما في الْحكاية الْمحْفوظة عنْ «نجْم الدّين الْكبْرى» لمّا دخل عليْه متكلّمان أحدهما أبو عبْد الله الرّازي. والْآخر: منْ متكلّمي الْمعْتزلة وقالا: يا شيْخ بلغنا: أنّك تعْلم علْم الْيقين. فقال: نعمْ أنا أعْلم علْم الْيقين. فقالا: كيْف يمْكن ذلك ونحْن منْ أوّل النّهار إلى السّاعة نتناظر فلمْ يقْدرْ أحدنا أنْ يقيم على الْآخر دليلًا؟ – وأظنّ الْحكاية في تثْبيت الْإسْلام– فقال: ما أدْري ما تقولان. ولكنْ أنا أعْلم علْم الْيقين فقالا: صفْ لنا علْم الْيقين فقال: علْم الْيقين – عنْدنا– وارداتٌ ترد على النّفوس تعْجز النّفوس عنْ ردّها فجعلا يقولان: وارداتٌ ترد على النّفوس تعْجز النّفوس عنْ ردّها ويسْتحْسنان هذا الْجواب. وذلك لأنّ طريق أهْل الْكلام تقْسيم الْعلوم إلى ضروريٍّ وكسبي أوْ بديهيٍّ ونظريٍّ. فالنّظريّ

=

اللّطيف في «تكْميل النّفْع بما لمْ يثْبتْ به وقْفٌ ولا رفْع»، وقال المنْذريّ في «التّرْغيب والتّرْهيب» (١/ ٥٢) كتاب العلْم: «ورفْعه غريبٌ جدًّا»، وقدْ اسْتوْفى الشّيْخ محمّد عمْرو تتبّع طرقه في كتابه المذْكور وحكم عليْه بالوضْع، وتعقّب كلام ابْن عبْد البرّ بقوْله «ليْس له إسْنادٌ قويٌّ» الحديث وقال: «ولا ضعيف، ولا يعْقل أنْ يكون هذا منْ كلام النّبوّة أصْلًا»، هذا مع الأخْذ في الاعْتبار أنّ جميع ما ذكر إنّما يدور على صحّة نسْبة الحديث إلى النّبيّ ﷺ أوْ إثْباته موْقوفًا، ولا يعْني هذا عدم صحّة ما ورد في منْ المعاني، ومنْه أنّ تلاوة القرْآن ومذاكرته منْ جمْلة أنْواع الذّكْر بالاتّفاق.

(١) مجْموع الفتاوى (٤/ ٣٤).

الكسبي: لا بدّ أنْ يردّ إلى مقدّماتٍ ضروريّةٍ أوْ بديهيّةٍ فتلْك لا تحْتاج إلى دليلٍ وإلّا لزم الدّوْر أوْ التّسلْسل. والْعلْم الضّروريّ: هو الّذي يلْزم نفْس الْمخْلوق لزومًا لا يمْكنه الانْفكاك عنْه فالْمرْجع في كوْنه ضروريًّا إلى أنّه يعْجز عنْ دفْعه عنْ نفْسه. فأخْبر الشّيْخ: أنّ علومهمْ ضروريّةٌ وأنّها ترد على النّفوس على وجْهٍ تعْجز عنْ دفْعه فقالا له: ما الطّريق إلى ذلك؟ فقال: تتْركان ما أنْتما فيه وتسْلكان ما أمركما الله به منْ الذّكْر والْعبادة...»[1] إلى آخر الحكاية، إذ التزمه أحدهما فظفر باليقين وتركه الآخر فبقي محترقًا قلبه بعلوم الفلسفة والكلام اليوناني وقواعده السقيمة.

«والطّريق الْعباديّة تفيد الْعلْم... فإنّه حينئذٍ يحْصل للْقلْب علْمٌ ضروريٌّ... وكما قال نجْم الدّين الْكبْرى لابْن الْخطيب ورفيقه الْمعْتزليّ وقدْ سألاه عنْ علْم الْيقين؟ فقال: هو وارداتٌ ترد على النّفوس تعْجز النّفوس عنْ ردّها فأجابهما: بأنّ علْم الْيقين عنْدنا هو موْجودٌ بالضّرورة لا بالنّظر وهو جوابٌ حسنٌ. فإنّ الْعلْم الضّروريّ: هو الّذي يلْزم نفْس الْعبْد لزومًا لا يمْكنه الانْفكاك عنْه »[2].

والمقصود بكلام شيخ الإسلام أن تنزل الملائكة إنما يأتي بمزيد يقين

---

(١) مجْموع الفتاوى (٤/ ٤٣-٤٤).

(٢) مجْموع الفتاوى (٢/ ٧٦).

على ما في الفطرة من العلوم البديهية والفطرية الضرورية التي يعجز الإنسان عن دفعها، فلا يأتيه شك بحال بل يرسخ اليقين أيما رسوخ.

فلا تهمل ما في فطرتك من العلم والخير، وزكّه بالتعبد تظفر باليقين، مع دوام التفكر كما سبق التنبيه، وبالقرآن بين التفكر والتذكر تنطق القلوب، يقول «الحسن البصري»: «ما زال أهْل العلْم يعودون بالتّذكّر على التّفكّر وبالتّفكّر على التّذكّر ويناطقون القلوب حتّى نطقتْ»[1].

* * *

(١) رواه أبو بكرٍ الدّيْنوريّ في «المجالسة وجواهر العلْم» (٢٦٧٢) (٦/ ٣٠٥) بلفْظ: «إنّ الْحكماء ضربوا التّفكّر بالتّذكّر، والتّذكّر بالتّفكّر؛ حتّى نطقوا بالْعزائم ورأوا الْعجائب».

ثمرة العلْم واليقين

للعلم مقتضيات وثمرات، وهو ينشيء أحوالًا ويكسب العبد صفات.

والمطْلوب منْ العلْم أنْ ينْشيء حالًا للإنْسان، وهي أنْ يسير العبْد على مقْتضاه ويتمثّله في حياته، فيؤْتي العلْم مقْتضاه منْ القوْل والعمل والأحْوال والإيمان.

ومما نوضحه هنا ما ذكره الإمام «الشاطبي» هو أن:

- الناس في العلم ثلاثة أحوال:

الأول: أن يخالف عمله علمه، فهذا هو الغيّ، وهذا في حال غلبة الشهوة والهوى على العبد فلا ينقاد لعلمه، بل يتكلم به ويصفه للناس ويجادل به وعليه، ولكن قلبه لا يقتات منه، ولم يحْي به، ولم يستضيء بما أنزل الله، ولم يحكّمه على نفسه؛ فهذا هو الغي؛ ففقدان العلم ضلال، وفقدان العمل بالعلم غيّ وهلكة.. ولهذا لما مدح الله رسوله ﷺ قال فيه: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ** ﴿٢﴾ ﴾ [النّجْم:٢]، فنفى عنه خلل العلم بقوله ﴿ **مَا ضَلَّ** ﴾، ونفى عنه خلل العمل بقوله ﴿ **وَمَا غَوَىٰ** ﴾.

ولهذا أمرنا أن ندعو في كل ركعة بهداية الصراط المستقيم، وهو صراط المنعم عليهم، وهم من علموا الحق وعملوا به فقاموا بالهدى ودين الحق،

العلم والعمل به، ثم نقول في صلاتنا: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، يعني غير صراط وطريق من علموا الحق وخالفوه، وغير صراط من فقدوا العلم فَضَلُّوا.

بينما المنعم عليهم هم من عَلِمُوا الحق وعملوا به وهم على درجاتهم من نبيّ وصديق وشهيد وصالح، فالعلماء يفسرون المنعم عليهم في الفاتحة بآية النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النّساء:٦٩].

الثاني: من يعمل بعلمه حينا ويخالفه حينا؛ فهو بين داعي الخير وداعي الشهوة، فمرة يزكو ومرة يضعف، ففي قلبه حياة، ولكن لم يرسخ العلم في قلبه بعد.

الثالث: من يصبح قوله وعمله وإراداته موافقة لعلمه وجارية على مقتضاه كأنه خلق جبلّي خلق به وصفة من صفاته جبل عليها، فهذا يعمل بعلمه بلا تكلف ولا جهد استدعاء العلم ومقتضاه؛ بل صار عمله بالعلم كأنه أمر طبعي، بل يصل إلى حال لا يحسن المعصية لو أرادها كما قال بعض السلف: «إنّي لا أُحْسِنُ أعْصي ربي»، فهذا غاية العلم التي يجب أن تضعها أمامك لكي تصل إليها، وهي الرسوخ والعمل التلقائي بالعلم.. وقد عرّف رسول الله ﷺ الراسخين بقوله: «منْ بَرَّتْ يمينه، وصدق لسانه، واسْتقام به

قلْبه، وعَفَّ بطْنه وفرْجه»[1].

عندما تطلب العلم ضع هذه الغاية أمامك، أن يرسخ العلم في قلبك وأن يصير لك كأنه وصف خلْقي وطبع جبلّي وعلم تلقائي بلا جهد ولا كلفة، والله المعين.

قال تعالى عن «يعقوب» عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف:٦٨]، قال بعض السلف أنه ذو عمل بما علمناه، فكان توجيههم لمعنى الآية للعمل بسبب أنه لا يضاف لأحد صفة العلم حتى يكون وصفًا راسخًا لصاحبه إلا إذا عمل به وعلى وفقه ومقتضاه.. وإلا كان جاهلًا ولو كان يعلم قبح المخالفة ويكفيك في هذا آية «يوسف» عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يقول: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف]، فخاف على نفسه أن يخالف علمه فيكون جاهلًا إذ إن المخالف للعلم كالجاهل سواء طالما استوى عملهما.

ومن هنا فاعلم أن الرسوخ في العلم يغير شخصيتك ويعيد صياغتها وتكوينها ويجدد ملامحها، فهو تغيير عميق وهو المراد بالعلم، وبهذا يخرج القرآن إنسانًا جديدًا.. هكذا الأمر فاظفر به.

---

(١) رواه الطّبريّ في تفْسيره (٥/ ٢٢٣) [آل عمْران:٧] منْ حديث أبي الدّرْداء وأبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكذا ابْن أبي حاتمٍ في التّفْسير (٢/ ٥٩٩)، وكذا الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٧٦٥٨) منْ حديث منْ سبق وواثلة بْن الأسْقع وأنس بْن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

- **أقْمارٌ تضيء:**

إذا أردت فرقًا عمليًّا بين الثاني والثالث من رسخ في العلم ومن لم يرسخ، انظر إلى من رأوا «قارون» في زينته، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القصص]، بينما كان موقف من أوتي العلم مختلفا، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ [القصص]، لقد عاد الفريق الأول يندم وتتبين له الحقائق لكن بعد هلاك «قارون»، بينما العلماء الراسخون كانوا يرون الأمور قبل وقوعها لرؤيتهم الأمور بما أراهم الله من العلم بحقائق الأمور، فما قالوه أولًا، قاله الأقل عن درجتهم متأخرًا.

وإذا أردت مثالًا ثانيًا فانظر لمن عبروا النهر مع «طالوت» لمواجهة «جالوت» وجنوده؛ فإنه للوهلة الأولى عند رؤية عدد العدو وهيبته، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٤٩].

لكن موقف العلماء الراسخين الموقنين كان مختلفًا؛ أكثر ثباتًا وثبّتوا معهم غيرهم، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ

﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة]..

المخالف للعلم قد يهلك في لحظة وقد يثبته الله، فالأمثلة السابقة ممن ثبتهم الله بأهل الرسوخ.

لكن غيرهم هلك، فتشكك بعضهم حتى وصل إلى حافة الهاوية.. بينما الراسخ في العلم مثل صاحب الجنة الذي كان يرى حقيقة ما غرّ الآخر فكان يرى جنته في قبضة الله يأتيها أمره - بسبب كفره- من أصلها أو من فوقها فلا يستطيع رد هذا ولا ذاك.

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف].

الرسوخ مثل قول رسول الله ﷺ لـ «أبي بكر» رضي الله عنه عندما قال له: «لوْ نظر أحدهمْ تحْت قدميْه لرآنا»؛ فقال له رسول الله ﷺ: «ما ظنّك باثْنيْن الله ثالثهما؟»[1] ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١ (٢٣٨١) منْ حديث أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، كتاب فضائل الصّحابة رضي الله عنهم-
=

الراسخون مثل سادات الأولياء من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما نزل بهم الأحزاب تذكروا الوعد السابق، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وعاشوه ورأوا فيما نزل بهم خبر الله السابق ووعده، فتجهزوا لما وعد بالصدق المنجي، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

الرسوخ مثل قول «موسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ظن الناس الهلكة، وكان قد وعد من ربه وعدًا أنه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه].

فاستحضر الوعد واستيقن الأمر فلما قالوا له: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشّعراء]، هتف: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشّعراء].

الرسوخ مثل قول «أبي بكر» لـ «عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يوم الحديبية نفس كلمات رسول الله ﷺ لـ «عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من غير أن يسمعها من رسول الله ﷺ فقال له:

=

باب منْ فضائل أبي بكرٍ الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«إنّه رسول الله وليْس يعْصيه وهو ناصره»، وهي نفس كلمات رسول الله ﷺ لـ «عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبلها بلحظات، ثم قال «أبو بكر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له: «فالْزمْ غرْزه»[1].

الرسوخ يغير الصفات والأخلاق، ويغير الملامح، ويصحح المناهج وطريقة المعيشة والحياة، ويصوب طريقة تناول الأمور، ويصحح المواقف، ويؤثر في الآخرين، ويثبْت بهم الآلاف وينجون في أحرج اللحظات، فيثبتون بالله تعالى ويثبت الله بهم غيرهم ويكتبون التاريخ ويصححون مجراه.. كثّر الله منهم بفضله ومنّه تعالى.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٢٧٣١) منْ حديث المسْور بْن مخْرمة ومرْوان بْن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كتاب الشّروط- باب الشّروط في الجهاد والمصالحة مع أهْل الحرْب وكتابة الشّروط، بلفْظ: «أيّها الرّجل إنّه لرسول الله ﷺ، وليْس يعْصي ربّه، وهو ناصره، فاسْتمْسكْ بغرْزه، فوالله إنّه على الحقّ».

قواعدٌ في طلب العلْم

قـواعـدٌ مـرْشـدةٌ

- العلْم المحْمود:

العلم الذي مدحه الشرع هو ما كان وسيلة للتعبد والعمل، من اعتقاد صحيح ومشاعر منضبطة وتصور رباني وقول مستقيم وعمل صالح نافع، فإذا كان العلم مما لا يترتب عليه عمل فلا دليل على مدحه ولا مدح طلبه، وذلك كعلم الكلام والفلسفة اليونانية وغيرها التي لا تقدم سوى طريقة عرض لعلم حصل بطرق أخرى، فما صحّ منها بدهيات لم تضف شيئًا، وأكثر الناس يستعملها بدون قوانينهم التي وضعوها! وكثير منها سفسطة عقلية، وفيها من الخطأ في مقدماتها أو بعضها أو نتائجها ما يخالف العقل ويجحد به من الحق، مع خطورة تحكيمها في النصوص الشرعية والعقائد؛ فقد تأول البعض بسببها نصوصًا لم يؤوّلها رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وجحد آخرون قدْرا من الحق لتوافق مزاج هذه القوانين المعوجة أو غير المفيدة ولا المنتجة.

وأيضا ضرب النصوص بعضها ببعض، أو الدخول في حقائق أمور طلب منا فيها التسليم والإيمان، كالقدر، وميعاد وقوع ما أخبر الله تعالى به، وتفصيل أمور في الجنة أو النار لم يأت بها نص صريح ولا يترتب عليها عمل،

وكذا ما كان من الاختلاف في فروع العلوم ولا يترتب عليه عمل.

❁❁❁❁

▪ مزالقُ تحْذر:

ويحذر السالك إلى ربه تعالى أن يطلب العلم ليماري به العلماء أو يجاري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه ويذيع صيته فمثل هذا توعده رسول الله ﷺ بالنار.

ويجب الحذر الشديد من شهوة الكلام، فبعض السلف رأى هذا في نفسه وخاف أنه إن تكلم لم يتكلم لله تعالى في مسألة من مسائل العلم، يقول بعضهم: «أجد الجواب عليْها أحبَّ إليّ منْ الماء البارد على الظّمأ»، ولكن يخاف فيها من شهوة الظهور ويجد غيره يكفيه فيسكت.

❁❁❁❁

▪ علْمٌ منْ أجْل العمل:

كما ينبغي أن يعرف السالك أن المطلوب من وراء العلم العمل، قال رجل لـ «الشعبي» ليستفتيه: «أيّها العالم»، فقال «الشّعْبيّ»: «إنّما العالم منْ يخْشى الله»[1]، يومىء إلى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾

---

(١) روى مثْله الخطيب البغْداديّ في «تاريخ بغْداد» (٦/ ٣٧٤) منْ قوْل سفْيان بْن عييْنة، وأوْرد مثْله أبو =

[فاطر:٢٨].

وكان الإمام «أحمد» يقول: «وهلْ العلْم إلّا ما عنْد داود؟»(١)، يقصد «داود الطائي» رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو معروف بالتعبد والخوف والعمل، وكان «داود» من تلاميذ «أبي حنيفة» رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان يحضر مجلسه، حتى كان يوما قال فيه «أبو حنيفة» لـ «داود»: «يا داود، هذا العلْم، وقدْ بقي العمل»(٢)، فأثرت هذه الكلمة أثرًا عميقًا في نفس «داود» رَحِمَهُ اللَّهُ، فاهتم بالتعبد والعمل، وعرف بالخوف والخشية، وكان أنموذجًا للعبادة والتقوى والإستقامة والورع والزهد.. فقال الإمام «أحمد» كلمته تلك: «وهلْ العلْم إلّا ما عنْد داود»؛ إذ إن العلم لا يطلب إلا لتحقيق هذا الحال من الخشية والتقوى والزهد والعمل.

فيجب الحذر من حب الظهور وشهوة الإشارة إلى الشخص لعلمه أو

=

القاسم الجرْجانيّ في «تاريخ جرْجان» عنْ مجاهدٍ قوْله (٩٤٧) (١/ ٤٧٤).

(١) روى أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٧/ ٣٣٦) قريبًا منْ قوْل الإمام أحْمد، فروى عنْ عبْد الله بْن الْمبارك، يقول: «وهل الْأمْر إلّا ما كان عليْه داود الطّائيّ؟».

(٢) روى أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٧/ ٣٣٦) عنْ سفْيان بْن عييْنة، قال: «كان داود ممّنْ فقه، ثمّ علم، ثمّ عمل، وكان يجالس أبا حنيفة، فحذف يوْمًا إنْسانًا، فقال له أبو حنيفة: يا أبا سليْمان طالتْ يدك، وطال لسانك، قال: ثمّ كان يخْتلف ولا يتكلّم، قال: فلمّا علم أنّه بصيرٌ عمد إلى كتبه ففرّقها في الْفرات، وأقْبل على الْعبادة، وتخلّى».

لعبادته.. ولهذا فلا يتكلم العاقل إلا إن وجب عليه الكلام بحيث لا يوجد غيره يكفيه، ويرى أنه قد تعين عليه بيان الحق وإلا أثم، ولهذا كان «نوح» عليه السلام ينافح عن الحق حتى قال له قومه: ﴿ **قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدۡ جَـٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا** ﴾ [هود:٣٢]، إذ قد تعين عليه أن يبلغ الحق لقومه.

وإن ثقل الكلام على النفس ودفع إليه الواجب الشرعي فهو أقرب لصفاء النية لله تعالى، وهي نية مباركة ولها أثر صالح في نفس القائل والمتلقي، ولو بعد حين.

العلم يطلب به معرفة مواقع رضوان الله لاتباعها ومواقع سخطه لاجتنابها وإلا يكون الواجب حديث رسول الله ﷺ وأشار إلى لسانه: «**أَمْسكْ عليْك هذا**»(١)، وقال ﷺ: «**أَمْسكْ عليْك لسانك، ولْيسعْك بيْتك وابْك على**

---

(١) قال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (١٠/ ٣٠٠): «رواه الْبزّار وقال: إسْناده حسنٌ، ومتْنه غريبٌ». واللّفْظ الّذي في «البحْر الزّخّار» (٢٣٠٢): «**أَمْسِكْ هَذَا**»، وأصْل الحديث رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٦١٦) عنْ معاذ بْن جبلٍ رضي الله عنه، قال: كنْت مع النّبيّ ﷺ في سفرٍ، فأصْبحْت يوْمًا قريبًا منْه ونحْن نسير، فقلْت: يا رسول الله أخْبرْني بعملٍ يدْخلني الجنّة ويباعدني عن النّار، قال: «**لقدْ سألْتني عنْ عظيمٍ، وإنّه ليسيرٌ على منْ يسّره الله عليْه، تعْبد الله ولا تشْركْ به شيْئًا، وتقيم الصّلاة، وتؤْتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيْت**» ثمّ قال: «**ألا أدلّك على أبْواب الخيْر: الصّوْم جنّةٌ، والصّدقة تطْفئ الخطيئة كما يطْفئ الماء النّار، وصلاة الرّجل منْ جوْف اللّيْل**»، قال: ثمّ تلا ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ** ﴾ [السّجْدة: ١٦]، حتّى بلغ ﴿**يَعۡمَلُونَ** ١٧﴾، ثمّ قال: «**ألا أخْبرك برأْس الأمْر كلّه وعموده، وذرْوة سنامه؟**» قلْت: بلى يا رسول الله، قال: «**رأْس الأمْر الإسْلام،**
=

خطيئتك»[1]، وقال بعض السلف: «ما منْ شيْءٍ أحقّ بِطُولِ سجْنٍ منْ اللّسان»[2]، يعني قلة الكلام، إلا أن يتوجب البيان فعندئذ يكون الكلام خيرًا من الصمت، بل يعاقب على الصمت في محل البيان؛ فهو عندئذ كتمان للعلم وعليه وعيد شديد.

ونذكّر هنا بما قال «سفيان بْن عييْنة» رَحِمَهُ اللَّهُ أن «منْ انْحرف منْ عبّادنا - فعبد بجهْلٍ - ففيه شبهٌ منْ النّصارى، ومنْ انْحرف منْ علمائنا - فخالف عمله علْمه - ففيه شبهٌ منْ اليهود»[3].

❁❁❁❁

=

وعموده الصّلاة، وذرْوة سنامه الجهاد» ثمّ قال: «**ألا أخْبرك بملاك ذلك كلّه؟**» قلْت: بلى يا نبيّ الله، فأخذ بلسانه قال: «**كفّ عليْك هذا**»، فقلْت: يا نبيّ الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟ فقال: «**ثكلتْك أمّك يا معاذ، وهلْ يكبّ النّاس في النّار على وجوههمْ أوْ على مناخرهمْ إلّا حصائد ألْسنتهمْ**»، قال التّرْمذيّ: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٤٠٦) أبْواب الزّهْد- باب ما جاء في حفْظ اللّسان، منْ حديث عقْبة بْن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفْظ: «**أمْلِكْ عليْك لسانَك**»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٣٩٢)، وقال: «صحيحٌ».

(٢) رواه ابْن حبّان في «روْضة العقلاء ونزْهة الفضلاء» (ص٤٨) بلفْظ: عنْ عيسى بْن عقْبة قال: سمعْت ابْن مسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «والله الّذي لا إله غيْره ما شيْءٌ أحقّ بطول سجْنٍ منْ لسانٍ».

(٣) أوْرده ابْن تيْمية في غيْر موْضعٍ منْ مجْموع الفتاوى (٢٢/ ٣٠٧).

الفريضة الّتي يجب طلبها في العلْم:

يتفاوت الناس في العلم، ولكن هناك قدْر من العلم يأثم الإنسان بجهله به، وتجب عليك معرفة هذا القدْر.

فطلب علم التوحيد ومعرفة حقوق الله الخالصة التي لو صرفت لغيره لكان شركا بالله العظيم، هو أول واجب على المكلف أن يعلمه.

ويعلم ما يجب عليه للنجاة، من شبهٍ وتلبيسات الوقت مما شاع من انحرافات وبدع عظام، حتى لا تستهويه ضلاله أو يخدعه مخادع.

ويتعلم عقيدة أهل السنة للنجاة من البدع، قال «معاذ بن جبل» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «عملٌ قليلٌ في سنّةٍ خيْرٌ منْ اجْتهادٍ في بدْعةٍ»(١)، وهو مروي عن كثير من الصحابة كـ «أبي بن كعب» و «أبي الدرداء» وغيرهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، ونفس المعنى مروي عن التابعين(٢).

---

(١) رواه ابْن بطّة في الإبانة الكبْرى (١٧٩) (١/ ٣٢٩) موْقوفًا على ابْن مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورواه بلفْظه مرْفوعًا (١٥١) (١/ ٣١٥) منْ حديث الحسن البصْريّ مرْسلًا، ورواه مرّةً مرْفوعًا منْ حديث الحسيْن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورواه موْقوفًا (٢٤٧) (١/ ٣٥٨) على ابْن مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفْظ: «اقْتصادٌ في سنّةٍ، خيْرٌ من اجْتهادٍ في بدْعةٍ».

(٢) روى ابْن بطّة في الإبانة الكبْرى (٢٤٨) (١/ ٣٥٨-٣٥٩) عنْ مطرٍ الْورّاق، قال: «عملٌ قليلٌ في سنّةٍ، خيْرٌ منْ عملٍ كثيرٍ في بدْعةٍ، منْ عمل في سنّةٍ قبل الله منْه، ومنْ عمل في بدْعةٍ ردّ الله عليْه بدْعته»، وله (٢٤٩) (١/ ٣٥٩) عنْ الْفضيْل بْن عياضٍ، قال: «عملٌ قليلٌ في سنّةٍ، خيْرٌ منْ عملٍ =

وأن يعلم ما يجب عليه بعينه، كأحكام الصلاة والصوم، وإن امتلك المال وجب عليه علم حكم زكاة هذا المال بحسب نوع المال إن كان نقدين أو زروع أو أنعام أو غير ذلك، خاصة من الأنشطة المعاصرة وحكم الزكاة فيها..

وإن ملك المال والقدرة وجب الحج ووجب عليه علم المناسك ليؤديها فلو جهلها وهي واجبة عليه أثم..

كما يجب عليه علم حقوق من وجبت عليه حقوق نحوه، كالوالدين والزوجة والولد والجيران والمسلمين، وسائر الخلق.. فإن لم يكن له زوجة فلا يكون العلم بحقوقها واجبًا عليه إذ ذاك، وإن كان واجبًا على غيره، وعلى الكفاية في الأمة.. وكذا المرأة يختلف حال وجوب العلم بحقوق الزوج إن كانت مزوجة عن حال كونها غير مزوجة.

ويجب عليه علم واجبات قلبه وجوارحه ليقوم بها، وعلم محرمات قلبه وجوارحها ليجتنبها..

فالعلم بالحلال والحرام ليقف حيث أوقفه الله ويعمل بما وجب عليه

=

كثيرٍ في بدْعةٍ». وأوْرد ابْن عبْد البرّ في «جامع بيان العلْم وفضْله» (٢٣٦٧) (٢/ ١٢٠٤) مثْل ذلك عنْ الحسن البصْريّ.

فيمتثل، فيكون حافظًا للحدود قائمًا بالحقوق، واقفًا على قدم الخدمة لمولاه تعالى.. ومثل هذا هو شخصية فريدة ودرّ مصان وخير لأهله وللمسلمين.. كثّر الله من أمثاله لهذه الأمة.

يقول الإمام «أحمد»: «لوْلا العلْم لكان النّاس كالبهائم»[1]، أنت لست كذلك، ولا ينبغي أن تنقضي الحياة بغير علم حقوق الإسلام وواجبات الشريعة؛ فهي المتمضنة تكاليف الرب ورسائل الإله، وبها نحقق غاية الوجود ومقصد الخلق، والله تعالى الموفق.

***

(١) أوْرده ابْن عبْد البرّ في «جامع بيان العلْم وفضْله» (٣١٤) (٢/ ٢٥٨).

العلْم والتّزْكية

إذا ذكر العلْم جاءتْ التّزْكية

▪ أوْعى؟ قال: نعمْ. أزْكى؟ قال: لا:

والمقصود أن التزكية قرينة للعلم ومترتبة عليه ولهذا قرنها تعالى بها؛ فدعا «إبراهيم» و«إسماعيل» عليهما السلام برسولٍ يبعث في ذريتهما ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٩]، وامتن تعالى على العرب فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤].

والتزكية: هي التطهر من المحرمات وأدناس النفوس وأرجاسها، والتحلي بالخير والفضائل..

«المعنى الاصطلاحي لتزكية النفوس، يشمل أمرين:

أ. تطهيرها من الأدران والأوساخ، قال في الظلال: «التزكي التطهر من كل رجس ودنس»[1].

(١) في ظلال القرآن لسيّد قطْب (٦/ ٣٨٩٣) [الأعْلى:١٤].

ب. تنميتها بزيادتها بالأوصاف الحميدة».

من علم ولم يعمل لم تزك نفسه، ومن لم تزك نفسه حرم ثمرة العلم..

وانظر في أمثلة أفردت بسببها هذا الفصل رغم أنه تضمن فيما سبقه ولكن أحببت بيان أمثلة للتحذير..

❁❁❁❁

▪ أَمْثلةٌ زاجِـرةٌ:

• إبْليس علم.. لكنّه لمْ يزْكُ:

فأوضحها وأعظمها بيانًا هو إبليس الذي كان في شرف وحال يفخر بها، ولكنه أظهر الحسد والعصيان الذي كان يضمره؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة]، فأخرج وهبط، ولعن وقبح، وصار رمزًا للشر ومغويًا مفسدًا، يهلك الخلق ويوردهم النار ويقودهم لحتفهم، ويدفعهم لمعصية الرب وجحوده والشرك به.

• «أميّة بْن أبي الصّلْت» وعى.. لكنّه لمْ يزْكُ:

وانظر إلى أمثلة دون إبليس فهذا «أمية بن أبي الصلت» كان في الجاهلية قبيل مبعث رسول الله ﷺ، وقد علم الحق والتوحيد، وعلم بطلان ما عليه العرب، وعلم بقرب زمان نبي يبعث..

وكان يرجو أن يكون هو نبيًا، ثم أخذ يبحث في قريش عن النبي المنتظر، فلما أرسل رسول الله ﷺ وتبين له الأمر استكبر عن اتباعه.. وأذكر لك هاتين الروايتين للحافظ «ابن كثير» في سيرته..

فقد ذكر رواية الطبراني: «عنْ عرْوة بْن الزّبيْر، عنْ معاوية بْن أبي سفْيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنْ أبي سفْيان بْن حرْبٍ، أنّ أميّة بْن أبي الصّلْت كان بغزّة - أوْ قال: بإيليّا - فلمّا قفلْنا، قال لي أميّة: يا أبا سفْيان، إنْ نتقدّمْ عن الرّفْقة، فنتحدّثْ؟ قلْت: نعمْ. قال: ففعلْنا فقال لي: يا أبا سفْيان، أيّهنّ عنْ عتْبة بْن ربيعة؟ قلْت: أيّهنّ عنْ عتْبة بْن ربيعة؟ قال: كريم الطّرفيْن، ويجْتنب الْمظالم والْمحارم؟ قلْت: نعمْ. قال: وشريفٌ مسنٌّ؟ قلْت: وشريفٌ مسنٌّ. قال: السّنّ والشّرف أزْريا به، فقلْت له: كذبْت، ما ازْداد سنًّا إلّا ازْداد شرفًا، قال: يا أبا سفْيان، إنّها لكلمةٌ ما سمعْت أحدًا يقولها لي منْذ تنصّرْت لا تعْجلْ عليّ حتّى أخْبرك. قال: هات، قال: إنّي كنْت أجد في كتبي نبيًّا يبْعث منْ حرّتنا هذه فكنْت أظنّ، بلْ كنْت لا أشكّ أنّي هو، فلمّا دارسْت أهْل الْعلْم إذا هو منْ بني عبْد منافٍ فنظرْت في بني عبْد منافٍ، فلمْ أجدْ أحدًا يصْلح لهذا الْأمْر غيْر عتْبة بْن ربيعة، فلمّا أخْبرْتني بسنّه عرفْت أنّه ليْس به حين جاوز الْأرْبعين، ولمْ يوح إليْه، قال أبو سفْيان: فضرب الدّهْر منْ ضربه، وأوحي إلى رسول الله ﷺ، وخرجْت في ركْبٍ منْ قريْشٍ أريد الْيمن في تجارةٍ، فمررْت بأميّة بْن أبي الصّلْت، فقلْت له كالْمسْتهْزئ به: يا أميّة، قدْ خرج النّبيّ الّذي كنْت تنْتظر، قال: أما إنّه حقٌّ

فاتّبعْه. قلْت: ما يمْنعك من اتّباعه؟ قال: ما يمْنعني من اتّباعه إلّا الاسْتحْياء منْ نسيات ثقيفٍ، إنّي كنْت أحدّثهنّ أنّي هو، ثمّ يَرَيَنَّنِي تابعًا لغلامٍ منْ بني عبْد منافٍ، ثمّ قال أميّة: وكأنّي يا أبا سفْيان إنْ خالفْته قدْ رُبِطْتَ كما يُرْبَطُ الْجَدْيُ حتّى يُؤْتَى بك إليْه فيحْكم فيك ما يريد»[1].

ثم ذكر رواية عبد الرزاق: «أخْبرنا معْمرٌ عن الْكلْبيّ قال: بيْنا أميّة راقدٌ ومعه ابْنتان له إذْ فزعتْ إحْداهما فصاحتْ عليْه، فقال لها: ما شأْنك؟، قالتْ: رأيْت نَسْرَيْن كَشَطَا سقْف الْبيْت، فنزل أحدهما إليْك فشقّ بطْنك والْآخر واقفٌ على ظهْر البيت فناداه، فقال: أوْعى؟ قال: نعمْ، قال: أزْكى؟ قال: لا. فقال ذاك خيْرٌ أريد بأبيكما فلمْ يفْعلْه».

ثم ذكر الرواية بسياق آخر «عن الزّهْريّ عنْ سعيد بْن الْمسيّب وعثْمان بْن عبْد الرّحْمن عن الزّهْريّ عنْ سعيد بْن الْمسيّب قال: قدمت الْفارعة أخْت أميّة بْن أبي الصّلْت على رسول الله ﷺ بعْد فتْح مكّة وكانتْ ذات لبٍّ وعقْلٍ وجمالٍ، وكان رسول الله ﷺ بها معْجبًا فقال لها ذات يوْمٍ: يا فارعة هلْ تحْفظين منْ شعْر أخيك شيْئًا؟، فقالتْ: نعمْ، وأعْجب منْ ذلك ما قدْ رأيْت. قالتْ: كان أخي في سفرٍ فلمّا انْصرف بدأني، فدخل عليّ فرقد على سريري وأنا أحْلق أديمًا في يدي إذْ أقْبل طائران أبْيضان أوْ كالطّيْريْن أبْيضيْن فوقع

---

(١) رواه الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٧٢٦٢).

على الْكوّة أحدهما، ودخل الْآخر فوقع عليْه فشقّ الْواقع عليْه ما بيْن قصّه إلى عانته، ثمّ أدْخل يده في جوْفه فأخْرج قلْبه فوضعه في كفّه ثمّ شمّه فقال له الطّائر الْآخر: أوْعى؟ قال: أوْعى. قال: أزْكى؟ قال أبى. ثمّ ردّ الْقلْب إلى مكانه فالْتأم الْجرْح أسْرع منْ طرْفة عيْنٍ ثمّ ذهبا، فلمّا رأيْت ذلك دنوْت منْه فحرّكْته فقلْت هلْ تجد شيْئًا. قال: لا إلّا توْهينًا في جسدي- وقدْ كنْت ارْتعبْت ممّا رأيْت- فقال: ما لي أراك مرْتاعةً. قالتْ فأخْبرْته الْخبر فقال خيْرٌ أريد بي ثمّ صرف عنّي»[1].

ولم يصرف عن «أمية» الخير إلا لأنه لم يزك قلبه بما علم، بينما سبق «أبو بكر» الدنيا كلها؛ فكان خير مخلوق بعد النبيين بزكاته واتباعه وعدم نفاسته لأحد في اختيار ربه تعالى.

- **طريدًا غريبًا وحيدًا:**

«أبو عامر الفاسق»..وكان يُسَمَّى قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بـ «أبي عامر الراهب»، لتعبده وترهبه، لكنه أيضًا طمع في النبوة وشرق بها أن أكرم بها رسول الله ﷺ، واستكبر عن اتباعه، ودعا قومه للكفر والمخالفة! وحفر الحفائر يوم أحد؛ تلك التي وقع رسول الله ﷺ في أحدها، وكلم رسول الله ﷺ يومًا فكان هذا الحوار.

---

(١) البداية والنّهاية (٣/ ٢٨٢-٢٨٥).

جاء في سيرة «ابن هشام»: «وأمّا أبو عامرٍ فأبى إلّا الْكفْر والْفراق لقوْمه حين اجْتمعوا على الْإسْلام، فخرج منْهمْ إلى مكّة ببضْعة عشر رجلًا مفارقًا للْإسْلام ولرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ - كما حدّثني محمّد بْن أبي أمامة عنْ بعْض آل حنْظلة بْن أبي عامرٍ-: لا تقولوا: الرّاهب، ولكنْ قولوا: الْفاسق.

قال ابْن إسْحاق: وحدّثني جعْفر بْن عبْد الله بْن أبي الْحكم، وكان قدْ أدْرك وسمع، وكان راويةً: أنّ أبا عامرٍ أتى رسول الله ﷺ حين قدم الْمدينة، قبْل أنْ يخْرج إلى مكّة، فقال: ما هذا الدّين الّذي جئْت به؟ فقال: جئْت بالْحنيفيّة دين إبْراهيم، قال: فأنا عليْها، فقال له رسول الله ﷺ: إنّك لسْت عليْها، قال: بلى قال: إنّك أدخلْت يا محمّد في الْحنيفيّة ما ليْس منْها قال: ما فعلْت، ولكنّي جئْت بها بيْضاء نقيّةً، قال: الْكاذب أماته الله طريدًا غريبًا وحيدًا- يعرّض برسول الله ﷺ- أيْ أنّك جئْت بها كذلك. قال رسول الله ﷺ: أجلْ، فمنْ كذب ففعل الله تعالى ذلك به. فكان هو ذلك عدوّ الله، خرج إلى مكّة، فلمّا افْتتح رسول الله ﷺ مكّة خرج إلى الطّائف. فلمّا أسْلم أهْل الطّائف لحق بالشّام، فمات بها طريدًا غريبًا وحيدًا»[1].

وبالفعل فبعد أُحُد لم يجد سبيلًا لهزيمة المسلمين، وأهانه قومه من

---

(١) السيرة النّبويّة لابْن هشام (٢/ ٢٣٥).

الأنصار بعد إسلامهم وكفره، فخرج إلى الشام يستعين بـ «هرقل» ويستفزه على المسلمين فمنّاه هرقل ووعده، وراسل «أبو عامر» المنافقين أن يبنوا بناءً ليكون مكانًا للمراسلات بينهم وبينه ورسل الروم، وليكون عينًا على المسلمين؛ فبنوا مسجد الضرار، ولكن كف الله شر الروم، وأحرق رسول الله ﷺ المسجد بأمر الله ووحيه، ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التّوبة:١٠٨]، وفضح الله المنافقين وتراجع «هرقل» بعد مؤتة وتبوك، ومات «أبو عامر الفاسق» فاسقًا بعد أن كان راهبًا عابدًا، طريدًا غريبًا.. ووحيدًا بعيدًا.. فلم ينفعه علمه إذ لم يزك قلبه ولم تتطهر نفسه، فاحذر يا سالك الطريق.

- **«أبو جهْلٍ» يعْلم الحقّ ويصدّق «محمّدًا» ﷺ!:**

العجيب أن «أبا جهل» كان يعلم الحق تمامًا، ويعلم صدق رسول الله ﷺ لكنه حسد أن يكون لبني هاشم نبي، دون قومه، وجاء في هذا آثار كثيرة، ولكن نذكر هذه الرواية للإمام «الطبري» في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]، يقول: «حدّثنا محمّد بْن الْحسيْن، قال: ثنا أحْمد بْن الْمفضّل، قال: ثنا أسْباطٌ، عن السّدّيّ، في قوْله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣]، لمّا كان يوْم بدْرٍ قال الْأخْنس بْن شريقٍ لبني زهْرة: يا بني زهْرة، إنّ محمّدًا ابْن أخْتكمْ، فأنْتمْ أحقّ منْ كفّ عنْه، فإنّه إنْ كان نبيًّا

لم تقاتلونه الْيوْم؟ وإنْ كان كاذبًا كنْتمْ أحقّ منْ كفّ عن ابْن أخْته، قفوا ههنا حتّى ألْقى أبا الْحكم، فإنْ غلب محمّدٌ ﷺ رجعْتمْ سالمين، وإنْ غلب محمّدٌ فإنّ قوْمكمْ لا يصْنعون بكمْ شيْئًا، فيوْمئذٍ سمّي الْأخْنس، وكان اسْمه أبيًّا. فالْتقى الْأخْنس وأبو جهْلٍ، فخلا الْأخْنس بأبي جهْلٍ، فقال: يا أبا الْحكم، أخْبرْني عنْ محمّدٍ أصادقٌ هو أمْ كاذبٌ؟ فإنّه ليْس ههنا منْ قريْشٍ أحدٌ غيْري وغيْرك يسْمع كلامنا. فقال أبو جهْلٍ: ويْحك، والله إنّ محمّدًا لصادقٌ، وما كذب محمّدٌ قطّ، ولكنْ إذا ذهب بنو قصيٍّ باللّواء والْحجابة والسّقاية والنّبوّة، فماذا يكون لسائر قريْشٍ؟»[1].

• قوم اختيروا ثم نكصوا:

وأما اليهود فقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنْعام:٢٠]..

روى «الطبري» في تفسيرها هذه الرواية: «عنْ ابْن جريْجٍ قوْله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنْعام:٢٠]، يعْني النّبيّ ﷺ. قال: زعم أهْل الْمدينة عنْ أهْل الْكتاب ممّنْ أسْلم أنّهمْ قالوا: والله لنحْن أعْرف به منْ أبْنائنا منْ أجْل الصّفة والنّعْت الّذي نجده في الْكتاب، وأمّا أبْناؤنا فلا

(١) تفْسير الطّبريّ (٩/ ٢٢١-٢٢٢) [الأنْعام:٣٣].

نذْري ما أحْدث النّساء»[١].

ولكن منعهم حقدهم أنْ كان النبي المبشر به من العرب من أبناء «إسماعيل» وليس أبناء «إسحاق» عليهما السلام! وكأن لهم الإختيار؟! فكان التعصب للجنس الإسرائيلي مهلكًا في الدنيا والآخرة ومذلا لهم.

وأسوق إليك هذه الرواية عن السيدة «صفية بنت حيي بن أخطب» رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ تحكي عن أبيها وعمها، روى «ابن كثير»: «عنْ صفيّة بنْت حييٍّ، قالتْ: لمْ يكنْ أحدٌ منْ ولد أبي وعمّي أحبّ إليْهما منّي، لمْ ألْقهما في ولدٍ لهما قطّ أهشّ إليْهما إلّا أخذاني دونه، فلمّا قدم رسول الله ﷺ قباء - قرْية بني عمْرو بْن عوْفٍ- غدا إليْه أبي وعمّي أبو ياسر بْن أخْطب مغلّسيْن، فوالله ما جاءانا إلّا مع مغيب الشّمْس، فجاءانا فاتريْن كسْلانيْن ساقطيْن يمْشيان الْهويْنى، فهششْت إليْهما كما كنْت أصْنع، فوالله ما نظر إليّ واحدٌ منْهما، فسمعْت عمّي أبا ياسرٍ يقول لأبي: أهْو هو؟ قال: نعمْ والله. قال تعْرفه بعيْنه وصفته؟ قال: نعمْ والله. قال: فماذا في نفْسك منْه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

وذكر موسى بْن عقْبة، عن الزّهْريّ، أنّ أبا ياسر بْن أخْطب حين قدم رسول الله ﷺ الْمدينة ذهب إليْه، وسمع منْه، وحادثه، ثمّ رجع إلى قوْمه،

---

(١) تفْسير الطّبريّ (٩/ ١٨٧) [الأنْعام:٢٠].

فقال: يا قوْم، أطيعوني؛ فإنّ الله قدْ جاءكمْ بالّذي كنْتمْ تنْتظرون، فاتّبعوه ولا تخالفوه. فانْطلق أخوه حييّ بْن أخْطب - وهو يوْمئذٍ سيّد الْيهود، وهما منْ بني النّضير- فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منْه، ثمّ رجع إلى قوْمه، وكان فيهمْ مطاعًا، فقال: أتيْت منْ عنْد رجلٍ والله لا أزال له عدوًّا أبدًا. فقال له أخوه أبو ياسرٍ: يا ابْن أمّ، أطعْني في هذا الْأمْر واعْصني فيما شئْت بعْده، لا تهْلكْ. قال: والله لا أطيعك أبدًا. واسْتحْوذ عليْه الشّيْطان واتّبعه قوْمه على رأْيه»(١).

لقد هلك الهالكون على علم، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩]، فالحامل على الاختلاف والكفر كان البغي عن علم وقصد، لا عن جهل وخطأ.

- طمع مهلك!:

وفي شأن رؤساء النصارى جاء أيضًا من هذا خبر عجيب؛ فقد أرسلت «نجران» وفدًا من النصارى بها إلى رسول الله ﷺ، وكان كبراؤهم ثلاثة «العاقب» و «السيد» و «الأيهم»، وفي شأن أحدهم جاء هذا الخبر عن شقيق أحدهم.

(١) البداية والنّهاية (٤/ ٥٢٤-٥٢٥).

يقول «ابن كثير»: «وقال يونس بْن بكيْرٍ عن ابْن إسْحاق حدّثني بريْدة بْن سفْيان عن ابْن الْبيْلمانيّ عنْ كرْز بْن علْقمة قال: قدم وفْد نصارى نجْران ستّون راكبًا، منْهمْ أرْبعةٌ وعشْرون رجلًا منْ أشْرافهمْ، والْأرْبعة والْعشْرون منْهمْ ثلاثة نفرٍ إليْهمْ يئول أمْرهمْ؛ الْعاقب والسّيّد وأبو حارثة أحد بني بكْر بْن وائلٍ، أسْقفّهمْ وصاحب مدْراسهمْ، وكانوا قدْ شرّفوه فيهمْ، وموّلوه وأخْدموه وبسطوا عليْه الْكرامات، وبنوْا له الْكنائس؛ لما بلغهمْ عنْه منْ علْمه واجْتهاده في دينهمْ، فلمّا توجّهوا منْ نجْران جلس أبو حارثة على بغْلةٍ له، وإلى جنْبه أخٌ له يقال له: كرْز بْن علْقمة. يسايره إذْ عثرتْ بغْلة أبي حارثة فقال كرْزٌ: تعس الْأبْعد. يريد رسول الله ﷺ فقال له أبو حارثة: بلْ أنْت تعسْت. فقال له كرْزٌ: ولم يا أخي؟ فقال: والله إنّه للنّبيّ الّذي كنّا ننْتظره. فقال له كرْزٌ: وما يمْنعك وأنْت تعْلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء الْقوْم؛ شرّفونا وموّلونا وأخْدمونا، وقدْ أبوْا إلّا خلافه، ولوْ فعلْت نزعوا منّا كلّ ما ترى. قال: فأضْمر عليْها منْه أخوه كرْزٌ حتّى أسْلم بعْد ذلك»(١).

- **مثال عظيم:**

ومن أبلغ ما جاء في هذا.. ذلك العالم الذي ضرب تعالى به المثل، وهو شخص آتاه الله آياته ولكن لم ترتفع به همّته إلى العمل فسقط في شهوات

---

(١) البداية والنّهاية (٧/ ٢٧٠-٢٧١).

الأرض، ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف].

وأكتفي بمقتطفات من كلام «ابن القيم» يشرح هذا المثال العظيم، يقول: «فشبّه سبْحانه منْ آتاه كتابه وعلّمه الْعلْم الّذي منعه غيْره، فترك الْعمل به، واتّبع هواه وآثر سخط الله على رضاه، ودنْياه على آخرته، والْمخْلوق على الْخالق؛ بالْكلْب الّذي هو منْ أخْبث الْحيوانات، وأوْضعها قدْرًا، وأخسّها نفْسًا، وهمّته لا تتعدّى بطْنه، وأشدّها شرّها وحرْصًا، ومنْ حرْصه أنّه لا يمْشي إلّا وخطْمه في الْأرْض يتشمّم ويسْترْوح حرْصًا وشرهًا، ولا يزال يشمّ دبره دون سائر أجْزائه، وإذا رميْت إليْه بحجرٍ رجع إليْه ليعضّه منْ فرط نهْمته، وهو منْ أمْهن الْحيوانات، وأحْملها للْهوان، وأرْضاها بالدّنايا، والْجيف الْقذرة الْمروّحة أحبّ إليْه منْ اللّحْم الطّريّ، والْعذْرة أحبّ إليْه منْ الْحلْوى، وإذا ظفر بميْتةٍ تكْفي مائة كلْبٍ لمْ يدعْ كلْبًا واحدًا يتناول منْها شيْئًا إلّا هرّ عليْه وقهره لحرْصه وبخْله وشرهه.

ومنْ عجيب أمْره وحرْصه أنّه إذا رأى ذا هيْئةٍ رثّةٍ وثيابٍ دنيّةٍ وحالٍ زريّةٍ نبحه وحمل عليْه، كأنّه يتصوّر مشاركته له ومنازعته في قوْلته، وإذا رأى ذا هيْئةٍ حسنةٍ وثيابٍ جميلةٍ ورياسةٍ وضع له خطْمه بالْأرْض، وخضع له، ولمْ

يرْفعْ إليْه رأْسه.

وفي تشْبيه منْ آثر الدّنْيا وعاجلها على الله والدّار الْآخرة مع وفور علْمه بالْكلْب في حال لهثه سرٌّ بديعٌ، وهو أنّ هذا الّذي حاله ما ذكره الله منْ انْسلاخه منْ آياته واتّباعه هواه إنّما كان لشدّة لهفه على الدّنْيا لانْقطاع قلْبه عنْ الله والدّار الْآخرة فهو شديد اللّهف عليْها، ولهفه نظير لهف الْكلْب الدّائم في حال إزْعاجه وترْكه، واللّهف واللّهث شقيقان وأخوان في اللّفْظ والْمعْنى، قال ابْن جريْجٍ: الْكلْب منْقطع الْفؤاد، لا فؤاد له، إنْ تحْملْ عليْه يلْهثْ أوْ تترْكه يلْهثْ، فهو مثل الّذي يتْرك الْهدى، لا فؤاد له، إنّما فؤاده منْقطعٌ؛ قلْت: مراده بانْقطاع فؤاده أنّه ليْس له فؤادٌ يحْمله على الصّبْر وترْك اللّهث؛ وهكذا الّذي انْسلخ منْ آيات الله، لمْ يبْق معه فؤادٌ يحْمله على الصّبْر عنْ الدّنْيا وترْك اللّهف عليْها، فهذا يلْهف على الدّنْيا منْ قلّة صبْره عنْها، وهذا يلْهث منْ قلّة صبْره عنْ الْماء، فالْكلْب منْ أقلّ الْحيوانات صبْرًا عنْ الْماء، وإذا عطش أكل الثّرى منْ الْعطش، وإنْ كان فيه صبْرٌ على الْجوع؛ وعلى كلّ حالٍ فهو منْ أشدّ الْحيوانات لهثًا، يلْهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدّة حرْصه؛ فحرارة الْحرْص في كبده توجب له دوام اللّهث، فهكذا مشْبهه شدّة الْحرْص وحرارة الشّهْوة في قلْبه توجب له دوام اللّهف، فإنْ حملْت عليْه الْموْعظة والنّصيحة فهو يلْهف، وإنْ ترکْته ولمْ تعظْه فهو يلْهف، قال مجاهدٌ: وذلك مثل الّذي أوتي الْكتاب ولمْ يعْملْ به.

وقال ابْن عبّاسٍ: إنْ تحْملْ عليْه الْحكْمة لمْ يحْملْها، وإنْ تركْته لمْ يهْتد إلى خيْرٍ، كالْكلْب إنْ كان رابضًا لهث وإنْ طرد لهث، وقال الْحسن: هو الْمنافق لا يثْبت على الْحقّ، دعي أوْ لمْ يدْع، وعظ أوْ لمْ يوعظْ، كالْكلْب يلْهث طرد أوْ ترك...

وقال أبو محمّد بْن قتيْبة: كلّ شيْءٍ يلْهث فإنّما يلْهث منْ إعْياءٍ أوْ عطشٍ إلّا الْكلْب فإنّه يلْهث في حال الْكلال وحال الرّاحة وحال الصّحّة وحال الْمرض والْعطش، فضربه الله مثلًا لمنْ كذّب بآياته، وقال: إنْ وعظْته فهو ضالٌّ وإنْ تركْته فهو ضالٌّ كالْكلْب إنْ طردْته لهث وإنْ تركْته على حاله لهث...

ومنْها قوْله سبْحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [الأعْراف:١٧٥]، أيْ لحقه وأدْركه... كان محْفوظًا محْروسًا بآيات الله، محْميّ الْجانب بها منْ الشّيْطان، لا ينال منْه شيْئًا إلّا على غرّةٍ وخطْفةٍ، فلمّا انْسلخ منْ آيات الله ظفر به الشّيْطان ظفر الْأسد بفريسته، فكان منْ الْغاوين الْعاملين بخلاف عملهمْ، الّذين يعْرفون الْحقّ ويعْملون بخلافه، كعلماء السّوء.

ومنْها أنّه سبْحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾ [الأعْراف:١٧٦]، فأخْبر سبْحانه أنّ الرّفْعة عنْده ليْستْ بمجرّد الْعلْم، فإنّ هذا كان منْ الْعلماء، وإنّما هي باتّباع الْحقّ وإيثاره وقصْد مرْضاة الله.

فإنّ هذا كلّه منْ أعْلمْ أهْل زمانه، ولمْ يرْفعْه الله بعلْمه ولمْ ينْفعْه به فنعوذ بالله منْ علْمٍ لا ينْفع...

والْمعْنى لوْ شئْنا فضّلْناه وشرّفْناه ورفعْنا قدْره ومنْزلته بالْآيات الّتي آتيْناه، قال ابْن عبّاسٍ: ولوْ شئْنا لرفعْناه بعمله بها...

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعْراف:١٧٦]، قال سعيد بْن جبيْرٍ: ركن إلى الْأرْض.

وقال مجاهدٌ: سكن، وقال مقاتلٌ: رضي بالدّنْيا، وقال أبو عبيْدة: لزمها وأبْطأ...، ويقال: أخْلد فلانٌ بالْمكان، إذا أقام به...

وقوْله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعْراف:١٧٦]، قال الْكلْبيّ: اتّبع مسافل الْأمور وترك معاليها، وقال أبو ورقٍ: اخْتار الدّنْيا على الْآخرة، وقال عطاءٌ: أراد الدّنْيا وأطاع شيْطانه»[١].

هذا مثال يجب وضعه أمامك، بين عينيك، واحذره؛ فقد أطلت في نقل شرحه لعظم موقعه وتأثيره وتوضيحه لهذه الحقيقة الخطرة؛ أن ينزل أحد لمستوى «الكلب» حتى قال تعالى بعدها: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعْراف]، فأخبر تعالى أن مثالهم سيء؛

---

(١) إعْلام الموقّعين عنْ ربّ العالمين (١/ ١٢٧-١٣٠).

فقد ساء مثلهم لسوء عملهم؛ فلا تنسه واحذره دومًا.. عافانا الله وإياك، والله الهادي والعاصم.

***

الطّريق صحيحٌ

لكنّ

العيْب في العزْم

كـم يـسلك الإنـسان طريقًا للخير، ولكنـه يتعثر؛ لـيس العيـب في الطريـق ولكن العيب أنه لم يجمع العزم.

كثيرًا ما نتعثر، ولا يكون الـسبب هـو صـعوبة الطريـق ولا ثقـل التكـاليف، بل السبب الحقيقي هو تشتت العزمات.

ومُـشَتَّتُ العَزَمَـاتِ يَقْـضِي عُمُـرَهُ ❁ حَيْـــرَانَ لَا ظَفَـــرٌ وَلَا إخْفَـــاقُ

▪ موْقفٌ في قصّةٍ:

«يحكى أن واليًا أراد أن يختار أحد بنيـه ليخلفـه علـى سـدة الحكـم، فجـاء بهم جميعًا أمام نهر جميـل الـشاطئ، تحـوم النـوارس حـول حدائقـه الجميلـة، وتعود إلى الماء تقطف رزقها بكل عفوية وانسياب. وضـع الـوالي هـدفًا أمـام أبنائه الثلاثة، وأعطى كل واحد كنانة وقوسًا، وقال للكبير: مـاذا تـرى أمامـك؟ فقال: الهدف، قال: وماذا مع الهدف؟ قال: هذه الحدائق الغناء، فقـال لـه أبـوه انصرف، ثم دعا الأوسط فسأله فأجاب: الهدف، فأردف: ثم ماذا مع الهـدف؟

فأجاب: هـذه الطيـور الرائعـة الجمـال، فـأمره بالانـصراف وسـأل الأصـغر فأجاب: أرى الهدف فقال له: ومـاذا مع الهـدف؟ فأجـاب: الهـدف، قـال: ثـم ماذا؟ قال الصغير: الهدف، فخلع تاجه ووضعه على رأسه».

❁❁❁❁

▪ آيةٌ محْوريّةٌ وحاسمةٌ:

ومدار الأمر هنا هو آية التوبـة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التّوْبة:٢٤].

العلاقـات الأسـرية والـرحم والمـصاهرة والقبائـل وأسـماء العـائلات والألقـاب، الأمـوال والمـساكن والتجـارة والأعمـال والمناصـب والأشـغال، ومع هذه العلائق المختلفة، كل هذا في جانب..

وفي الجانب الآخر الله ورسوله والدار الآخرة.

هنا تسْأل نفْسك: ماذا تريد؟..

ولهـذا قـدمنا بـالنظر إلـى آفـات الـدنيا فلـو ركنـت إليهـا ومـال قلبـك وزاغ البصر أحيانا، تدبرت ورجعت إلـى هـذا التـدبر فـحصلت النفـرة منهـا وسـكن

القلب للرغبة في الآخرة..

إن الذي يفرق إنسانا عن آخر هو تحديد هدفه وتركيز عزمه.

❁❁❁❁

- جمْع العزْم.. والصّادقون:

الإخلاص ألا تريد إلا الله، والصدق أن تريده بكافة نفسك، وفي الصادقين نزل القرآن حتى مع خطئهم عذرهم الله وغفر لهم وتقبل منهم..

فإنه لما أخطأ بعض الصحابة في غزوة غزوها فقتلوا رجلًا في الشهر الحرام ظنًّا أنه يفلت منهم ويدخل أرض الحرم، وكانوا في آخر أيام الشهر الحرام، وظنوا أن رسول الله ﷺ أمرهم بقتله فهاج عليهم المشركون - الذين عذبوهم وقتلوهم في الأشهر الحرم، وفي أرض الحرم، وأخرجوهم من الحرم!!- وقالوا أن المسلمين ينتهكون حرمة الشهر الحرام!.

فدافع الله عنهم مع بيان خطأ ما وقعوا فيه، وأخبر برجحان انحراف المشركين، ثم قال بعدها لما خاف المسلمون من حبوط الأجر فطمأنهم بقوله ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ [البقرة:٢١٨]..

إنهم ما أرادوا إلا هذا الطريق، وأرادوه بكل نفوسهم، ولما اجتهدوا في أمر أخطؤوا فيه غفر الله لهم وأوضح لهم تصحيح خطئهم، وأثبت لهم الأجر

وأعلن صحة قصدهم ووجهة عزمهم، وأنَّ مقصودهم هو: «الله سبحانه».

سَلْ نفسك وخُذْ وقتك وتفكر جيدًا ولا تتسرع بالإجابة، وراجع نفسك مرارًا: ماذا تريد؟ وكلما لاح لك أمر ينافي الآخرة، تدبر حاله وقلّب فيه نظرك واعلم حقيقته؛ فستجده فقاعة تنفثيء بسرعة..

ولا تخبّيء في نفسك هدفًا أو خبيئة فأنت لا تجيب على محقق لتتخفى منه أو تخادعه!! إنما تجيب على نفسك لتنقذها، فأخرج ما فيها وتدبر ما تصبو هي إليه وتميل دون الآخرة، وضعْه على محك الاختبار والتدبر وانظر هل تدوم تلك الأهداف والشهوات؟ وهل تعقب بعدها خيرًا؟ وهل تصلح لك دنياك وأخراك؟ وهل ستكون بديلًا عما هو أعظم منها؟.

وانظر إلى هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨]، يعني في كافة السلم وبكافة نفوسكم، فلا تدعوا جزءا من نفوسكم بلا استسلام لله تعالى وإرادته، كما لا تتركوا جزءًا من الدين بلا استسلام. وبمقدار الصدق والوضوح في الإجابة على هذا السؤال تكون الراحة بعد ذلك بقية الطريق..

احذر؛ فالمداهنة والمجاملة لا تنفع ولا تصح في الإجابة على مثل هذا السؤال العظيم، وإلا ندمت واضطربت بعد ذلك..

❁❁❁❁

- **صلاح الأمْر في.. «أوْزعْني»:**

فإن حددت هدفك، وكان استقرار النفس على أنه «الله والدار الآخرة» فلا بد من جمع النفس والهمة والعزم على المضي في الطريق، ومعنى هذا ألا تترك جزءًا من نفسك لغير الله، فتجمع كل طاقاتك وإمكانياتك ومواهبك وحياتك وكدك وتعبك وعرقك وليلك ونهارك، من أجل الله ورسوله والدار الآخرة، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [الأحْقاف:١٥].

فأن يوزعك تعالى معنى عظيم وأصل كلمة يوزع هو عندما يكون الجيش عظيما فيحبس أوله حتى يتضام عليه آخره، فيجتمع الجيش كله في قوة منتظمة ومتماسكة..

ولذلك فمعنى الكلمة عندما تستعمل للنفس هو أن تجتمع النفس كلها أولها وآخرها على الله تعالى «﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ اجمعني كلي، «اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي ، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي، اجمعني كلي، اجمع طاقاتي كلها؛ أولها على آخرها وآخرها على أولها – وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني– لتكون كلها في شكر نعمتك

عليّ وعلى والديّ...»[1].

❁❁❁❁

▪ مكانة الأهْداف الأخْرى:

وعندما تحدد هذا المقصد بإجابة حاسمة وصادقة فهذا يعني أن تلغي أن تكون هناك غاية أخرى تقارن أو تقارب هذه الغاية العظيمة..

فالدراسة والنجاح والتفوق أو العمل المحترم بأجر مغرٍ أو الزيجة التي يشتاق إليها صاحبها بشغف، أو الإنجاب أو تربية الولد، أو النجاح في العمل الاجتماعي أو الصلات المختلفة.. كل هذا ليس أهدافًا نهائية للمسلم الذي يريد أن يتربى على هذا الدين، بل هذه محض ظروف..

لا مانع أبدًا من استهدافها بما يليق بها وبمكانتها من كونها أمور صغيرة أثناء الطريق، يضعها حيث وضعها الله، ويتناولها كما أمر الله تعالى..

أما الهدف الحقيقي فهو تحقيق الإسلام في النفس بأعلى مستوى لبلوغ رضوان الله والنجاة من أعظم المصائب على الإطلاق وهي النار.. نجانا الله وإياك.

❁❁❁

(١) في ظلال القرْآن لسيّد قطْب (٥/ ٢٦٣٦-٢٦٣٧) [النّمْل:١٩].

لماذا نعْبد الله؟

▪ الإنْسان بطبيعته عابدٌ.. ولا بدّ:

قد يتساءل البعض؛ لماذا التقيد بما أنزل الله من مناهج حتى ولو علمنا صحتها؟ ولماذا لا نكون أحرارًا في اختياراتنا وطريقة حياتنا؟..

وهذا الكلام كذب وخداع؛ إذ إن الإنسان إما أن يكون عابدًا لمن خلقه أو عابدًا لمن سواه، وعندما يترك عبودية الله تلقاه أصحاب الأموال أو الأعراق أو الأحزاب والمصالح، أو أصحاب الشهوات، أو الطواغيت، أو الأوهام.. فعبّدوه لأنفسهم.

أو يكون عابدا لهواه المجرد.. وهي حياة شقية وخروج عما يحتاجه قلبه؛ إذ إن احتياجه لربه عميق جدًّا، كما أن ربه لا يتكثر به من قلة، ولا يتقوى به من ضعف ولا يمتنع به من ضر ولا يصل إليه تعالى نفع، بل إنما يشرع لعباده لأنهم محتاجون لشريعته؛ فالعلم الكلّي والحكمة التامة والرحمة السابغة والعدل المنتظم لجميع الخلق: ليس إلا عنده تعالى.

ولذلك نورد من أسباب العبودية لله تعالى، تذكيرًا وتنبيهًا للخلق..

❁❁❁❁

▪ إنّنا مماليكُ:

أولها أننا نعبد الله تعالى لأننا ملكه..

وذلك أننا لم نخلق أنفسنا ولم نخلق غيرنا ولم يخلقنا أحد سواه؛ فالخالق هو من أوجد هذا المخلوق وأوجد له أسباب الحياة والاستمرار وهو الذي خلق طريقة خلق الأناسيّ جيلًا بعد جيل، والبشر بالتزاوج مجرد أسباب، لكنه تعالى متولٍّ جميع الأمر خلقًا وإيجادًا.

والخالق الموجد يمْلك ما خلقه..

وللمالك حق الملكية على مملوكه، والمملوك عبد لخالقه، وحق لهذا العبد أن يتوجه بالعمل بحسب ما أمره خالقه الكريم وموجده الأعلى سبحانه وقد جاء القرآن بهذه الأدلة العقلية في أكمل صورها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [فاطر:٣]، وقال: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الواقعة]، وقال: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطّور].

وبالتالي فنحن - أمام ربنا تعالى - لسنا أحرارًا بل عبيد، وهذه العبودية لربنا تعالى تحررنا وتقوينا وترفعنا عن العبودية لمن سواه، من شهوة مذلة أو سلطة طاغية أو مجتمع منحرف أو عادات ضاغطة أو سوى ذلك، وتجعلنا

أقوى وأكثر حرية وأعلى رفعة.

❁❁❁❁

- **إنّنا مدينون.. مغْمورون بالنّعم:**

نعبد الله تعالى لأننا لم يتركنا خالقنا هملًا، ولم تسر الأمور بعد أن خلقنا بطريقة آلية؛ بل هو القيوم، والقيوم هو القيام، وهما بمعنًى واحد، معنى القيام على شؤون الخلق وإصلاح أحوالهم، فلا نفس لإنسان أو يوم يمر عليه أو رزق يأتيه أو نعمة تمنح له أو مصاب يصيبه أو حدث يحدث إلا بإذن ربه وعلى مقتضى حكمته ورحمته وعدله.

وبالتالي فأرزاقنا المتتالية ومراحل عمرنا وتعاقب الأيام علينا ومرور الساعات، بل وتعدد الأنفاس هي بأمره تعالى وإذنه.

ليست هناك طريقة آلية لسير الحياة بل هناك رب قيوم على كل شيء وكل حدث وكل مخلوق في كل مكان، ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس:٣١]، ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرّحمن:٢٩]، ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطّلاق]، ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطّلاق]، ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرّعد:٢٦]، ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾
[الشّورى]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزّخرف]، ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
بِبَعِيدٖ﴾ [هود]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النّحل:١٨]، وغير ذلك
كثير.

وعلى هذا فنحن مدينون لمن أغرقنا بنعمه ولمن هو قائم علينا كل لحظة برعايته وكفالته، ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الأنبياء:٤٢]، «أيْ بدلًا عنْ الرّحْمن، هذا أصحّ القوْليْن»(١) ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرّعْد:٣٣].

وهؤلاء العبيد المدينون بالرعاية والكفالة كل لحظة، والمحاطون بقدره تعالى في كل حال، هم مدينون دينونة توجب لهم الامتنان والذل للقيوم تعالى؛ فيتوجب عليهم التوجه إليه بالشكر بالتزام منهجه وامتثال أمره، وإلا أعطوا طاعتهم وعبوديتهم لغيره ممن لم يعطهم ولم يمن عليهم ولا يملك لهم شيئًا، حتى نفوسهم وأهواؤها لا تستحق أن تصرف لها العبادة والطاعة والاتباع لما تهواه، لأن الطاعة فيما تهوى عبودية، ولا يستحق العبودية سواه؛

---

(١) مجْموع الفتاوى (٢٧/ ٤٤١).

فالنفس مخلوقة والهوى مخلوق، وهما غير الله، ولا يجوز التعبد لغيره لأنه لم ينعم سواه، كما لم يخلق سواه.

❁❁❁❁

▪ لأنّك مقْهورٌ وميّتٌ.. ومساقٌ إليْه:

نعبد الله لأننا لو لم نتوجه إليه على وجه البر والوفاء، والشكر والامتنان، فنحن راجعون إليه بعد الموت قهرًا، وهو محاسب ومجازي، والأمر جاد جدًّا، ولو وجهتنا أهواؤنا إلى غيره فإليه المرجع، شئنا أم أبينا، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانْشقاق]..

فنحن أموات، ومجزيون، ومدينون عند الله حسابًا وجزاءً.. فمن لم يحركه معنى الملك ومعنى القيومية فليذهب لربه ولو قهرا، وليعدّ قبل اللقاء جوابًا، فـ «إنا لله» ملكًا «وإنا إليه راجعون» حتمًا، وأنت إلى الله سائر.

وقد ذكّر القرآن بحقيقة الرجعة إلى الله تعالى مرارًا فقال للطاغية: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق]، وقال لمعدّد المال مستغنيًا به عن ربه: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾ [الهمزة]، وقال للظالم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبْراهيم:٤٢]، وقال للغافل: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ

﴿ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء].

بل ذكّر القرآن بهذه الحقيقة في سفر الدنيا ومواقفها بسفر الآخرة فقال عند ركوب الدابة: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزّخْرف]، فذكر سفر الآخرة عند ذكر سفر الدنيا، وجعل السفر القليل منبها على السفر الأعظم.

وعندما ذكر زاد السفر القليل ذكّر بزاد السفر الأعظم؛ فلما ذكروا زاد سفر الحج قال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [البقرة:١٩٧].

فهذا اللقاء حاضر ويقترب كل لحظة، سواء رضيت أم لم ترض، وهذا مذكّر بحق الله وحق عبوديته.

❁❁❁❁

▪ الله خيْر شيْءٍ.. إنّه الصّمد:

نحن نعبد الله لأنه خير شيء، وأكمل شيء، وأعظم شيء، وأحلم شيء، وأرحم شيء، وأقدر شيء..

وهذا معنى اسمه تعالى الصمد «عنْ ابْن عبّاسٍ، في قوْله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾

يقـول: الـسّيّد الّـذي قـدْ كمـل في سـؤْدده والـشّريف الّـذي قـدْ كمـل في شـرفه والْعظيم الّذي قدْ كمل في عظمته والْحكيم الّـذي قـدْ كمـل في حكْمتـه والْغنـيّ الّذي قدْ كمل في غناه والْجبّار الّذي قدْ كمل في جبروته والْعالم الّذي قدْ كمـل في علْمه والْحليم الّذي قدْ كمل في حلْمه وهو الّذي قدْ كمـل في أنْـواع الـشّرف والسّؤْدد وهو الله عزّ وجلّ هذه صفةٌ لا تنْبغي إلّا له ليْس له كفؤٌ ولـيْس كمثْلـه شيْءٌ سبْحانه الْواحد الْقهّار»[1].

لا أحـد خيـر مـن الله، ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النّمـل]، ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [سبأ]، ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف]..

ومن عرفه ذاب حبًّا وشوقًا إليه، بل لتقطعت أوصاله من الحب والـشوق؛ فلا أحلم ولا أرحـم مـن الله، ولا أعظـم ولا أكـبر منـه، ولا أحـد أحـق بالحمـد منه، ولا أحق بالطاعة والعبودية منه سبحانه وتعالى.

❁❁❁❁

---

(١) مجْموع الفتاوى (٨/ ١٤٨-١٥٠).

▪ فقراءٌ لعبادته:

ونحن نعبد الله تعالى لأننا محتاجون إلى عبادته وطاعته؛ فلا يستقل الخلق بالشرائع المصلحة لهم في الدارين وعلى وجه العموم والاطراد، ولكن الشرائع المصلحة والعادلة هي الشرائع الربانية التي جاءت للإنسان من حيث هو إنسان، وليست لجنس أو عرق معين.

ونحن محتاجون إلى حبه، وقلوبنا تقصده ولا تقنع بما دونه، ولا ترتاح قلوبنا ولا يقر لها قرار إلا أن تصل إلى مبتغاها..

نحن فقراء إلى الله في كل لحظة؛ فقراء ليطعمنا ويغْذونا ويكسونا ويشفينا ويعافينا، وفقراء لربنا نعبده ونحبه ونقصده ونسعى إليه ونكدّ ونسعى إلى جنابه تعالى، وإذا لم نعبده ونحبه ونقصده ظلت نفوسنا في سعر وجحيم نفسي وشقاء وتعب وهجير ولفح؛ حيث لم تستقر، ولن تستقر إلا أن تطلب معبودها وخالقها.

فقرنا إلى الله وصف لازم لنفوسنا من حيث أننا مخلوقون، فهو وصف لا ينفك عنا، بينما الغنى وصف لله تعالى، لازم لربنا وحده؛ إذ إنه الخالق، وكل ما سواه مخلوق ومربوب وفقير إلى الله، وهذا معنى قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

✲ ✲ ✲

الجنَّــــة..

دارنـا الأولى

إذا امْتنعتْ النّفْس، فاحْمِلْها على الجنّة

- للعقيدة تكاليفٌ.. وللتّوْحيد مواقفٌ يسْتوْجبها:

فللتكـاليف الـشرعية مـن الحـلال والحـرام، والواجبـات، والـضوابط الشرعية والقيم الربانية، لكل هذا تكاليف، يعلمهـا الله تعـالى ويعلـم مـا تتكبـد النفوس مـن أجـل القيـام بهـا، فقـد تتكلـف مـالًا أو حمـلًا نفـسيًا بالـصبر ومنـع النفس وكفها وحبسها، أو بدفع تكاليف أعظم قـد تبلـغ دفـع الحريـة أو الحيـاة أو الغربة أو ترك شيء من مراعاة أحوال الدنيا والمعيشة أو غير ذلك.

وعندما تنظر النفس في التكاليف قد تـرى فيهـا مـشقة مـا، وهـي في العمـوم مـشقات معتـادة وغيـر خارجـة عـن الطاقـة بـل هـي أقـل مـن وسـع الإنـسان، فتكاليف الله تعالى في سعة النفس بمعنى يسْرها كما فسرها «سفيان بـن عيينـة» وأثنـى «ابـن تيميـة» علـى تفـسيره، وقـال أن قـصد الإمـام «سـفيان» رَحِمَهُ اللهُ أن التكاليف لـم تبلـغ غايـة الطاقـة بـل هـي أقـل مـن غايـة طاقـة الإنـسان، فهـي في ميسوره..

يقول «ابن تيمية» رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ قال سفْيان بْن عييْنة في قوْله: ﴿إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ إلّا يسْرها لا عسْرها ولمْ يكلّفْها طاقتها ولوْ كلّفها طاقتها لبلغ الْمجْهود. فهذا فهْم أئمّة الْإسْلام»(١).

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ [الأعلى]، ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، ولهذا قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحجّ:٧٨].

ورغم ذلك فللأحكام الشرعية وللعقيدة الربانية تكاليف في نفس الإنسان، مصادمة لهواه، وتستلزم بعض المشقات مشابهة للمشقات المعتادة في الحياة من جنس ما نلاقي في اكتساب الرزق أو تربية الولد أو معالجة سائر الأمور.

تلك المشقات - وإن كانت معتادة- وتلك المصادمة للهوى وللشهوات، وذلك الحبس للنفس عن الحرام، والصبر على الأذى، والكف عن العدوان، وبذل الأموال المفروضة لله وبذل النفوس إذا أمر الله تعالى..

أمام هذا قد تستثقل النفس الأحكام أو تتهرب من المشقات أو ترى أنها حرمت من ملذاتٍ تهواها وشهوات تحبها بينما غيرها يهتبل من الحرام

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٤/ ١٣٨).

ويوغل فيه بلا ضابط ولا مراقبة ولا محاسبة بل ولا تأنيب ضمير!..

وعندئذ يجب أن نخاطب نفوسنا بما يأخذ بقيادها إلى ربها تعالى..

ومن هذا الخطاب هذه الحقيقة التي ننساها، وهي أننا لا نمنعها بعض متاع الدنيا وشهواتها منعًا بحتًا، وإنما هو منع مرشّد لامتثال التكليف وإقامة المصالح الشرعية.

وهو ليس منعا مجردًا، بل امتناع من أجل خير عظيم، أعظم بكثير مما تركته من أجل الله تعالى.. أعظم في مداه، وفي إمكاناته، وفي بقائه، وفي مستوى لذته.

فالمنع البحت ثقيل على النفوس وقد لا تستمر عليه كثيرًا، أما المنع القليل من أجل خير لا يحده حادّ - إلا خالقه- فهذا تعقله النفوس، ﴿ **مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النّحل:٩٦]، ﴿ **قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ** ﴾ [النّساء:٧٧]، وقال: ﴿ **نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا** ﴾ [لقمان:٢٤].

❁❁❁❁

- **ربح البيْع:**

إلى هنا فالتأثير للعقل لا على القلب والمشاعر..

أما لكي تتأثر نفوسنا وتنفعل بهذه الحقائق، من أجل التربية على هذا

الدين؛ فالخطوة العملية هي معايشة الآخرة والتدبر فيما وعد الله، وهذا مأخذ الأنصار رضي الله عنهم عند مبايعتهم لرسول الله ﷺ ليلة العقبة فسألوا ما يكون لهم مقابل ما سيقْدمون عليه من أمر جلل ومن مواجهة سائر العرب؛ بل سائر الدنيا، قالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال : «**الجنة**»، قالوا: «ربح البيْع»[1].

فإن الله عز وجل لم يذكر الآخرة ويذكر تفاصيل نعيمها إلا لتعايشها النفوس وتشتاق إليها؛ فيؤثر فيها وتنفعل بها وتنطبع بها، بل لتعيش في الآخرة أكثر من الدنيا كما كان أصحاب «محمد» ﷺ الذين فتحوا الدنيا وحملوا الخير للعالمين.

❁❁❁❁

▪ اليقين فارقٌ:

ولكن هنا أمر مفْصل؛ وهو قوة التصديق واليقين، فيكون السؤال هنا كيف تكتسب هذه القوة لليقين والتصديق؟ هذا من طريقين..

الأول: التفكر في الآخرة وتدبر ما أنزل الله تعالى في شأنها، ومعرفة معاني

---

(١) قال الطّبريّ في تفْسيره (١٢/ ٧) [التّوْبة:١١١]: «قال عبْد الله بْن رواحة لرسول الله ﷺ: اشْترطْ لربّك ونفْسك ما شئْت قال: «**أشْترط لربّي أنْ تعْبدوه ولا تشْركوا به شيْئًا، وأشْترط لنفْسي أنْ تمْنعوني ممّا تمْنعون منه أنْفسكمْ وأمْوالكمْ**» قالوا: فإذا فعلْنا ذلك فماذا لنا؟ قال: «**الْجنّة**» قالوا: ربح الْبيْع لا نقيل ولا نسْتقيل».

ما أنزل وما بشّر به فقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشّورى].

الثاني: التعبد والعمل بالعلم؛ فإن التعبد والذكر يعود على القلب باليقين بتنزل الملائكة بلمّة الخير وهي التصديق بالحق والإيعاد بالخير، كما في حديث «عبد الله بن مسعود» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخبر بتنزل الملائكة بأمرين..

١. «التصديق بالحق» فيزداد العبد تصديقًا إلى تصديقه السابق ويزداد يقينه..

٢. وتنزلها بالأمر الثاني وهو «إيعاد بالخير» فيكون تنزلا بإرادة الخير وزيادة الرغبة فيه.. وهذا من جزاء الحسنة.

وتعبير القرآن موحٍ جدًّا، وعميق التأثير، وهو كافٍ في تعريف الجنة؛ فألفاظه عميقة والصور التي تنقلها الآيات باهرة، ومن خواصها أنها صور لا تنتهي بل يحتاج الإنسان إلى تمليها طويلًا؛ إذ كلها حياة.

ويمكن الاستعانة بالتفاسير لمعرفة ما غرب من الألفاظ، ولمعرفة بعض أبعاد هذا النعيم بما ورد في الصحيح من حديث رسول الله ﷺ..

ولا بد من الجهد في معايشة ومعرفة حقيقة الدار البديلة التي وعدنا الله إياها، والتي نعمل من أجلها..

وفي هذا الصدد تأتي أوصاف ذكر الجنة في السور الآتية.. الرحمن، والواقعة، والإنسان، ومواقع في الصافات، والحج، وفاطر، ويس،

والنازعات، والقمر وغيرها.. بل لا تكاد تخلو سورة من الإشارة إلى الجنة، إما مجملة وإما مفصلة.

وكذلك جاء في السنة من خلال الأحاديث الصحيحة، فقد ورد فيها وصف الجنة كما في صحيح «البخاري» و «مسلم» و «الترغيب والترهيب» و«رياض الصالحين».

إنني أوصي إخواني بهذه المعايشة فلا ثمرة لهذا الوصف الدقيق في الكتاب والسنة إلا بفهمه ومعايشته والشوق إليه، لأنه الدار التي نعمل لها، وهي الباقية، وهي التي ننتظر ونأمل في ربنا أن تزلف إلينا ونصير من ورثتها.

❋ ❋ ❋

الجنَّـــة

دارنـا الّتي نـُرِيـدُ

- **جملٌ وقواعدُ في فهْم الجنّة:**

الجنة اسم لدار خالصة للنعيم، لا شوب كدر فيها ولا تنغيص، ولا نقص ولا موت، ولا انتقال عنها ولا زوال لها..

وهي اسم لدار موجودة الآن ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، فهي موجود ومُعَدَّةٌ، وإن كان يزاد فيها للعبد كلما عمل، أو ينقص كلما أحبط عمله.

الجنة اسم لدار يحصل فيها التنعم ليس فقط بالمخلوقات من المساكن والطعام والشراب والقصور والأنهار وغيرها، بل كذلك للتنعم برؤية الخالق والتلذذ بقربه ومحاضرته تعالى بسماع كلامه، ورؤية وجهه الكريم جل في علاه.

ولهذا خطّأ أهل العلم من ظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيها بالمخلوقات التي أودعها الله إياها فهذا قصور في فهم اسم الجنة ومعناه؛ ولهذا سمع بعض المتصوفة ممن قصر فهمهم لهذا فسمع تاليًا يتلو: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ**

ﭐلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فقال: وأين من يريد الله؟!.

فقال شيخ الإسلام «ابن تيمية» أن سؤاله غلط منه؛ لأنه أخطأ في فهم اسم الجنة؛ فالجنة تشمل جميع أنواع النعيم، وأعلاه النظر إلى وجه الله تعالى، وكل إنسان بحسب همته، قد ينصرف البعض إلى الشوق لما في الجنة من مخلوقات، وهو صواب لأن الله تعالى رغّب فيها، والبعض تنصرف همته إلى ما هو أعلى.

«ولهذا قال بعْض منْ غلط منْ المشايخ لمّا سمع قوْله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ [آل عمران:١٥٢]، قال: فأيْن منْ يريد الله؟ وقال آخر في قوْله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ [التّوْبة:١١١]، قال: إذا كانتْ النّفوس والْأمْوال بالْجنّة فأيْن النّظر إليْه؟، وكلّ هذا لظنّهمْ أنّ الْجنّة لا يدْخل فيها النّظر. والتّحْقيق أنّ الْجنّة هي الدّار الْجامعة لكلّ نعيمٍ وأعْلى ما فيها النّظر إلى وجْه الله وهو منْ النّعيم الّذي ينالونه في الْجنّة؛ كما أخْبرتْ به النّصوص. وكذلك أهْل النّار فإنّهمْ محْجوبون عنْ ربّهمْ يدْخلون النّار»[1].

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٦٣).

ويقول: «ومنْ قال منْ هؤلاء: لمْ أعْبدْك شوْقًا إلى جنّتك ولا خوْفًا منْ نارك، فهو يظنّ أنّ الْجنّة اسْمٌ لما يتمتّع فيه بالْمخْلوقات والنّار اسْمٌ لما لا عذاب فيه إلّا ألم الْمخْلوقات، وهذا قصورٌ وتقْصيرٌ منْهمْ عنْ فهْم مسمّى الْجنّة، بلْ كلّ ما أعدّه الله لأوْليائه فهو منْ الْجنّة والنّظر إليْه هو منْ الْجنّة، ولهذا كان أفْضل الْخلْق يسْأل الله الْجنّة ويسْتعيذ به منْ النّار، ولمّا سأل بعْض أصْحابه عمّا يقول في صلاته، قال: إنّي أسْأل الله الْجنّة وأعوذ بالله منْ النّار أما إنّي لا أحْسن دنْدنتك ولا دنْدنة معاذٍ فقال: «**حوْلها ندنْدن**»[1]، وقدْ أنْكر على منْ قال هذا الْكلام يعْني أسْألك لذّة النّظر إلى وجْهك فريقٌ منْ أهْل الْكلام ظنّوا أنّ الله لا يتلذّذ بالنّظر إليْه وأنّه لا نعيم إلّا بمخْلوق. فغلّط هؤلاء في معْنى الْجنّة كما غلّط أولئك لكنّ أولئك طلبوا ما يسْتحقّ أنْ يطْلب وهؤلاء أنْكروا ذلك»[2].

فالجنة ليس المقصود بها فقط الطعام والشراب، بل القرب من رب العالمين ورؤية وجهه وسماع كلامه والتلذذ بذكره وبدوام تسبيحه مع الأنفاس. وهذا ليس تزهيدًا فيما أودعها الله تعالى، ولكن هذا بيان للمراتب العليا في نعيمها وما تضمنته.

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٧٩٢) كتاب الصّلاة- بابٌ في تخْفيف الصّلاة، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٣١٦١) وقال: «صحيحٌ».

(٢) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٠-٢٤١).

❁❁❁❁

▪ تشْبه الدّنْيا في الأسْماء فقطْ:

وأما ما أودع الله تعالى فيها فانظر إلى هذه الكلمة الجامعة لحبر الأمة «ابن عباس» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يقول: «ما منْ شيْءٍ في الدّنْيا يشْبه شيْئًا في الجنّة إلّا في الإسْم»[١]، والمعنى أن الله تعالى قرب إلينا الجنة بأسماء ما نعرف في الدنيا لكي نستطيع تصور ما خاطبنا تعالى، وأما كُنْهُ هذا النعيم وطعوم هذه اللذّات فهي كما يقول «البيضاوي»: «ما لا يخْطر بالبال أوْ يدور بالخيال»[٢]..

فإذا علمت هذه القاعدة تصورت الأمر وعلمت أن حقيقته فوق ما تتصور، ولهذا حق للعبد أن يفهم كلمة رسول الله ﷺ وهو يقول: «**والله ما الدّنْيا في الْآخرة إلّا مثْل ما يجْعل أحدكمْ إصْبعه هذه - وأشار يحْيى بالسّبّابة- في الْيمّ، فلْينْظرْ بم ترْجع؟**»[٣].

---

(١) رواه الطّبريّ في تفْسيره (١/ ٤١٦) [البقرة:٢٥]، بلفْظ: «ليْس في الدّنْيا من الْجنّة شيْءٌ إلّا الْأسْماء»، وروى مثْله في نفْس الموْطن عنْ مُؤَمَّل بْن إسْماعيل.

(٢) ما وجدْناها عنْد البيْضاوي في تفْسيره، وقدْ وردتْ في تفْسير السّعْديّ (ص٨١٥) [الطّور] منْ قوْله وشرْحه، قال: «اجْتمع لهمْ منْ نعيم القلْب والرّوح والبدن ما لا يخْطر بالبال، ولا يدور في الخيال».

(٣) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٥٥ (٢٨٥٨) كتاب الْجنّة وصفة نعيمها وأهْلها- باب فناء الدّنْيا وبيان الْحشْر يوْم الْقيامة.

فما وعدنا تعالى به لو اجتمعت الدنيا كلها لعبد ما كانت في جانب وعد الله إلا بمقدار ما يعلق بأصبعك إذا وضعته في اليم وأخرجته مقارنة بما بقي في ذلك البحر.. أعلمت ما وعد الله؟ هكذا إذن هي الحقيقة فاخبرها وذكّر بها تلك النفس النافرة الناسية.

❁❁❁❁

- مخالفةٌ لذبول الدّنْيا:

وثمة قاعدة ذات شأن في فهم الجنة، وقد أقسم «أبو هريرة» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عليها: «والّذي أنْزل الْكتاب على محمّدٍ، إنّ أهْل الْجنّة ليزْدادون جمالًا، وحسْنًا، كما يزْدادون في الدّنْيا قباحةً وهرمًا»[1].

وهو أمر مخالف للدنيا وما جبلت عليه، ولا بد أن تعرف هذا الفرق المطّرد لتعلم أنها دار غير الدار، فلا تبلوها السنون ولا تغيرها الأيام بل إلى الأجمل والأشب والأنعم بإذن ربهم تعالى..

❁❁❁❁

- يريد الله أنْ ينعّم أهْلها:

---

(١) رواه ابْن أبي شيْبة في مصنّفه (٣٤٠٠٥) كتاب الجنّة- ما ذكر في الْجنّة وما فيها ممّا أعدّ لأهْلها، وأبو نعيْمٍ في «صفة الجنّة» (٢٦٤) صفة رجال أهْل الجنّة، واللّفْظ له.

وقد ذكر بعض أهل العلم قاعدة أخرى، وهي أن الناس في الدنيا يتمتعون بمقدار قدرتهم على المتعة وبمقدار ما ينالون منها، ولكن في الجنة يمتعهم الله تعالى بقدرته تعالى على أن يمتعهم بلا نهاية ولا أمد، وبجدّة كل يوم.

❁❁❁❁

▪ هذا الأدْنى فما بالك بالأعْلى:

قاعدة عظيمة في وصف الجنة اطردت في كتاب الله تعالى، وهي التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ بمعنى أن يصف الله تعالى أمورًا اهتمامنا بها أقل من غيرها، ويخبر تعالى بعظم وصفها، لنفهم أنه إن كان هو الأدنى فما بالنا بالأعلى؟ فهو أعلى مما نتصور.

ومن هذا وصفه تعالى لبطائن الفرش التي يتكيء عليها ملوك الجنة، فوصف تعالى البطائن وهي مما يلي الأرض أو هي داخل حشوة الفرش، ولم يصف تعالى الظواهر مما نباشره بالعيون والاتكاء، من باب دلالة الأوْلى؛ فالبطائن التي ليست محل احتفاء، هي من إستبرق وهو حرير الجنة، فكيف تكون الظواهر التي هي محل اهتمامنا؛ فيتضح من هذا الإكرام العظيم من رب العالمين لأهل جنته، حتى قال «السدّيّ» أن ظواهرها من نور جامد[1]،

---

(١) تفْسير الثّعْلبيّ (٩/ ١٩٠)، وتفْسير البغويّ (٧/ ٤٥٣) [الرّحْمن:٥٤]، وعزياه إلى سعيد بْن جبيْر، وكذا أوْرده ابْن كثيرٍ في تفْسيره (٧/ ٤٦٤) وقال: «وقال سفْيان الثّوْريّ أوْ شريكٌ».

والله أعلم بتفصيل ذلك.

كما ذكر تعالى الصحاف التي يؤكل فيها أنها من ذهب، ولم يذكر ما فيها، واهتمامنا بالصحاف أقل من اهتمامنا بما فيها من طعام، ولكن الوصف عظم جدًّا للصحاف تنبيهًا على أنه إن كان هذا هو الاهتمام بالآنية فما بالكم بما فيها؟..

ومن هذا تعبير القرآن عن كل ما وصفه تعالى عن الجنة بقوله: ﴿ نُزُلًا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصّلتْ]، أو غير ذلك من المواضع، والنزل هو أول ما يعد للضيف من الضيافة على وجه العجل، أما الضيافة نفسها فأمر وراء ذلك، يقول الإمام «البيضاوي»: «وفي ذكْره دلالةٌ على أنّ ما ذكر منْ النّعيم لأهْل الجنّة بمنْزلة ما يقام للنّازل، ولهمْ وراء ذلك ما تقْصر عنْه الأفْهام»[1].

❁❁❁❁

▪ وصْف آخرهمْ دخولًا:

قاعدة عظيمة في فهم الجنة وهي وصف ملك أدنى أهل الجنة، وهو رجل من المتلوثين بالذنوب والخطايا، بل كثرت خطاياه حتى دخل النار، بل كثرت خطاياه، لدرجة أنه لمّا جرت الشفاعات وخرج مذنبو الموحدين من

---

(١) تفْسير البيْضاويّ (٥/ ١١) [الصّافّات:٦٢-٦٦].

النار تأخر خروجه من النار حتى خرج كل المذنبين قبله، مع جرائمهم الشديدة، وتأخر خروجه حتى كان آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة؛ فلما خرج لم يبق في النار إلا المشركون الذين أطبقت عليهم النار أبدًا بلا أمل خروج.

يصف رسول الله ﷺ، بما أوحى الله إليه، نعيم هذا الرجل بعد آماد العذاب فيقول: «**إنّ أدْنى أهْل الْجنّة منْزلةً لرجلٌ ينْظر في مُلْكِه ألْفيْ سنةٍ يَرَى أقْصاه كما يَرَى أدْناه**»(١).

روى «أبو يعْلي»، عنْ ابْن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أدْنى أهْل الْجنّة منْزلةً لمنْ ينْظر في مُلْكِه ألْفيْ سنةٍ يَرى أقْصاها ينْظر إلى أزْواجه وسرره، وإنّ أفْضلهمْ منْزلةً لمنْ ينْظر إلى وجْه الله كلّ يوْمٍ مرّتيْن**»(٢).

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (٤٦٢٣)، قال شعيْب الأرْنؤوط (٨/ ٢٤٠): «إسْناده ضعيفٌ»، والحاكم في «المسْتدْرك على الصّحيحيْن» (٣٨٨٠) كتاب التّفْسير- تفْسير سورة القيامة، وقال: «هذا حديثٌ مفسّرٌ في الرّدّ على الْمبْتدعة، وثويْر بْن أبي فاختة، وإنْ لمْ يخرّجاه فلمْ ينْقمْ عليْه غيْر التّشيّع»، وقال الذّهبيّ في التّلْخيص (٢/ ٥٥٣): «بلْ هو واهي الحديث». وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (١٣٨١) وقال: «ضعيفٌ». ورواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٥٥٣) جميعهم منْ حديث عبْد الله بْن عمر رضي الله عنهما، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (١٣٨٢) وقال: «ضعيفٌ».

(٢) رواه أبو يعْلى في مسْنده (٥٧٢٩)، قال حسيْن سليم أسد (١٠/ ٩٧): «إسْناده ضعيفٌ». وإنْ كان الحديث ضعيفًا إلّا أنّ الأدلّة الصحيحة على سعة الجنّة لأدْنى أهْلها فضْلًا عنْ اتّساع نعيمها لأعْلى أهْلها منْزلةً، كثيرةٌ ومتواترةٌ تواترًا معْنويًّا.

ومعنى الحديث أن من عظمة سعة ملكه أنه ليقلب بصره في نعيمه في الجنة، نظرًا واطلاعًا لما فيه من عظمة وسعة وتنوع، استغرق مدة الألفي عام، وهذه المدة لم تكن لأن أقصاه بعيد عنه وهو يسعى ليتفحصه، كلا بل ليست هناك أدنى صعوبة أو تعب يتكلفه لينظر في أي جزء من نعيمه كان قاصيًا أو دانيًا، بل القاصي كالداني، وإنما المدة العظيمة، ألفان من الأعوام، فقط يتفحص فيها أملاكه وما أعد له ربه تعالى، لا عن صعوبة في رؤية أقصاها بل لتنوعها وثرائها.

فإن كان هذا نعيم وملك أدنى أهل الجنة وآخرها دخولًا، فكيف بمن فوقه ممن سبقه خروجًا من النار؟، وكيف بمن سبقه ممن لم تمر به سابقة عذاب بل دخل الجنة بلا عذاب بأن رجحت حسناته أو غفر الله له قبل دخول النار؟ فكيف بنعيم السابقين المقربين؟ ومن دخل الجنة بغير حساب؟ فاللهم رحمتك نرجو.

❁❁❁❁

▪ حالةٌ نفْسيّةٌ فريدةٌ.. لا تتحمّلها في الدّنْيا:

قاعدة أخرى أشار إليها القرآن وفسرها بعض السلف وهي الحالة النفسية لملوك الجنة، وكل أهلها ملوك.

ففي قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس]،

فالخوف يكون على المستقبل فنفاه عنهم، والحزن يكون تحسرًا على أمر يفوت الإنسان؛ فنفى الله تعالى عنهم حزنهم على شيء يفوتهم.

إذ إن من دخل الجنة لم يفته شيء فلا يبكي أبدًا على أمر فات في الدنيا، ولا يندم أحد إلا على تفريطه في الطاعة.

كما أن أهل الجنة قد وضع الله تعالى في قلب كل منهم الرضا فينظر إلى من فوقه في المنزلة ولا يجد في نفسه ولا يحزن على تفاوت الدرجات، بل الكل راضٍ عن ربه وعن ملكه وعطائه إذ هي دار الرضا، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقّة].

فلا يمر على أهل الجنة يوم واحد ولا لحظة واحدة من القلق أو الخوف أو الهمّ على المستقبل، كما لا يمر بهم لحظة واحدة يندمون فيها على أمر يفوتهم.. إنها حياة عجيبة لم يعهدها مخلوق بشري.

وفي وصف الحالة النفسية جاء قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر]، فلا تعب ولا نصب ولا إرهاق ولا حزن، فكل مرغوبهم مبذول لهم.

وجاء عن «ثابت بن مسلم البناني» تلميذ «أنس بن مالك» رَضِوَاللَّهُعَنْهُ صاحب رسول الله ﷺ، قال: «**إذا دخل المؤْمن الجنّة وجد سَوْرَة فرْحةٍ، لوْ فرحها في**

الدنْيا لمات، فيقال له: أرأيْت سَوْرَة فرْحتك هذه؟ فيقول نعمْ، فيقال له: فأنْت فيها أبدًا»(١)، ومعنى الكلام أن مستوى فرحته المستقر في الجنة والدائم لو فرحه لحظة واحدة في الدنيا يموت من شدة الفرح ولا يتحملها، وهذه الحالة هي له في الجنة ليست لحظات دون أخرى وليست لحظات وتنتهي؛ بل هي الحالة الدائمة لهم ولنفوسهم الراضية المرضية هناك.

والجو العام لهم هو الرضا والسلام الذي يلقيه الله تعالى عليهم، ﴿ **سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ٥٨ ﴾ [يس].. ولذا عندما سئل الإمام «أحمد»: «متى يجد العبْد طعْم الرّاحة؟ قال: عنْدما يضع أوّل قدمٍ في الجنّة»(٢).

والمقصود أن تضع أمامك هذه الراحة غاية تعمل دونها، فما قبلها عمل دؤوب لا ينقطع وليس قبل هذه الغاية قعود ولا تباطؤ ولا توقف عن العمل.. أعاننا الله وإياك.

❀❀❀❀

---

(١) وروى نعيْم بْن حمّادٍ في زياداته على كتاب الزهْد والرّقائق لابْن المبارك، عنْ حميْد بْن هلالٍ قال: «ذكر لنا أنّ الرّجل إذا دخل الْجنّة صوّر صورة أهْل الْجنّة، وألْبس لباسهمْ، وحلّي حلْيتهمْ، وأري أزْواجه، وخدمه، يأْخذه سوار فرحٍ، لوْ كان ينْبغي له أنْ يموت لمات منْ سوار فرحه، فيقال له: أرأيْت سوار فرْحتك هذه، فإنّها قائمةٌ لك أبدًا».

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٣).

▪ إطْلاق الأماني لأهْلها.. والكثير مخبأٌ لهمْ:

في الجنة شأن فريد، أنه تُطْلَقُ للإنسان أمانيه، فيقول تعالى في كلمة هي قاعدة كلية، ﴿ **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا** ﴾ [ق:٣٥]، وانظر لو أطلقت للإنسان الأماني؟! ولكن يُطْلِقُ الله تعالى له كل أمانيه هكذا بلا محاشاة..

ليس هذا فقط، بل جاء في الحديث أن الله تعالى يُذَكِّرُ عبدَه بما نسي ليتمناه فيقول له: «**تَمَنَّ مِنْ كذا وتَمَنَّ مِنْ كذا**»(١)!.

بل يتخطى نعيمهم هذا إلى استمرار المزيد دومًا بلا انقطاع، فكل يوم لهم من الله تعالى مزيد، وعنصر الجدّة - وجود الجديد- حالة دائمة لهم كما يقول «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

بل يتخطى نعيمهم إلى مرحلة أخرى لا حدود لها، وهي أن هناك في الجنة ما لا يعلمونه، فنحن لا نشتهيه في الدنيا لأننا لا نعلمه لكي نتصوره فنشتهيه، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ [السّجْدة:١٧] الآية، وجاء الحديث الذي في الصحيحين: «**أعْددْت لعبادي**

---

(١) رواه ابْن حبّان في صحيحه (٧٤٢٩) كتاب إخْباره ﷺ عنْ مناقب الصّحابة- باب وصْف الجنّة وأهْلها، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال شعيْب الأرْنؤوط (١٦/ ٤٥٢): «حديثٌ صحيحٌ».

الصّالحين ما لا عيْنٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلْب بشرٍ»[١]، وفي حديث «موسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما سأل ربه تعالى عن أدنى أهل الجنة منزلة فأخبره، ثم سأله عن أعلاها، فقال: «**أولئك الّذين أردْت غرسْت كرامتهمْ بيدي، وختمْت عليْها، فلمْ تر عيْنٌ، ولمْ تسْمعْ أذنٌ، ولمْ يخْطرْ على قلْب بشرٍ**»[٢].

وجاء من طرق شتى أن جنة عدن شرّفها تعالى بأن خلقها تعالى بيده وليس بأمره للملائكة كبقية الجنات، وأنها داره تعالى يسكنها صفوة خلقه، وأنه ينظر إليها تعالى كل سحر ويقول لها: «**تَزَيَّني، فيوشِك عبادي الصالحون أنْ ينْقلبوا إليْك**»[٣].

---

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٣٢٤٤) كتاب بدْء الخلْق- باب ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخْلوقةٌ، ومسْلمٌ في صحيحه ٢ (٢٨٢٤) كتاب الْجنّة وصفة نعيمها وأهْلها، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٣١٢ (١٨٩) كتاب الإيمان- باب أدْنى أهْل الْجنّة منْزلةً فيها، منْ حديث المغيرة بْن شعْبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أحْمدُ في مسْنده (٧٩١٧) بلفْظ: «**ويزيِّن الله عزّ وجلّ كلّ يوْمٍ جنّته، ثمّ يقول: يوشِك عبادي الصّالحون أنْ يلْقوا عنْهم الْمئونة والأذى ويصيروا إليْك**» في حديثٍ أطْول في فضْل شهْر رمضان، قال شعيْب الأرْنؤوط (١٣/ ٢٩٥): «إسْناده ضعيفٌ جدًّا»، ورواه البزّار في مسْنده (٨٥١٧)، والبيْهقيّ في شعب الإيمان (٣٣٣٠) كتاب الصّيام- باب فضائل الصّوْم. وقال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (٣/ ١٤٠): «رواه أحْمد والْبزّار، وفيه هشام بْن زيادٍ أبو الْمقْدام، وهو =

فانظر إلى إطلاق الأماني، ثم التذكير للتمني، ثم المزيد الدائم، ثم ما خبّيء لهم مما لا يتصورونه، ثم مجاورة الرب في دار خلقها بيده وطبع عليها ولم يطلع عليها أحدًا، لا ملكًا ولا غيره، حتى يأتيها أهلها؛ أصفياء الله وأولياؤه.

❁❁❁❁

- **المؤْمنات أعْلى وأجْمل:**

الجنة ليست للرجال وحسب بل هي للمؤمنات وهن في الجنة أفضل من الحور لأنها دخلت الجنة بعد عبادة الله تعالى، وليست للتنعم فقط كالحور، ولهذا جاء في الأحاديث أنهن أفضل من الحور وأجمل منهن، وأنهن ملكات تخدم.

❁❁❁❁

- **جملٌ عنْ الحور:**

في الجنة حور، ولا نذكر هنا تفصيل وصفهن، ولكن نذكر هنا عدة جمل كقواعد في معرفتهن ووصفهن..

=

ضعيفٌ».

ومما نذكره في هذا.. أن من وصفها بالجمال ليس مخلوقًا قد يبالغ أو يخطيء في الوصف؛ بل من وصفهن هو خالقهن تعالى، وقد أبرز ربنا سبحانه جمالهن ووصفه بأنهن كالياقوت والمرجان، يعني في الصفاء والبياض، وأنهن كالبيض المكنون فهي مصانة، وأنهن كأمثال اللؤلؤ المكنون، ولهذه الأوصاف تفصيل يطلب في تفسير الآيات، ولكن أثبت هنا فقط هاتين القاعدتين:

١. أن الاتفاق بين الجنة والدنيا إنما هو في الأسماء فقط.

٢. وأن من وَصَفَ حُسْنَهُنَّ وطبيعتهن هو الخالق جلّ جلاله فهو وصْف صدقٍ وحقٍ، والحمد لله.

وما ذكره تعالى عنهن ليست هي المتعة الجسدية فقط، وهي كمتعة في نفسها وغريزة إحدى طاقات الإنسان الأساسية وإحدى متعه الرئيسية والتي يضل بسببها وينحرف الكثيرون، وصبر المؤمن على العفة في شأنها له جزاؤه العظيم..

ولكن ثمة جانب آخر وهو جانب الشعور والعاطفة، فذكر تعالى عنهن وصف «العُرُب»، وهي العاشقات المتحببات لزوجها والشغوفة به؛ لا تجد في الجنة شيئًا أطيب منه محبة وحديثًا ووصالًا.

وذكر تعالى عنهن وصف «الأتراب»، وهي السن المستوية، فهي ترب

لزوجها ليكون أكثر تلاؤمًا لنفسه، وهو جانب عميق للشعور البشري.

❁❁❁❁

كملوا في دار الكمال:

في الجنة جملة أخرى وقاعدة عظيمة الأثر؛ وهي اكتمال الخلقة والقوة واستواء البدن والخلْق والجمال الظاهر؛ حتى جاء في الحديث أن الرجل يعطى قوة مائة رجل في الجنة[1]، وذكر أن جمالهم على جمال «يوسف» عليه السلام[2]، والصوت كصوت «داود» عليه السلام، وعلى خلْق أبيهم «آدم» عليه السلام ستون

---

(١) روى التّرْمذيّ في جامعه (٢٥٣٦) أبْواب صفة الجنّة- باب ما جاء في صفة جماع أهْل الجنّة، عنْ أنسٍ رضي الله عنه، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: «**يُعْطَى المؤْمن في الجنّة قوّة كذا وكذا من الجماع**»، قيل: يا رسول الله أو يطيق ذلك؟ قال: «**يُعْطَى قوّة مائةٍ**»، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ»، وروى أحمد في مسْنده (١٩٣١٤) عنْ زيْد بْن أرْقم رضي الله عنه يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنّ الرّجل منْ أهْل الْجنّة يُعْطَى قوّة مائة رجلٍ في الْأكْل والشّرْب والشّهْوة والْجماع**». فقال رجلٌ من الْيهود: فإنّ الّذي يأْكل ويشْرب تكون له الْحاجة قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**حاجة أحدهمْ عَرَقٌ يفيض منْ جلْده، فإذا بطْنه قدْ ضَمُرَ**»، قال شعيْب الأرْنؤوط (٣٢/ ٦٥): «حديثٌ صحيحٌ».

(٢) رواه ابْن أبي الدّنْيا في صفة الجنّة (٢٢٠) باب لسان أهْل الجنّة، عنْ أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يدْخل أهْل الْجنّة الْجنّة على طول آدم عليْه السّلام ستّون ذراعًا بذراع الْملك على**

=

ذراعا في السماء، يعني طولهم[1]، وقال شيخ الإسلام «ابن تيمية» أنه جاء في بعض الأحاديث أن عرضهم سبعة أذرع[2].

وذلك أنهم جوزوا باكتمال قواهم فلا آفة في الجنة ولا تنغيص في النعيم ولا نقص في القوة.

وليس هذا فقط ولكن استواء الخلق؛ فجاء في الحديث أنهم على خلق

=

حُسْن يوسف على ميلاد عيسى ثلاثٌ وثلاثون سنةً، وعلى لسان محمّدٍ ﷺ جرْدٌ مرْدٌ مكحّلون»، وهو مرْسلٌ. وروى الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٦٠٤) منْ حديث الْمقْداد بْن الْأسْود رضي الله عنه قال: سمعْت رسول الله ﷺ يقول: «**يُحْشَر النّاس ما بيْن السَّقْط إلى الشّيْخ الْفاني أبْناء ثلاثٍ وثلاثين في خَلْق آدم، وحُسْن يوسف، وخلق أيّوب، مكحّلين ذوي أفانين**»، وقال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (١٠/ ٣٣٤): «رواه الطّبرانيّ، وفيه يزيد بْن سنانٍ: أبو فرْوة الرّهاويّ، وهو ضعيفٌ، وفيه توْثيقٌ ليّنٌ».

(١) روى البخاريّ في صحيحه (٦٢٢٧) كتاب الاسْتئْذان- باب بدْء السّلام، عنْ أبي هريْرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ على صورته، طوله ستّون ذراعًا، فلمّا خَلَقَهُ قال: اذْهبْ فسلّمْ على أولئك، النّفر من الملائكة، جلوسٌ، فاسْتمعْ ما يُحَيُّونَك، فإنّها تَحِيَّتُك وتحيّة ذرّيّتك، فقال: السّلام عليْكمْ، فقالوا: السّلام عليْك ورحْمة الله، فزادوه: ورحْمة الله، فكلّ منْ يدْخل الجنّة على صورة آدم، فلمْ يزل الخلْق ينْقُص بعْدُ حتّى الآن**».

(٢) روى أحْمدُ في مسْنده (٨٥٢٤) عنْ أبي هريْرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**يدْخل أهْل الْجنّة الْجنّة مرْدًا بيضًا جعادًا مُكحَّلين، أبْناء ثلاثٍ وثلاثين، على خَلْق آدم، سبْعين ذراعًا في سبْعة أذْرعٍ**». قال شعيْب الأرْنؤوط (١٤/ ٢١٠): «حديثٌ حسنٌ بطرقه وشواهده دون قوْله: في سبْعة أذْرعٍ».

«محمد» ﷺ، وفي بعض ألفاظ الحديث «**على لسان محمّدٍ** ﷺ»[١] في حديثهم وأخلاقهم.. وذلك أنهم لما اجتهدوا في التخلق والتعبد والتأسي جوزوا أن أكمل الله تعالى لهم هداهم وبلّغهم لأعلى الأخلاق يستمتعون بها وبرسوخها فيهم ويتعاملون على وفقها.. فهي دار الكمال.

❁❁❁❁

▪ أفْراحٌ للرّوح مع الأنْفاس:

من القواعد المهمة في معرفة الجنة وهي توضح جانبًا للنعيم أعلى من التمتع بالمطاعم والمشارب والملبس والمسكن والمنكح وغيرها، وهو التلذذ بالذكر؛ ولهذا توضيح يجب أن نعلمه..

إننا نقوم بالتعبدات على وجه التكليف لكن في الحقيقة أن الله تعالى يكلفنا بها لاحتياجنا الشديد إليها، فللأرواح أشواق وجوعة؛ لا تلبى الأشواق ولا تسد الجوعة إلا بعبادة الله تعالى وما تضمنته العبادات من الذكر، ولذا لما ذكر تعالى الأمر بإقامة الصلاة وأخبرنا أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ذكر معها أنها تشتمل على ما هو أعلى وأكبر من هذا، ألا وهو تضمنها ذكر الله فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

---

(١) ورد دليل ذلك في الحاشية السّابقة الخاصّة بحسْن سيّدنا «يوسف» عليه السلام.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنْكبوت:٤٥]..

والناس مجبولون على الافتقار لله تعالى من جهة أن يرزقهم ويعافيهم ويصلح أحوالهم، ومن جهة افتقارهم الشديد لمحبته وطاعته وقصده وذكره وعبادته.

فالله تعالى لا ينفعه أحد بعبادته ولا يضره بتركها، ولكن العبد هو المنتفع بالعبادة والذكر لا بثوابها فقط، ولكن بها هي نفسها، وهذا ما لا يلتفت إليه الكثيرون.. ولكن العبّاد شعروا بها ووجدوه أعلى نعيم لهم فقال بعضهم: «لوْلا اللّيْل - لقيام اللّيْل - ما أحْببْت البقاء في الدّنْيا»[١]، وقال آخر: «مساكينُ الملوك وأبْناء الملوك، لوْ علموا ما نحْن فيه منْ النّعيم لجالدونا عليْه بالسّيوف»[٢]، وقال «معاذ بن جبل» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله ﷺ عند موته: «اللّهمّ إنّك تعْلم أنّي ما أحْببْت البقاء في الدّنْيا لكرْي الأنْهار ولا لغرْس الأشْجار، ولكنْ لقيام ليالي الشّتاء وظمأ الهواجر ومزاحمة العلماء بالرّكب عنْد حلق العلْم»[٣].. فهذا ما وجده العباد الربانيون.

---

(١) رواه الخطيب البغْداديّ في الزّهْد والرّقائق (٦٤) (ص٩٤) موْقوفًا على أبي سليْمان الدّارانيّ.

(٢) رواه البيْهقيّ في الزّهْد الكبير (٨٠) منْ قوْل إبْراهيم بْن أدْهم، وكذا ابْن الجوْزيّ في صفة الصّفْوة (ص٧٧٨).

(٣) رواه أحْمدُ في الزّهْد (١٠١١) بلفْظ: «عنْ عمْرو بْن قيْسٍ، عمّنْ حدّثه عنْ معاذٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى لمّا أنْ حضره الْموْت قال: انْظروا أصْبحْنا؟ فأتي فقيل: لمْ تصْبحْ، قال: انْظروا أصْبحْنا، فأتي فقيل: لمْ =

وهذا النعيم للروح قد يرافقه في الدنيا مشقة القيام بالتكليف على خلاف الهوى وعلى اختلاف الظروف، ولكن في الجنة يخلص الذكر للتنعم المحض فيكون أعلى من سائر النعيم، ولعدم حرمانهم منه ولعدم استغنائهم عنه أُلْهِمُوا إياه مع الأنفاس؛ فيُسَبِّحُونَ كما يتنفسون، واقترن هذا بذاك تنعمًا بأعلى ما تحب الروح وهو ذكرها لمحبوبها سبحانه.

❁❁❁❁

■ لله درّهمْ.. إنّهمْ مقرّبون:

يمكن أن تقف لحظة، بل تقف عمرك كله، لتتذكر لحظة لولا أن الله تعالى حدثنا عنها لما طمع طامع في الوصول إليها، وهي أجلّ من أن تحيط بها العبارة، لكن نحاول فقط الاقتراب منها، لتعلم لماذا يدفع المجاهدون أرواحهم ويبذولونها رخيصة لربهم تعالى..

ذلك لأن هناك لحظة اللقاء والقرب، الوصول إلى غاية لا يتصور العقل

=

تصْبحْ حتّى أتي في بعْض ذلك، فقيل له: قدْ أصْبحْت، قال: أعوذ بالله منْ ليْلةٍ صباحها إلى النّار، مرْحبًا بالْموْت، مرْحبًا زائرًا مغيّبًا حبيبًا، جاء على فاقةٍ، اللّهمّ إنّي قدْ كنْت أخافك، فأنا الْيوْم أرْجوك، اللّهمّ إنْ كنْت تعْلم أنّي لمْ أكنْ أحبّ الدّنْيا وطول الْبقاء فيها لكرْي الْأنْهار ولا لغرْس الشّجر، ولكنْ لظمأ الْهواجر ومكابدة السّاعات ومزاحمة الْعلماء بالرّكب عنْد حلق الذّكْر»، وأوْرده ابْن الجوْزيّ في التّبْصرة (١/ ٢١٢).

البشري كنهها وما يكون فيها، وإن علم عنها ما أخبر الله ورسوله، وصدقًا.

لكن تصور ما فيها والإحاطة بها أمر عظيم؛ وهي لحظة الوصول للدرجة التي يصفح الله فيها ويغفر ويشمل عبده بعفوه، ثم يقرّبه منه، ويتفضل تعالى فيكلم عباده بلا واسطة، ثم يتفضل جل جلاله وتقدست أسماؤه وعظم ثناؤه وتبارك اسمه فيرفع الحجاب، ويرى عباده وجهه الكريم، فما أعطوا شيئًا هو أحب إليهم وما تنعموا بشيء أعظم من ذلك، حتى قال أهل العلم أن نعيم الجنة - سوى هذا- إلى نعيم النظر إلى وجهه تعالى كقطرة في بحر..

صف كما تشاء وقل ما تشاء لكن لو وجدت كلمات تعبر! لأنك لن تجد..

ولما وصف تعالى تلك اللحظة وصف أثرها على وجوه أصحابها أنها ناضرة قد امتلأت سعادة، ووصف عذاب أعدائه أنهم حُرِموا منها، ﴿ **كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥** ﴾ [المطفّفين]..

ووصف نبيه ﷺ صفاء الرؤية؛ كرؤية القمر ليلة البدر ليس دونه غمام[1]،

---

(١) روى البخاريّ في صحيحه (٤٥٨١) كتاب تفْسير القرْآن- باب قوْله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ** ﴾ [النّساء:٤٠]، عنْ أبي سعيدٍ الخدْريّ رضي الله عنه: أنّ أناسًا في زمن النّبيّ ﷺ قالوا: يا رسول الله هلْ نرى ربّنا يوْم القيامة؟ قال النّبيّ ﷺ: «**نعمْ، هلْ تضارّون في رؤْية الشّمْس بالظّهيرة ضوْءٌ ليْس فيها سحابٌ؟**»، قالوا: لا، قال: «**وهلْ تضارّون في رؤْية القمر ليْلة البدْر ضوْءٌ ليْس فيها سحابٌ؟**»: =

فهو تشبيه للرؤية وليس للمرئيّ تعالى.

وهنا تنتهي الأماني وتسكت الألسن وتسكن النفوس وتطمئن القلوب وترتاح الأرواح، فقد وصل هؤلاء الذين هم خير البرية إلى هذه المكانة؛ وصلوا إلى ما تعجز العبارة عن وصفه..

العجيب أن هذا ليس مرّةً واحدة، ولكنه لأهل الجنة بمقدار كل أسبوع في الدنيا، فيرونه بمقدار صلاة الجمعة في الدنيا، فهو حدث عظيم يعطوه دائمًا، وله أثر بادٍ ومنعّم لهم يبدو دومًا عليهم..

الأعجب والأعجب أن قومًا هم من أعلى أهل الجنة عملًا، سيعيشون بالقرب منه تعالى، نعم، إن اليد لترتعش وهي تكتب هذه الكلمات، لكنها حقيقة، سيعيش قوم بالقرب منه، لا يحول بينهم وبين رؤية وجهه الكريم العظيم الجليل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن..

بل العجيب والأعجب كذلك أنهم سيرونه كل يوم غدوة وعشيًّا، نعم كصلاة الفجر والعصر، وما بين ذلك فيحول بينهم وبينه رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن..

=

قالوا: لا، قال النّبيّ ﷺ: «**ما تضارون في رؤْية الله عزّ وجلّ يوْم القيامة، إلّا كما تضارون في رؤْية أحدهما**»، وكذا مسْلمٌ في صحيحه ٢٩٩ (١٨٢) كتاب الإيمان- باب معْرفة طريق الرّؤْية، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعجز العبارة ويجل القلم أن يتمادى أكثر من هذا.. لكنها حقيقة، سيعيش قوم هكذا، صباحًا ومساءً، فيا أهل الجنة سلام عليكم.

نحن في الدنيا نشعر في وقت السحر بالتنزل الإلهي لأهل الدنيا فيجد العبّاد رقة وتنعّما خاصًّا بذكره وعبادته، لكن قوما سيعيشون بالقرب إلى هذه الدرجة، لا أدري كيف سيتنفسون بم سيشعرون كيف تمر عليهم اللحظة بعد اللحظة في نعيم كهذا؟ لا أدري، لكنه سيكون وسيعيشها قوم.. لله درهم وطابت حياتهم.

جاء في صحيح «مسلم»: عنْ أبي بكْر بْن عبْد الله بْن قيْسٍ، عنْ أبيه، عن النّبيّ صلّى الله عليْه وسلّم قال: «**جنّتان منْ فضّةٍ آنيتهما، وما فيهما، وجنّتان منْ ذهبٍ آنيتهما، وما فيهما، وما بيْن الْقوْم وبيْن أنْ ينْظروا إلى ربّهمْ إلّا رداء الْكبْرياء على وجْهه في جنّة عدْنٍ**»[1].

وروى «الترمذي» عن ثوير، قال: سمعْت ابْن عمْر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أدْنى أهْل الجنّة منْزلةً لمنْ ينْظر إلى جنانه وأزْواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألْف سنةٍ، وأكْرمهمْ على الله منْ ينْظر إلى وجْهه غدْوةً وعشيّةً»، ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٢٩٦ (١٨٠) كتاب الإيمان- باب إثْبات رؤْية الْمؤْمنين في الْآخرة ربّهمْ سبْحانه وتعالى.

[القيامة]»[1].

يقول «ابن تيمية»: «ومنْ تأمّل سياق الْأحاديث الْمتقدّمة علم أنّ التّجلّي يوْم الْجمْعة له عنْدهمْ وقْعٌ عظيمٌ لا يوجد مثْله في سائر الْأيّام؛ وهذا يقْتضي أنّ هذا النّوْع أفْضل منْ الرّؤْية الْحاصلة كلّ يوْمٍ مرّتيْن»[2].

«ثمّ هذا منْ الْممْكن أنّ «الرّؤْية جزاء الْعمل»، فإنّه قدْ جاء في الْأخْبار ما يدلّ على أنّ الرّؤْية يوْم الْجمعة ثواب شهود الْجمعة؛ بدليل أنّ فيها يكونون في الدّنوّ منْه على مقْدار مسارعتهمْ إلى الْجمعة وتفاوت الثّواب بتفاوت الْعمل دليلٌ على أنّه مسبّبٌ عنْه وبدليل أنّه مذْكورٌ في غيْر حديثٍ إنّه يكون بمقْدار انْصرافهمْ منْ صلاة الْجمعة في الدّنْيا».

«وموافقة الثّواب للْعمل في وقْته وفي قدْره حتّى يصير جزاءً وفاقًا: يقْتضي أنّ الْعمل سببه؛ وبدليل أنّ ذلك مذْكورٌ في فضْل يوْم الْجمعة في الدّنْيا والْآخرة فعلم أنّ ارْتباط ثوابه في الْآخرة بعمله في الدّنْيا؛ وبدليل أنّ فيه عنْد منْصرف النّاس منْ الْجمعة رجوع الصّالحين إلى منازلهمْ ورجوع الْأنْبياء والصّدّيقين والشّهداء إلى ربّهمْ. وهذا مناسبٌ لحالهمْ في الدّنْيا؛ فإنّ الصّالح إذا انْقضتْ الْجمعة اشْتغل بما أبيح له في الدّنْيا وأولئك اشْتغلوا بالتّقرّب إليْه بالنّوافل

(١) سبق تخْريجه قريبًا.

(٢) مجْموع الفتاوى (٦/ ٤٥٥).

فكانوا متقرّبين إليْه في الدّنْيا بعْد الْجمعة فقربوا منْه بعْد الْجمْعة في الْآخرة وهذه «الْمناسبة الظّاهرة» الْمشْهود لها بالاعْتبار تقْتضي أنّ ذلك التّجلّي ثواب أعْمالهمْ يوْم الْجمعة»[1].

وقرر أهل العلم أن الرؤية ثابتة لجميع المؤمنين، لكنها تتفاوت بتفاوت العمل، والله تعالى المبلّغ للمنزل بحوله وقوته، ورحمته ومغفرته.

❁❁❁❁

▪ ما نقص هنا فلأجْل الحظ هناك:

فإذا رأت نفسك نقصًا لحظّها من أمر الدنيا فخذها إلى هناك تفكّرًا وتدبّرًا لتعلم أي فوز تريد وأي نعيم تسعى إليه فيهون عليها الترك هنا لتبلغ هناك، والله الهادي والموفق.

إن الشوق إلى الجنة له فعْل السحر على النفس البشرية، فقد قدّم عشاقها من سادات الأولياء من صحابة النبي ﷺ أرواحهم من أجلها، ولكن لا يتحقق هذا الفعل والأثر إلا بشرط اليقين بها، والشعور بها ومعايشتها؛ لأنها موجودة الآن، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران]، بل والشعور بقربها؛ فقد قال

---

(١) مجْموع الفتاوى (٦/ ٤٥٦-٤٥٧).

ﷺ: «**الجنّة أقْرب إلى أحدكمْ منْ شراك نعْله، والنّار مثْل ذلك**»[١].. فالجنة حاضرة.. الآن الآن.

❁❁❁❁

الأثر العمليّ التّرْبويّ لمعايشة الجنّة ووصْفها:

فإذا استقر لنا هذا المعنى وجب الكف عن كل محارم الله تعالى، وترك كل المعاصي، وكان ترك ما حرم الله أيسر وإن تضمن المحرم شهوة تضرب بسياطها صاحبها ويجد ألمًا لتركها؛ إذ إن في الجنة تسرية عما تركت، هذا مع قول العلماء: «ما وجد منْ ترك لله»، أي ما وجد ألمًا من أخلص نيته في ترك المحرم من أجل الله.

وترك المحرمات أمر عظيم إذ إن الشرع جاء بالحسم في هذا الباب قال ﷺ: «... **فإذا نهيْتكمْ عنْ شيْءٍ فاجْتنبوه، وإذا أمرْتكمْ بأمْرٍ فأْتوا منْه ما اسْتطعْتمْ**»[٢].

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٤٨٨) كتاب الرّقاق- بابٌ: «**الجنّة أقْرب إلى أحدكمْ منْ شراك نعْله، والنّار مثْل ذلك**» منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه.

(٢) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٧٢٨٨) كتاب الاعْتصام بالكتاب والسّنّة- باب الاقْتداء بسنن رسول الله ﷺ، ومسْلمٌ في صحيحه ١٣٠ (١٣٣٧) كتاب الفضائل- باب توْقيره ﷺ، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه.

ففرق ﷺ بين النهي والأمر؛ ففي النهي لا يفرغ العبد من العهدة ويحقق الامتثال إلا بتركه كله، بخلاف الأمر فهو منوط بالقدرة والاستطاعة.

بل ونهى الشرع عن قرب المنهي عنه؛ فالمحارم لا تترك فقط، بل لا يقترب منها، ومن ترك محارم الله كان خيرًا كثيرًا له؛ قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أقلّوا الذّنوب فإنّكمْ لنْ تلْقوا الله بشيْءٍ يشْبه قلّة الذّنوب»(١).

وهذا واضح إذا تدبرت أمر المقاصّة يوم القيامة لحقوق الناس، فإذا جئت بحسنات كثيرة ولكن كانت الذنوب أيضًا كثيرة فاعلم أن لبعض الذنوب تأثير في إحباط الحسنات، أو لبعضها مثل الرياء فهو محبط للعمل، والعجب والفخر بالعمل والإدلال به على الله فهو مبطل للعمل، والمنّ على الخلق محبط للعمل بعد كتابة حسنة الصدقة أو عمل الخير بالفعل ولذا قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة]، فهو إبطال لحسنة قد تكون كتبت للعبد..

وكذلك بعض أوجه التغليظ للسيئة قد يزِن أمام الحسنات ثقلًا كبيرًا كالاستهتار بالسيئة أو المجاهرة بها أو الإصرار عليها أو توسع أثرها أو تقليد

---

(١) رواه ابْن أبي شيْبة في مصنفه (٣٤٧٣٨)، كما رواه ابْن المبارك في الزّهْد والرقائق (ص٦٥) باب ما جاء في تخْويف عواقب الذّنوب، بلفْظ: «منْ سرّه أنْ يسْبق الدّائب الْمجْتهد فلْيكفّ نفْسه عن الذّنوب؛ فإنّكمْ لنْ تلْقوا الله بشيْءٍ خيْرٍ لكمْ منْ قلّة الذّنوب».

الغير لك فيها وتلقيهم عمل السيئة منك، أو كونها في زمن شريف أو مكان شريف كالحرم..

فكل هذا يزيد في ميزان السيئات وقد يرجح فتهلك..

بل ما لم يتغلظ؛ فمجرد كثرة السيئات في عددها ستكون مقاصة يوم القيامة، وقد ترجح على الحسنات.

وانظر إلى خطورة تأثير التعود على انتهاك حرمات الله تعالى؛ أن قومًا يأتون بحسنات أمثال جبال «تهامة» - غرب الحجاز- ولهم قسط من الصلاة بالليل، ولكن كانوا إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها فيجعلها الله تعالى هباءً منثورًا، عياذًا بالله تعالى.

روى «ابن ماجة» عن ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عنْ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «**لأعْلمنّ أقْوامًا منْ أمّتي يأْتون يوْم الْقيامة بحسناتٍ أمْثال جبال تهامة بيضًا، فيجْعلها الله عزّ وجلّ هباءً منْثورًا**»، قال ثوْبان: يا رسول الله، صفْهمْ لنا، جلّهمْ لنا، أنْ لا نكون منْهمْ ونحْن لا نعْلم. قال: «**أما إنّهمْ إخْوانكمْ، ومنْ جلْدتكمْ، ويأْخذون من اللّيْل كما تأْخذون، ولكنّهمْ أقْوامٌ إذا خلوْا بمحارم الله انْتهكوها**»[1].

كذلك الذنوب المتعلقة بحقوق الخلق جاء فيها حديث المفلس، وهو

(١) رواه ابْن ماجة في سننه (٤٢٤٥) أبْواب الزّهْد- باب ذكْر الذّنوب، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٥٠٢٨) وقال: «صحيحٌ».

ليس مفلسًا من الأصل بل جاء بحسنات وصلاة وصيام، ولكنه ضرب هذا وشتم هذا وسفك دم هذا فيتقاصون بالحسنات، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار(١)..

فإذا خلا العبد من الذنوب وأقلّ منها، وإذا حدثته نفسه تَعَوَّض بالجنة، وعايشها مسافرًا إليها فقرر الهجرة إلى الجنة والسفر الطوعي إلى هذه الدار، كان الأمر خيرًا له في الميعاد يوم القيامة..

❀❀❀❀

▪ أثر التّمادي في المحرّمات على القلوب:

ليس هذا فقط، وإنما الأمر الجلل والخطير هو تأثير الذنوب على القلب، فالذنوب ترين على القلوب وتغطي عليها فتنسى العلم وتنحرف إرادتها.

لقد خلق الله تعالى الفطرة تعرف الله تعالى وتحبه وتوحده، وتحب

---

(١) روى أحْمدُ في مسْنده (٨٠٢٩) عنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النّبيّ ﷺ قال: «**هلْ تدْرون من الْمفْلس؟**»، قالوا: الْمفْلس فينا، يا رسول الله، منْ لا درْهم له ولا متاع. قال: «**إنّ الْمفْلس منْ أمّتي منْ يأْتي يوْم الْقيامة بصيامٍ وصلاةٍ وزكاةٍ، ويأْتي قدْ شتم عرْض هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، فيقْعد، فيقصّ هذا منْ حسناته، وهذا منْ حسناته، فإنْ فنيتْ حسناته قبْل أنْ يقْضي ما عليْه من الْخطايا، أخذ منْ خطاياهمْ فطرحتْ عليْه، ثمّ طرح في النّار**»، قال شعيْب الأرْنؤوط (١٣/ ٣٩٩): «إسْناده صحيحٌ على شرْط مسْلمٍ». ورواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٤١٨) أبْواب صفة الْقيامة والرّقائق والْورع- باب ما جاء في شأْن الْحساب والْقصاص، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

العمل الصالح النافع، وتكره المعصية، وتعرف المعروف وتحبه، وتنكر المنكر وتنفر منه وتبغضه..

فإذا تتابعت الذنوب على القلوب أحدثت أمرًا عظيمًا وهو أنها تفسد الفطرة وتنسي ما فيها من العلم، وتنحرف بالإرادات فقد تنكر المعروف وتعرف المنكر وتتبدل القيم وتبغض الطاعة وتنفر منها، وتحب المعصية، ويقْدم العبد على ما يضره..

فإن استبعدت تصور هذه الحالة فانظر إلى مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التّوْبة]، وانظر إلى هذا الانحراف العقلي! العظيم الذي سجله قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنْفال]، وقال غيرهم: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشّعراء]، وهذا بدلا من طلب الهداية وبيان الحق ومحبته.

وانظر إلى من عمي عن رؤية الحق في رسالة رسول الله ﷺ وهو يراه ويعيش بين يديه، وهو يعرف اللغة العربية معرفة تضع يده على إعجاز القرآن؛ ولكنه مع هذا يقول: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المطفّفين]،

فرد الله عليهم أن القرآن ليس كذلك ولكنكم حرمتم من رؤية الحق بسبب ما تراكم على قلوبكم من الذنوب فكانت حاجزًا عن رؤية الحق فقال: ﴿كَلَّا﴾، ليس القرآن أساطير الأولين كما زعمتم، ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين]، فالحق في مكانه، هو حق، ولكن الآفة في الناظر إليه، وقد أفسد الناظر آلة معرفة الحق والإيمان به بالذنوب التي ارتكبها.

بل العلم المكتسب ينساه العبد بسبب الذنوب اللاحقة التي تفسد محل حفظ العلم، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة].. وكان «ابن مسعود» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إنّي لأجد الرّجل ينْسى العلْم بالذّنْب يصيبه»(١) ثم يتلو هذه الآية.

بل قد لا تجد أثر العلم وأثر العبادة وما تورثه العبادة من آثار وعلوم وهيئة وسجية وقرب لله تعالى، كل هذا بسبب الذنوب المانعة، فمع ترك

(١) رواه أحْمدُ في «الزّهْد» (٨٥٣)، والبيْهقيّ في «المدْخل إلى السّنن الكبْرى» (ص٣١٥) باب كراهية طلب الْعلْم لغيْر الله وما جاء في التّرْغيب في الْعمل بالْعلْم، بلفْظ: «إنّي لأحْسب الرّجل ينْسى الْعلْم كان يعْلمه للْخطيئة يعْملها»، وابْن عبْد البرّ في «جامع بيان العلْم وفضْله» (١١٩٥) باب ذمّ الْفاجر من الْعلماء وذمّ طلب الْعلْم للْمباهاة والدّنْيا، والخطيب في «الجامع لأخْلاق الرّاوي وآداب السّامع» (١٧٨٧)، بلفْظ: قال عبْد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّي لأحْسب الرّجل ينْسى العلْم، بالخطيئة يعْملها».

الذنوب أنت ترفع حواجز القلب عن أن يؤتي ثمرة ما فيه من الخير وموجب فطرته.. فتجد للعلم أثرا وللعبادة آثار عظيمة، بل تجد لما قل من التعبدات أثرا إذ إنك أزلت الحواجز المانعة.. وهذه جملة يسعد بها من يفقهها، والله الموفق.

فمن سار إلى الجنة، وترك من أجل الفوز بها والراحة في غدٍ، فترك الذنوب وهجر السيئات فقد حقق التخلية، والتخلية من الذنوب المفسدة هو تطهّر وخروج من لوثات الذنوب ونجاساتها التي تعْلق بالقلوب وتفسد الفطرة وتضعف قوى القلب وتهدر من طاقة المسير إلى الله سبحانه.. فحفاظك على قلبك وتحديدك هدفك فوز وخطوة واجبة أن تقطع في مراحل سيرك إلى الله سبحانه وتعالى.

❊ ❊ ❊

التّعبّد والامْتثال وإقامة أمْر الله

إذا ترك العبد المحرمات، وتخلى عن المناهي، وتطهر قلبه، كان مواتيًا لما جبل عليه وركز فيه من الفطرة ليتعبد لربه تعالى، وترك المحرمات هو تعبد، لكننا هنا نقصد القيام بالمأمورات والتعبد بالأعمال.

ففي الفرائض تأتي العبادات العينية..

ويأتي الامتثال لما أمر الله تعالى في كل ما أمر وأوجب..

- التّعبّد وقيمته ودوْره:

التّعبّد هو مشاركةٌ للملأ الأعْلى، مشاركةٌ للمقرّبين في زجل التّسْبيح وتلاوة الكتاب العليّ، والسّجود والرّكوع، والدّمْع والأنين؛ فهو تنْميةٌ لخصِّيصة الملائكة، وهي موْجودةٌ فينا؛ فنحْن قبْضةٌ منْ طينٍ ونفْخةٌ منْ روح الله، وهذا حقّ الرّوح.

التعبد هو إيذان بالنور يفيض في قلوبنا ووجوهنا وجوارحنا فالتعبد لله تعالى يغير الملامح ويندي الطباع ويشف القلب ويدمع العين ويوجل القلب من الله تعالى..

والتعبد يذيق العبد طعم الإيمان ويجلّي القلب ليتلقى العلم..

والتعبد جهد يحتاجه العبد، نعم يحتاج العبد أن يبذله، ففي الإنسان

جوعة للتعبد لله تعالى، وقد فطر على هذه الجوعة ولو لم يقضها لربه تعالى قضاها منحرفا بها إلى من دونه تعالى، تلبية لهذه الرغبة..

فالتعبد على وجه الغيب «طرف من الإيمان بالغيب، الذي له قيمته في حياة الإنسان... وهو يخرج الإنسان من نطاق الحواس المضروب على الحيوان؛ ويطلقه يتلقى المعرفة مما وراء هذا النطاق الحيواني؛ وبذلك يعلن إنسانيته بخصائصها المميزة.. ذلك بينما هو يلبي فطرة الإنسان وشوقه إلى المجاهيل التي لا تحيط بها حواسه، ولكنه يحس وجودها بفطرته. فإذا لم تلبّ هذه الأشواق الفطرية بحقائق الغيب - كما منحها الله له- اشتطت وراء الأساطير والخرافات لتشبع هذه الجوعة؛ أو أصيب الكيان الإنساني بالخلخلة والاضطراب»(١).

والإيمان بالحقيقة الغيبية، والتعبد على وجه الغيب الذي «لا سبيل للإدراك البشري أن يعرفها بذاته، بوسائله الحسية والعقلية المهيأة له.. بينما كيانه مفطور على الشوق إلى معرفة شيء من تلك الحقائق الغيبية. ومن ثم شاءت رحمة الله بالإنسان - وهو فاطره وهو العليم بتكوينه وأشواقه وما يصلح له ويصلحه- أن يمده بطرف من الحقائق الغيبية هذه، ويعينه على تمثّلها - ولو كانت أدواته الذاتية قاصرة عن الوصول إليها- وبذلك يريحه

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٤١) [البقرة:٢٨٥-٢٨٦]، بتصرّفٍ يسيرٍ.

من العناء ومن تبديد الطاقة في محاولة الوصول إلى تلك الحقائق التي لا يصلح كيانه وفطرته بدون معرفتها، ولا يطمئن باله ولا يقر قراره قبل الحصول عليها! بدليل أن الذين أرادوا أن يتمردوا على فطرتهم، فينفوا حقائق الغيب من حياتهم، استبدت ببعضهم خرافات وأوهام مضحكة؛ أو اضطربت عقولهم وأعصابهم وامتلأت بالعقد والانحرافات!

وفضلًا على ذلك كله فإن الإيمان بالحقائق الغيبية المستيقنة التي جاءت من عند الله - يوسع آفاق الشعور الإنساني بالوجود، فلا تنكمش صورة الكون في تصور المؤمن حتى تقتصر على ما تدركه حواسه- وهو ضئيل»[1].

إن رصيد الإيمان بالغيب والتعبد على وجه الغيب «إنه رصيد من الهدى والنور، ومن الثقة والطمأنينة، ومن الرضى والسعادة، ومن المعرفة واليقين.. وما يخلو قلب بشري من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام، وتعمره الوساوس والشكوك، ويستبد به الأسى والشقاء. ثم يروح يتخبط في ظلماء طاغية، لا يعرف أين يضع قدميه في التيه الكئيب!.

وصرخات القلوب التي حرمت هذا الزاد، وحرمت هذا الأنس، وحرمت هذا النور، صرخات موجعة في جميع العصور.. هذا إذا كان في هذه القلوب حساسية وحيوية ورغبة في المعرفة ولهفة على اليقين.

---

(١) المصْدر السّابق (١/ ٣٤١-٣٤٢).

فأما القلوب البليدة الميتة الجاسية الغليظة، فقد لا تحس هذه اللهفة ولا يؤرقها الشوق إلى المعرفة.. ومن ثم تمضي في الأرض كالبهيمة تأكل وتستمتع كما تأكل الأنعام وتستمتع. وقد تنطح وترفس كالبهيمة، أو تفترس وتنهش كالوحش؛ وتزاول الطغيان والجبروت والبغي والبطش، وتنشر الفساد في الأرض.. ثم تمضي ملعونة من الله ملعونة من الناس!.

والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة مجتمعات بائسة ـ ولو غرقت في الرغد المادي - خاوية- ولو تراكم فيها الإنتاج - قلقة- ولو توافرت لها الحريات والأمن والسلام الخارجي، وأمامنا في أمم الأرض شواهد على هذه الظاهرة لا ينكرها إلا مراوغ يتنكر للحس والعيان!»[1].

❁❁❁❁

وأمّا امْتثال الأوامر والأحْكام الواجبة عمومًا في العبادات والمعاملات..

فيجب أن يلاحظ العبد التأدب والتجرد مع ربه تعالى ومولاه، وألا يقدم بين يديه، وأن يتلقى ترتيب الأمور كما شرعها الله تعالى وأن ينزل الشرائع منازلها.

---

(١) المصْدر السّابق (١/ ٣٤٢-٣٤٣).

▪ الفرائض أوّلًا.. لأنّها أحبّ إلى الله:

فيجب أن تعلم أن الله تعالى ما افترض شيئًا إلا لأنه أحب إليه، فكما قال «ابن تيمية» وغيره من أهل العلم أنه تعالى يفترض على عباده ما هو أحب إليه.. وهو نص الحديث الشريف «**وما تقرّب إليّ عبْدي بشيْءٍ أحبّ إليّ ممّا افْترضْت عليْه**»(١).

والله تعالى لا يقبل النافلة إلا بعد أداء الفريضة كما قال «أبو بكر الصّدّيق» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

ولما ذكر ﷺ فضل قيام الليل اشترط أن يكون بعد المكتوبة، فأنزل قيام الليل منزلته وذكر فضله مرتبًا بعد الفرائض؛ فمع فضله لا يقدم على الفريضة فالفريضة أحب الى الله تعالى ولهذا فرضها، «**أفْضل الصّلاة بعْد الصّلاة المكْتوبة، الصّلاة في جوْف اللّيْل**»(٣).

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٥٠٢) كتاب الرّقاق- باب التّواضع، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه ابْن أبي شيْبة في مصنّفه (٣٤٤٣٣) كتاب الزّهْد- كلام أبي بكْرٍ الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البيْهقيّ مرْفوعًا في السّنن الكبير (٤٠٦٠) كتاب الصّلاة- باب ما روي في إتْمام الْفريضة من التّطوّع في الْآخرة، وفي الجامع لشعب الإيمان (٣٠١٥) كتاب الصّلاة- باب قيام شهْر رمضان، منْ طريق عليّ بْن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديثُ متكلّمٌ في صحّته موْقوفًا ومرْفوعًا، وإنْ صحّ فقدْ تأوّل له العلماء تأْويلاتٍ.

(٣) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٢٠٣ (١١٦٣) كتاب الصّيام- باب فضْل صوْم المحرّم، منْ حديث أبي =

ومن هنا فالاهتمام بالنافلة عن الفريضة قلب للأمر وعكس لما يجب أن يكون بل يجب أن تؤدى الفريضة على خير وجه وأن تحسّن وتزينّ قربانًا لرب العالمين؛ فلا يبدأ بنافلة ويترك الفريضة، أو يهتم بالنافلة وهو مخلٌّ بالفريضة.

ومما شرعت من أجله النوافل جبر الفرائض، وبها يبدأ الحساب حتى تستوفى، فإن كان ثمة نقص نظر في النوافل من جنس الفرائض التي اختلت عند العبد فتجبر له منها، كما في الحديث؛ إذ نصّ على الصلاة ونص على جبر الفرائض بالنوافل، ثم أخبر أنه يفعل بسائر عمله كذلك.

فعنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ أوّل ما يحاسب النّاس به يوْم الْقيامة منْ أعْمالهم الصّلاة**»، قال: «**يقول ربّنا جلّ وعزّ لملائكته وهو أعْلم: انْظروا في صلاة عبْدي أتمّها أمْ نقصها؟ فإنْ كانتْ تامّةً كتبتْ له تامّةً، وإنْ كان انْتقص منْها شيْئًا، قال: انْظروا هلْ لعبْدي منْ تطوّعٍ؟ فإنْ كان له تطوّعٌ، قال: أتمّوا لعبْدي فريضته منْ تطوّعه، ثمّ تؤْخذ الْأعْمال على ذاكمْ**»[1].

ولـ «ابن أبي شيبة» و «أحمد»: «**ثمّ الزّكاة كذلك، ثمّ تؤْخذ الْأعْمال على**

=

هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه أبو داود في سننه (٨٦٤) كتاب الصّلاة- باب قوْل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلّ صلاةٍ لا يتمّها صاحبها تتمّ منْ تطوّعه**»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٢٥٧١) وقال: «صحيحٌ».

حسب ذلك»[1]، وعند «الترمذي»: «**ثمّ يكون سائر عمله على ذلك**»[2]، وللمروزي «**ثمّ ترْفع سائر الْأعْمال على ذلك**»[3]، «**ثمّ يكون سائر عمله على نحْو ذلك**»[4].

ولهذا فمن الخطأ ما يفعله البعض إذ يحاول التخلص من الفريضة على عجل ليخلو للنافلة، وهذا عكس الصواب، وكذلك من يستغني بالصدقات النافلة عن الزكاة المفروضة - التي يجب أن تحسب بدقة لئلا تنقص عن حسابها الشرعي بل تستوفى أو تزيد- فهذا أيضا عكس للأمور وللترتيب الشرعي.

ومن استوفى ما فرض الله تعالى وترك ما حرّم خرج من الوعيد، فكان من «أهل الوعد بلا وعيد»، ودخل في جملة السعداء ابتداءً بلا سابقة عذاب.. وإنه للفوز.

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (١٦٦١٤)، قال شعيْب الأرْنؤوط (٢٧/ ١٦٠): «إسْناده صحيحٌ، رجاله ثقاتٌ رجال الصّحيح».

(٢) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٤١٣) أبْواب الصّلاة- باب ما جاء أنّ أوّل ما يحاسب به العبْد يوْم القيامة الصّلاة، وقال: «حديث أبي هريْرة حديثٌ حسنٌ غريبٌ منْ هذا الوجْه وقدْ روي هذا الحديث منْ غيْر هذا الوجْه».

(٣) رواه محمّد بْن نصْرٍ المرْوزيّ في «تعْظيم قدْر الصّلاة» (١٨٠) إكْمال الفرائض بالنّوافل.

(٤) رواه محمّد بْن نصْرٍ المرْوزيّ في «تعْظيم قدْر الصّلاة» (١٨٥) إكْمال الفرائض بالنّوافل.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن رجل وعد بترك المحرمات وإقامة الفرائض أنه «**أفْلح إنْ صدق**»[1].

فالنّوافل تقْدمةٌ للعبادة وتهْيئةٌ لها وتتمّةٌ للخروج منْها وجبْرٌ لنقْصها..

وأيضا ما شرعت المكروهات إلا لما تفضي إليه من المحرمات، فالحِمَى شُرِعَ أصلًا وقايةً للمحرمات، وهذه حماية لها ولولا نفاسة الفريضة لما شُرِعَ لها جوابر، ولولا عظمة الحرمة لما شُرِعَ لها حِمَى.

ومن هنا شَرَعَ الله تعالى الورع؛ والورع هو ترك ما قد يضر في الآخرة، فمجرد احتمال الضرر يتركه المسلم فما بالك بالضرر الصريح؟.

❁❁❁❁

▪ كيْف نتلقّى الأوامر والنّواهي بيد العبوديّة ونمْتثلهما؟:

إقامة الفرائض هي إقامة للمصالح التي قصدها الشارع سبحانه من التشريع، فما شرع الله تعالى فريضة إلا وهي متضمنة للمصالح؛ نعلم طرفًا منها ولا يحيط علما بأوجه المصالح التي شرعت الفرائض من أجلها إلا رب العالمين؛ فإنه تعالى ما شرع إلا لحكمة ومصلحة تتحقق للعبد في الدنيا

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٤٦) كتاب الإيمان- باب الزّكاة منْ الإسْلام، منْ حديث طلْحة بْن عبيْد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والآخرة، سواء علمنا وجه المصلحة تفصيلًا أو لم نعلم؛ فنتمسك بوجه المصلحة الظاهر في طاعة الله تعالى وامتثال أمره، علما وثقةً ويقينًا في تضمنها للمصلحة.

بل وما علمنا وجه مصلحته التي شرع لها لا نقطع أبدا أن المصالح قد انحصرت فيما علمناه، بل نعلمه للاجتهاد والتفريع للحوادث المستجدة، لكن لا نقطع انحصار المصلحة في هذا.

كما أننا إذا علمنا وجه المصلحة في الأمر فليس لنا الاستغناء عنه لنحقق المصلحة من جهة أخرى أو بقانون غير قانونه، إذ نحن ملزمون بامتثال الأمر وأن نقصد الامتثال ونقصد وجه المصلحة التي فهمناها.. وعلى هذا فليس لمخلوق أن يشرع قانونًا بشريًّا بدلا عن حكم الله ويزعم أنه يحقق ما قصد الله تعالى تحقيقه، فالأصل هو الامتثال للأمر سواء علمنا وجه المصلحة أم لا، وسواء انحصرت المصالح فيما علمناه أو لم تنحصر، فالإمتثال هو الفرض وهو الأوثق.

كما نقطع بأن ما تتضمنته الفرائض هي مصالحنا ومصالح الخلق جميعًا على وجه عام ومطرد..

كما نقطع أن المصالح المتضمنة في الفرائض المأمور بها والمحرمات المنهي عنها هي مصالح الدنيا والآخرة.

كما نقطع أن مخالفة الفريضة وارتكاب المحرّم تعني حصول المشقات والمفاسد، علمنا وجهها وتفاصيلها أو لم نعلم، وهي مفاسد لنا ولغيرنا، وهي مفاسد الدنيا والآخرة، ومفاسد الآخرة على وجه الخصوص لا يكتمل العلم بها إلا بمباشرتها، وهو أمر خطير أن تتعرض له، بل لا أخطر منه؛ إذ إن مشقات الآخرة هي أعظم المشقات على الإطلاق، نسأل الله العافية.

كما نقطع أننا لا نستقل بأمر التشريع، وبأننا مفتقرون إلى الله في التشريع وبيان وجه رضاه ووجه مصلحتنا كحاجتنا إلى الطعام والشراب بل وأشد.

وعلى هذا فعندما نقوم بالفريضة نقوم بأمر نطمئن ونثق أنه يتضمن محبة الله ورضاه، ويتضمن مصالحنا ومصالح الخلق ويتضمن مصالح الدنيا والآخرة، وهو أمر ملزم ولا خيار لنا في امتثاله، ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب:٣٦].

ولذا فتلقينا للفريضة واستقبالنا لها، وتلقينا لمحرمات الله وحدوده واستقبالنا لها، لا بد أن يكون بثقة واطمئنان ورضا وقطع بأن في امتثال فعل هذا وترك ذاك الخير، وأن الله تعالى ما ألزمنا ليتكثر منا أو يجني نفعا؛ حاش لله، بل ما شرعها تعالى إلا لحاجتنا لما شرع، فنأخذها على وجه الافتقار لا وجه الاستغناء ولا الاستثقال.

❀❀❀❀

▪ امْتثال الظّاهر وخضوع الباطن:

إن الله تعالى يريد منا الامتثال، لكنه تعالى لا ينظر إلى مجرد القيام بالعمل الظاهر؛ بل ينظر تعالى إلى حال القلب أثناء الامتثال؛ وانظر إلى بيانه تعالى لحال بني إسرائيل وهم يمتثلون أمر ذبحٍ لبقرة؛ فقد سجل لهم حالهم الباطن رغم الامتثال الظاهر المتأخر، فقال تعالى: ﴿**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ** ﴿٧١﴾﴾ [البقرة]، نعم فعلوا لكن بعد جدال ومماحكة حتى كان حالهم، ﴿**وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**﴾، بخلاف مخرج الصدقة الذي قال فيه رسول الله ﷺ عن حاله «**طيّبةً بها نفْسه**»(١).

فالله تعالى ينظر إلى حال العبد وباطنه عند تعبده، روى الإمام «أحمد» في مسنده، عنْ أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حججْت مع رسول الله ﷺ حجّة الْوداع، فحمد الله وأثْنى عليْه، ثمّ قال: «**ألا لعلّكمْ لا ترونْي بعْد عامكمْ هذا، ألا لعلّكمْ لا ترونْي بعْد عامكمْ هذا، ألا لعلّكمْ لا ترونْي بعْد عامكمْ هذا**». فقام رجلٌ

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٢٩) كتاب الصّلاة- بابٌ في المحافظة على وقْت الصّلوات، عنْ أبي الدّرْداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خمْسٌ منْ جاء بهنّ مع إيمانٍ دخل الْجنّة: منْ حافظ على الصّلوات الْخمْس على وضوئهنّ وركوعهنّ وسجودهنّ ومواقيتهنّ، وصام رمضان، وحجّ الْبيْت إن اسْتطاع إليْه سبيلًا، وأعْطى الزّكاة طيّبةً بها نفْسه، وأدّى الْأمانة**»، قالوا: يا أبا الدّرْداء، وما أداء الْأمانة قال: «الْغسْل من الْجنابة». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح سنن أبي داود» (٤٥٧) وقال: «إسْناده حسنٌ، وقال المنْذريّ والهيْثميّ: إسْناده جيّدٌ».

طويلٌ كأنّه منْ رجال شنوءة فقال: يا نبيّ الله، فما الّذي نفْعل؟ فقال: «**اعْبدوا ربّكمْ وصلّوا خمْسكمْ، وصوموا شهْركمْ، وحجّوا بيْتكمْ، وأدّوا زكاتكمْ طيّبةً بها أنْفسكمْ تدْخلوا جنّة ربّكمْ**»[1]، بل وتكررت هذه الكلمة من رسول الله ﷺ في أحاديث عدة.

وكما وصف ربنا تعالى طالب العلم والتزكية، ﴿**وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨**﴾ [عبس]، فهذا وصف عمله الظاهر، ثم قال: ﴿**وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩**﴾ [عبس]، فهذا وصف لحال قلبه وباطنه.

وكما وصف حال المفتقرين لقبول ربهم تعالى كحال خليل الله وابنه صلوات الله عليهما، ﴿**وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ**﴾ [البقرة:١٢٧]، ولهذا يقول تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١**﴾ [البقرة]، وعلى أحد وجهي تفسير الآية أن ترجية التقوى مرتبط بالعبادة؛ فيكون المعنى ﴿**ٱعۡبُدُواْ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ**﴾، يعني لتكونوا في عبادتكم على رجاء

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (٢٢٢٦٠)، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٣٦/ ٥٩٥): «حديثٌ صحيحٌ وهذا إسْنادٌ ضعيفٌ».

حصول حال التقوى[1].

وكن على ذكر لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتْح].

كما يجب أن تنظر في مثل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات]، فالطاعة جائزة تحدث بعد امتحان.

وانظر إلى هذه اللفتة في سورة الليل حيث جعل تعالى مقابل التقوى «الاستغناء» وليس الفجور، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ [اللّيْل].. ثم قال مقابلها: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [اللّيْل]..

---

(١) قال البيْضاويّ في تفْسيره (١/ ٥٤-٥٥) [البقرة:٢١]: «﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، حالٌ منْ الضّمير في ﴿اعْبُدُوا﴾ كأنّه قال: اعْبدوا ربّكمْ راجين أنْ تنْخرطوا في سلْك المتّقين الفائزين بالهدى والفلاح، المسْتوْجبين جوار الله تعالى. نبّه به على أنّ التّقْوى منْتهى درجات السّالكين، وهو التّبرّي منْ كلّ شيْءٍ سوى الله تعالى إلى الله، وأنّ العابد ينْبغي أنْ لا يغْترّ بعبادته، ويكون ذا خوْفٍ ورجاءٍ، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السّجْدة:١٦]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسْراء:٥٧]. أوْ منْ مفْعول ﴿خَلَقَكُمْ﴾، والمعْطوف عليْه على معْنى أنّه خلقكمْ ومنْ قبْلكمْ في صورة منْ يرْجى منْه التّقْوى لترجّح أمْره باجْتماع أسْبابه، وكثْرة الدّواعي إليْه. وغلّب المخاطبين على الغائبين في اللّفْظ، والمعْنى على إرادتهمْ جميعًا. وقيل تعْليلٌ للخلْق، أيْ خلقكمْ لكيْ تتّقوا كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات]، وهو ضعيفٌ، إذْ لمْ يثْبتْ في اللّغة مثْله».

كن على وجل ومراجعة ولتكن حالك لتلقي الطاعة وترك المعصية هي هذه الحال من التخوف والرجاء، والطمأنينة والافتقار، ووجه الثقة في الأمر واليقين في الله تعالى..

فمن امتثل أمر الله تعالى وقام به، فليعط لربه وجهه وظاهره وليعطه قلبه وباطنه، لا بد أن يقترنا ويترافقا على وجه العبودية والانكسار والافتقار لرب العالمين.

وليتقن عمله لربه، إتقان المعنى والمضمون، وحضور القلب وعبوديته لله ، وليجتهد في القيام بأمر ربه، فما وظيفة وجودك إلا تحقيق منهجه؟، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدّخان].. تقبل الله منا وإياك.

ونختم هذا الأمر بهذا الكلام الرائع للإمام «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول تعامل النفوس مع الطاعات؛ إذ يقول عما في الطاعة وامتثال أمر الله وحكمه وما فيه من لذة وسرور أنه.. «مبني على أصلين:

أحدهما: أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإخلاص العمل له وإفراده بالتوكل عليه هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن.

لا كما يقوله من يقول إن عبادته تكليف ومشقة على خلاف مقصود

القلب ولذّته بل لمجرد الامتحان والابتلاء كما يقوله منكرو الحكمة والتعليل، أو لأجل التعويض بالأجر لما في إيصاله إليه بدون معاوضة منه تكدره، أو لأجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات كما يقوله من يتقرب إلى النبوات من الفلاسفة.

بل الأمر أعظم من ذلك كله وأجلّ، بل أوامر المحبوب قرة العيون، وسرور القلوب، ونعيم الأرواح، ولذّات النفوس، وبها كمال النعيم؛ فقرة عين المحب في الصلاة والحج، وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذلك وفي الصيام والذكر والتلاوة، وأما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والصبر على أعداء الله سبحانه فاللّذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم، ومن غلظ فهمه وكثف طبعه عن إدراك هذا فليتأمل إقدام القوم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم ومفارقة أوطانهم وبذل نحورهم لأعدائهم ومحبتهم للقتل وإيثارهم له على البقاء، وإيثار لوم اللائمين وذم المخالفين على مدحهم وتعظيمهم.

ووقوع هذا من البشر بدون أمر يذوقه قلبه من حلاوته ولذّته وسروره ونعيمه ممتنع، والواقع شاهد ذلك، بل ما قام بقلوبهم من اللذة والسرور والنعيم أعظم مما يقوم بقلب العاشق الذي يتحمل ما يتحمله في موافقة رضى

معشوقه، فهو يلتذ به ويتنعم به لما يعلم من سرور معشوقه به.

فيا منْكرًا هذا تأخّرْ فإنّه * حرامٌ على الخفّاش أنْ يبْصر الشّمْسا

فمن كان مراده وحبه الله، وحياته في معرفته، ومحبته في التوجه إليه وذكره، وطمأنينته به، وسكونه إليه وحده، عرف هذا وأقر به.

الأصل الثاني: كمال النعيم في الدار الآخرة أيضا به سبحانه برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه، لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبس والمنكوح.

بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال وفي دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام «أحمد» في مسنده و«ابن حبان» و «الحاكم» في صحيحيهما: «**أسْألك لذّة النّظر إلى وجْهك والشّوْق إلى لقائك في غيْر ضراء مضرّةٍ وفتْنةٍ مضلّةٍ**»[1]، ولهذا قال تعالى في حق الكفار: ﴿ **كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥** ﴾ [المطفّفين]، فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه.

ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياءه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (١٨٣٢٥) منْ حديث عمّار بْن ياسرٍ رضي الله عنه، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٣٠/ ٢٦٥): «حديثٌ صحيحٌ».

والدنو منه وقربه.

وهذان الأصلان ثابتان بالكتاب والسنة وعليهما أهل العلم والإيمان»[١].

❋ ❋ ❋

(١) طريق الهجْرتيْن وباب السّعادتيْن (ص٥٨-٥٩).

منْ ذاق الخيْر أوْغَلَ فيه

من ترك المحرمات زالت عنه العوائق المغشّية على ما في الفطرة من المعرفة والمحبة، فإذ به يجدها في قلبه؛ فإذا امتثل الأمر وقام بالفريضة وذاق طعم التعبد وجد لهذه الطاعة من الطعم واللذة والحلاوة ما يفوق شهوات الدنيا ولذّاتها بما لا يقارن.

فتجد النفس من النعيم ما تركن إليه وتعيش به ومعه ومن أجله، وهو أمر معين على إكمال الطريق..

ومن هنا تستشرف النفس أن تذوق من النوافل بعد الفرائض، وينبغي لصاحبها أن يوردها تلك الرياض ويذيقها من تلك الطعوم.

- منْ نوافل الصّلاة:

فيتذوق من صلاة النافلة بعد إتمام الفريضة، وتطوف بصلاة الليل، وتجعل لنفسك وردًا ثابتًا بالنهار، وليكن اثنتي عشرة ركعة من الرواتب قبل وبعد الفرائض والتي وعد الله تعالى رسوله ﷺ أن من حافظ الله عليها بنى الله تعالى له بيتًا في الجنة، اثنتين قبل الفجر، وأربع قبل الظهر واثنتين بعده،

واثنتين بعد المغرب، واثنتين بعد العشاء[١].

- **مِنْ نوافل الصيام:**

ويتذوق من صيام النوافل ولو يوم كل عشرة أيام بمعدل ثلاثة أيام من كل شهر، جاء أن رسول الله ﷺ كان لا يبالي صامها أول الشهر أو أوسطه أو آخره، وإن كان أغلب الأمر وسط الشهر لثنائه على فاعلها وترغيبه فيها[٢].. أو صيام يوم كل سبعة أيام[٣]، أو يحافظ على الإثنين والخميس[٤]، أو أفضل

---

(١) روى مسْلمٌ في صحيحه ١٠٣ (٧٢٨) كتاب صلاة المسفرين وقصْرها- باب فضْل السّنن الرّاتبة قبْل الْفرائض وبعْدهنّ، وبيان عددهنّ، عنْ أمّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زوْج النّبيّ ﷺ، أنّها قالتْ: سمعْت رسول الله ﷺ، يقول: «**ما منْ عبْدٍ مسْلمٍ يصلّي لله كلّ يوْمٍ ثنْتيْ عشْرة ركْعةً تطوّعًا، غيْر فريضةٍ، إلّا بنى الله له بيْتًا في الْجنّة، أوْ إلّا بني له بيْتٌ في الْجنّة**».

(٢) روى البخاريّ في صحيحه (١١٧٨) كتاب التّهجّد- باب صلاة الضّحى في الحضر، عنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أوْصاني خليلي بثلاثٍ لا أدعهنّ حتّى أموت: «**صوْم ثلاثة أيّامٍ منْ كلّ شهْرٍ، وصلاة الضّحى، ونوْمٍ على وتْرٍ**»، وروى مسْلمٌ في صحيحه ١٩٤ (١١٦٠) كتاب الصّيام- باب اسْتحْباب صيام ثلاثة أيّامٍ منْ كلّ شهْرٍ وصوْم يوْم عرفة وعاشوراء والاثْنيْن والْخميس، عنْ معاذة الْعدويّة، أنّها سألتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوْج النّبيّ ﷺ: «أكان رسول الله ﷺ يصوم منْ كلّ شهْرٍ ثلاثة أيّامٍ؟» قالتْ: «نعمْ»، فقلْت لها: «منْ أيّ أيّام الشّهْر كان يصوم؟» قالتْ: «لمْ يكنْ يبالي منْ أيّ أيّام الشّهْر يصوم».

(٣) وذلك لمن قَصُرَت هِمَّتُه عن صيام يومَيْ الإثنين والخميس، فليصمْ أحدَهما، ولا يحرِمْ نفسه من الخير.

(٤) روى التّرْمذيّ في جامعه (٧٤٥) أبْواب الصّوْم- باب ما جاء في صوْم يوْم الاثْنيْن والخميس، عنْ =

الصيام، صيام «داود» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو صوم يوم وإفطار يوم[1].

- **تلاءٌ لكتاب الله العزيز:**

ويتذوق من قراءة القرآن فيختم في كل أربعين يوم مرة أو ثلاثين، أو عشرين يومًا، أو سبعة أيام كما كان الصحابة يختمون، وتأسى بهم الأئمة كالإمام «أحمد» رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره.

- **منْ نوافل الصّدقة:**

ويتذوق العبد طعم الصدقة النافلة بعد الزكاة الواجبة، وإن لم يكن من أهل الزكاة فيتصدق بما يستطيع ولا يحرم نفسه طعم العطاء وفضل الصدقة؛

=

عائشة قالتْ: «كان النّبيّ ﷺ يتحرّى صوْم الاثْنيْن والخميس»، وقال: «حديث عائشة حديثٌ حسنٌ غريبٌ منْ هذا الوجْه»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٤٨٩٧) وقال: «صحيحٌ».

وروى النّسائيّ في السّنن الصّغْرى (٢٣٥٨) كتاب الصّيام، عنْ أسامة بْن زيْدٍ، قال: قلْت: يا رسول الله، إنّك تصوم حتّى لا تكاد تفْطر، وتفْطر حتّى لا تكاد أنْ تصوم، إلّا يوْميْن إنْ دخلا في صيامك وإلّا صمْتهما، قال: «أيّ يوْميْن؟» قلْت: يوْم الاثْنيْن ويوْم الْخميس، قال: «**ذانك يوْمان تعْرض فيهما الْأعْمال على ربّ الْعالمين، فأحبّ أنْ يعْرض عملي وأنا صائمٌ**»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٢٩٥٩) وقال: «صحيحٌ».

(١) روى التّرْمذيّ في جامعه (٧٧٠) أبْواب الصّوْم- باب ما جاء في سرْد الصّوْم، عنْ عبْد الله بْن عمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفْضل الصّوْم صوْم أخي داود كان يصوم يوْمًا، ويفْطر يوْمًا، ولا يفرّ إذا لاقى**»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١١٢٠) وقال: «صحيحٌ».

قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: «لمّا أمرنا رسول الله ﷺ بالصدقة كنّا نحامل على ظهورنا فنجيء بالمد فنعْطيه رسول الله ﷺ..»[١] الحديث.. والمعنى نحمل على ظهرنا بالأجرة.

ومن الناس من يجعل لنفسه مالًا ثابتًا للصدقة كنسبة من راتبه أو دخله كل شهر، وآخر يحب أن يتصدق كل يوم فلا يمر يوم إلا وقد تصدق ولو بالقليل فيكتب في المصّدّقين، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد]، رجاء فيما كتب الله لأصحاب الصدقة؛ إذ أخبر رسول الله ﷺ أن الصدقة تطفيء غضب الرب[٢]، وأنها تطفيء حرّ القبور[٣]، وأن المرء في ظل صدقته يوم القيامة[١]، وأنها تقع في

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٧٢ (١٠١٨) كتاب الزّكاة- باب الْحمْل أجْرةً يتصدّق بها، والنّهْي الشّديد عنْ تنْقيص الْمتصدّق بقليلٍ، عنْ أبي مسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «أمرْنا بالصّدقة» قال: كنّا نحامل، قال فتصدّق أبو عقيلٍ بنصْف صاعٍ»، قال مسْلمٌ (١٠١٨): وفي حديث سعيد بْن الرّبيع، قال: «كنّا نحامل على ظهورنا»، ورواه النّسائيّ في السّنن الصّغْرى (٢٥٢٩) كتاب الزّكاة- جهْد المقلّ، بلفْظ: كان رسول الله ﷺ: «يأْمرنا بالصّدقة فما يجد أحدنا شيْئًا يتصدّق به حتّى ينْطلق إلى السّوق، فيحْمل على ظهْره، فيجيء بالْمدّ فيعْطيه رسول الله ﷺ».

(٢) روى الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٨٠١٤) عنْ أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنائع الْمعْروف تقي مصارع السّوء، وصدقة السّرّ تطْفئ غضب الرّبّ، وصلة الرّحم تزيد في الْعمر**»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٣٧٩٧) وقال: «حسنٌ».

(٣) روى الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٧٨٧) عنْ عقْبة بْن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ الصّدقة**
=

يد الله قبل أن تقع في يد الفقير فيربيها تعالى لصاحبها ويضاعفها له[٢]، وأن العبد يداوي بها مريضه[٣]، ويدفع بها البلاء المترتب على ذنوبه[١]، وأنها تقي

=

لتطفئ منْ حرّ الْقبور»، وفي روايةٍ له (٧٨٨) زاد: «**وإنّما يسْتظلّ الْمؤمن يوْم الْقيامة في ظلّ صدقته»**، قال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (٣/ ١١٠): «رواه الطّبرانيّ في الْكبير، وفيه ابْن لهيعة، وفيه كلامٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (١٤٨٨) وقال: «ضعيفٌ».

(١) روى أحْمدُ في مسْنده (١٧٣٣٣) عنْ عقْبة بْن عامرٍ رضي الله عنه، يقول: سمعْت رسول الله ﷺ يقول: «**كلّ امْرئٍ في ظلّ صدقته حتّى يفْصل بيْن النّاس** - أوْ قال: **يحْكم بيْن النّاس**-»، قال شعيْب الأرْنؤوط (٢٨/ ٥٦٨): «إسْناده صحيحٌ، رجاله ثقاتٌ رجال الشّيْخيْن غيْر حرْملة بْن عمْران، فإنّه منْ رجال مسْلمٍ»، وله (١٨٠٤٣) عنْ مرْثد بْن عبْد الله الْيزنيّ، حدّثني بعْض أصْحاب رسول الله ﷺ، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ ظلّ الْمؤمن يوْم الْقيامة صدقته»**، قال شعيْب الأرْنؤوط (٢٩/ ٥٧٩): «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسْنادٌ حسنٌ».

(٢) روى البخاريّ في صحيحه (١٤١٠) كتاب الزّكاة- باب الصّدقة منْ كسْبٍ طيّبٍ، عنْ أبي هريْرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ تصدّق بعدْل تمْرةٍ منْ كسْبٍ طيّبٍ، ولا يقْبل الله إلّا الطّيّب، وإنّ الله يتقبّلها بيمينه، ثمّ يربّيها لصاحبه، كما يربّي أحدكمْ فلوّه، حتّى تكون مثْل الجبل»**، روى الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (١٢١٥٠) عن ابْن عبّاسٍ رضي الله عنهما، رفعه قال: «**ما نقصتْ صدقةٌ منْ مالٍ قطّ، وما مدّ عبْدٌ يده بصدقةٍ إلّا ألْقيتْ بيد الله قبْل أنْ تقع في يد السّائل، ولا فتح عبْدٌ باب مسْألةٍ له عنْها غنًى إلّا فتح الله عليْه باب فقْرٍ»**، قال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (٣/ ١١٠): «رواه الطّبرانيّ في الْكبير، وفيه منْ لمْ أعْرفْه». وله في المعْجم الكبير (٨٥٧١) عنْ عبْد الله رضي الله عنه، قال: «**إنّ الصّدقة تقع في يد الله قبْل أنْ تقع في يد السّائل»**، ثمّ قرأ عبْد الله: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ**﴾ [الشّورى:٢٥] الْآية.

(٣) روى أبو داود في المراسيل (١٠٥) بابٌ في الزّكاة، عن الْحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حصّنوا**

=

مصارع السوء[٢].

كما يرجو أن ينفث كل يوم عن مؤمن همًّا أو ينفث عنه كربًا أو يمسح دمعة يتيم أو يعف امرأة محتاجة وغير ذلك كثير.

- **مسبّحون مع الملائكة:**

ويتذوق من الذكر والتسبيح لفضله العظيم؛ فهو خفيف العناء، ثقيل الميزان، حبيب إلى الرحمن، يملأ الصحيفة خيرًا.

=

أمْوالكمْ بالزّكاة، وداووا مرْضاكمْ بالصّدقة، واسْتقْبلوا أمْواج الْبلاء بالدّعاء والتّضرّع»، وقدْ حسّن الألْبانيّ المرْسل دون سواه وقدْ حكم على طرقٍ له بالنّكارة والضّعْف الشّديد، وأوْرده في «صحيح الجامع الصّغير» وقال (٣٣٥٨): «حسنٌ».

(١) روى البيْهقيّ في السّنن الكبير (٧٩٠٧) كتاب الزّكاة- باب فضْل منْ أصْبح صائمًا، وتبع جنازةً، وأطْعم مسْكينًا، وعاد مريضًا، عنْ أنسٍ رضي الله عنه، قال: «باكروا بالصّدقة؛ فإنّ الْبلاء لا يتخطّى الصّدقة»، هكذا موْقوفًا، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٢٣١٧) وقال: «ضعيفٌ جدًّا». والمعْنى ثابتٌ ومفادٌ منْ الحديث المتّفق عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (١٤٦٢) كتاب الزّكاة- باب الزّكاة على الأقارب، عنْ أبي سعيدٍ الخدْريّ رضي الله عنه، خرج رسول الله ﷺ في أضْحًى أوْ فطْرٍ إلى المصلّى، ثمّ انْصرف، فوعظ النّاس، وأمرهمْ بالصّدقة، فقال: «**أيّها النّاس، تصدّقوا**»، فمرّ على النّساء، فقال: «**يا معْشر النّساء، تصدّقْن، فإنّي رأيْتكنّ أكْثر أهْل النّار**».

(٢) روى الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٨٠١٤) عنْ أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنائع الْمعْروف تقي مصارع السّوء، وصدقة السّرّ تطْفئ غضب الرّبّ، وصلة الرّحم تزيد في الْعمر**»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٣٧٩٧) وقال: «حسنٌ».

وبعض الجهال يظن أن ذكر اسم الله تعالى هو ترديد لفظ الجلال «الله» فقط، ولكن بيان معنى الذكر بينه رسول الله ﷺ بوحي الله له، ولهذا أنقل عن شيخ الإسلام بيان بعض الأذكار وبيان أنها وأمثالها المقصودة من ذكر الله تعالى في جمل تامة تدل على التنزيه أو التحميد أو التكبير أو الإفراد بالألوهية، لا اله الا الله، «التهليل»، أو اقتران بعض جملها ببعض.

«وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة]، ونحو ذلك لا يقتضي ذكره مفردًا بل في السنن أنه «لمّا نزل قوْله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة] قال: «**اجْعلوها في ركوعكمْ**»، ولمّا نزل قوْله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى]، قال: «**اجْعلوها في سجودكمْ**»[1]، فشرع لهم أن يقولوا في الركوع «سبحان ربي العظيم» وفي السجود «سبحان ربي الأعلى»، وفي الصحيح: «**أنّه كان يقول في ركوعه: سبْحان ربّي العظيم، وفي سجوده: سبْحان ربّي الأعْلى**»[2] وهذا هو

(١) رواه أبو داود في سننه (٨٦٩) كتاب الصّلاة- باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده، وكذا أحْمدُ في مسْنده (١٧٤١٤) منْ حديث عقْبة بْن عامرٍ رضي الله عنه، قال شعيْب الأرنؤوط (٢٨/ ٦٣٠): «إسْناده محْتملٌ للتّحْسين».

(٢) روى هذا اللّفْظ أبو داود في سننه (٨٧٠) كتاب الصّلاة- باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده، منْ حديث عقْبة بْن عامرٍ رضي الله عنه، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٤٧٣٤) وقال: «صحيحٌ».

معنى قوله: «اجعلوها في ركوعكم» و «سجودكم» باتفاق المسلمين.

فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**أفْضل الكلام بعْد القرْآن أرْبعٌ - وهنّ منْ القرْآن- سبْحان الله والحمْد لله ولا إله إلّا الله والله أكْبر**»[(١)]، وفي الصّحيح عنْه ﷺ أنّه قال: «**كلمتان خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرّحْمن، سبْحان الله وبحمْده، سبْحان الله العظيم**»[(٢)]. وفي الصّحيحيْن عنْه ﷺ أنّه قال: «**منْ قال: لا إله إلّا الله وحْده لا شريك له، له الْملْك وله الْحمْد وهو على كلّ شيْءٍ قديرٌ، في يوْمٍ مائة مرّةٍ، كانتْ له عدْل عشْر رقابٍ، وكتبتْ له مائة حسنةٍ ومحيتْ عنْه مائة سيّئةٍ، وكانتْ له حرْزًا من الشّيْطان، يوْمه ذلك، حتّى يمْسي ولمْ يأْت أحدٌ أفْضل ممّا جاء به إلّا أحدٌ عمل أكْثر منْ ذلك، ومنْ قال: سبْحان الله وبحمْده، في يوْمٍ مائة مرّةٍ حطّتْ خطاياه ولوْ كانتْ مثْل زبد الْبحْر**»[(٣)]، وفي الموطّإ وغيْره عنْ النّبيّ ﷺ أنّه قال:

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٢ (٢١٣٧) كتاب الآداب- باب كراهة التّسْمية بالْأسْماء الْقبيحة وبنافعٍ ونحْوه، ورواه بهذا اللّفْظ أحْمدٌ في مسْنده (٢٠٢٢٣)، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٣٣/ ٣٧٥): «إسْناده صحيحٌ»، كلاهما منْ حديث سمرة بْن جنْدبٍ رضي الله عنه.

(٢) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٦٦٨٢) كتاب الأيْمان والنّذور، ومسْلمٌ في صحيحه ٣١ (٢٦٩٤) كتاب الذّكْر والدّعاء والتّوْبة والاسْتغْفار- باب فضْل التّهْليل والتّسْبيح والدّعاء، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٢٨ (٢٦٩١) كتاب الذّكْر والدّعاء والتّوْبة والاسْتغْفار- باب فضْل التّهْليل =

«**أفْضل الدّعاء دعاء يوْم عرفة، وأفْضل ما قلْت أنا والنّبيّون منْ قبْلي: لا إله إلّا الله وحْده لا شريك له**»[١]. وفي سنن ابْن ماجه وغيْره عنْه ﷺ أنّه قال: «**أفْضل الذّكْر لا إله إلّا الله، وأفْضل الدّعاء الْحمْد لله**»[٢].

ومثل هذه الأحاديث كثيرةٌ في أنْواع ما يقال منْ الذّكْر والدّعاء. وكذلك ما في القرْآن منْ قوْله تعالى: ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقوْله: ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة:٤]، إنّما هو قوْله: بسْم الله»[٣].

«وقدْ نقل عنْ النّبيّ ﷺ أنّه كان يقول: «**سبْحان ربّي الْعظيم وسبْحان ربّي الْأعْلى؛ وأنّه كان يقول سبْحانك اللّهمّ وبحمْدك اللّهمّ اغْفرْ لي؛ وسبْحانك وبحمْدك لا إله إلّا أنْت**». وفي بعْض روايات أبي داود «**سبْحان ربّي الْعظيم وبحمْده**»، وفي اسْتحْباب هذه الزّيادة عنْ أحْمد روايتان. وفي صحيح مسْلمٍ

=

والتّسْبيح والدّعاء، منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه.

(١) رواه مالكٌ في الموطّإ (٣٢) كتاب القرْآن، منْ حديث طلْحة بْن عبيْد الله بْن كريزٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه ابْن ماجة في سننه (٣٨٠٠) أبْواب الأدب- باب فضْل الحامدين، والتّرْمذيّ في جامعه (٣٣٨٣) أبْواب الدّعوات- باب ما جاء أنّ دعْوة المسْلم مسْتجابةٌ، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١١٠٤) وقال: «حسنٌ».

(٣) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٩-٢٣٠).

عنْ عائشة «أنّ رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده سبّوحٌ قدّوسٌ ربّ الْملائكة والرّوح»، وفي السّنن أنّه كان يقول «سبْحان ذي الْجبروت والْملكوت والْكبْرياء والْعظمة»، فهذه كلّها تسْبيحاتٌ»(١).

«ومعلوم أن الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن أربع «ومعْلومٌ أنّ الْكلمات الّتي هي أفْضل الْكلام بعْد الْقرْآن أرْبعٌ «سبْحان الله والْحمْد لله ولا إله إلّا الله والله أكْبر»، وهي شطْران: فالتّسْبيح قرين التّحْميد، ولهذا قال النّبيّ ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الْميزان حبيبتان إلى الرّحْمن سبْحان الله وبحمْده سبْحان الله الْعظيم»، أخْرجاه في الصّحيحيْن عنْ أبي هريْرة. وقال ﷺ فيما رواه مسْلمٌ عنْ أبي ذرٍّ: «أفْضل الْكلام ما اصْطفى الله لملائكته: سبْحان الله وبحمْده». وفي الْقرْآن: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣٠]، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النّصر:٣]؛ «فكان النّبيّ ﷺ يقول في ركوعه: سبْحانك اللّهمّ ربّنا وبحمْدك، اللّهمّ اغْفرْ لي، يتأوّل الْقرْآن»، هكذا في الصّحاح عنْ عائشة، فجعل قوْله: «سبْحانك اللّهمّ وبحمْدك»، تأْويل ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر:٩٨]، وقدْ قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٦/ ١١٥).

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾ [غافر]، وقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم]، ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرّوم:١٨]، والآثار في اقْترانهما كثيرةٌ.

وأمّا التّهْليل فهو قرين التّكْبير، كما في كلمات الْأذان: الله أكْبر الله أكْبر أشْهد أنْ لا إله إلّا الله أشْهد أنّ محمّدًا رسول الله، ثمّ بعْد دعاء الْعباد إلى الصّلاة: الله أكْبر الله أكْبر لا إله إلّا الله، فهو مشْتملٌ على التّكْبير والتّشهّد أوّله وآخره»[1].

- **الانْخلاع منْ الحظّ والقيام بالحقّ:**

ينبغي للمتعبد أن يذوق طعم الانخلاع من الحظوظ والخروج عن مقتضيات الطبع فيستحضر النيات في المباحات ويعمل على وجه التعبد، بخلا منه بعمره، وبخلا بعمله أن يفنى بفنائه ويموت بموته، ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النّحل:٩٦]، بل يريد أن يجعل أعماله المباحات تعبدات، فيستحضر النية في أعماله وأقواله ويتعامل مع ربه تعالى بعمق في عبادته.. فلا يخرج من عبادته في الصلاة وغيرها إلى حظ نفسه بل إلى عبادة أخرى، فيتقلّب من عبادة إلى عبادة ويكون ربه تعالى حاضرًا في حسّه مقصودًا ومرادًا

(١) مجْموع الفتاوى (٢٤/ ٢٣١-٢٣٢).

من وراء كل عمل؛ فلا يغيب عنه، ولا يفتر عن ذكره بقلبه وعمله، وهذا غير الذكر باللسان.

إن استحضار النيات يجعل للعبد عمقًا في عبوديته لله تعالى فيكون سره حاضرًا وقاصدًا لربه تعالى، وهذه العبودية العميقة تكون زخمًا للعبد يثبته الله تعالى به في البلاءات والشدائد، عافانا الله وإياكم، ويعينه على قطع الطريق، وليرفعه تعالى بهذه العبودية درجات في الجنة عالية، نسأل الله تعالى النجاة ورفعة الدرجات.

- **معونةٌ.. تجدّ في الطّريق على سلم العبودية:**

الإكثار من التعبد والذكر وقراءة القرآن حتى يصفو قلبك ويكون لكل آية من القرآن موضعها وانفعالها في قلبك.

ثم يتعلق العبد بالله عز وجل حتى يسعد وينعم بذكره وعبادته، وتتحول العبادة من تعب إلى تنعم..

ثم يتعلق قلبه ويتأثر أكثر ويشتاق إلى الآيات التي تصف ربه أو فيها ذكر أسمائه والتعريف به أو ذكر أفعاله حتى يصير ارتباط قلبه بالله تعالى شديدًا، ويملأ حب الله حياته حتى أنه لا يستطعم من الدنيا شيئًا..

ويستوحش من مخالطة الناس إلا أن يكون بينهم بأمر الله أن يكون هناك..

وتصبح غاية حياته أن يفوز بالقرب من الله فتصبح كل لحظة في الدنيا تمر عليه وهو مسافر فيها بقلبه إلى الله، لا تمر عليه لحظة إلا وهو يقترب أكثر فيقربه الله، ويقترب الله من قلبه، وهذا حق على مذهب أهل السنة «والله يقْرب منْ خلْقه كما يشاء»[1]، ومثل هذا لا حظَّ له في نفسه؛ فلا يقول إلا بأمر الله ولا يترك إلا بأمره ولا يحب شيئًا لأنه يحبه ولكن بحب مولاه له، وبالقدْر الذي يحبه الله ومن الوجه الذي يحبه الله.

ولا يبغض شيئًا لمجرد أن طبعه ينفر عنه ولكن لأن الله يبغضه أو أذن له..

وهذا القلب محل للعلم ليس فيه إرادة إلا الإرادة الشرعية الإلهية أي يطابق مراده مراد الله تعالى.. وقلقه وجزعه خشية ألا يفوز بالقرب، أو أن يأتي أمرًا يوحش ما بينه وبين ربه، أو يغفل لحظة فيتأخر المحب عن حبيبه. غايته في الدنيا هي عبادة الله والقرب منه، وأن يمن الله عليه بالقرب في الآخرة، وهو جزاء مرجو على إخلاص عبوديتهم لله تعالى وإيغالهم فيها..

وهؤلاء هم الذين يعرفون معنى القرب في الآخرة..

---

(١) قال الذّهبيّ في «العلوّ للعليّ الغفّار»: «روى شيْخ الإسْلام أبو الْحسن الهكاريّ والحافظ أبو محمّد الْمقْدسيّ بإسْنادهمْ إلى أبي ثوْرٍ وأبي شعيْبٍ، كلاهما عنْ الإمام محمّد بْن إدْريسٍ الشّافعيّ ناصر الحديث رحمه الله تعالى، قال: القوْل في السّنّة الّتي أنا عليْها ورأيْت عليْها الّذين رأيْتهمْ، مثْل سفْيان ومالكٍ وغيرهما، الإقْرار بشهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله، وأنّ الله على عرْشه في سمائه، يقْرب منْ خلْقه كيْف شاء، وينْزل إلى السّماء الدّنْيا كيف شاء».

رُكُون النّفْس للعبودية

إذا تذوقت النفس مختلف العبوديات فقد تزيد في إحداها وتوغل فيها، وهذا أمر محمود؛ فقد يجد الإنسان قلبه حاضرًا في بعضها، ولا بد هنا من فقه لتحقيق غرضين:

أولهما: أن تكون له عبودية يعرف بها في السماء، وينادى من بابها إلى الجنة؛ إذ إن أبواب الجنة بحسب الأعمال، وفي هذا جاء الحديث: «**منْ أنْفق زوْجيْن في سبيل الله، نودي منْ أبْواب الجنّة: يا عبْد الله هذا خيْرٌ، فمنْ كان منْ أهْل الصّلاة دعي منْ باب الصّلاة، ومنْ كان منْ أهْل الجهاد دعي منْ باب الجهاد، ومنْ كان منْ أهْل الصّيام دعي منْ باب الرّيّان، ومنْ كان منْ أهْل الصّدقة دعي منْ باب الصّدقة**»، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: بأبي أنْت وأمّي يا رسول الله ما على منْ دعي منْ تلْك الأبْواب منْ ضرورةٍ، فهلْ يدْعى أحدٌ منْ تلْك الأبْواب كلّها؟، قال: «**نعمْ وأرْجو أنْ تكون منْهمْ**»(١).

ومعْنى «**أنْفق زوْجيْن**»: عمل صنْفيْن منْ أعْمال البرّ، ومعْنى «**منْ أهْل**

---

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (١٨٩٧) كتاب الصّوْم- بابٌ: الرّيّان للصّائمين، ومسْلمٌ في صحيحه ٨٥ (١٠٢٧) كتاب الزّكاة- باب منْ جمع الصّدقة، وأعْمال الْبرّ، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه.

الصّلاة»: المكْثرين لصلاة التّطوّع، وكذلك من ذكر منْ أهْل الأعْمال الأخْرى؛ فالمراد الملازمون لها المكْثرون منْها زيادةً عنْ الواجبات. «منْ ضرورةٍ»: منْ مضرّةٍ أيْ قدْ سعد منْ دعي منْ الأبْواب جميعًا، ودعْوته منْها جميعًا أنْ يخيّر في الدّخول منْ أيّها شاء، وهذا مزيد تكْريمٍ وفضْلٍ»[١].

فللإنسان أعمال يعرف بها وينادى إلى بابها من الجنة يوم القيامة..

والغرض الثاني.. هو أن يفقه العبد حال نفسه فيلزم تلك العبادة التي تؤثر في نفسه بالاستقامة ويكون لها وقْع الردع والضبط والصلة بالله تعالى.

فبعض الناس لو التزم الذكر صلح حاله، وآخر يستقيم إذا لزم قراءة القرآن، وآخر إذا صام وجد نفسه لله تعالى أطوع، وآخر إذا قام الليل وصلى النوافل، وآخر إذا هزم شح نفسه واستخرج منها المال، وآخر إذا استحضر النيات حضر قلبه وإلا تاه في أودية الدنيا.

وآخر يجد نفسه في باب الجهاد ودفع صيال العدو على بلاد المسلمين، وفي الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإيصال الخير للناس، والانشغال بحال المسلمين؛ فهذا باب الجهاد، هو باب بنفسه من أبواب

---

(١) منْ شرْح وتعْليق الدكْتور مصْطفى ديب البغا على صحيح البخاريّ، كتاب الصّيام- باب الرّيّان للصّائمن، وأوْرد التّعْليق عبْد الله بْن أحْمد العلّاف في كتاب «منْ فتاوى أئمّة الإسْلام في الصّيام» (ص٢٧).

الجنة.

وعلى هذا فلينظر أحدنا فيما يصلحه الإكثار منه فيلزمه ولعله ينادى به يوم القيامة.

وليس معنى هذا ترك بقية التعبدات بل المقصود هنا هو الباب الذي يكثر فيه أكثر من غيره، مع عدم حرمان نفسه من بقية العبادات.. ولعله ينادى من جميع الأبواب لو كان موغلًا في مختلف أبواب الخير؛ والله المعين.

❁❁❁❁

- **ستأْتيك المعونة:**

واعلم أنه إذا رسخْت في بابٍ فتح لك فيه من المعونة والمحبة والذوق والمعرفة ما يعينك، فالله تعالى لا يترك عبده لنفسه وإنما يعينه ويمده، ومن استعان به أعانه..

والْزم «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ولْتكن هذه الكلمة بمعناها العظيم هي ملجأ لك تنادي بها دوما فإن بها تكابد الأهوال والمشاق..

يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» موصيًا من يريد التربية وصرف آفات النفوس: «ولْيتّخذْ ورْدًا منْ «الْأذْكار» في النّهار ووقْت النّوْم ولْيصْبرْ على ما يعْرض له منْ الْموانع والصوارف فإنّه لا يلْبث أنْ يؤيّده الله بروح منْه ويكْتب الْإيمان في قلْبه. ولْيحْرصْ على إكْمال الْفرائض منْ الصّلوات الْخمْس باطنةً

وظاهرةً فإنّها عمود الدّين ولْيَكُنْ هِجِيِّرَاهُ لا حوْل ولا قوّة إلّا بالله، فإنّها بها تحْمل الْأثْقال وتكابد الْأهْوال وينال رفيع الْأحْوال. ولا يسْأم منْ الدّعاء والطّلب فإنّ الْعبْد يسْتجاب له ما لمْ يعجّلْ فيقول: قدْ دعوْت ودعوْت فلمْ يسْتجبْ لي ولْيعْلمْ أنّ النّصْر مع الصّبْر وأنّ الْفرج مع الْكرْب وأنّ مع الْعسْر يسْرًا ولمْ ينلْ أحدٌ شيْئًا منْ ختْم الْخيْر نبيٌّ فمنْ دونه إلّا بالصّبْر. والْحمْد لله ربّ الْعالمين»(١).

❁❁❁❁

▪ ما فتح لك فالْزمْه:

فإذا وجدت نفسك تأنس بعبادة وتتأثر بها وتصلح من حالك فاجعلها عمدتك، وأوغل فيها واجعل غيرها معها وحولها كي لا تخلو من أنواع العبادات.

والعمدة في هذا هو فعل الصحابة والتابعين وأئمة السلف؛ فـ «ابن مسعود» رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ كان يكثر قيام الليل وقراءة القرآن وكان يقلل من الصيام لأنه يضعفه عن قيام الليل، وتميز بعض القرون المفضلة بقيام الليل فكان بعضهم يقوم ثلث الليل وبعضهم نصفه، ومنهم أكثر..

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ١٣٧).

وكان بعضهم يصلي في اليوم مائة ركعة من النوافل وآخر أكثر حتى قيل وصل لألف ركعة، حتى أقعد من قبل رجليه فكان يصلي جالسًا، ويجلس بعد العصر يقول: «عجبْت للخليقة كيْف أنستْ بسواك!»(١).

وآخرون كانوا يوغلون في الصوم فبعضهم التزم صيام «داود» عَلَيْهِ السَّلَامُ يومًا ويوم، وآخرون سردوا الصوم فتابعوا الأيام عدا الأيام المحرّم صيامها كيومي العيد وأيام التشريق، كـ «أبي قتادة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصحابة و «عرْوة بْن الزّبيْر» من التابعين وغيرهم كثير.

وبعضهم تميز بختم القرآن حتى كان يختمه كأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل سبعة أيام، وبعضهم في ثلاث، وآخرون كل ليلة كـ «عثْمان» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقوم به في وتره فيقوم ركعة يقرأ بها القرآن طول الليل حتى ظنته جارية صغيرة نخلة فوق بيته سألت عنها بعد استشهاده؛ أين ذهبت النخلة التي كانت فوق دار أمير المؤمنين؟ فقالت أمها إنها ليست نخلة بل كانت أمير المؤمنين.

وآخرون أوغلوا في التسبيح فكان البعض يسبح عشرة آلاف تسبيحة في

---

(١) أوْرده ابْن رجب الحنْبليّ في «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣٢) عنْ رياحٍ، قال: «كان عنْدنا رجلٌ يصلّي كلّ يوْمٍ وليْلةٍ ألْف ركْعةٍ، حتّى أقْعد منْ رجْليْه، فكان يصلّي جالسًا ألْف ركْعةٍ، فإذا صلّى الْعصْر، احْتبى فاسْتقْبل الْقبْلة، ويقول: عجبْت للْخليقة كيْف أنستْ بسواك، بلْ عجبْت للْخليقة كيْف اسْتنارتْ قلوبها بذكْر سواك».

اليوم، وبعضهم أكثر، حتى رؤي بعد موته يحرك يده بالتسبيح وهو على سريره يجهّزون جنازته، كرامة له.

وآخرون استحضروا النيات في كل عمل وراقبوها وراجعوها حتى توقفوا عن الأعمال حتى يصلحوا النيات ويطمئنوا إليها وإلا امتنع بعضهم إن لم يجد نية تقربه لربه تعالى.. وستأتي إشارة أخرى لهذا إن شاء الله.

❁❁❁❁

▪ لا تلْزمْ غيْرك بما ألْزمْت به نفْسك:

يشير شيخ الإسلام «ابْن تيْمية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى خطأ يقع فيه بعض العبّاد، وهو أنه إذا رأى نفسه قد صلح بأوراد ومسلك في التعبد وإيغال في بعضها ألْزم غيره بما التزمه وعاب على غيره أنه لم يفعل مثله..

وهذا من الخطأ، وقد يدخله شيء من الهوى، فإن ما يصلح عبدًا غير ما يصلح آخر، وقد يجد العبد قلبه في حال دون آخر، وغيره من الناس بخلافه.. وإنما نلزم الناس بالفرائض؛ نلزمهم بما ألزمهم الله، ونرغّبهم فيما رغّبهم الله ورسوله فيه، ولا نتعدى الأدب مع ربنا ومع خلقه؛ وإنما ننصح الناس ونعلمهم فقه المسألة كما سبق بيانه، والله الهادي والموفق.

❁❁❁❁

▪ جملٌ مهمّةٌ ونافعةٌ في شأْن الأوْراد الّتي تلْتزم:

ثمة جمل مهمة لا بد أن نلزمها في أورادنا.. منْها:

- قصْد الدّيْمومة:

فمن مقصود الشارع سبحانه وتعالى الديمومة على العمل إلى الممات، ولذلك ينفي تعالى عنا المشقة، ويجب علينا ألا نقصدها، بل نقصد من الإلتزام ما نستطيع عمله إلى الممات وامتداد الأعمار؛ كما ندم «عبد الله بن عمرو بن العاص» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنْ لم يأخذ برخصة رسول الله ﷺ وتخفيفه في شأن أوراده .

واعلم أن المشقة تدخل على العبد من جهتين:

أولها.. من ذات العمل نفسه؛ أن يكون شاقًّا على النفس لا يستطيعه العبد؛ فينقطع عنه أو يبغض العبادة، كقيام الليل كله أو تتابع الصيام وهو ليس ممن يطيق هذا.

وثانيها.. أنه قد تدخل المشقة من باب الديمومة، فيكون العمل مطاقًا ليوم أو يومين، لكنه غير مطاق إذا نظرت إليه على وجه الاستمرار..

ولهذا جاء عن «عائشة» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**علَيْكمْ بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتّى تملّوا**»، وكان أحبّ الدّين إليْه مادام عليْه

صاحبه[١]، وجاء: «ولا تبغّضوا إلى أنْفسكمْ عبادة الله»[٢].

وعلى هذا فيجب مراعاة الجانبين وملاحظة هذين الوجهين، لأن من مقصود الشارع سبحانه أن نداوم على العمل فكان رسول الله ﷺ **«إذا عمل عملًا أثْبته»**[٣]، و**«كان عمله ديمةً»**[٤] ، و**«كان أحبّ العمل إليْه أدْوَمه وإنْ قلّ»**[٥]، **«وكان أحبّ العمل إليْه ما داوم عليْه صاحبه»**[٦].

بل عدّ الشرع، أن ترك الأعمال، ولو كانت نافلة، إذا التزمها العبد، ثم

---

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٤٣) كتاب الإيمان- بابٌ: أحبّ الدّين إلى الله عزّ وجلّ أدْومه، ومسْلمٌ في صحيحه ٢٢١ (٧٨٥) كتاب صلاة المسافرين وقصْرها- باب أمْر منْ نعس في صلاته، أو اسْتعْجم عليْه الْقرْآن، أو الذّكْر بأنْ يرْقد، أوْ يقْعد حتّى يذْهب عنْه ذلك.

(٢) رواه ابْن المبارك في الزّهْد والرّقائق منْ قوْل عبْد الله بْن عمْرو بْن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفْظ: «إنّ هذا الدّين متينٌ فأوْغلوا فيه برفْقٍ، ولا تبغّضوا إلى أنْفسكمْ عبادة الله، فإنّ الْمنْبتّ لا بلغ بعْدًا، ولا أبْقى ظهْرًا، واعْملْ عمل امْرئٍ يظنّ أنْ لا يموت إلّا هرمًا، واحْذرْ حذر امْرئٍ يخْشى أنْ يموت غدًا».

(٣) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٤١ (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصْرها- باب جامع صلاة اللّيْل، ومنْ نام عنْه أوْ مرض، منْ حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه البخاريّ في صحيحه (١٩٨٧) كتاب الصّوْم- بابٌ: هلْ يخصّ شيْئًا من الأيّام، منْ حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٧٨ (٢٨١٨) كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار- باب لنْ يدْخل أحدٌ الْجنّة بعمله بلْ برحْمة الله تعالى، منْ حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٦) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٧٧ (٧٨٢) كتاب الصّيام- باب صيام النّبيّ ﷺ في غيْر رمضان، واسْتحْباب أنْ لا يخْلي شهْرًا عنْ صوْمٍ، منْ حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

تركها أنها نوع من نقض العهد، ولهذا ترجم «النووي» في «رياض الصالحين» على التزام الأوراد وعدم تركها بهذه الترجمة، قال: «باب المحافظة على ما اعْتاده منْ الخيْر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعْد:١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النّحْل:٩٢]، و«الأنْكاث»: جمْع نكْثٍ، وهو الغزْل المنْقوض. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]»[1].

ثم ذكر الحديث المتفق عليه عنْ عبْد الله بْن عمْرو بْن العاص رضي الله عنهما، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبْد الله، لا تكنْ مثْل فلانٍ كان يقوم اللّيْل، فترك قيام اللّيْل**»[2].

ويقول «الشّاطبيّ» رحمه الله: «منْ مقْصود الشّارع في الأعْمال دوام الْمكلّف عليْها، والدّليل على ذلك واضحٌ، كقوْله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج]، وقوْله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الْبقرة: ٣].

---

(١) رياض الصّالحين، كتاب الأدب- باب (٨٧) (ص١٧٤).

(٢) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (١١٥٢) كتاب التّهجّد- باب ما يكْره منْ ترْك قيام اللّيْل لمنْ كان يقومه، ومسْلمٌ في صحيحه ١٨٥ (١١٥٩) كتاب الصّيام- باب النّهْي عنْ صوْم الدّهْر لمنْ تضرّر به أوْ فوّت به حقًّا أوْ لمْ يفطر الْعيديْن والتّشْريق، وبيان تفْضيل صوْم يوْمٍ، وإفْطار يوْمٍ.

وإقام الصّلاة بمعْنى الدّوام عليْها بهذا فسّرتْ الْإقامة حيْث ذكرتْ مضافةً إلى الصّلاة، وجاء هذا كلّه في معْرض الْمدْح، وهو دليلٌ على قصْد الشّارع إليْه، وجاء الْأمْر به صريحًا في مواضع كثيرةٍ، كقوْله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٨٣].

وفي الْحديث: «**أحبّ العمل إلى الله ما داوم صاحبه وإنْ قلّ**»، وقال: «**خذوا من الْعمل ما تطيقون، فإنّ الله لنْ يملّ حتّى تملوا**»، وكان عليْه الصّلاة والسّلام إذا عمل عملًا أثْبته، وكان عمله ديمةً.

وأيْضًا، فإنّ في توْقيت الشّارع وظائف الْعبادات، منْ مفْروضاتٍ ومسْنوناتٍ، ومسْتحبّاتٍ في أوْقاتٍ معْلومة الْأسْباب ظاهرةٍ ولغيْر أسْبابٍ، ما يكْفي في حصول الْقطْع بقصْد الشّارع إلى إدامة الْأعْمال، وقدْ قيل في قوْله تعالى في الّذين ترهّبوا: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ [الحديد:٢٧]، إنّ عدم مراعاتهمْ لها هو ترْكها بعْد الدّخول فيها والاسْتمْرار...

منْ هنا يؤْخذ حكْم ما ألْزمه الصّوفيّة أنْفسهمْ من الْأوْراد في الْأوْقات، وأمروا بالْمحافظة عليْها بإطْلاقٍ، لكنّهمْ قاموا بأمورٍ لا يقوم بها غيْرهمْ، فالْمكلّف إذا أراد الدّخول في عملٍ غيْر واجبٍ، فمنْ حقّه أنْ لا ينْظر إلى سهولة الدّخول فيه ابْتداءً حتّى ينْظر في مآله فيه، وهلْ يقْدر على الْوفاء به طول عمْره أمْ لا؟ فإنّ الْمشقّة الّتي تدْخل على الْمكلّف منْ وجْهيْن:

- **أحدهما**: منْ جهة شدّة التّكْليف في نفْسه، بكثْرته أوْ ثقله في نفْسه.
- **والثّاني**: منْ جهة المداومة عليه وإن كن في نفْسه خفيفًا.

وحسْبك منْ ذلك الصّلاة، فإنّها منْ جهة حقيقتها خفيفةٌ، فإذا انْضمّ إليْها معْنى الْمداومة ثقلتْ، والشّاهد لذلك قوْله تعالى: ﴿**وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٥]»[١].

ومن هنا فيلكن دخولك في العمل دخولًا على وجه أن تلقى الله تعالى عاملًا به..

❁❁❁❁

• لا تلْتفتْ إلى مشقّة مخالفة الهوى.. فمخالفته صلاحٌ:

ولذا يجب ملاحظة أن هناك مشقات تكون في بداية العمل، هي من طبيعة المشقات المعتادة لما جدّ من الأعمال ومخالفة الهوى، ومثل هذه المشقات لا تلتفت إليها ولا تعتبرها بل هي ساقطة الاعتبار إذ إن الشرع جاء بمخالفة الهوى مهما كانت مشقة مخالفته؛ إذ إن السعادة في مخالفة الهوى، والعطب في اتباعه، ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ**

---

(١) الموافقات (٢/ ٤٠٤-٤٠٥).

﴿عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾ [ص].

مع ملاحظة أمر آخر، وهو أن هذه المشقة لا يلبث أن تزول، لأنه ليس في الفطرة أحب ولا أعظم من الله تعالى والشوق إليه والعمل من أجله والكد والسعي إليه وقصده بكل عمل وإيثاره على كل محبوب؛ فيوشك أن تنقلب الأمور إلى تنعم بالعبادات، وهو من نعيم الجنة كما سبق بيانه، بالذكر والمحبة والرجاء، وهي من العبوديات أو المقامات المستمرة للعبد في الجنة، لا على وجه التكليف بل على وجه التنعم بها.

❁❁❁❁

- **وجود أثر العبادة ومقْتضاها علامةٌ على الامْتثال أوْ الخلل:**

للعبادة أثر على العلم، والعقل، والتفكير، وتصور الأمور، والأخلاق، فهي تبارك العلم وتزيد العقل إذ إنه نور يزداد بالطاعة، وتصحح الأخلاق، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وكذا لامتثال سائر التكاليف، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ [البقرة].

فمن لم يجد هذا الأثر ولم تؤت عباداته أثرها ومقتضياتها فثمة خلل في العبادة لم يستوف صاحبها أركانها وفروضها وآدابها التي أمر الله تعالى بها؛

فلتراجع عبادتك عندئذ.

❁❁❁❁

- **أصْل قضاء النّوافل.. طلبًا للدّيْمومة:**

هناك أصل شرعي وهو قضاء ما فات من الأوراد ولو كانت نافلة، كما جاءت به الأحاديث، فمما جاء أن من شروق الشمس إلى وقت الزوال وقت لقضاء ما فات من صلاة الليل، وكما جاء قضاء النبي ﷺ لركعتي الظهر لما شغله عنها بعض الوفود الذين جاؤوا عام الوفود سنة تسع من الهجرة الشريفة.

من الخير ألا يعتبر من الأعذار إلا ما جاء به الشرع الحنيف، كالسفر أو المرض؛ فقد جاء فيه الأثر أن العبد إذا مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا؛ فعنْ أبي موسى رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبْد، أوْ سافر، كتب له مثْل ما كان يعْمل مقيمًا صحيحًا**»[1].

❁❁❁❁

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسّير- باب يكْتب للْمسافر مثْل ما كان يعْمل في الإقامة.

- **التّوازن للمعاش ولبقيّة التّكاليف الشّرْعيّة:**

كما يراعى في الأوراد أن تسمح للعبد بقيامه بمعاشه وتربية ولده وقيامه بحقوق أهله، وببقية وظائفه من العلم الشرعي والعمل الدعوي والاجتماعي والعمل العامِّ وغيره.

فينبغي التوازن بين التكاليف والاحتياجات وعدم إضاعة من يعول، وعدم الإيغال في جانب وترك جانب آخر كبلاغ الخير للخلق وخدمة المسلمين.

❋ ❋ ❋

أسْواطٌ للنّفْس الحرون

النفس البشرية بطبعها حرون، ومتمردة؛ ولا تنقاد لصاحبها بسهولة وتكاد تتفلت من التكاليف، إلا من رحم الله، ولها ميل إلى ذلك التفلت ما لم يراعها صاحبها إذ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النّازعات]، فلا بد من نهي إذ إن ميولها تخالف الأمر[1].

الرغبة والرجاء وحده لا يكفي؛ فهي تتمرد وتأبق من قيد العبودية، وتخالف أمر مولاها تعالى.

وكثيرا ما تنتهك الحرمة كما قال القائل: «وأي عبد لك ما ألمّا؟!».

ولذلك لا بد من تأديبها وتخويفها، ولذا لا بد من سوط يقومها، أو أسواط.

فلا بد من خوف مقارن للرجاء، وقد قال أهل العلم أنهما يجب أن يكونا متساويين، أو يقدم أحدهما بحسب الأحوال، ففي حال الشباب يقدم الخوف، وفي حال الشيخوخة يقدم الرجاء وعند الموت يكون الرجاء أغلب

---

(١) وهذا سببٌ أساسيٌّ لكتابة هذه الرّسالة.

للحديث: «**لا يموتنّ أحدكمْ إلّا وهو يحْسن الظّنّ بربّه**»[(١)].

وعموما فالعبد في مسيره كالقافلة؛ لا بد له من حادٍ أمامه وسائق خلفه، وعلى هذا فالرجاء قائد حادٍ، والخوف سائق، بأسواطه..

والخوف تحمد عاقبته في الآخرة؛ قال ﷺ: «**منْ خاف أدْلج، ومنْ أدْلج بلغ المنْزل، ألا إنّ سلْعة الله غاليةٌ، ألا إنّ سلْعة الله الجنّة**»[(٢)].

فالخائف يدلج والدلجة هي السير من أول الليل، فلم ينم ليله كله ويكتفي بسير النهار، بل سار بالنهار وسار جزءًا من الليل لكي يفلت من الطالب له بالهلاك.

وقال «سهْلٌ التسْتريّ»: «وأصْل كلّ خيْرٍ في الدّنْيا والآخرة الخوْف منْ الله»[(٣)].

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٨١ (٢٨٧٧) كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار- باب الْأمْر بحسْن الظّنّ بالله تعالى عنْد الْموْت، وأحْمدُ في مسْنده (١٤٤٨١) واللّفْظ له، كلاهما منْ حديث جابر بْن عبْد الله رضي الله عنهما.

(٢) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٤٥٠) أبْواب صفة القيامة والرّقائق والورع، منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعْرفه إلّا منْ حديث أبي النّضْر»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٦٢٢٢) وقال: «صحيحٌ».

(٣) أوْرده ابْن رجبٍ الحنْبليّ في تفْسيره (٢/ ٣٢٧) [الرّحْمن]، ونسبه إلى أبي سليْمان الدّارانيّ، بلفْظ: «وقال أبو سليْمان الدّارانيّ: أصْل كلّ خيْرٍ في الدّنْيا والآخرة الخوْف منْ الله عزّ وجلّ، وكلّ قلْبٍ =

وأسواط الخوف وتأديب النفس - إن تمردت على ربها تعالى وتفلتت من تكاليفه- متعددة، في الدنيا والآخرة.

❁❁❁❁

▪ سوْطٌ.. لحوق الفضيحة يرْدع النّفوس الشّريفة:

فمما تستحضره وتذكر نفسك به وتردعها به، هو الخوف من لحوق العار والفضيحة فلا يحب أحد أن يدنّس جانبه أو تسوء سيرته، بل قال تعالى على لسان «إبْراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٨٤﴾ [الشّعراء]، وهو دعاء بالثناء الحسن في القرون من بعده إلى يوم القيامة، فيذكر بالخير علمًا على الهدى وداعيًا إليه.

وهذا بخلاف من ضرب الله تعالى عليه لعنته وجعل عليه العار إلى يوم القيامة علمًا على الضلال وداعيًا إليه بسيرته وذكْره السيئة، كآل «فرعون» و«قارون» و «هامان» ومن شابههم، وكأئمة الضلال في تاريخنا المعاصر.

وكذا من تلوك الألسنة سيرته بالخير بخلاف من تنطق الألسنة بالخير؛ فانظر ما سيرتك فلها أثر.. وفي هذا جاءت آثار وأخبار..

=

ليْس فيه خوْف الله فهو قلْبٌ خربٌ».

جاء في صحيح «ابن حبان»، باب «ذكْر مغْفرة الله جلّ وعلا ذنوب منْ شهد له جيرانه بالخيْر، وإنْ علم الله منْه بخلافه»، ثمّ روى عنْ أنس بْن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منْ مسْلمٍ يموت فيشْهد له أرْبعة أهْل أبْياتٍ منْ جيرته الْأدْنيْن أنّهمْ لا يعْلمون إلّا خيْرًا إلّا قال الله جلّ وعلا: قدْ قبلْت علْمكمْ فيه، وغفرْت له ما لا تعْلمون**»(١).

وجاء «**منْ مسْلمٍ يموت فيشْهد له ثلاثة أهْل أبْياتٍ منْ جيرانه...**»(٢)، وفي روايةٍ أخْرى: «**ما منْ مسْلمٍ يموت فيشْهد له رجلان منْ جيرته...**»(٣).

وجاء في مسْند «أحْمد» عنْ أبي الْأسْود الدّيليّ، قال: أتيْت الْمدينة، وقدْ وقع بها مرضٌ - قال عبْد الصّمد: فهمْ يموتون موْتًا ذريعًا- فجلسْت إلى عمر بْن الْخطّاب فمرّتْ به جنازةٌ، فأثْني على صاحبها خيْرٌ، فقال: وجبتْ، ثمّ مرّ بأخْرى، فأثْني على صاحبها خيْرٌ، فقال: وجبتْ، ثمّ مرّ بأخْرى فأثْني عليْها شرٌّ، فقال عمر: وجبتْ، فقال أبو الْأسْود: فقلْت له: يا أمير الْمؤْمنين، ما

(١) رواه ابْن حبّان في صحيحه (٣٠٢٦) كتاب الجنائز- فصْلٌ في الموْت وما يتعلّق به، قال شعيْب الأرْنؤوط (٧/ ٢٩٥): «حديثٌ صحيحٌ بشواهده».

(٢) رواه أحْمدٌ في مسْنده (٩٢٩٥) منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال شعيْب الأرْنؤوط (١٥/ ١٦٩): «إسْناده ضعيفٌ».

(٣) رواه الخطيب البغْداديّ في تاريخ بغْداد (٤٠٢٨) (٧/ ٤٦٦) في سيرة الحسن بْن يوسف بْن عبْد الرّحْمن، منْ حديث أنس بْن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وجبتْ؟ فقال: قلْت كما قال رسول الله ﷺ: «**أيّما مسْلمٍ شهد له أرْبعةٌ بخيْرٍ إلّا أدْخله الله الْجنّة**»، قال: قلْنا: وثلاثةٌ؟ قال: «**وثلاثةٌ**»، قلْنا: واثْنان؟ قال: «**واثْنان**». قال: ولمْ نسْألْه عن الْواحد[1].

فثمة من ترضى سيرته، ويصير علمًا على الخير، وآخر تذم سيرته، علمًا على الشر وسوء الخلق واتباع الهوى ورأسًا للضلالة أو الغواية.

فانظر هل يقال فاحش أو سارق أو لص أو مختلس أو مفتون أو ساقط أو مفرّط أو لم يصْدق أو خان أو غير ذلك.. ليس نظرًا إلى الخلق بل نظرًا إلى ما يجعل الله تعالى في قلوبهم من الثناء وينطق تعالى به ألسنتهم.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنّ ممّا تذْكرون منْ جلال الله التّسْبيح، والتّهْليل، والتّحْميد ينْعطفْن حوْل الْعرْش، لهنّ دويٌّ كدويّ النّحْل، تذكّر بصاحبها، أما يحبّ أحدكمْ أنْ يكون له - أوْ لا يزال له- منْ يذكّر به؟**»[2].

❁❁❁❁

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (٣١٨)، قال شعيْب الأرْنؤوط: «إسْناده صحيحٌ على شرْط البخاريّ، رجاله ثقاتٌ رجال الشّيْخيْن غيْر داود بْن أبي الفرات، فمنْ رجال البخاريّ».

(٢) روَاه ابْنُ ماجة في سننه (٣٨٠٩) كتاب الأدب- باب فضل التسبيح، من حديثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِير رضي الله عنهما، وأورده الألبانيّ في «سلسلة الأحاذث الصحيحة» (٣٣٥٨).

- سوْطٌ.. خوْف السّقوط منْ عيْن الله تعالى:

إذ إنك تعمل الذنب لكنك لا تحيط بأثره؛ فللذنب أثر في قلبك وفي الخلق حولك ونفوس الناس، وللذنب رسم مكتوب في صحيفتك، والأعظم هو وقْع الذنب وموقعه عند الله تعالى، فمن ذا الذي يخبرك كيف وقع الذنب عند ربك تعالى؟!.

ومن الذنوب ما يسقط العبد من عين الله تعالى فيخذله فيما بقي من عمره، ويكله إلى نفسه، ولو وكل أحدنا إلى نفسه لضل ولشقي.

فإذا تركت الأمر أو انتهكت الستر أو ضيعت الحق أو فرطت في الواجب فانظر إلى أثر عملك وموقعه عند مولاك، وهل يا ترى، ماذا قضي بشأنك في السماء، وماذا تنتظر حتى لقائه؟.

إنه لما سقط قوم من عين الله قال تعالى عن بعضهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصّفّ:٥]، فهلكوا حتى لقاء الله، ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [غافر:٣٧]، وتوعدنا تعالى إن لم نقم بأمره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمّد].

❁❁❁❁

- **سوْطٌ.. فظاعة آفات الدّنْيا:**

ما مرّ هو أمر مفزع، ولكن لأنه غيب فقد يكون لبعض النفوس روادع أسرع وأكثر تأثيرًا بالنسبة له، وهي آفات الدنيا، وقد مرت معنا إشارة إلى هذا.

فانظر إلى الأمراض المستعصية والمفزعة، نعم مفزعة، انظر إلى مثل هذه التشخيصات الطبية، وماذا تعني من فزع، سرطان العين، اللسان، اللثة، سرطان الثدي، سرطان العضو الذكري... وغير ذلك، البتر بسبب مرض أو حادثة في لحظة خاطفة، لطرف أو أكثر، الجذام وهو سقوط الأطراف وتآكلها، الحرق، لما يتعرض له الناس من حوداث، أو الشلل، أو فقدان العقل لجلطة أو غيرها، يجعل الإنسان ميتًا وهو حي، وعبئًا بعدما كان جبّارًا!...

هنا أنصح بزيارة المستشفيات ورؤية أهل البلاء والاعتبار بالأقسام التي بها تلك الأمراض، وغيرها، التي تذكّرك حقيقة هذه الدار، مع ما يمكن أن تقدم لأهلها من خير تعبُّدًا لله.

❁❁❁❁

▪ سوْطٌ.. عَوَادي الأيّام:

إنها عوادي الأيام، وتقلب الظروف؛ فكم من غني انقلب حاله وافتقر بعد غنى واحتاج بعد عطاء، بل كم من عزيز صار متسولًا مشردًا، وكم ممن فقد أهله أو سكنه وتقلبت به الأمور تقلبًا.

انظر إلى هذا ليس للاكتئاب بل للاتعاظ لتحمد نعم الله وتقيدها بالطاعة لئلا تسلب منك بمعصية رب العالمين.

❀❀❀❀

▪ سوْطٌ.. أُفُول الموْت:

ومن أسواط الآخرة الموت، بالنظر إلى ظاهر الموت من الجسد البارد والجثة الهامدة والجوارح الساكنة والحس المعطل.. تعفن الجسد وانتفاخه وكراهة ريحه..

ويمكن الاعتبار بهذا برؤية من يموت أو محاولة المشاركة في غسله؛ فللموت جلال يكسو ذلك الجسد المعطل، كما على صاحبه من التسليم والمعاينة لما رأى ما يعطي أثرًا على ظاهره..

واعتبر وتذكر أنك يومًا ما في هذه الحال لتعلم حقيقة ما بين يديك وما أنت مقدم عليه، ولتجهز لك بضاعة حيث أنت ذاهب، وتسوي مضجعك قبل الرحيل، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم]، قال «مُجَاهِدُ»:

«يُسوون المَضَاجِعَ»(١).

❀❀❀❀

▪ سوْطٌ.. حقيقة المُعَاينة:

والمقصود بها النظر إلى الموت وحقيقته؛ من رؤية الملائكة، والبشارة بالمقعد، وانتهاء فترة التكليف وامتناع العمل وعدم إمكان الرجعة أو المراجعة، وإكمال السفر الطويل إلى ربك تعالى، والدخول في عالم جديد، والانتقال من دار إلى دار، والذهاب إلى هناك بما أحضرْت لا بما تتمنى، ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النّجْم].

والدار التي تذهب إليها هي دار جادة ودار حق، يوفى أهلها فيها أجرهم بموازين القسط ومثاقيل الذر، لا ظلم فيها ولا عبث بل جد وقسط، والفضل لمن أدخله الله في رحمته.. تذكر جيدا فنحن من أهلها!.

والتدبر الكثير للحظات الاحتضار ورؤية الملائكة ومعهم حنوط من الجنة أو أسواط ومسوح من النار، وانتظار البشارة بما يقدمون به من عند رب العالمين، وكيف تنتظرك الملائكة، وإلى أي مقعد تذهب.. إنه أمر عظيم.

الموت يعني انتهاء العمل وبقاء الأثر؛ والأثر إما صالح يدوم لك

---

(١) رواه الطّبريّ في تفْسيره (١٨/ ٥١٦) [الرّوم:٤٤].

بحسناته، أو سيء تستمر كتابة السيئات بمداد الأعمال التي قدمْت، عياذا بالله.

هنا التدبر ورؤية المحتضرين ومن يودعون دنيانا وكيف ينظرون إليها، وعلام يبكون، وما انطباعهم عما تركوا وعما يقدمون عليه، وماذا لو مد في أعمارهم؟!.

❁❁❁❁

- سوْطٌ.. القبْر وظاهره:

أما ظاهره فما تراه بعينك ولا ينكره منكر، تلك الحفرة وذلك الظلام ومرافقة جماجم وعظام من سبقوك، التسليم التام للآفات فلا تردّ عن جسدك آفة تنهش أو دودًا يأكل أو عفنًا منتنًا.. جسد ينتفخ ثم يتحلل ويذهب، ريح بشع ومنظر مفزع، صار الجسد الجميل أو القوي سوأة وعورة يتأذى الناس منها.

الضيق والمحبس، الظلمة والوحدة، العري والوحشة، الانفراد في شدة الظلام والبرد، أو الهجير والحر، السكوت التام فلا صخب، ندم أهلها وبكاؤهم على ما ضيعوا، انقطاع اللذّات والأماني، نفرة الناس منها ومن زيارتها، وكل زائر فهو على عجل يترك وديعته ويمضي!.

بعد قليل يتحول الجسد إلى ركام من العظام، ينقلها الدافن إلى جانب

القبر ليوسع لغيره ممن جاء بعده، وبعد قليل يتحول ركام العظام إلى حفنة من تراب، نعم حفنة من تراب كانت شخصًا صاخبًا وجبارًا في الأرض.

فانظر يا حفنة التراب هل تنزل إلى هناك بدمعات وسجدات وجهاد وقرآن، أم تنزل بحرمات منتهكة وأوامر مضيعة ومظالم موقورة على ظهرك؟.

تدبر يا حفنة التراب..

❀❀❀❀

- سوْطٌ.. حقيقة القبْر:

وأما حقيقته فالظلام قد يتبدد لأهلها الصالحين فينور لهم بما قدموا أو يبقى آخرون في ظلمة..

هو لبعضهم رياض من الجنة تأتيه منه رياحين وحنوط وفرش، ولآخرين حفرة من النار مقدمة، يعرض أهلها على مقاعدهم غدوة وعشيًّا.

يفسح للبعض مد البصر، ويضاء له، ويمد من الجنة ويرى مقعده ويبشر بالنجاة..

وآخر يضرب ضربة بمطرقة من حديد بيد ملك يغوص المضروب في الأرض سبعين ذراعًا، يتألّم الجسد ويتألّم الروح، تظهر علامات على بعض الأموات، ولا تظهر على آخرين، لكن يجري عليهم ما الله به عليم.. ولكن

أنّى يوصّلون إليك آلامهم؟ نعم يسمع صراخه الخلق جميعا عدا الثقلين.

وقد كادت بغلة كان يركبها رسول الله ﷺ أن تحيد به لما اقترب من قبر كان صاحبه يعذب(١)..

ومما أبقى تعالى من آثار عذاب أهلها أن أصحاب الخيول وغيرها إذا أصابها المغل - عدم تصريف فضلاتها- لا يذهبون بها إلى قبور المسلمين، بل يذهبون بها الى قبور اليهود أو النصارى أو العبيديين الرافضة - غلاة الشيعة- فإنها عندما تسمع من عذابهم يصيبها من الفزع ما تسهل به بطونها، قال شيخ الإسلام «ابن تيمية»: «فسألْتهمْ هلْ تذْهبون بها إلى قبور المسْلمين؟ قالوا: لا، فإنّنا لوْ ذهبْنا بها إلى قبور المسْلمين لا يذْهب ما بها»..

---

(١) روى مسْلمٌ في صحيحه ٦٧ (٢٨٦٧) كتاب صفة الْقيامة والْجنّة والنّار- باب عرْض مقْعد الْميّت من الْجنّة أو النّار عليْه، وإثْبات عذاب الْقبْر والتّعوّذ منه، عنْ أبي سعيدٍ الْخدْريّ، عنْ زيْد بْن ثابتٍ رضي الله عنهما، قال أبو سعيدٍ: ولمْ أشْهدْه من النّبيّ ﷺ، ولكنْ حدّثنيه زيْد بْن ثابتٍ، قال: بيْنما النّبيّ ﷺ في حائطٍ لبني النّجّار، على بغْلةٍ له ونحْن معه، إذْ حادتْ به فكادتْ تلْقيه، وإذا أقْبرٌ ستّةٌ أوْ خمْسةٌ أوْ أرْبعةٌ - قال: فقال: «**منْ يعْرف أصْحاب هذه الْأقْبر؟**» فقال رجلٌ: أنا، قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**»، قال: ماتوا في الْإشْراك، فقال: «**إنّ هذه الْأمّة تبْتلى في قبورها، فلوْلا أنْ لا تدافنوا، لدعوْت الله أنْ يسْمعكمْ منْ عذاب الْقبْر الّذي أسْمع منْه**»، ثمّ أقْبل عليْنا بوجْهه، فقال: «**تعوّذوا بالله منْ عذاب النّار**» قالوا: نعوذ بالله منْ عذاب النّار، فقال: «**تعوّذوا بالله منْ عذاب الْقبْر**» قالوا: نعوذ بالله منْ عذاب الْقبْر، قال: «**تعوّذوا بالله من الْفتن، ما ظهر منْها وما بطن**» قالوا: نعوذ بالله من الْفتن ما ظهر منْها وما بطن، قال: «**تعوّذوا بالله منْ فتْنة الدّجّال**» قالوا: نعوذ بالله منْ فتْنة الدّجّال.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن العبيديين المسمّين بالفاطميين: «وإذا أصاب الْخيْل مغْلٌ أتوْا بها إلى قبورهمْ كما يأْتون بها إلى قبور الْكفّار وهذه عادةٌ معْروفةٌ للْخيْل إذا أصاب الْخيْل مغْلٌ ذهبوا بها إلى قبور النّصارى بدمشْق وإنْ كانوا بمساكن الْإسْماعيليّة والْنصيْريّة ونحْوهما ذهبوا بها إلى قبورهمْ وإنْ كانوا بمصْر ذهبوا بها إلى قبور الْيهود والنّصارى أوْ لهؤلاء العبيديين الّذين قدْ يتسمّوْن بالْأشْراف وليْسوا منْ الْأشْراف. ولا يذْهبون بالْخيْل إلى قبور الْأنْبياء والصّالحين؛ ولا إلى قبور عموم الْمسْلمين وهذا أمْرٌ مجرّبٌ معْلومٌ عنْد الْجنْد وعلمائهمْ. وقدْ ذكر سبب ذلك: أنّ الْكفّار يعاقبون في قبورهمْ فتسْمع أصْواتهمْ الْبهائم كما أخْبر النّبيّ ﷺ بذلك أنّ الْكفّار يعذّبون في قبورهمْ، ففي الصّحيحيْن عنْ النّبيّ ﷺ أنّه كان راكبًا على بغْلته فمرّ بقبور فحادتْ به كادتْ تلْقيه فقال: «**هذه أصْوات يهود تعذّب في قبورها**»، فإنّ الْبهائم إذا سمعتْ ذلك الصّوْت الْمنْكر أوْجب لها منْ الْحرارة ما يذْهب الْمغْل. وكان الْجهّال يظنّون أنّ تمْشية الْخيْل عنْد قبور هؤلاء لدينهمْ وفضْلهمْ فلمّا تبيّن لهمْ أنّهمْ يمشّونها عنْد قبور الْيهود والنّصارى والْنصيْريّة ونحْوهمْ دون قبور الْأنْبياء والصّالحين وذكر الْعلماء أنّهمْ لا يمشّونها عنْد قبْر منْ يُعْرَفُ بالدّين بمصْر والشّام وغيْرها؛ إنّما يُمَشُّونَهَا عنْد قبور الْفُجَّار والْكفّار: تَبَيَّنَ بذلك ما كان مشْتبهًا... وأمّا هؤلاء الْقرامطة فإنّهمْ في الْباطن كافرون بجميع الْكتب والرّسل يخْفون ذلك ويكْتمونه عنْ غيْر منْ يثقون به؛

لا يظْهرونه كما يظْهر أهْل الْكتاب دينهمْ»[١].

إن كربة واحدة تمر بالعبد في قبره تستغرق طويلًا، ولا ندري تقييم ما أفعالنا وأقوالنا، لكن نرى ذلك هناك ولا إمكانية للمعاتبة أو المراجعة.. فهل من كربات تنتظرك أم هناك ما يسعدك؟ لا بد من مراجعة ما ستلقى؛ فأزمات الآخرة لا تقوم لها الدنيا بأكملها.

بل تدبر تواريخ شواهد القبور ومنذ كم أهلها فيها؛ هذا من عشرات السنين وهذا منذ قرن، وانظر كم ضمت بين جنبيها بمراكز الناس ومراتبهم، طوتهم الأرض جميعًا وأكلت أجسادهم وأبقت ذكرا لهم ضعيفًا، ثم اندثر، وحفظت لهم الأعمال لم يهمل منها مثقال ذرة.

ولو سألت مساكنهم ودورهم التي كانوا يسكنون فستخبرك أمرًا عظيمًا..

سألْت الدّار تخْبرني عنْ الأحْباب ما فعلــوا

فقالتْ لـي أنـاخ القـوْم أيّامًا وقـدْ رحــــلوا

فقلْـت وأيْـن أطْـلبهمْ؟ وأيّ منـازلٍ نزلـــوا

فقالـتْ بـالقبور وقـدْ لقـوا والله مـا فعــــلوا

أنـاسٌ غـرهـمْ أمـلٌ فبـادرهمْ بـه الأجــــل

(١) مجْموع الفتاوى (٣٥/ ١٣٩-١٤١).

فنوا وبقي على الأيام ما قالوا وما عملوا

وأثْبت في صحائفهمْ قبيح الفعْل والزّلل

فلا يسْتعْتبون ولا لهمْ ملْجأٌ ولا حيل

هنا ننصح بالأمر العملي من زيارة القبور؛ فقد وصى رسول الله ﷺ بهذا «**كنْت نهيْتكمْ عنْ زيارة القبور؛ ألا فزوروها فإنّها تذكر الآخرة**»(١).

وكان «عثمان» رضي الله عنه يزور القبور ويبكي، ويقول أن هذا الموطن لو صلح فما بعده أيسر وإلا فما بعده أشد منه؛ فقد جاء: كان عثْمان إذا وقف على قبْرٍ بكى، حتّى يبلّ لحْيته، فقيل له: تذْكر الْجنّة والنّار فلا تبْكي، وتبْكي منْ هذا؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ، قال: «**الْقبْر أوّل منازل الْآخرة، فإنْ ينْج منْه فما بعْده أيْسر منْه، وإنْ لمْ ينْج منْه، فما بعْده أشدّ منْه**». قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيْت منْظرًا قطّ إلّا والْقبْر أفْظع منْه**»(٢).

وكان «الحسن البصري» يكثر زيارتها والجلوس بينها، ولما عُوتِبَ، قال:

---

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (١٠٥٤) أبْواب الجنائز- باب ما جاء في الرّخْصة في زيارة القبور منْ حديث بريْدة بْن الحصيب، وقال: «حديث بريْدة حديثٌ حسنٌ صحيحٌ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٤٣٧٩) وقال: «صحيحٌ».

(٢) رواه أحْمدٌ في مسْنده (٤٥٤)، وقال شعيْب الأرْنؤوط (١/ ٥٠٣): «إسْناده صحيحٌ»، وكا التّرْمذيّ في جامعه (٢٣٠٨) أبْواب الزّهْد، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٦٨٤) وقال: «حسنٌ».

«إنّي أجالس قوْمًا إذا زرْتهمْ ذكروني بالآخرة، وإذا انْصرفْت عنْهمْ لمْ يغْتابوني»[1]..

انظر إلى مرقدك أخاه، لا للتعطل عن الدنيا، بل للتجهز له.. وانظر إلى أجدى بضاعة تلقى بها ربك وتنزل بها إلى هذا المكان فأعدّها وابذلها؛ فإن الأمر جلل..

واعلم أنه مرقد ومضجع، قال تعالى عن مواطن الموت والقبور: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]. وانظر إلى تهيئة مراقدها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الرّوم]، قال «مجاهد»: «يسوّون المضاجع»[2]. **فالعمل هو تهيئة للرقاد هناك،** فأعد مرقدك وسوّ مضجعك، وانظر إلى مضاجع من سبقوك؛ فإننا جميعًا نسعى لأن نسوي المضاجع ونهيء لأنفسنا الرقاد.

❁❁❁❁

---

(١) رواه ابْن أبي الدّنْيا في «القبور» (١١) عنْ سلْمان بْن صالحٍ قال: فقد الحسن ذات يوْمٍ فلمّا أمْسى قال له أصْحابه أيْن كنْت اليوْم؟، قال: كنْت عنْد إخْوانٍ لي، إنْ نسيت ذكّروني وإنْ غبْت عنْهمْ لمْ يغْتابوني، فقال له أصْحابه: همْ الإخْوان والله، هؤلاء يا أبا سعيدٍ، دلّنا عليْهمْ، قال: هؤلاء أهْل القبور.

(٢) سبق تخريجه.

- سوْطٌ.. هوْل المطْلع:

ومعاينة كل ما وعد الله، ومجيء اليوم الموعود، واجتمع الأولون والآخرون، لحظة انفضاض الناس من القبور على رؤسهم ترابها، يجيبون الداعي بحمد ربهم، ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسْراء].

إنه معاينة هول المطلع لمعاينة الحساب، وما أعظمه!..

جاء في «وصايا العلماء عنْد حضور الموْت» عنْ سليْمان بْن يسارٍ، أنّ عمر بْن الْخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حضرتْه الْوفاة قال له الْمغيرة بْن شعْبة: هنيئًا لك يا أمير الْمؤْمنين الْجنّة، فقال: «يا ابْن أمّ الْمغيرة ، وما يدْريك؟ والذي نفْسي بيده لوْ كان لي ما بيْن الْمشْرق إلى الْمغْرب لافْتديْت به منْ هوْل الْمطْلع»[1].

يا أخيّ، هذا «عمر» المبشر بالجنة، فتدبر أمرك واستحضر هذا المشهد ولا يغيبن عن بالك، واجعله نصب عينك فسوف يقضي الناس بعده أضعاف أضعاف ما قضوا في دنياهم.

❁❁❁❁

(١) وصايا العلماء عنْد حضور الموْت (ص٣٩).

▪ سوْطٌ.. الحشْر العظيم:

وأهوال الموقف وطول الوقوف في هجير الشمس بلا ظلٍّ، إلا من أظله الله برحمته بسبب عمل عمله..

الظمأ الطويل، والنصب الطويل، والضحّ والهجير، الخوف المحيط، الفزع من القادم..

انتظار الحساب ووزون الأعمال ورؤية الصحف وتلقّي الكتب، وبأي يد ستكون..

أهوال وزن الأعمال وهل تثقل الموازين أو تخف، وما زنة أعمالنا وما قميتها عند الله في الميزان الحق، وهو أمر جلل؛ إذ إننا لا نستطيع معرفة حقيقة أعمالنا ولا موقعها عند الله تعالى.

ثمة من يحشرون في أمثال الذر - صغار النمل- وهم المتكبرون..

وثمة من يحشرون عميًا وبكمًا وصمًّا، وهم يجرون على وجوههم..

كما أن ثمة من يحشرون وفدًا كرامًا على النجائب، يردون على ربهم وفدًا كريمًا.

ثمة من يستره ربه، وآخر يفضحه بين الخلائق، وينادي الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [هود:١٨]..

أهـوال وأهـوال، حـذّر الله منهـا خلقـه وأرسـل رسـله تحـذّر الأولـين والآخرين.. فهل تدبرت أمرك وما تلقى الله له وما أعددت لهذا اليوم إذا انتثر نظام الكون وبدلت الأرض غير الأرض والسماوات؟..

❁❁❁❁

▪ سـوْطٌ عظيمٌ.. الوقـوف بيْن يـدي الله:

وهو أمر عظيم، عظيم بكـل مقيـاس، الوقـوف بـين يـدي الله تعـالى، ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا** ﴾ [الأنعام:٣٠]، وقـال ﷺ: «**ما منْكمْ منْ أحدٍ إلّا وسيكلّمه الله يوْم القيامة، ليْس بيْن الله وبيْنه ترْجمانٌ، ثـمّ ينْظر فلا يرى شيْئًا قدّامه، ثمّ ينْظر بيْن يديْه فتسْتقْبله النّار...**»[1] الحديث.

ستعود تلك الذرة لتقف أمام ربها، يعود ذلك المخلوق ليوقف بـين يـدي ربه، بعد تعب وسفر وتطواف.. **فاجعل هـذا أمامـك ولا تـنسه فهـو قـادم على كل حال**.. وهو أعظم موقف ستقفه، وكذا الأولون والآخرون؛ فاللهم سلم.

❁❁❁❁

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٦٥٣٩) كتاب الرّقاق- بـابٌ: منْ نـوقش الحساب عـذّب، ومسْلمٌ في صحيحه ٦٧ (١٠١٦) كتاب الزّكاة- باب الْحثّ على الصّدقة ولـوْ بـشقّ تمْـرةٍ، أوْ كلمـةٍ طيّبةٍ وأنّها حجابٌ من النّار، كلاهما منْ حديث عديّ بْن حاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

▪ سوْط النّار.. دار خُلْد الأشْقياء:

عذاب الله العظيم، «النار»، ودار الشقاء ومحل الغموم وموضع الآفات، ودار الخلد لمن شقي في بطن أمه.. وقد أنذرها الله خلقه، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة:٢٤]، ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [اللّيْل]، وقد نادى رسول الله ﷺ على منبره: «أنْذرْتكمْ النّار»[١].

انظر؛ فإنها دار قوم لا يبرحونها ولا يعرفون غيرها، ليس لهم مخرج ولا يعرفون غيرها.. عافانا الله وإياك.

❁❁❁❁

▪ التّعامل مع أسْواط الخوْف:

التعامل مع أسواط الخوف يكون باستحضارها، ومشاهدة ما يشاهد منها، وتدبر ما أخبر الله عن الغيب منها، ومعايشتها ومعرفة وفهم معانيها، وإلزام القلب ما يرتدع به منها.

إن المطلوب ليس هو الحزن أو الاكتئاب؛ فالحزن ليس محمودًا شرعًا،

---

(١) رواه الدّارميّ في سننه (٢٨٥٤) ومنْ كتاب الرّقاق- بابٌ في تحْذير النّار، منْ حديث عنْ النّعْمان بْن بشيرٍ رضي الله عنهما، قال: سمعْت رسول الله ﷺ يخْطب فقال: «**أنْذرْتكم النّار، أنْذرْتكم النّار، أنْذرْتكم النّار**» فما زال يقولها حتّى لوْ كان في مقامي هذا، لسمعه أهْل السّوق، حتّى سقطتْ خميصةٌ كانتْ عليْه عنْد رجْليْه. وأوْرده الألْباني في «مشكاة المصابيح» (٥٦٨٧) وقال: «صحيحٌ».

بل كان رسول الله ﷺ يستعيذ منه، «**اللّهمّ إني أعوذ بك منْ الهمّ والحزن، وأعوذ بك منْ العجْز والكسل...**»(١) الحديث.

وعلى هذا فالحزن ليس مطلوب الحدوث، كما أنه ليس عبادة مطلوبة من العبد - كما يقول «ابن القيم» - بل هو عارض يعرض للعبد عند التفريط أو التأخر، وليس محمودًا أن يقف العبد عنده لأنه يعطله عن الطريق.

والخوف غير الحزن والاكتئاب؛ الخوف يكون من أمر قادم والحزن تأسف على مفقود، وهذا لا يفيد.

❁❁❁❁

▪ خيْريّة الخوْف.. والقدْر المطْلوب منْه:

أما الخوف فهو مطلوب للعبد، وقد خوّف تعالى عباده، ﴿**ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦**﴾ [الزمر]، وقال: ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥**﴾ [آل عمْران]؛ فالخوف محمود لأنه يردع عن العمل المحرّم ويسوق للعمل الصالح فيسْلم صاحبه من الهلكة.

والخوف ليس مطلوبًا بحيث يقعد عن العمل، أو يهدم الإنسان.. بل

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (١٢٦١٦) منْ حديث أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، قال شعيْب الأرْنؤوط (٢٠/ ٦٨): «حديثٌ صحيحٌ»، وأصْله في الصّحيحيْن.

القدر المطلوب والواجب هو ما يردع.

فيجب من الخوف ما يردع عن الشرك، ويجب ما يردع عن المحرمات والكبائر وما يدفع صاحبه للقيام بالواجب، وأما ما يدفع لترك المكروهات وعمل المستحبات فهو مستحب.. وما زاد على ذلك فلا دليل على مدحه وطلبه.

قال شيخ الإسلام «ابن تيمية»: «الخوْف المحْمود ما حجزك عنْ محارم الله»[1].

فالخوف المحمود الصادق: هو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، واليأس والقنوط كبيرة محرمة؛ فلا بد من التوازن إذ إن هذا الدين وسط بين طرفين، ﴿**وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ۝٦٧﴾ [الفرْقان].

ويعين على هذا قول رسول الله ﷺ في دعائه: «**اللّهمّ اقْسمْ لنا منْ خشْيتك ما يحول بيْننا وبيْن معاصيك...**»[2]، فقد دعا بما يردع عن المعصية، ولم يدع بخوف يبلغ به اليأس أو يقعد به عن العمل، وهذا من العلم النبوي في الدعاء

(١) المسْتدْرك على مجْموع الفتاوى (١/ ١٤٧).

(٢) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٣٥٠٢) أبْواب الدّعوات، منْ حديث عبْد الله بْن عمر رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٢٦٨) وقال: «حسنٌ».

المأثور الذي يشمل كنوزًا من العلم والتربية.

❁❁❁❁

▪ التّخْويف في القرْآن.. مرْتبطٌ بانْحرافاتٍ لردْعها:

فمن تدبر وعيد الله تعالى في جميع موارده في كتاب الله تعالى وجده ليس وعيدا محضا؛ بل هو وعيد مرتبط بجرائم، والوعيد جاء للردع عنه، وليس هو وعيدا مطلقا بلا هدف محدد[1].

ومن علم هذا علم وظيفة الخوف، وعلم أنه يخاف من سوء نفسه وتقصيره مع عظم حق ربه وجلال أمره، في مقابل ما ضعف النفوس وتخلل الهوى ولحوق التفلت.

فمشهد سورة الحاقة فيمن أوتي كتابه بشماله والوعيد الشديد له ارتبط بقوله بعدها كحيثيات للحكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقّة]، اقرأ آيات سورة الحاقة من الآية ٢٥ إلى الآية ٣٦.

والمشهد العظيم في آخر سورة الدخان، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ الآيات، ارتبط بانحراف معين، فذكر قبلها إنكارهم للآخرة

---

(١) انْظرْ كتاب «دراسةٌ في مقاصد القرْآن الكبْرى»، فصْل التّرْغيب والتّرْهيب، للمؤلّف.

وذكر في خاتمتها التكبر الذي دفعهم إلى الجحود والكفر؛ على أنه «الْعزيز الْكريم!»؛ فأهين وعذّب على جرائم موجبة.. اقرأ آيات سورة الدخان من الآية ٣٥ إلى الآية ٥٠.

ومشهد سورة الحج فيمن قطّعت له ثياب من نار ارتبط بمخاصمة المؤمنين في ربهم فكفروا به وأشركوا وعادوا الموحدين وقاتلوا لإقرار الشرك فقد بدأت الآيات، ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحجّ:١٩]... اقرأ آيات سورة الحج من الآية ١٩ إلى الآية ٢٢، واقرأ آيات سورة الصافات من الآية ٦٢ إلى الآية ٧٠، وغير ذلك من المواضع في كتاب الله العزيز.

هذه فقط ثلاثة أمثلة، إذا تدبرتها وجدت هذه القاعدة مطردة فيما بقي من الآيات؛ فانظر في أي موضع جاء فيه الوعيد وجدته مرتبطًا بانحراف تردع عنه الآيات وتوقظ النفوس لإصلاحه، والله تعالى الهادي والعاصم والموفق.

❁❁❁❁

▪ فقْه أسْواط الخوْف.. لترْبية النّفوس:

فقه الأمر هنا هو أن تربط قلبك بهذه الأسواط بما يردعك عن الانحراف أو انتهاك الحرمة، أو التفلت من الأمر أو القعود عن الواجب، فلمَّا تخاف تدلج وتسعى إلى ربك، فكما سبق؛ الخوف سائق بينما الرجاء حادٍ «قائد».

فانظر إلى أيها أشدّ ردعًا لقلبك وأيها أشد تذكيرًا لك فألْزم بها نفسك؛ فالمطلوب بالخوف التقويم لا الخوف في نفسه أو اليأس أو القنوط.

وعلى هذا كان السلف، فـ «عثمان بن عفان» رضي الله عنه يكثر ذكر القبور وزيارتها، ويجد عندها قلبه ويبكي من خشية ربه.

وآخر من السلف كان يلزم نفسه ذكر الموت ويقول: «لوْ غاب ذكْر الموْت عنّي ساعةً فسد قلْبي»(١).

و «سفيان الثوري» يذكر أهوال القيامة حتى كان ينشغل بها دون قصد عن قيام الليل وقد قام ليصلي فقعد في ذكرها حتى انبلج الفجر، كما روى عنه «عبد الرحمن بن مهدي» رحمهم الله جميعًا، وألحقنا بهم في الصالحين.

فانظر هل آفات الدنيا وعارها، أم المجهول من أثر الذنوب ووقعها عند رب العالمين، أم الأمراض المفزعة والمستعصية وآفات الأجساد أو انقلاب الحياة بأهلها..

هل الموت وجلاله، أم القبر وفظاعته وحال أهله، أم هول المطلع، أم أحوال الموقف يوم القيامة، أم الوقوف بين يدي الله، أم الإلقاء في دار عذاب

---

(١) رواه ابْن أبي الدّنْيا في «العزْلة والانْفراد» (١٢٥) (ص١٢٣-١٢٤) عنْ مالك بْن مغْولٍ، قال: مرّ رجلٌ بربيع بْن أبي راشدٍ وهو جالسٌ على صنْدوقٍ منْ صناديق الْحذّائين، فقال له رجلٌ: لوْ دخلْت الْمسْجد فجالسْت إخْوانك، قال: «لوْ فارق ذكْر الْموْت قلْبي ساعةً لخشيت أنْ يفْسد عليّ قلْبي».

الله وسخطه..

زر القبور، واقرأ آيات الله واسمع ما بلّغه نبيك عن أمر الآخرة من القبور إلى الاستقرار في أحد داري الخلد، تعلّم معنى ما أخبرك وافهمْه، تدبرْه وعايشه، وألزم به قلبك..

خذ منه ما يردعك عن المعصية ولو تزينت لك وتزخرفت فجاء مال سهل من حرام أو جاءت امرأة يضعف غيرك أمامها أو جاء منصب تعصي به أو يجبرك على معصية أو شهرة مفسدة أو طغيان على خلق الله وانتقام وتشفّي.. أو غير ذلك.

واعتبر بهذا الذي قال فيه النبي ﷺ: «**ورجلٌ دعتْه امْرأةٌ ذات منْصبٍ وجمالٍ فقال: إنّي أخاف الله**»(١)، هذا هو القدر المطلوب؛ أن يجعلك تتراجع عن المعصية بل وتأباها، هذا للرجل وللمرأة، لا أن تتأزم نفسك؛ بل أن تردعها عما حرم الله وتأباه وتستعلي على داعيه، على مثل هذا فكن.

افقه ما يراد منك، ليس المراد مصمصة الشفاه أو البكاء والتأثر الوقتي، بل المراد هو رسوخ معناه في قلبك كرادع يلازمك فتحصل الجائزة العظيمة..

---

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (١٤٢٣) كتاب الزّكاة- باب الصّدقة باليمين، ومسْلمٌ في صحيحه ٩١ (١٠٣١) كتاب الزّكاة- باب فضْل إخْفاء الصّدقة، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه.

التقوى.

افقه الأمر ولا يصدّنك عنه مترفه أو متبطّل أو لاعب لاهٍ أو نافر من تذكّر الوعيد لكي يفجر كما يريد..

فمقصود التخويف حصول التقوى، ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ [الزّمر]، رزقنا الله وإياك التقوى، وأمننا وإياك مما نخاف..

* * *

النّــــار

دار وعيـد الله

جملٌ عنْ دار وعيد الله.. النّار

النار دار لغضب الله تعالى وعدله من أعدائه، وانتقامه ممـن شـاقّه وحـادّه، لهذا أعدّتْ للْكافرين.

وعنْ أبي هريْـرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «**تحاجّـت الْجنّة والنّـار، فقالـت النّـار: أوثـرْت بـالْمتكبّرين، والْمتجبّـرين، وقالـت الْجنّـة: فمـا لـي لا يـدْخلني إلّا ضـعفاء النّـاس وسـقطهمْ وغـرّتهمْ؟ قـال الله للْجنّـة: إنّمـا أنْـت رحْمتي أرْحم بك منْ أشاء منْ عبـادي، وقـال للنّـار: إنّمـا أنْـت عـذابي أعـذّب بك منْ أشاء منْ عبادي**»[1].

كما أنها دار لتطهير العصاة والمنحرفين ومن أهلكـوا أنفسهم بالإيغـال في المعـصية.. وقـد حـذّر الله عـصاة المـؤمنين مـن دخـول النـار التـي أعـدها الله لأعدائه، وقد روي عن الإمام «أبي حنيفة» رَحِمَهُٱللَّهُ أن هـذه الآيـة هـي أشـد وعيـد

---

(١) متفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٤٨٥٠) كتاب تفْسير القرْآن- باب قوْله: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ۝٣٠﴾ [ق]، ومسْلمٌ في صـحيحه ٣٦ (٢٨٤٦) كتـاب الْجنّـة وصـفة نعيمهـا وأهْلهـا- بـاب النّـار يدْخلها الْجبّارون والْجنّة يدْخلها الضّعفاء، واللّفْظ له.

في القرآن، من أجل ذلك المعنى العظيم. قال «النَّسَفِيّ» في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [آل عمران]: «كان أبو حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتَّقُوه في اجتناب محارمه»[1].

والنار اسم يجمع مختلف أنواع العذاب البدني والنفسي، ونذكر عنها طرفًا، في جمل تمثل قواعد عامة لنعلم طرفًا عن هذه الدار التي خوّفنا الله إياها وأمرنا أن نتقيها بأعمالنا.. وأما تفصيل أوصافها فلننظر في تفصيل ما أخبر تعالى، مثل ما ذكر تعالى في البقرة، والنساء، والأعراف، وإبراهيم، والحج، والمؤمنون، وص، والزمر، والصافات، والمرسلات، والنبأ، والهمزة... وغيرها كثير، أما الجمل العامة فنقول..

▪ أوْصاف دارٍ أعدّتْ.. لتتّقيها:

- **هي دارٌ للشّقاء الكامل**، فلا يقتصر عذابها على أمر دون آخر، الشقاء النفسي والبدني، والوحدة، والظلمة، والآلام المستمرة والمتتابعة.

أما الذهاب إليها فجرٌّ إلى النار ودعّ «دفع» بإهانة؛ إذ إنّ من عصى ربه وحل عليه غضبه أهين، ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحجّ:١٨].

---

(١) تفسير النَّسَفِيّ (١/ ٢٩١) [آل عمران:١٣١].

بينما الجنة عالية الدرجات؛ فالنار عميقة هاوية يلقى فيها أهلها فيهوون فيها، ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾ [القارعة]، الأم هنا المأوى، وتصور أن المأوى هاوية! ولذا يهوي فيها الحجر سبعين خريفًا كما أخبر ﷺ[1].

بل هي أسفل سافلين، قال شيخ الإسلام «ابن تيمية» وغيره من أهل العلم أنه مع السفل يكون الضيق، ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ [التين]، وهي النار.

- **تدبّر حال منْ دخلها**، وكيف تكون أول ليلة في هذا العذاب الذي لا يرجو له انقطاعا، ولا يجد فيها أملًا، وكيف ينظر إلى الماضي وإلى الفرصة التي ضيعها، فرصة الحياة.

- **الصّاحب فيها حجارةٌ تزْدحم عليْهمْ**، قال المفسرون أنها حجارة الكبريت، وأنها سوداء تلتصق بالأجساد، شديدة الاشتعال بطيئة الانطفاء، منتنة الريح، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة:٢٤].

- **والتّألّم بالطّعام والشّراب، مرّةً بفقْده، ومرّةً بذوْق ما لا يسْمن ولا يغْني،**

---

(١) روى مسْلمٌ في صحيحه ٣١ (٢٨٤٤) كتاب صفة الْقيامة والْجنّة والنّار، عنْ أبي هريْرة رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ، إذْ سمع وجْبةً، فقال النّبيّ ﷺ: «**تدْرون ما هذا؟**»، قال: قلْنا: الله ورسوله أعْلم، قال: «**هذا حجرٌ رمي به في النّار منْذ سبْعين خريفًا، فهو يهْوي في النّار الْآن، حتّى انْتهى إلى قعْرها**».

بل بما يناقض الطعام والشراب، ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية]، ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصّافّات].

- وما يطْلب منْ اللباس لهمْ، فيها ما يناقضه، ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبْراهيم]، ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحجّ:١٩].

- وما يطْلب منْ الحاجات الأساسيّة للإنْسان كالنّوْم لا يذوقونه، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ [النّبإ]، وفي أحد وجهي التأويل أن البرد هو أن تبرد عيونهم بالنوم.

- وما يطْلب منْ المهاد والفراش كذلك، لهمْ فيها ما يناقضه، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعْراف:٤١]، وبئس المهاد هو وبئس الفراش هو.

- الاشْتراك في البلاء في الدّنْيا يفيد أصْحابه؛ حيث يتواسون ويتعاونون لكن في الآخرة الأمر مختلف، ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي

﴿ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾ [الزُّخرف].

- إنّهمْ لا يرْمون فيها وحسْب، بل هم مسلسلون مقيدون، وموثقون بالأغلال فيها، ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩﴾ [إبْراهيم:٤٩]، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].
- وإنّهمْ كذلك لا يلْقوْن فيها ليعذّبوا مع شأْنهمْ، بل هناك موكلون بتعذيبهم قائمين على هذا، ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨﴾ [الدّخان]، ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾ [الأحْزاب]، ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [الحجّ]، ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر].
- خسارة الأهْل جميعًا، لا والديْن ولا زوْجة ولا ولدًا، بل خسارة النفس ذاتها، فلا تبقى نفس ليكسب لها، فقد حطمها في الحطمة، أولئك ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الزّمر:١٥].

بل من كان من هؤلاء في النار معه يكون عدوًّا له يعذب به، ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ [المسد]، فتحمل له الحطب يعذب به؛ إذ إنهما الْتقيا وتحابّا على عداوة الله تعالى، فتنقلب محبتهم عداءً؛ إذ إنه «فإنّ منْ أحبّ

شيْئًا غيْر الله عُذِّبَ به»[١].

- **منْ يموت في الدّنْيا بالحريق يكون التّوْصيف الطّبّيّ له**: «صدمة عصبية شديدة أدَّت إلى الوفاة»؛ وذلك من شدة الألم الذي يجده، أما في النار فهذه الآلام لا مثيل لها في الدينا؛ إذ إنها سبعين ضعفًا لعذاب الدنيا، كما قال تعالى عن عذابه: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥﴾ [الفجْر]، فتأتي للعبد أسباب الموت مضاعفة ولكنه لا يموت فيستريح، وأمنيته عندئذ.. الموت!.
- **منْ في النّار يهان**، ولذا استعاذ المؤمنون الكرام من خزيها، وهو الإهانة، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمْران:١٩٢]، فالخزي هو السمة لأهل النار؛ فيعذب ويهان ويذكّر بألقاب الدنيا، ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدّخان].

جاء في الأحاديث أن أحجامهم أعظم، وجلدهم أغلظ؛ لأنه محل الألم والتعذيب؛ فيبدّل لهم[٢].

---

(١) الدّاء والدّواء (ص١٨٥).

(٢) روى مسْلمٌ في صحيحه ٤٥ (٢٨٥٢) كتاب صفة الْقيامة والْجنّة والنّار، عنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يرْفعه قال: «**ما بيْن منْكبي الْكافر في النّار، مسيرة ثلاثة أيّامٍ، للرّاكب الْمسْرع**»، وله ٤٤ (٢٨٥١) عنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ضرْس الْكافر، أوْ ناب الْكافر، مثْل أحدٍ وغلظ جلْده مسيرة**

=

• **العذاب فيها ليس لوْنًا واحدًا؛ بلْ هو ألْوانٌ وصنوفٌ متضادّةٌ،** ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص]، فالحميم ما انتهى حرّه، والغسّاق ما انتهى برده بحيث يفتت برده العظام، ثم قوله ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾، يقول «ابن كثير»: «أمّا الْحميم فهو الْحارّ الّذي قد انْتهى حرّه، وأمّا الْغسّاق فهو ضدّه وهو الْبارد الّذي لا يسْتطاع منْ شدّة برْده الْمؤْلم. ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾، أيْ وأشْياء منْ هذا الْقبيل: الشّيْء وضدّه يعاقبون بها»(١). فهناك صنوف من العذاب المتناقض، كالحميم والغساق، ومن سيرهق صعودًا، ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المدّثر]، ويهوي في الهاوية، ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [القارعة].

• **ما منْ آفةٍ في الدّنْيا إلّا وأمْثالها في النّار،** كالأفاعي والعقارب وجاء في الحديث أن كل ذات حِمَة في النار(٢)، يعني كل ذات سم تلدغ.

=

ثلاثٍ»، وروى التّرْمذيّ في جامعه (٢٥٧٧) أبْواب صفة جهنّم- باب ما جاء في عظم أهْل النّار، عنْ أبي هريْرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**إنّ غلظ جلْد الكافر اثْنتان وأرْبعون ذراعًا، وإنّ ضرْسه مثْل أحدٍ، وإنّ مجْلسه منْ جهنّم كما بيْن مكّة والمدينة**»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

(١) تفْسير القرْآن العظيم (٧/ ٦٩) [ص:٥٨].

(٢) روى الطّبريّ في تفْسيره (٢٠/ ١٢٩) [ص:٥٥-٦٠]، أنّ كعْبًا رضي الله عنه، كان يقول: «هلْ تدْرون ما

=

- هناك تعبيرات شديدة التأثير لغرابتها على المستمع، ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الزمر:٢٤]، يعني يقدم وجهه فيتلقى به النار لأنه مسلسل، أو ليتقي بوجهه قلبه.

- **يذْكر تعالى أمورًا ويتْرك أمورًا أخْرى، لازمةً لها، لنتملاها ونتدبّرها،** ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحجّ]، لكن لم يذكر ما بين الرؤوس إلى البطون؛ إذ هذا فعله في البطون والجلود فما بالك بما بينهما؟.

- تعبير ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ **المتكرّر في كتاب الله،** عميق الدلالة ومفجع للمخاطب؛ إذ إنها دارهم التي هي دارهم، هم أصحابها، وبئس الصحبة وبئس الملك إذًا.

- **المقارنة بيْن مدّة المكْث في النّار، وبيْن ما قضاه الهالك في الدنْيا،** يجعلك تقول إن الذي يقدم عليها لمجنون ولذا قالوا، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملْك].

=

غسّاقٌ؟ قالوا: لا والله، قال: عيْنٌ في جهنّم يسيل إليْها حمة كلّ ذات حمةٍ منْ حيّةٍ أوْ عقْربٍ أوْ غيْرها، فيسْتنْقع فيؤْتى بالْآدميّ، فيغْمس فيها غمْسةً واحدةً، فيخْرج وقدْ سقط جلْده ولحْمه عن الْعظام حتّى يتعلّق جلْده في كعْبيْه وعقبيْه، وينْجر لحْمه كجرّ الرّجل ثوْبه».

- بعدما يذكر تعالى بعض أوصافها يقول أن هذا نزل لهم، والنزل هو أول ما يعدّ للضيافة على وجه العجلة، وما وراء ذلك فأمر آخر.. ففي قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾ [الكهف]، يقول «البيْضاويّ»: «﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾ ما يقام للنّزيل، وفيه تهكّمٌ، وتنْبيهٌ على أنّ لهمْ وراءها منْ العذاب ما تسْتحْقر دونه»[1]، نسأل الله العافية.

- **هي دارٌ مُشْتملةٌ على الغموم**، ولذا صح أن تبدّل منها في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ [الحجّ:٢٢]، فأبدل الله تعالى منها الغموم.. إذ لا غمّ أعظم منها، إلا الحجاب عن رب العالمين.

- **أعْظم ما يجد منْ دخل النّار هو أنّه لمْ يدْخلْ مظْلومًا**؛ فما من بلاء في الدنيا إلا والناس تواسي صاحبه وكثيرًا ما يوجهون اللوم لغيره، ولكن في النار لا يدخل أحد إلا وهو يعلم بطلان حجته؛ جاء في مسند الإمام «أحمد» رَحِمَهُ اللهُ: «**لنْ يهْلك النّاس حتّى يعْذروا منْ أنْفسهمْ**»[2]، وفي حديث آخر: «**لا يدْخل أحدٌ النّار إلا وهو يعْلم أن النّار أوْلى به منْ الجنّة**»[3].. ، فهو في

(١) تفْسير البيْضاويّ (٣/ ٢٩٤) [الكهْف:١٠٢].

(٢) رواه أحْمدُ في مسْنده (١٨٢٨٩)، قال شعيْب الأرْنؤوط (٣٠/ ٢٢٢): «إسْناده صحيحٌ، رجاله ثقاتٌ رجال الشّيْخيْن غيْر صحابيّه، وإبْهامه لا يضرّ».

(٣) أوْرده ابْن كثيرٍ في تفْسيره (٨/ ١٩٩) [الملْك:١٢-١٥].

مكان يعلم أنه يستحقه وخزي وألم يعلم أنه لا يستحق سواه.

- **والعظيم أيْضًا أن بلاءات الدّنْيا يرْجى بعْدها الخيْر**؛ إما في الدنيا؛ فإن بعد العسر يسرًا ويعقب الشدة فرج كما عَوَّدنا ربنا تعالى، وإما بأجر ربنا في الآخرة؛ لكن بلاء النار لا يُرجَى فيه الخير، إذ إنها دار الإبلاس، ﴿ **لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزّخْرف]، والمُبلس هو الآيس القانط المتحير.

نجانا الله وإياك، وأسعدنا في دار الجنة دار الأفراح..

❁❁❁❁

▪ وقْفةٌ مع شدّة مشاهد العذاب في النّار:

كن على بينة من أمور ومسائل عظام..

• التّذْكير.. أنّنا عبيد الملك:

فشدة مشاهد النار هي دلالة على حقيقة كبرى هي أننا عبيد لملك، وأن الملك سبحانه أعدّ لمن خالف أمره ولم يأخذه بالتعظيم والامتثال، أعدّ له ﴿ **سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا** ﴿٤﴾ ﴾ [الإنْسان].

إننا عبيد مملوكون لرب عظيم وملك قيوم لا يخرج عن قبضته شيء..

وأننا لا يجوز لنا الخروج عن أمره تعالى، وأن الحرية الممنوحة لنا الآن في حياتنا هي أمر مؤقت للاختبار، وأنها ليست حرية نفعل فيها ما نشاء، بل

هي اختبار يترتب عليه مصير طويل لا ينتهي، وهو أمر خطير.

- **هذه الحياة وهذا الدّين جدٌّ.. لا عبثٌ ولا هزْلٌ:**

فخلق السماء والأرض وخلق الإنسان هو أمر جاد لا عبث ولا هزل، وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب أمر جاد، لا يتحمل التلاعب، واختيارك للإيمان أو الكفر به ليس معناه عدم تحملك ما يترتب عليه، بل الأمر جادّ، وجادّ جدًّا، فالأمر والنهي يترتب على امتثاله أو مخالفته الثواب أو العقوبة التي تكشف عن مدى عظمة وجدية الأمر الرباني.

- **العقوبات.. للرّدْع عنْ الانْحراف:**

فهذه المشاهد التي جاء ذكرها في القرآن والسنة ليست للإيلام النفسي، بل هي للردع عن جرائم، وإن تدبرت أي مشهد جاء فيه وعيد الله تعالى، فانظر سياقه وما قبله أو ما بعده، تره مرتبطًا بانحراف معين جاء هذا الوعيد لتقويمه والردع عنه طلبًا لاستقامة الإنسان، وقد مرّت شواهد على ذلك.

فجاء بعضها ردعًا عن الجدال العابث في إنكار الآخرة فيورد السياق أدلة الآخرة للطالب الجاد للدليل ويرفق معها ردع النفوس لتستقيم من عبثها.. وكذا في شأن تصديق الرسالة أو أحقّية إفراد الله تعالى بالألوهية وبطلان ما يدعون من دونه أو ما يعطونه حق التشريع لمن دونه سبحانه.

وجاء للتنفير من تقليد الآباء في الباطل، وجاء في الردع عن الظلم أو

الترف أو جرائم الربا والفواحش أو غير ذلك.

فالمطلوب منها الكف عن انحراف معين وليس مجرد الإيلام، وإن حدث هذا عرضًا، لأننا لا نخلو من تفريط أو تعدي، وهذا الخوف ينفع النفوس فما نخافه اليوم فنرتدع عن موجبه، نسعد بذلك الارتداع الناتج من الخوف عندما نلقى ربنا غدًا، ولذا قال «سهل التستري»: «وأصْل كلّ خيْرٍ في الدّنْيا والآخرة الخوْف منْ الله عز وجلّ»[1].

ومن هنا فينبغي أن تجعل الخوف سوطًا لنفسك ترهبها به عن المعصية، وبقدر ما ينهاها.

وهذا ما قال بعض السلف...

قال «بشْرٌ» لـ «الفضيْل»: عظْني يرْحمك الله، فقال: «منْ خاف الله تعالى دلّه الخوْف على كل خيْرٍ»[2].. وكان «ذو النّون» يقول: «النّاس على الطّريق ما لمْ يَزَلْ عنْهم الْخوْف، فإذا زال عنْهم الْخوْف ضلّوا الطّريق»[3]، وقال «إبْراهيم بْن سفْيان»: «إذا سكن الْخوْف الْقلوب أحْرق مواضع الشّهوات منْها»[4].

---

(١) سبق تخْريجه.

(٢) أوْرده الغزاليّ في «إحْياء علوم الدّين» (٤/ ١٦١).

(٣) أوْرده ابْن القيّم في مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١/ ٥١٣).

(٤) رواه القشيْريّ في رسالته (ص٢٣٨) بَاب الخوف، غيْر أنّه قال: «إبْراهيم بْن شيْبان»، وأوْرده ابْن =

وبهذا ردع الرجل الذي عرضت عليه امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله، هذا خوف حق وليس ادعاء؛ فلما نهاه عن غشيان ما حرم الله وإن قوي داعيه في نفسه، وقويت الشهوة نفسها وظروفها؛ جُوزِيَ أن حجزه عن عذاب ربه، وأورده تحت ظلِّ عرش ربه بينما الناس في الضَّحِّ والهجير يوم القيامة، وأعقبه تعالى من هي خير منها وأجمل، بل وأكثر عددا وأعلى مكانة، في جنة ربه تعالى، مما أعد له تعالى من أزواج.

ولهذا قدّمنا عن أهل العلم أن الخوف المطلوب هو ما يحجز عن محارم رب العالمين لا أن يكون الخوف مفزعًا في ذاته فحسب، فهذا ليس بمطلوب لنفسه.

ولهذا من ينفر عن سماع الوعيد هو إما جاهل أو متكبر أو مريد للفجور بإلحاح ويرفض ردع الناس له وتذكيرهم إيّاه.

إننا لسنا آلهة، بل عبيد، ونحن لا نختار لأنفسنا العقوبة المناسبة بل ربها وخالقها، كما أننا لا نعلم ما يفيد النفوس جميعا بل ربها وخالقها؛ إذ إن هذا يأتي من باب الترغيب، وآخر يأتي من باب الترهيب، ولا بد من إيصال خطاب الله تعالى للخلق جميعًا وكل نفس ترتدع بما يؤثر فيها وتتجاوب معه ويصل

=

القيّم في مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١/ ٥١٣).

إلى عمقها؛ فنحن لا نستدرك على الله سبحانه بل نبلغ ما أمر الله، والله الهادي والموفق.

وكذلك فلنحذر من ينفعل بآيات الوعيد ويركز عليها طلبًا لحالة البكاء والانفعال، ثم يكون هذا مجرد حالة مؤقتة، بينما تبقى الانحرافات كما هي عند هذا الباكي بلا تغيير، وبما قدمنا من المقصود الشرعي نعلم قصور هذا الحال عما أمر الله تعالى[1].

❁❁❁

(١) انْظرْ كتاب «دراسةٌ في مقاصد القرْآن الكبْرى»، فصْل التّرْغيب والتّرْهيب، للمؤلّف.

قيام حقيقة التّعبّد بالقلْب وذوْق طعْمه

من المهم أن يكثر العبد من العبوديات، وهذا الإكثار مهم، ولكن لا يظن أحد أنه يؤدي أعمالًا يلتزم بها فحسب؛ بل الأمر مختلف؛ فكل حين سيجد من فَهْمِ العبادات وذَوْقِ طعمها ما ينقله من حال إلى حال، ويصعده من درج إلى أعلى، ويأخذ به في القرب من ربه والشعور بحلاوة الإيمان وطعم العبادة.

ومع المضي في الطريق يعطي الله تعالى لعبده ما يجعله أشوق للعبادة وأكثر كلفًا بها، وأكثر احتياجًا إليها..

ولذا فلا بد من فقه العبادة وشعور القلب بها، وهو مقصود عظيم وغاية شريفة.. ولتحقيق هذا الغرض نذكر بعض معاني العبادات.

- **قيام عبوديّة الصّلاة بالقلْب:**

ففي الصلاة نوضح أن الأعمال الظاهرة إنما هي تعبير عن مكنون قلبي، هو الخضوع والذل والحب والتعظيم والمهابة والإجلال.

وللبيان نذكر حديث رسول الله ﷺ في دعائه في ركوعه وهو يقول: «**اللهمّ لك ركعْت، وبك آمنْت، ولك أسْلمْت، أنْت ربّي خشع سمْعي وبصري**

ومخّي وعظْمي وعصبي، وما اسْتقلّتْ به قدمي، لله ربّ الْعالمين»(١).

فهذا هو حقيقة حال النبي ﷺ وهو يصلي إذ يركع ويركع معه - وهو يشعر بهذا الركوع وما يتضمنه من الخضوع والخشوع- سمعه، ويركع معه بصره، ويركع معه عظمه، ويركع معه مخ عظامه.. وهو شعور عميق جدًّا.

فأداء الصلاة ليس أمرا آليًّا ميكانيكيًّا، بل هو أمر عميق جدًّا.. والخشوع في الصلاة يبدأ بالشعور بأفعالك نفسها قبل تدبر الأقوال والأذكار.

وعلى هذا يكون الوقوف في الصلاة على وجه القنوت، وهذا هو المأمور به شرعا، ﴿**وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ** ٢٣٨﴾ [البقرة]، وهذا القنوت يجب أن تقنت بكيانك كله لله تعالى؛ فيقنت لحمك ودمك وعظامك، سمعك وبصرك ومخك، كل ما حملته قدماك يقف قانتًا لله.. ولا بد أن تشعر بهذا القنوت؛ فإن فعلت اختلفت صلاتك تلك عما كنت تؤدي قبل ذلك.

ومع هذا القنوت تتلو آيات الله مصدقًا ومنقادًا، تتلقى عن الله خطابه ورسائله تعالى إليك، خاضعًا ضارعًا، تخرج من آية إلى أخرى، ومن محل إلى محل في ترحالٍ، يفقه عن ربه ويتلقى خطابه متعلمًا ومذعنًا منقادًا.

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٢٠١ (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين وقصْرها- باب الدّعاء في صلاة اللّيْل وقيامه، وأحْمدُ في مسْنده (٩٦٠) واللّفْظ له، كلاهما منْ حديث عليّ بْن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

ونخص فاتحة الكتاب بما تضمنت من المعاني الكلية للدين وجمل أصول العبودية لرب العالمين؛ فكان عموم الحمد لله وحده كشعور تلقائي هو أول ما تنطق به، كما هو أول ما نطق أبوك بعد تمام خلقه أول ما سرت فيه الروح، وعموم الربوبية لله تعالى وأنت جزء من العالمين الذين تشملهم الربوبية العامة والشاملة، وعموم الرحمة المستغرقة للخلق وللدنيا والآخرة، وهي العلاقة الأولى بين العبيد وربهم تشملهم وتغمرهم، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، ومع قوله لها يقصد التقرير والطلب؛ فهي إقرار واعتراف وهي طلب ورجاء، ثم ذكر المعاد والموقف والمصير الذي نسعى لإصلاحه وتهيئته قبل حصوله، وما يوجبه من الخوف والخشية والقلق من العمل المردي أو التقصير في العمل المرضي.

ثم إفراد الله بالعبادة والمقصد والطاعة والإرادة، ونفي إرادة مخالفة أمره في أي حال وقول وعمل وشعور.. وإفراده بالاستعانة والتوكل؛ إذ لا يتم للعبد شيء من هذا إلا بمعونته فيفتقر لربه تعالى أن يعينه للوصول إليه وإلا فلا وصول.. عياذا بالله.

ثم سؤال الله تعالى أعظم المطالب، الذي هو أنفع وأنجح وأحوج طلب للأولين والآخرين، وعليه مدار الطلب كله، وعليه مدار السعادة، ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، والمقصود به علم الحق جملة، وعلمه مفصّلًا،

وعلم ما الحق المراد في كل قول وعمل واعتقاد وشعور، ومحبة القلب له وعدم نفرته منه، وتوفيق الله للعبد ليريد مراد ربه تعالى وطاعته وامتثال أمره، وهداية المعونة على العمل والإقدار والإطاقة للعبد للقيام به، وهداية قبوله منه، وهداية مداومته عليه حتى يقبضه عليه، وعدم إبطاله أو حبوطه.. هذا معنى هذا الدعاء العظيم، ولذا نُكَرِّره، لأننا لسنا في حاجة إلى شيء كحاجتنا إليه.

ثم الاستعاذة من طَرَفَي الانحراف؛ طرف الغواية، وهو من علم الحق فخالفه، وكم من مخالف لما يعلم!..

وطرف الضلال؛ من طلب الطريق بقصد وعزم لكنه ضل عنه فسلك غير السبيل وعمل على غير هدى، وافتقد العلم؛ فاستهوته الضلالة واستحكم الجهل.

وإذا ركعت ركع معك جملة كيانك، كما كان يركع نبيك ﷺ؛ فيركع لحمك ودمك وعظمك، يركع سمعك وبصرك ومخك، يركع معك قلبك وإراداتك فتخضعها لله تعالى، لمراده الشرعي الديني، يركع معك هواك فيتأخر إجلالًا لأمر الله تعالى وينقاد تبعًا له.. وهذا يرافق التسبيح للعظيم تبارك في عليائه.

فإذا قمت حامدًا، وقف كيانك يحمد، سمعٌ وبصر، لحم ودم، عظم

وعصب، قلبٌ يمتليء بالحمد، ويرافق اللسان في محامده لله تعالى.

فإذا سجدت كان كيانًا بشريًّا كاملًا يسجد، وتشعر بسجود كل خلية في جسدك، وسجود قلبك وإراداته وأهوائه، ويسجد الكيان البشري بلحمه ودمه وعظمه وعصبه، ويشعر بهذا السجود والخضوع لربه تعالى ويرافق التسبيح للعلي الأعلى تبارك وتمجد.

فإذا قعدت للاستغفار قعد كيانك يستغفر بجملته، كل جارحة تستغفر عما فعلت وارتكبت أو توانت وفرطت، يستغفر البصر، ويستغفر السمع، وتستغفر اليد، والرجل والبطن والفرج، ويستغفر جلدك، يستغفر قلبك منكسرًا مستكينًا معترفًا لذي الجلال والإكرام، بما فعل.. مستغفرًا معتذرًا.

وتكرار الركعات تكرار للتعبد، وإلحاح فيه، وتضرع، وتتابع للتعبد، وقيامٌ على قدم الخدمة ولزوم بابه سبحانه تعالى.

فإذا تشهّدت جمعت نفسك وجوارحك للقعود للثناء على ربك بما علّمك، فتجمع كل التحيات الطيبة والثناء المطلق لله، ثم تستحضر السلام على نبيك المتبوع، والسلام على كل مؤمن ومؤمنة وكل عبد صالح، كما جاء في حديث عليٍّ رضي الله عنه: «**كان النّبيّ ﷺ يصلّي قبْل العصْر أرْبع ركعاتٍ يفْصل بيْنهنّ بالتّسْليم على الملائكة المقرّبين، ومنْ تبعهمْ من المسْلمين**

والمؤْمنين»[١].

فانظر ما فهم الصحابي من التشهد، وفهمه على من يسلم النبي ﷺ والمؤمنون فيها؛ فهو السلام على الملائكة المقربين وعلى جميع المؤمنين، فهو تدبر لألفاظها ومعرفة معناها.

وروى «البخاريّ» عن عبد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنّا إذا كنّا مع النّبيّ ﷺ في الصّلاة، قلْنا: السّلام على الله منْ عباده، السّلام على فلانٍ وفلانٍ، فقال النّبيّ ﷺ: «**لا تقولوا السّلام على الله، فإنّ اللّه هو السّلام، ولكنْ قولوا: التّحيّات لله والصّلوات والطّيّبات، السّلام عليْك أيّها النّبيّ ورحْمة الله وبركاته، السّلام عليْنا وعلى عباد الله الصّالحين، فإنّكمْ إذا قلْتمْ أصاب كلّ عبْدٍ في السّماء أوْ بيْن السّماء والأرْض، أشْهد أنْ لا إله إلّا الله، وأشْهد أنّ محمّدًا عبْده ورسوله، ثمّ يتخيّر من الدّعاء أعْجبه إليْه، فيدْعو**»[٢].

ثم الصلاة على النبي ﷺ.. ومعنى سؤالنا صلاة الله على عبده أمران: الأول طلب رحمة الله ومغفرته له، والثاني أن يذكره الله تعالى بالثناء الحسن

---

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٤٢٩) أبْواب الصّلاة- باب ما جاء في الأرْبع قبْل العصْر، وقال: «حديث عليٍّ حديثٌ حسنٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٢٣٧).

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه (٨٣٥) كتاب الأذان- باب ما يتخيّر من الدّعاء بعْد التّشهّد وليْس بواجبٍ.

في الملأ الأعلى.

فإذا سلمت كان سلامك لإخوانك والصالحين والمؤمنين عامة؛ بأن يسلموا من كل شر، وأما الدعاء بالرحمة فمعناه أن يدخلهم الله في رحمته ويفيض عليهم بالخير.

قد تقول لم أصلّ هكذا وقد يصعب عليّ؛ وعندئذ نقول هذه غاية لا بد من العمل للوصول إليها والمجاهدة لتكون هكذا.. وغدا يفتح الله لك الخير ويصل قلبك لمعاني التعبد طالما جاهدت فيه وأردته سبحانه.

فإن لم تجدها في المرات الأولى اسْع إليها وستصل بإذن الله؛ لماذا نعيش إن لم نعمل من أجل إحسان العبودية لرب العالمين؟!.

❁❁❁❁

▪ قيام معاني الذّكْر.. ومعْناه وعظيم ما يتضمّنه:

فالذكر.. سواء الذكر المصاحب لأفعال الصلاة؛ فالصلاة أفعال تعبّدٍ وأذكار وقرآن ودعاء..

أو ذكر منفرد بأوراد ثابتة متكررة كل يوم، أو الذكْر المرتبط بالأعمال.

فهو له دويٌّ عند العرش يذكّر بصاحبه، وهو دأب الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهو قوت أرواح العباد وغذاء قلوبهم، وهم محتاجون إليه أكثر من الطعام والشراب، ولذا أُلْهِمُوهُ مع أنفاسهم في الجنة..

فالتسبيح تنزيه لرب العالمين عن كل سوء، وهو كلمة رضيها الله لنفسه، وأحبها لنفسه وأحب أن تُقَالَ. والتسبيح والتكبير هو لتعظيم رب العالمين، والحمد يقترن معه..

فالتعظيم والتنزيه هو مُوجِبُ الجلال، والتحميد هو موجب الإكرام، والله تعالى هو ذو الجلال والإكرام؛ فهو المستحق لهما..

والتسبيح يوجب الخوف والتعظيم، والتحميد يوجب الحب وانجذاب الروح إلى الله تعالى، ولا بد منهما معا يجتمعان في قلب العبد ليصلح، كما هو احتياج قلبه.

ولذا يقرن ربك بينهما «سبْحان الله وبحمْده»، فالتعظيم مشتمل بالحمد وملتبس به، وكذا «سبْحان الله وبحمْده، سبْحان الله العظيم» صار التسبيح بينهما مكررًا ويقرن مع أحدهما الحمد حبًّا لله وامتنانًا، ويقرن مع الأخرى التعظيم خوفًا لله وإجلالًا.

وأما إفراد الله بالحول والقوة فهو التبرّي من قوة النفس وحولها، وافتقار النفوس إلى الله تعالى؛ حيث يقولها على وجه الخبر والطلب، فيقرّ بها لربه، ويطلب بها قوته وحوله، أما الحول فللخروج من الشرور والتحول عن الحال السيء إلى الحسن، وأما القوة فلاستمداد العون من ربه تعالى على الخير.

فإظهار العبد لفقره لربه، وعرض حاله على الله، أحد أنواع الدعاء

والطلب، وهو من أقصر أبواب الدخول على الله تعالى والوصول إليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]. يقول «سهْلٌ التّسْتريّ»: «وأقْصر طريقٍ بيْن العبْد وربّه هو الافْتقار لله تعالى»(١).

والتكبير لله يصغر معه ما دونه..

والتهليل «قول لا إله إلا الله» هو غاية الخلق التي خلقوا من أجلها؛ أن يفردوا الله تعالى بالعبودية، وكلما كررها العبد أخرج بها من قلبه كل مزاحم لله من هوى وشهوة وعادة وتقليد، وأخرج كل مخوف ومرهوب وكل مرغوب ومراد سوى ربه تعالى..

والقلب يتسلل إليه مزاحمون، وهو محتاج إلى نفي المرادات المزاحمة لربه تعالى دومًا، وسبيل هذا هو «لا إله إلّا الله»، وهذا يدفع العبد لكمال الطاعة إذ إن إخراج المزاحمين من القلب يفرغه لربه تعالى، ولا يستوي قلب فيه شركة مع الله وقلب خلا لربه، وجاوب ما في فطرته من علم ومحبة جاءت الشرائع بنورها فوجدت نورًا في الفطرة، فعرفته النفس والتزمته وحققت مراد الله منها.

❁❁❁❁

---

(١) رواه الخطيب البغْداديّ في «الزّهْد والرّقائق» (١٠١) (ص١٢٣)، وكذا ابْن الجوْزيّ في «صفة الصّفْوة» (ص٧٢٩)، وأوْرده ابْن تيْمية في «مجْموع الفتاوى» (٧/ ٢٠).

إقامة الكتاب العليّ الحكيم:

وأما كتاب الله تعالى فهو رسائل الله إليك، وبيانه لك؛ فيه علمه وعدله، وفيه رحمته وحكمته، داعٍ ومبين، وهادٍ وناصح ومعلم، آخذ بيدك إلى حيث تسعد، موضح لك الطريق، ومبين لك حقيقة دنياك وقدْر أخْراك، وتجارب الطريق ففيه نبأ من قبلك وخبر ما بعدك وحكم ما بينك وبين الخلق وبينك وبين نفسك التي بين جنبيك.

عندما تقرأ الكتاب اعلم أن ربك يسمع إليك فاقصده بقراءتك ففي الحديث: «**ما أذن الله لشيْءٍ كأذنه لنبيٍّ يتغنّى بالْقرْآن، يجْهر به**»[1]. ومعنى «**أذن**»: استمع؛ فاقصد ربك أن يسمعك وليكن سمعه لك هو مقصودك، وليكن تمثل ما أنزل في نفسك مقصودك، وبلاغ الحق المضمّن في كلامه إلى الخلق هداية لهم وبلاغًا لما أنزل الله تعالى.

❁❁❁❁

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٥٠٢٣) كتاب فضائل القرْآن- باب منْ لمْ يتغنّ بالقرْآن، ومسْلمٌ في صحيحه ٢٣٤ (٧٩٣) كتاب صلاة المسافرين وقصْرها- باب اسْتحْباب تحْسين الصّوْت بالْقرْآن، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

▪ قيام معاني الصّيام بالقلْب:

وأما الصيام فهو ترك لما به قوام الحياة، الطعام والشراب، وهو ترك لأعظم شهوات النفوس وأشدها وأكثرها تاثيرا في الإنسان وهي المعاشرة «الجماع»، ترك هذا لله تعالى في وقت أمْره بذلك، وهذا يكسر القلوب لله تعالى؛ وما من حال للعبد أعظم من الإنكسار لله، وفي الأثر الذي يذكره شيخ الإسلام «ابن تيمية» رَحِمَهُ اللَّهُ: «عنْ «موسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: يا ربّ أيْن أجدك؟ قال: عنْد المنْكسرة قلوبهمْ منْ أجْلي، أقْترب إليْهمْ كلّ يوْمٍ شبْرًا، ولوْلا ذلك لاحْترقتْ قلوبهمْ»(١).

والمقصود بالانكسار هو انكسار مرادات الطبع والأهواء للمراد الشرعي الديني الذي جاء به رسوله ﷺ لأنه متضمن لمحبة الله ورضاه، فيقدم رضا ربه على هوى نفسه، ومحابّه تعالى على شهوته.. فما أعظمه من باب.

❁❁❁❁

(١) أوْرده أبو نعيْم في ثلاث مواضعٍ منْ حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء، عزاه في اثْنيْن منْهما إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال (٢/ ٣٦٤): «قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا ربّ أيْن أبْغيك؟ قال: أبْغني عنْد الْمنْكسرة قلوبهمْ»، وقال (٦/ ١٧٧): «قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا ربّ أيْن أبْغيك؟ قال: ابْغني عنْد الْمنْكسرة قلوبهمْ فإنّي أدْنو منْهمْ كلّ يوْمًا باعًا لوْلا ذلك لتهدّموا»، وعزا مثْله إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال (٤/ ٣١): «قال داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: إلهي أيْن أجدك إذا طلبْتك؟ قال: عنْد الْمنْكسرة قلوبهمْ منْ مخافتي».

▪ قيام معاني الصّدقة ومقْتضياتها بالنّفوس:

في الزكاة والصدقة يؤخر المال الذي هو «مادة النفس» كما يقول «ابن تيمية» رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، وعنده تخرج الأضغان، ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ [محمد]، وعنده يتقاتل الناس وتتحاسد النفوس ويتباغض الخلق ويستعلي من يمتكله ويستكبر به بل ويطغى، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]، ويذل مفتقده أو يستشرف لغيره أو يسأل أو يحتال، وبه تنال الشهوات ويتوصل لبقية أغراض الدنيا.

يأتي عابد الله وفي قلبه من اليقين بالآخرة ما هو برهان على إيمانه ويقينه أن ما أعطى لربه أبقى له مما في يده، ناظرًا لنفع الخلق وجريان ماله في أيدي الخلائق ينتفعون به فيقيم حياة غيره ويستر عورة ويكف دمعة ويحمي عرضًا ويطعم جائعًا ويقيم أوْدًا ويشفي ألمًا وينفّث همًّا ويفرّج كربًا.

لا عليه أين سار المال إذا حرص على وضعه في محله وبذل جهده، هو يقصد إلى هذا المعنى الشامل والعظيم، والله يتولى إيصال ماله وإنتاج مراده، ولا عليه فقد امتثل، ومن امتثل لربه قاصدًا رضاه فلا خاب أبدًا.

❁❁❁❁

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٤).

- **قيام معاني الحجّ بالقلْب:**

وأما الحج والعمرة فترك للأهل والأوطان والأموال، والسفر إلى حيث أمر الله تعالى، بأكفان يرتديها متذكرًا سفر الآخرة، ليقوم بتعبدات ومناسك لا يعرف معناها على الخصوص – من حيث الزمان والمكان والعدد والكيفية والاتجاه– ولكن على وجه التسليم يقوم بها.

إنه الخضوع والذل والاستسلام المطلق لله تعالى حتى فيما لا تعرف معناه على الخصوص، بمعنى لاتعرف لماذا سبعة أشواط في الطواف وفي السعي ولماذا خصوص اتجاه السعي وخصوص استلام وتقبيل الحجر الأسود، ولماذا أيام محددة زمن الحج، ورمي الجمار، وغير ذلك.. فما كان ذلك إلا لله تعالى ثقة ويقينًا وطمأنينة فيما أمر وأنه مشتمل على حكمة وإن لم نعلم تفصيلها، لكن نعلم وجه الحكمة على وجه العموم من الاختبار والتكليف والابتلاء.

❁❁❁❁

- **قيام معاني التّعبّد في امْتثال الأحْكام عمومًا:**

في كل أمر يقوم به من إقامة عدل أو عفة عن حرام أو قول حق أو توجيه وتربية، أمرٍ بمعروف أو نهي عن منكر.. كل أمر في عاداته ومعاملاته في نفسه أو أسرته؛ أبويه أو زوجه أو ولده، حقوق جاره وأجيره وصاحب عمله،

حقوق أمته وقادة أمته من العلماء وقيادات الحق، عمله الدنيوي ونفع الناس به وإحسان العمل، جهاده وبذله وعطاؤه، علمه وتعليمه.

في كل هذا، وغيره مما أمر الله تعالى من إقامة منهجه في الأرض وتمثل أمره، كتابا وسنة، وانتهاج سيرة النبي ﷺ وصحبه والقرون المفضلة وأئمة الهدى.

في كل هذا يعمل المؤمن وهو يمتثل الأمر غير متحرج من أمر الله بل مستسلم لربه عن ثقة وأمان ويقين وطمأنينة في حكمته وعلمه ورحمته وعدله، وفي ثقة أنه متضمن للمصلحة له ولغيره، في الدنيا والآخرة، وأن المفسدة كامنة في مخالفة الأمر، وأن الخير كله في قيامه بأمر الله، يسرّ للحسنة وللقيام بالتكليف، ويساء إن فرّط أن توانى أو تأخّر في أمر الله تعالى.

يطيع وهو يعلم أنه ما أطاع إلا بتوفيق ربه ومعونته، وأنه تعالى هو الذي أوقف عبده هذا الموقف الحسن من الطاعة، وأنه من تفضله تعالى وكرمه له أنه لم يخذله ولم يُقمه في معصيته ولم يَكِلْهُ إلى نفسه ولم يَرْمِهِ ليهلك مع من هلك؛ فيشهد وهو في حال طاعته معونة ربه فيحمده، وهذا من معاني تَلَبَّس التسبيح بالحمد فهو يسبح ويطيع عمومًا وهو حامد ربه على عَوْنِه وهدايته.

❁❁❁❁

▪ قيام معاني التّعبّد في ترْك المحرّمات:

في تـرك المحـارم عمومًـا يجـب أن تكـون نفـس الثقـة والطمأنينـة، وأن يستيقن المـؤمن أن الله تعـالى مـا منعـه إلا ليعطيـه، ومـا حرمـه إلا ليجـزل لـه العطاء.. وأن هذا المنع ليس بخلا من ربه تعالى - حـاش لله- بـل لمـا تـضمن المحرّم من المفاسد والمضار التي يعلمها الله، سـواء علمهـا العبـد تفـصيلًا أو لم يعلمها، علم بعض أوجه تلك المفاسد أو لم يعلمهـا؛ فـالله تعـالى لا يتكثّر بأحد من فقر ولا يتقوى بأحد من ضعف؛ كلا، بل هو الله العزيز الحكيم.

ومن أفضل ما يستحضر هنا القاعدة العظيمة في سورة العصر، إذ أقسم الله تعالى أن مـا يبـدو لنـا مكسبًا في معـصيته هـو خـسارة، وأخـبر تعـالى أن أغلـب الخلـق خاسـرون، بعـصيانهم، وأن الغالـب علـى الإنـسان هـو الخـسارة، وأن المستثنى هو منْ منّ الله عليه بالطاعة المبنية على الإيمان والمترتبة عليه.

وعلى هـذا تتـضح القاعـدة أن مـا تتركـه مـن محـرم فتنازعـك نفسك أنـك خسرت بتركه وأن المكسب في تحصيلها، وأن قضاء الشهوة وتلبيتهـا مكسب وأن فواتها خسارة، هنا يخطاب المؤمن نفسه بقسم الله تعـالى لـه، والله صـادق من غير قسم، ولكنه تعالى يقسم لغلبة تفلّت نفوسنا، هنـا نخبرهـا أنهـا كاذبـة، والله تعـالى صـادق؛ لا مكـسب فيمـا أرادت بـل فيمـا أمـر الله، ولا خـسارة في فوات محرم بل في تركه لله، ومن ترك لله عوضه الله خيرًا منه.

هكذا خطاب المؤمن لنفسه: كذبت وصدق الله؛ يقول أنا كاذب فيما رأيت من مصلحة فيما حرم الله أو مفسدة فيما أمر الله، وصدق الله، وكذبت نفسي.

هكذا مأخذ الأمور تعبدًا، وأمرًا، ونهيًا.. فالله تعالى ينظر إلى القلوب والأعمال لا مجرد الأعمال الظاهرة بل كلاهما، فمن امتثل متحرجًا - وإن كان أفضل ممن لم يمتثلْ- بخلاف من امتثل راضيًا مستيقنًا مقبلًا مستبشرًا، كما أن أعمال القلوب المرافقة للعمل محسوبة في العمل وتؤثّر في الموازين؛ فكم من عمل بسيط ثقل في الميزان ورجح بصاحبه وكم من عمل يبدو عظيمًا فتدخله من آفات القلوب ما يخف به في ميزانه عند ربه..

خذ الأمور بمأخذها الصواب، فالله ناظر ومطلع وعليم بالخبايا والخفايا، وهو الهادي والموفق.

***

قاعدةٌ عامّةٌ في ذكْر الله تعالى

«**ذكر الله تعالى يكون في كل وقت بحسب ذلك الوقت**»..

يقول الإمام «الطبري» في قوله تعالى ﴿ **فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة]: «يعْني تعالى ذكْره بذلك: فاذْكروني أيّها الْمؤْمنون بطاعتكمْ إيّاي فيما آمركمْ به وفيما أنْهاكمْ عنْه، أذْكرْكمْ برحْمتي إيّاكمْ ومغْفرتي لكمْ. كما حدّثنا ابْن حميْدٍ، قال: ثنا ابْن الْمبارك، عن ابْن لهيعة، عنْ عطاء بْن دينارٍ، عنْ سعيد بْن جبيْرٍ، ﴿ **فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ** ﴾ قال: اذْكروني بطاعتي، أذْكرْكمْ بمغْفرتي.

وقدْ كان بعْضهمْ يتأوّل ذلك أنّه من الذّكْر بالثّناء والْمدْح... حدّثني الْمثنّى، قال: ثنا إسْحاق، قال: ثنا ابْن أبي جعْفرٍ، عنْ أبيه، عن الرّبيع، في قوْله ﴿ **فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴿١٥٢﴾ ﴾: إنّ الله ذاكرٌ منْ ذكره، وزائدٌ منْ شكره ومعذّبٌ منْ كفره»[1].

والمقصود من النقل السابق هو بيان أن المعنى المقدّم للذكْر ليس هو المتبادر من الأذكار، بل الذكر المطلوب أصلًا هو ذكر أمر الله في كل حال،

---

(١) تفْسير الطّبريّ (٢/ ٦٩٥-٦٩٦) [البقرة:١٥٢].

وما هي الواجبات التي أمر بها والحال الذي أوجب أن نقوم به وأن يرانا فيه.

- **ذكْر الله.. عنْد الشّدّة والمصيبة:**

يكون ذكر الله تعالى بأنه المختبر لعباده وأن المصاب يكون بذنب العبد، وأن الله تعالى رحيم حكيم عدل، وأن وراء الألم حكمة بالغة ورحمة سابغة وليس فيه ظلم للعبد بأدنى مثال ذرة، وأنه إن لم يكن تكفيرا للسيئات- وهو خير- فهو رفع للدرجات، ويحسن الظن بربه ويصبر من أجله ويتصبر به ويرضى بما قضاه.. وغير ذلك من العبوديات المتعلقة بحال الشدة.

- **ذكْر الله.. عنْد المعْصية:**

يذكر أنه خذل لنسيانه وتفريطه، وأن عقوبة الله شديدة، وأن رحمته قريبة، وأنه لا ييأس من روحه ولا يأمن مكره، وأن عليه العجلة بالرجوع إلى ربه، ويحسن الظن أن ربه سيتلقاه، وأن الله يبسط يده إليه ليتوب، وأنه تعالى يفرح بتوبته؛ فينْزل به رحاله، ويتطهر من معصيته، ويستغفر ويتوب ويراجع، ويبدل مكانها حسنة.. وهكذا.

- **ذكْر الله.. عنْد الطّاعة:**

يعلم أنها من ربه وأنه تعالى الذي منّ بها عليه، فيحمد وينكسر ويرجع الفضل لأهله بأن الله أقامه هنا، ولو خذله لتركه ولما كان في حال شرف الطاعة، ولا يأمن نفسه فلو وكله الله إليها لفرط ورجع القهقرى وتبدل الحال

وزاغ القلب، وأن الله هو المُثَبِّتُ، وأن حق ربه أعظم، وأنه محتاج للقبول وللدوام ولعدم الحبوط وللوفاة عليها، فيخرج من أداء الطاعة لا ممتنًّا بل منكسرًا حامدًا راجيًا القبول.. وغير ذلك من العبوديات المتعلقة بحال الطاعة.

- **ذكْر الله.. عنْد النّعْمة:**

يعلم أنها محض فضل الله وعطاياه، وأنه لم يتقدم من العبد ما يوجبها، وأنه غارق فيها يرفل في فضل الله، وأنها جزء بسيط ولها أخوات كثر لا يحصيها إلّا المنعم بها تعالى، وأن هذا يجب ألا يبطر العبد بل ينكسر بها لله، ويضرع أن تثبت وتدوم في الدارين، وأنه محتاج لشكرها، وأن الله هو المعين على الشكر كما أعان بالنعمة، وأنه محتاج إلى ربه لئلا تزول النعم أو تنقص بعد تمام، وأن يجعله ربه من الشاكرين، وإلا كانت وبالًا في الآخرة فيسأل عنها وتكون سببا لعذابه أو تأخره في الموقف كثيرًا، أو نقصان الدرجة أو غير ذلك؛ فيخشى من كونها فتنة ولا يأمن لها.. وغيرها من العبوديات المتعلقة بحال النعمة والعافية.

- **ذكْر الله.. عنْد الجهاد ووجوبه:**

يثق في أمر ربه وإعانته وموعوده بالجنة والظفر، أو الجنة والشهادة، وأن الله موْلى المؤمنين وأن الكافرين لا مولى لهم، وأن الله تعالى لا يديل الكفر

على الإسلام والباطل على الحق إدالة دائمة، ويثق فيما معه من الحق، ويتذكر أنه يعمل من أجل التوقيع بدمه وجهده أن هذا الدين حق، وأنه يعمل من أجل الأجيال وصلاح عموم الخلق والحياة نفسها، وأنه لولا الجهاد لفسدت الحياة، ويتذكر ثواب المجهادين ظفروا أو استشهدوا.. وغير ذلك كثير مما يتعلق بهذه العبودية العظيمة.

- **ذكْر الله.. عنْد الولد:**

يذكر نعم الله فيهم وحقوقه التي أمر بها فينظر في أمر ربه كيف يربيهم ويقيم أجسامهم وعقولهم وقيمهم وعقائدهم وأخلاقهم وتوجهاتهم وأخراهم.. لا يبطر بهم على أحد ولا يغيظ محرومًا! ولا يستطل بهم أو بقوة أو جمال أو تفوق على خلق الله..

- **ذكْر الله.. عنْد الزّوْجة:**

كذلك يذكر نعمة الله في العون على العفة ويذكر حقوق الله فيها ليقوم بها ويذكر واجباته، وعند الخلاف يلتزم أمر الله، ولا يبطر بولد ولا بزوجة.

- **ذكْر الله.. عنْد المسْكن:**

يذكر نعم الله في إيوائه؛ قال ﷺ: «**فكمْ ممّنْ لا كافي له ولا مؤْوي**»[1]

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٦٤ (٢٧١٥) كتاب الذّكْر والدّعاء والتّوْبة والاسْتغْفار- باب ما يقول عنْد =

فيملؤه طاعة ولا يستكنّ فيه بمعصية، ولا يبطر على من هو دونه فيفخر أو يبغي، ولا يحسد من فوقه، ويذكر حق الجار في الصوت والنظر والمعونة والنظافة ومراعاة الحرمة..وغير ذلك.

- **ذكْر الله.. عنْد الطّريق:**

يذكر حق الله فيه وأنه ليس له أن يستوطن فيه أو يتجاوز فيأخذ غير حقه فيه، كما يصنع أصحاب المحلات الذين يخرجون منها ويقتطعون من طريق الناس، وعليه أن يعطيه حقوقه التي أمر الله ورسوله؛ من غض البصر ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودلالة الحائر والغريب ونصفة المظلوم وغير ذلك.

في ركوبه وسفره يعرف حق صاحب الدابة وحق المُرَافِقِ، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النّساء:٣٦]، ويأخذ حقه ولا يتعدى، ولا يظلم ولا يستخزى لأحد، ويأمر بالخير وينهى عن الشر، ويكف بصره ويده.. وغير ذلك.

- **وفي عمله:**

يذكر الله تعالى ويذكر حقه في الوقت والعمل والإتقان، وترك الغش، ونفع الخلق ونصفة المظلوم وإغاثة الملهوف، والقيام بالعدل، وأداء

=

النّوْم وأخْذ الْمضْجع، منْ حديث أنس بْن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الواجب، وترك الرشوة والسحت، والرقي بالعمل من باب الإحسان الذي أمر الله به، وينوي إفادة المسلمين بنوع عمله وسدَّ احتياجهم بجهده القليل، فعن بعض الأئمة من السلف أن «نيّة المؤْمن أبْلغ منْ عمله»(١).. وغير ذلك.

- **وفي الوالديْن والرّحم:**

يذكر نعم الله فيهما، وحقوقهم بالصلة بالمال والنفس، والنصيحة والرعاية، والصبر والعفو والإحسان وعدم الضجر، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وعدم استكثار الخير منك لهم، واستكثار القليل منهم، والدعاء لهم، والستر على عاصيهم، وإغاثة محتاجهم..

ويعلم أن الله تعالى أمر بحسن الصحبة وبر الوالدين وهو يعلم تعالى اختلاف الطباع وتفريط البعض في الحقوق لكنه أمر بالإحسان بلا محاشاة

(١) روى هذا الحديث جماعةٌ منْ الصّحابة مرْفوعًا بأسانيد لمْ يسْلمْ منْها واحدٌ، فرواه القضاعيّ في مسْند الشّهاب (١٤٧)، والبيْهقيّ في «الجامع لشعب الإيمان» (٦٣٣٥)، وقال: «هذا إسْنادٌ ضعيفٌ»، كلاهما منْ حديث أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، ورواه الطّبرانيّ في الكبير (٥٩٤٢)، وأبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٣/ ٢٥٥)، كلاهما منْ حديث سهْل بْن سعْدٍ السّاعديّ رضي الله عنهما، وكذا روي منْ حديث النّوّاس بْن سمْعان وعليّ بْن أبي طالبٍ وعبْد الله بْن عبّاسٍ رضي الله عنهم، ورواه أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٢/ ٣٢٦) موْقوفًا على ثابتٍ البنانيّ. وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة» (٢٢١٦) وقال: «ضعيفٌ». قلْت: هذا منْ حيْث اعْتباره مرْفوعًا، ولكنّه ورْد عنْ جماعةٍ منْ السّلف موْقوفًا عليْهمْ كما سبق منْ قوْل ثابتٍ البنانيّ، والموْقوف لا إشْكال فيه ومعْناه صحيحٌ لا مخالفة فيه.

ولهذا دلالته.. وغير ذلك من العبوديات المتعلقة.

- وعنْد العدو الكافر:

يذكر كفره بالله فيبرأ من كفره، إذ إن المؤمن يبغض من يبغضه الله، ويبرأ من عقائده، ولا ينصر رايته، ولا يتخذه بطانة، ولا يهون من أمر كفره بالله؛ إذ هو أمر عظيم.. ولا يمنعه هذا من العدل وإيفاء الحقوق لهم وإعطائه حريته التي كفلها الله لهم وحسن الخلق الذي أمر الله تعالى به مع الخلق جميعًا، مع الدعوة وإيصال الخير لعله ينجو من الهلاك، كما قال ﷺ لغلام يهودي أسلم على يديه قبل وفاته بلحظات «**الحمْد لله الّذي أنْقذه بي منْ النّار**»[1].. وغير ذلك مما أمر الله ورسوله ﷺ.

- عنْد المريض:

يذكر حقوق الله فيه من العيادة، والتنفيس عنه، وتذكيره بالخير في المصاب وبشارته بالخير والعافية حتى لو غلب على ظنه موته.. وغير ذلك من الخير.

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (١٣٥٦) كتاب الجنائز- باب إذا أسْلم الصّبيّ فمات، هلْ يصلّى عليْه، وهلْ يعْرض على الصّبيّ الإسْلام، منْ حديث أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، بلفْظ: «**الحمْد لله الّذي أنْقذه من النّار**».

- **عنْد المكْروب والمهْموم والمغْموم:**

يذكر أمر الله فيسعى في قضاء حاجته وتنفيث همه وتفريج كربه، فالسعي في حاجة المسلم خير من الاعتكاف في مسجد رسول الله ﷺ شهرًا[1]، كما قال أصحاب رسول الله ﷺ، ويرجو تنفيث كرب الآخرة وتفريج كرباتها بسعيه في إسعاد أخيه وإزاله ما أهمه أو كربه.

- **عنْد الشّهْوة:**

من مال ونساء ومنصب، يذكر حقوق الله وأوامره فلا يقرب ما نهى الله قربه، ويعف عن الحرام، ويذكر زوال الشهوات واللذات وبقاء حسرات المعصية وألمها وخزيها، ويذكر عقوبة ربه ودخوله قبره بفاحشة مفزعة أو سرقة مهلكة أو منصب مردي قد عظمت مسؤوليته، ويذكر طول القيامة

---

(١) روى الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (١٣٦٤٦) عن ابْن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رجلًا جاء إلى النّبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله ، أيّ النّاس أحبّ إلى الله؟ وأيّ الْأعْمال أحبّ إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحبّ النّاس إلى الله تعالى أنْفعهمْ للنّاس، وأحبّ الْأعْمال إلى الله تعالى سرورٌ تدْخله على مسْلمٍ، أوْ تكشف عنْه كرْبةً، أوْ تقْضي عنْه ديْنًا، أوْ تطْرد عنْه جوعًا، ولأنْ أمْشي مع أخي في حاجةٍ أحبّ إليّ منْ أنْ أعْتكف في هذا الْمسْجد - يعْني مسْجد الْمدينة شهْرًا- ومن كفّ غضبه ستر الله عوْرته، ومنْ كظم غيْظه، ولوْ شاء أنْ يمْضيه أمْضاه ملأ الله قلْبه رجاءً يوْم الْقيامة، ومنْ مشى مع أخيه في حاجةٍ حتّى يتهيّأ له أثْبت الله قدمه يوْم تزول الْأقْدام**»، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٩٠٦).

خمسين ألف سنة في مقابل لحظات تنتهي.

- وفي النّساء:

يذكر هتك الستر الذي لا يجوز هتكه، وخيانة ولي المرأة المبتغية للحرام، وأنه لا يجوز أن يخونه أو يهتك ستره وعرضه أويغوي وليّته..

- وعنْد المال الحرام:

يذكر أن من أقدره عليه قادرٌ أنْ يأخذه، ويبدله حسرات، وينفّقه إياه في آلام متتابعة، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التّوْبة:٥٥]، فهو فتنة تحذر.

- عنْد الفراغ:

يذكر أنه نعمة وأنه رأس ماله، فيذكر أمر الله فيه فلا بد أن يقضيه في قربة نافعة، والذكر أقربها وكذلك التفكر الصالح في أمر نافع له ولرحمه وللمسلمين، ولخروج الأمة من النفق المظلم، ومحاسبة النفس ومراجعة الحقوق الواجبة، ومراجعة الأخطاء، وتذكر الذنوب للانكسار، ولو اسْتَجَمَّ فبنيّةٍ صالحة ليؤْجر.

وهكذا أمر الله في كل حال، لا أستطيع حصره، بل هذه أمثلة لما يغلب حدوثه، وغير هذا كثير وكثير، ولكن ذكرت هنا وفصّلت بعض الشيء لتنسج على منواله بأحسن مما ذكرت، وتقيس على ميزانه وتأخذ هذا المأخذ، نجانا

الله وإياك وبّلغنا المنزل المراد وحط رحالنا في دار السعادة أمناء أوفياء، يا راحلًا ومهاجرًا إلى الجنة.. بلّغنا الله وإياك دار السلام.

***

لتحْقيق عمْق العبوديّة..

اسْتحْضار النّيّات

- **بخْلٌ محْمودٌ.. بيد الحقّ لا بيد الحظّ:**

ثمة قوم بخلاء محمودون في بخلهم أيّما حمد! بخلاء بالعمر أن ينفق منه لحظة لغير الله، وبخلاء بالأعمال، لماذا يأخذونها بحظوظهم إن كان يمكنهم إسقاط الحظوظ والدخول في كل عمل على وجه التعبد والقيام للرب تعالى على قدم الخدمة وتناول الأمور على وجه إقامة الحق؛ لا مجرد تناول الحظ.

هم يتناولون حظوظهم في آخر الأمر لكن من تحت إذن الشارع، فهم لم يحرموا بل تناولوا حظ نفوسهم فيما يقيم حياتهم، وأضافوا إليه حظًّا آخر فيما يقيم قلوبهم.. كما أنه تهيئة للحياة الحقيقية عند رب العالمين.

فيرغبون أن يكون عمرهم بأكمله سفرًا وسيرًا وتقربًا إلى ربهم لا يتركون لحظة دون تقرّبٍ..

فإن كان العبد قد يتعب أو يسأم أو يملّ، فهناك ما لا يسأم منه أو يمل؛ هناك الذكْر وخفّته على اللسان فلا يفتر منه، «**لا يزال لسانك رطْبًا منْ ذكْر**

الله»[1].

وهناك تجارة العلماء والسفر الدائم وهو يبدو جالسًا مرتاحًا أو في عمل دنيوي، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النّمل:٨٨]، فتحقيق هذا السفر الدائم لرب العالمين باستحضار مقاصد التعبد واستحضار النيات في جميع الأعمال؛ بحيث لا يأخذ بيد الحظ بل يعمل بيد الحق.. وذلك لأن ما تناوله العبد وعمله على وجه الحظّ ينفد بموت العبد لأن متعلقه به، وما تناوله بيد التعبد لله باق ولو مات العبد لأن متعلّقه بالله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النّحل:٩٦].

يقول «ابن قدامة»: «الدّرجة الرابعة: الورع عنْ كلّ ما ليْس لله تعالى، وهو ورع الصّدّيقين، مثال ذلك ما روي عنْ يحْيى بْن يحْيى النّيْسابوريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه شرب دواءً، فقالتْ له امْرأته: لوْ مشيْت في الدّار قليلًا حتّى يعْمل الدّواء، فقال: «هذه مشْيةٌ لا أعْرفها، وأنا أحاسب نفْسي منْذ ثلاثين سنة»، فهذا رجلٌ لمْ تحْضرْه نيّةٌ في هذه المشْية تتعلّق في الدّين، فلمْ يقْدمْ عليْها، فهذا منْ دقائق

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٣٣٧٥) أبْواب الدّعوات- باب ما جاء في فضْل الذّكْر، منْ حديث عبْد الله بْن بسْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ منْ هذا الوجْه»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٧٧٠٠) وقال: «صحيحٌ».

الورع»[1].

❁❁❁❁

- **وإلّا كان نقْصًا في حقّ صاحبه:**

يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية»: «وأمّا ما لا يؤْمر الْعبْد فيه بواحد منْهما: فمثْل ما يظْهر له منْ فعْل الْإنْسان للْمباحات الّتي لمْ يتبيّنْ له أنّه يسْتعان بها على طاعةٍ ولا معْصيةٍ. فهذه لا يؤْمر بحبّها ولا ببغْضها وكذلك مباحات نفْسه الْمحْضة الّتي لمْ يقْصدْ الاسْتعانة بها على طاعةٍ ولا معْصيةٍ. مع أنّ هذا نقْصٌ منْه فإنّ الّذي ينْبغي أنّه لا يفْعل منْ الْمباحات إلّا ما يسْتعين به على الطّاعة ويقْصد الاسْتعانة بها على الطّاعة فهذا سبيل الْمقرّبين السّابقين الّذين تقرّبوا إلى الله تعالى بالنّوافل بعْد الْفرائض ولمْ يزلْ أحدهمْ يتقرّب إليْه بذلك حتّى أحبّه فكان سمْعه الّذي يسْمع به وبصره الّذي يبْصر به ويده الّتي يبْطش بها ورجْله الّتي يمْشي بها، وأمّا منْ فعل الْمباحات مع الْغفْلة أوْ فعل فضول الْمباح الّتي لا يسْتعان بها على طاعةٍ مع أداء الْفرائض واجْتناب الْمحارم باطنًا وظاهرًا فهذا منْ الْمقْتصدين أصْحاب الْيمين..

وبالْجمْلة الْأفْعال الّتي يمْكن دخولها تحْت الْأمْر والنّهْي لا تكون

---

(١) مخْتصر منْهاج القاصدين (ص٨٨).

مسْتويةً منْ كلّ وجْهٍ بلْ إنْ فعلتْ على الْوجْه الْمحْبوب كان وجودها خيْرًا للْعبْد: وإلّا كان ترْكها خيْرًا له وإنْ لمْ يعاقبْ عليْها ففضول الْمباح الّتي لا تعين على الطّاعة عدمها خيْرٌ منْ وجودها إذا كان مع عدمها يشْتغل بطاعة الله فإنّها تكون شاغلةً له عنْ ذلك وأمّا إذا قدّر أنّها تشْغله عمّا دونها فهي خيْرٌ له ممّا دونها وإنْ شغلتْه عنْ معْصية الله كانتْ رحْمةً في حقّه وإنْ كان اشْتغاله بطاعة الله خيْرًا له منْ هذا وهذا.

وكذلك أفْعال الْغفْلة والشّهْوة الّتي يمْكن الاسْتعانة بها على الطّاعة: كالنّوْم الّذي يقْصد به الاسْتعانة على الْعبادة؛ والْأكْل والشّرْب واللّباس والنّكاح الّذي يمْكن الاسْتعانة به على الْعبادة؛ إذا لمْ يقْصدْ به ذلك كان ذلك نقْصًا منْ الْعبْد وفوات حسنةٍ؛ وخيْرٍ يحبّه الله. ففي الصّحيحيْن عنْ النّبيّ ﷺ أنّه قال لسعْد: «**إنّك لنْ تنْفق نفقةً تبْتغي بها وجْه الله إلّا ازْددْت بها درجةً ورفْعةً حتّى اللّقْمة تضعها في امْرأتك**»، وقال في الصّحيح: «**نفقة الْمسْلم على أهْله يحْتسبها صدقةٌ**». فما لا يحْتاج إليْه منْ الْمباحات أوْ يحْتاج إليْه ولمْ يصْحبْه إيمانٌ يجْعله حسنةً فعدمه خيْرٌ منْ وجوده إذا كان مع عدمه يشْتغل بما هو خيْرٌ منْه»[1].

❀❀❀❀

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٤٦٠-٤٦٢).

▪ وانْظرْ إلى مأْخذ العُبَّاد:

يقول «الشّاطبيّ» رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهؤلاء هم الّذين عدّوا الْمباحات منْ قبيل الرّخص كما مرّ في أحْكام الرّخص»(١).

وقال: «وإنّما أخذوا في نمطٍ آخر، وهو أنّه لا يليق بمنْ يقال له: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذّاريات]، أنْ يقوم بغيْر التّعبّد وبذْل الْمجْهود في التّوجّه إلى الْواحد الْمعْبود»(٢).

❁❁❁❁

▪ قواعد ومآخذ التّعبّد في اسْتحْضار النّيّات:

نبين هنا عدة قواعد في استحضار النيات لنعرف كيف نستحضر مقاصد عظمى في كل عمل، بل في أعمال قد تبدو لك بعيدة عن قصد التعبد.. ولذلك فكلامنا هنا يتناول المباحات عمومًا، إذ إن المأمورات والمنهيات يكفي فيها

---

(١) الموافقات (٣/ ٥٣٦)، وقال مشْهور بْن حسن آل سلْمان في التّعْليق: «وهو أنّ كلّ ما كان توْسعةً على العباد مطْلقًا؛ فهو رخْصةٌ، والعزيمة هي الأوْلى الّتي نبّه عليْها بقوْله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذّاريات]؛ فالأصْل أنّهمْ ملْكٌ «له»، وليْس لهمْ عليْه منْ حقٍّ ولا حظٍّ، بلْ عليْهمْ التّوجّه الكلّيّ لعبادته، وترْك كلّ ما يشْغل عنْها حتّى منْ المباحات؛ فالإذْن لهمْ في نيْل حظوظهمْ رخْصةٌ وتوْسعةٌ».

(٢) الموافقات (٣/ ٥٤٢).

الامتثال فهو تعبد، وقد حقق العبد فيها معنى التقرب إلى الله، أما المباحات فنقول بعون الله..

- **في البداية امْتثال النّصوص مقدمٌ:**

ما يجب أن يقدم على القواعد التالية، هو الامتثال، فلو كان الأمر مستحبًّا أو مكروهًا بنص مخصوص في الشرع فيمتثله بالعمل أو الترك .. فأيما نص خاص وُجِدَ قُدِّمَ على غيره؛ إذ إن الامتثال أعظم لأن العبد يحيل على كل ما قصد الشارع من مصلحة في العمل أو الترك؛ فبالامتثال يحصّل العبد جميع المصالح التي شرع لها الشارع الحكم، وهو في عمله قد تلقى النور الصافي، وهو أعظمها بركة وأجرًا، إذ إنه عندما امتثل فقد قصد كل ما قصده الشارع عز وجل، ما علمه العبد وما لم يعلمه.

يقول الإمام «الشّاطبيّ»: «المسْألة الثّامنة: التّكاليف إذا علم قصْد المصْلحة فيها فللمكلّف في الدّخول تحْتها ثلاثة أحْوالٍ...»، إلى أنْ يقول: «والثّالث: أنْ يقْصد مجرّد امْتثال الأمْر، فهم قصْد المصْلحة أوْ لمْ يفْهمْ.. فهذا أكْمل وأسْلم.

أمّا كوْنه أكْمل؛ فلأنّه نصب نفْسه عبْدًا مؤْتمرًا، وممْلوكًا ملبّيًا؛ إذْ لمْ يعْتبرْ إلّا مجرّد الأمْر.

أيضا، فإنّه لمّا امْتثل الْأمْر؛ فقدْ وكّل الْعلْم بالْمصْلحة إلى الْعالم بها جمْلةً

وتفْصيلًا، ولمْ يكنْ ليقْصر الْعمل على بعْض الْمصالح دون بعْضٍ، وقدْ علم الله تعالى كلّ مصْلحةٍ تنْشأ عنْ هذا الْعمل؛ فصار مؤْتمرًا في تلْبيّته الّتي لمْ يقيّدْها ببعْض الْمصالح دون بعض.

وأمّا كوْنه أسْلم؛ فلأنّ الْعامل بالامْتثال عاملٌ بمقْتضى الْعبوديّة، واقفٌ على مرْكز الْخدْمة، فإنْ عرض له قصْد غيْر الله ردّه قصْد التّعبّد، بلْ لا يدْخل عليْه في الْأكْثر، إذا عمل على أنّه عبْدٌ ممْلوكٌ لا يمْلك شيْئًا ولا يقْدر على شيْءٍ»[1].

فيكون البحث عن النص الجزئي الخاص بهذا العمل مقدما وحينئذ يتبين أن العمل مقرّب إلى الله وأنه ليس مباحًا مجردًا، فالعلم هنا يفتح أبواب التعبد والامتثال، وذكر «ابن تيمية» أن من فضل أصحاب رسول الله ﷺ سؤالهم إياه عن الأمور ليكون عملهم عن امتثال؛ ولهذا فضّل الله تعالى أولي العلم وخصّهم من بين المؤمنين لاطلاعهم على أوامر الله وأحكامه، فهم أرجى أن يكونوا ممتثلين متعبدين، من غيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١].

فإن لم يكن نص، وتيقن العبد أن العمل مباح؛ أو لم يعلم هو بالنص

---

(١) الموافقات (٣/ ٩٩-١٠٠).

وغلب على ظنه أن العمل مباح، وهو في الوقت نفسه يريد مأخذ التعبد؛ فتكون إحدى القواعد التالية..

- **قـواعـد الامْتثـال:**

– **أوّلًا: التّعبّد لله بقصْد إقامة كلّيّ الحياة:**

فالمباحات هي جزْئيّاتٌ لأمورٍ مأْمورٌ بها في الجمْلة، على وجْهٍ كلّيٍ، فإتْيان المباحات بقصْد إقامة كلّيّاتها تعبّدٌ لله تعالى..

وبيان ذلك أن تعلم أن هذا الدين جاء لإقامة الحياة وإقامة الدينونة والتعبد لله تعالى.. وعلى هذا يجب أن تعلم أن ما هو مباح فهو صحيح من حيث النظر الجزئي، لأنك تنظر إليه من حيث الجزء ومن حيث ثبوته، ولو نظرت إليه من حيث الكل لعلمت أنه مطلوب.

وبيان ذلك أن الطعام والشراب والملبس مباح، من حيث وقت الطعام والشراب، ونوعه؛ تأكل كذا أو كذا من أنواع المباح، وتلبس كذا أو كذا من مباح الملبس، وتتزوج فلانة أو فلانة، وكذا المرأة وتخيرها من الخطّاب؛ فهذا في نفسه مباح.

ولكن لو نظرت إلى جانب «الكل» بمعنى ماذا لو تركت الطعام والشراب جملة، أو تركت اللباس جملة، فهذا يؤدي للتلف والهلاك، وهو محرم؛ إذ إنه قتل للنفس، وقد حرم الله تعالى قتل النفس؛ فإنها وإن كانت نفسك لكنك لا تملك التصرف فيها كما تشاء، فلله تعالى حق، وهنا يبدو هذا الحق، فلا يحل قتل النفس.

إذا فالطعام والشراب والملبس من حيث الكل، ومن حيث الجملة، مطلوب، فهو واجب لإقامة الحياة.

وكذلك الزواج لو تصورت ترك الجميع له لانقرض الجنس البشري أو المجتمع على الأقل، وهذا محرم، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وعشرات الأدلة دالة على هذا الأصل، أصل إقامة النسل البشري، وهنا يأثم الجميع بترك الزواج، فبالنظر إلى جانب الترك وجانب الإجمال تظهر حقيقة الأمر أنه مطلوب الوجود، فهو في الجملة واجب.

لكن لمّا كانت بعض الأمور جعل الله تعالى من الغرائز ما تدعو إليه بقوة لم يشدد الأمر فيها من حيث الجزء وأحال إلى الغريزة المطبوعة؛ فأباح الطعام والشراب والنكاح والملبس لأن النفس داعية إليه بقوة، ولكن ما خالف هذا كالعبادات ومصادمات الهوى شدد في الأمر فيها وقوّاه لأنه على خلاف الشهوة والهوى(١).

لكن التخفيف في الأمر بما قويت به الغرائز لا ينفي أن الأمر مطلوب الوجود وأنه واجب من حيث الجملة، فلا يجوز ترك الطعام كلية ولا الشراب

---

(١) انْظرْ «الموافقات» للشّاطبيّ، كتاب المقاصد، في كلامه عنْ مقاصد المكلّف في دخوله تحْت عباءة التّكْليف.

كلية، ولا الملبس كلية ولا الزواج للجميع.. فظهر هنا الوجوب، وجاز هنا لك قصد هذا الوجوب فيما تأْتي من الأفعال أن تقصد هذا الأمر الكلي؛ فتصح أفعالك حينئذ عبادةً لله تعالى.

ومن الأمثلة المهمة هنا ما ذكره الإمام «الشاطبي» - استفادة بما قاله «أبو حامد الغزالي»، في قاعدة التسبب وفي المقاصد- هو أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتكسّبون، وكانوا مهرة في التسبب لكن كانوا في عملهم وفي إنفاقهم قاصدين لكليّ «إقامة الحياة» وكانوا إما ينسون أنفسهم، كما روي عن السيدة «عائشة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها تصدقت بستين ألف درهم هو عطاؤها السنوي في يوم أخذها له، وكان ثوبها مرقعًا لم تتذكر ولم تلتفت إلى إصلاحه أو شراء جديد، بل وكانت صائمة فلم تتذكر أن تأتي لنفسها بطعام ولما عاتبتها الخادمة: لو اشتريت إفطارا لك! فقالت: «لا تعنيني؛ لوْ تذكّرْت لفعلْت»![1]، رضي الله عنها وأرضاها.

أو يتذكر المرء منهم نفسه نظرًا إلى أنه في قصده لهذا الكلّيّ ينظر في تنزيله

---

(١) روى أبو نعيْمٍ في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأوْلياء» (٢/ ٤٧) عنْ أمّ ذرّة، وكانتْ تغْشى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: بعث إليْها بمالٍ في غرارتيْن قالتْ: أراه ثمانين أوْ مائة ألْفٍ فدعتْ بطبقٍ وهي يوْمئذٍ صائمةٌ فجلستْ تقْسم بيْن النّاس فأمْستْ وما عنْدها منْ ذلك درْهمٌ فلمّا أمْستْ قالتْ: «يا جارية هلمّي فطْري» فجاءتْها بخبْزٍ وزيْتٍ فقالتْ لها أمّ ذرّة: أما اسْتطعْت ممّا قسمْت الْيوْم أنْ تشْتري لنا لحْمًا بدرْهمٍ نفْطر عليْه قالتْ: «لا تعنّفيني لوْ كنْت ذكّرْتيني لفعلْت».

على جزئيات الخلْق، وهو أول جزئي يقع عليه هذا، وهو مكلف بنفسه كأول فرد مقدّم يتحقق فيه هذا الكلي.

وعلى هذا يقصد البعض في معاملاته المباحة أن تجري دراهمه ونقوده في أيدي الخلق لإقامة الحياة فيستفيد منها هذا وذاك وتجري المعاملات بين الخلق بما يحقق منفعتهم وإقامة حياتهم[1].

- **ثانيًا: حرْمة إضْعاف الجسد وإتْلافه.. ووجوب تقْويته:**

وعلى هذا المنوال أيضًا إن كان لا يجوز إهلاك النفس وإتلاف الجسد، فكذلك لا يجوز إضعاف النفس فيأخذ من الطعام والشراب ما لا يقيته بل يكون دوما على حد الكفاف فيضعف، فهذا يعاقب أيضًا، فعلم أن تقوية الجسد والحفاظ عليه بهذا المقصد؛ مقصد ترك الإثم من إهلاك الجسد أو إضعافه، والقصد إلى إقامة الحياة التي أمر الله بإقامتها، علم أن هذا مقصد يصح قصده والتعبد به لله تعالى.

- **ثالثًا: التّعبّد بتناول المباحات.. بقصْد التقوّي على الطّاعة:**

فهناك أفعال هي تعبد خالص لأن هناك نصوص آمرة بها، وهذه لا إشكال في قصدها للتعبد؛ وأما المباحات فيما عدا هذه المأمورات فيصح قصدها

(١) انْظرْ «الموافقات» للشّاطبيّ، باب خطاب التّكْليف، وانْظرْ أيْضًا كتاب المقاصد.

بغرض التقوّي بها والاستعانة بها على المأمورات الصريحة بنصوص خاصة.. وهذا من مآخذ شيخ الإسلام «ابن تيمية»؛ أن حال المؤمن السالك إلى ربه تعالى إما أن يعمل واجبًا، وإما أن يستعين بمباح من أجل واجب؛ فيكون مأجورًا على الواجب ومأجورًا على ما يستعين به على الواجب.

وقد مرّ النقل عنه قريبًا، ويقول أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي سنن أبي داود: أنّ رجليْن اخْتصما إلى النّبيّ ﷺ فقضى على أحدهما فقال الْمقْضيّ عليْه: حسْبي الله ونعْم الْوكيل. فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله يلوم على الْعجْز ولكنْ عليْك بالْكيْس فإذا غلبك أمْرٌ فقلْ حسْبي الله ونعْم الْوكيل**»، فأمر النّبيّ ﷺ الْمؤْمن أنْ يحْرص على ما ينْفعه وأنْ يسْتعين بالله وهذا مطابقٌ لقوْله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥**﴾ [الفاتحة]، وقوْله تعالى: ﴿**فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود:١٢٣]، فإنّ الْحرْص على ما ينْفع الْعبْد هو طاعة الله وعبادته إذْ النّافع له هو طاعة الله ولا شيْء أنْفع له منْ ذلك وكلّ ما يسْتعان به على الطّاعة فهو طاعةٌ وإنْ كان منْ جنْس الْمباح. قال النّبيّ ﷺ في الْحديث الصّحيح لسعْد: «**إنّك لنْ تنْفق نفقةً تبْتغي بها وجْه الله إلّا ازْددْت بها درجةً ورفْعةً حتّى اللّقْمة تضعها في في امْرأتك**»[1].

ومنْ هذا الباب ما قاله «معاذ بْن جبلٍ» صاحب رسول الله ﷺ لـ «أبي

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٣١-٣٢).

موسى الأشْعريّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عنْدما تكلّما في مأْخذهما في قيام اللّيْل، فقال «أبو موسى»: «فسألني معاذٌ يوْمًا: كيْف تقْرأ الْقرْآن؟ فقلْت: «أقْرؤه قائمًا وقاعدًا وعلى فراشي أتفوّقه تفوّقًا» قال: وسألْت معاذًا: «كيْف تقْرأ أنْت؟» قال: أقْرأ وأنام ثمّ أقوم فأتقوّى بنوْمتي على قوْمتي، ثمّ أحْتسب نوْمتي بما أحْتسب به قوْمتي»[1].

رضي الله عنه، فهو يرجو الأجر في قيامه الليل، ويرجو الأجر من ربه على نومته لأنه يستعين بها على القيام وإلا لم يقدر على الصلاة.

- **رابعًا: مراعاة حقّ الغيْر المتعلّق بالمباحات، فهي واجبةٌ بالنّظر إلى حقوقهمْ الواجبة عليْك:**

ثمة أمور مباحة في نفسها إذا أخذتها على وجه حظ النفس، بينما قد يكون لهذه المباحات تعلق بحقوق الآخرين عليك، ويظهر هذا في جانب النفي، فلو تركت هذه المباحات لكان تقصيرًا في حق أطراف أخرى ولهم حق الشكوى لتقصيرك، بل ولهم حق التقاضي أحيانًا..

ولتوضيح هذا انظر في مثل جماع الزوجة، فمن ناحية شهوتك قد يأتي العبد الأمر بحسب رغبته وحسب وقد يتغاضى عن الأمر لشواغل أخرى،

---

(١) رواه ابْن حبّان في صحيحه (٥٣٧٦) كتاب الأشْربة- فصْلٌ في الأشْربة.

ولكن إذا نظر إلى حق أهله عليه لأتاه مراعيًا واجبه نحو أهله وعفتهم وأداء حقوقهم، ولهذا لما اشتكت المرأة زمن «عمر» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لانشغال زوجها بالتعبد ليلًا بالقيام ونهارًا بالصيام، فأشكاها «عمر» وقبل منها وقضى لها وألْزمه بما يزيل الشكاية..

بل ما تستصغره من الأمور؛ كالسمر مع الأبناء، فلو أتاه المرء بطبيعته وحظ نفسه لكان مباحًا، ولكن لو تشاغل عن هذا حتى تضرروا لكان تقصيرًا في حقهم، وكان مأمورًا أن يزيل شكايتهم ويحسن صحبتهم ويؤدي حقهم، كما هو مهم في التربية.. وهكذا في أمور كثيرة لو تعلق للغير بها حقوق.

- **خامسًا: التعبّد لله بقصْد الاسْتغْناء بالحلال عنْ الحرام:**

فالله تعالى حرّم محرمات وجعل لها حدودًا وأمر ألا نتعدى حدوده، بل وألا نقرب منها، فقال في النهي عن التعدي: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ**﴾ [البقرة:٢٢٩]، وقال في النهي عن الاقتراب منها: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ**﴾ [البقرة:١٨٧].

ومن رحمته تعالى أن جعل عن المحرمات بديلًا من جنسها، فإنْ حرّم أكل الربا أحل البيع، وإنْ حرّم أكل لحم الخنزير أباح الأنعام، وإن حرّم الزنا أباح النكاح، وإن حرم لبس الحرير للرجال أباح لهم سائر ما سواه.. وهكذا.

وعلى هذا فمن تناول المباح قاصدًا الاستغناء به عن الحرام أجر على

تناوله لهذا المباح.. ولهذا قال ﷺ: «**في بضْع أحدكمْ صدقةٌ**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهْوته ويكون له فيها أجْرٌ؟ قال: «**أرأيْتمْ لوْ وضعها في حرامٍ أكان عليْه فيها وزْرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الْحلال كان له أجْرٌ**»[١].

ووجه الإمام «الشاطبي» الأمر بأن هذا حين يكون العبد في معاشرة زوجه قاصدًا وضع نطفته فيما أباح الله، ليترك بها الحرام فلا تقوى شهوته عليه فتغلبه فيضعها في حرام.

- سادسًا: التّعبّد لله بقبول هدْيه المنْعم سبْحانه:

فالطعام والشراب واللباس والنكاح والطيبات قد أباحها الله تعالى لخلقه، وتفضل بها، وأنعم بها عليهم؛ فهي هدية المنعم، وقبول هدية المنعم عبودية لله؛ فمن تناولها على هذا الوجه أجر.

ومن هنا ما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب تناول الفاكهة أول ظهورها[٢].

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٥٣ (١٠٠٦) كتاب الزّكاة- باب بيان أنّ اسْم الصّدقة يقع على كلّ نوْعٍ من الْمعْروف، منْ حديث أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه.

(٢) روى مسْلمٌ في صحيحه ٤٧٣ (١٣٧٣) عنْ أبي هريْرة رضي الله عنه، أنّه قال: كان النّاس إذا رأوْا أوّل الثّمر جاءوا به إلى النّبيّ ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ، قال: «**اللهمّ باركْ لنا في ثمرنا، وباركْ لنا في مدينتنا، وباركْ لنا في صاعنا، وباركْ لنا في مدّنا، اللهمّ إنّ إبْراهيم عبْدك وخليلك ونبيّك، وإنّي عبْدك ونبيّك، وإنّه دعاك لمكّة، وإنّي أدْعوك للْمدينة بمثْل ما دعاك لمكّة، ومثْله معه**»، قال: ثمّ يدْعو =

ويتعرض للمطر أول نزوله ويقول: «**إنّه حديث عهْدٍ بربّه**»؛ فعنْ أنس بْن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أصابنا مطرٌ ونحْن مع رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ فحسر ثوْبه حتّى أصابه، فقلْنا: يا رسول الله لم صنعْت هذا؟ قال: «**إنّه حديث عهْدٍ بربّه**»(١).

يقول الإمام «الشّاطبيّ»: «ما فيه حظّ الْعبْد محْضًا - من الْمأْذون فيه- يتأتّى تخْليصه من الْحظّ، فيكون الْعمل فيه لله تعالى خالصًا، فإنّه منْ قبيل ما أذن فيه أوْ أمر به، فإذا تلقّى الْإذْن بالْقبول منْ حيْث كان الْمأْذون فيه هديّةً من الله للْعبْد، صار مجرّدًا من الْحظّ، كما أنّه إذا لبّى الطّلب بالامْتثال منْ غيْر مراعاةٍ لما سواه، تجرّد عن الْحظّ»(٢).

- سابعًا: التّعبّد لله بلزوم المأْخذ النّبويّ وتجنّب الطّريق المبْتدعة:

فالطعام والشراب والملبس والمسكن والمنكح قد أباحها الله تعالى، ولما حاول بعض الصحابة تركها تقربًا لله تعالى بتركها؛ تبتلًا وتركًا للطيبات وأخذًا في السياحة، عوتبوا على هذا وقيل لهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا**

=

أصْغر وليدٍ له فيعْطيه ذلك الثّمر.

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (١٣٨٢٠)، قال شعيْب الأرْنؤوط: «إسْناده صحيحٌ على شرْط مسْلمٍ، رجاله ثقاتٌ رجال الشّيْخيْن غيْر جعْفر بْن سليْمان، فمنْ رجال مسْلمٍ.

(٢) الموافقات (٢/ ٣١٤).

طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة]، قال «الشّاطبيّ» رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأمر بالتقوى في آخر الآية مشعر أن ما همّوا أن يفعلوه على خلاف التقوى، وهو من الإعتداء المحرم إذ إن الله تعالى شرع طريق التقرب إليه، وما خلاف هذا فهو ابتداع محرم لم يؤذن لنا فيه.

وعلى هذا فمن تناول المباح على وجه عدم تحريم الطيبات - بالإمتناع على وجه البدعة- هو مأجور؛ إذ إن اجتناب الطرق المبتدعة نحن مأمورون به، فمن أخذ المباحات على هذا الوجه واستحضر النية عندئذ يؤجر بينما هو يتمتع بالطعام والشراب والملبس والمنكح، فلله الحمد على تيسير العبودية لخلقه.

- ثامنًا: مخالفة طرق الضلال والمبْتدعة:

فهناك أقوام سلكوا مسالك مبتدعة في التعبّد لم يرضها ربنا تعالى، فحرّموا على أنفسهم وشددوا على أنفسهم ما لم يشدد تعالى عليهم ولم يحرّم، ولم يرض تعالى طريقتهم وحرمها علينا وتفضل علينا بالتيسير لليسرى والحنيفية السمحة، فالله تعالى حرم هذه الطرق المبتدعة، وصار ابتداعهم وجهًا آخر لتحريم هذا السلوك، وهو مشابهة من غضب الله تعالى طريقتهم.. فإن الله تعالى لم يرض رهبنة النصارى وسياحتهم المبتدعة.

وعلى هذا فمن قصد ترك طرق المبتدعة وطرق من غضب الله عليهم أو وصمهم بالضلال، وقصد اتباع الحنيفية السمحة؛ من قصد إلى هذا أجر على قصده لاتباعه نهجه المرضي عزّ وجلّ.

- تاسعًا: التّعبّد لله بالأخْذ بقواعد التّيْسير ورفْع الحرج:

أن الله تعالى وضع في شريعته قواعد متعاضدة على معنى التيسير فقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى]، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحجّ:٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

فمن تلقى المباحات وأخذها إعمالًا لهذه القواعد وتجنبًا للدخول في مخالفتها كان مأجورًا، لقصده ما قصده الشارع سبحانه وتعالى؛ إذ إنه لصحة الأعمال يجب موافقة العمل الظاهر للشرع مع قصْد ما قصده الشارع تعالى منه.

- عاشرًا: قاعدة التّأسّي:

وهي قاعدة عظيمة جدًّا، حقها أن تتقدم، ولكن أخرت ذكرها لبيان تعدد أوجه التعبد في المباحات.

وبيان ذلك أن التأسي بأحد يكون تأسيًا بما عمل من عمل ظاهر، والإحالة فيه على نيته من حيث المقصد، وهذا صحيح.

فيجوز الإحالة على النيات في باب التأسي، كما صرح الإمام «الشاطبي»، وقد استدل بحديث «أنس» عن «عليّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في إهلاله بالحج وكان قادمًا من اليمن، عن أنسٍ أنّ عليًّا، قدم من الْيمن فقال له النّبيّ ﷺ: «**بم أهْللْت؟**» فقال: أهْللْت بإهْلال النّبيّ ﷺ، قال: «**لوْلا أنّ معي الْهدْي لأحْللْت**»[١]. وفي روايةٍ، فقال لعليٍّ: «**بم أهللت؟**» قال: «قلْت اللّهمّ إنّي أهلّ بما أهلّ به رسول الله ﷺ»[٢].

وكذا «أبو موسى الأشعري».. فعنْ أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قدمْت على رسول الله ﷺ وهو منيخٌ بالْبطْحاء، فقال: «**بم أهْللْت؟**»، قال قلْت: أهْللْت بإهْلال النّبيّ ﷺ، قال: «**هلْ سقْت منْ هدْيٍ؟**» قلْت: لا، قال: «**فطفْ بالْبيْت وبالصّفا والْمرْوة، ثمّ حلّ**»، فطفْت بالْبيْت وبالصّفا والْمرْوة، ثمّ أتيْت امْرأةً منْ قوْمي، فمشطتْني وغسلتْ رأْسي[٣].

---

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (١٥٥٨) كتاب الحجّ- باب منْ أهلّ في زمن النّبيّ ﷺ كإهْلال النّبيّ ﷺ، ومسْلمٌ في صحيحه ٢١٣ (١٢٥٠) كتاب الحجّ- باب إهْلال النّبيّ ﷺ وهدْيه.

(٢) رواه النّسائيّ في السّنن الصّغْرى (٢٧٤٣) كتاب مناسك الحجّ- الْحجّ بغيْر نيّةٍ يقْصده الْمحْرم، منْ حديث جابر بْن عبْد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (١٥٥٩) كتاب الحجّ- باب منْ أهلّ في زمن النّبيّ ﷺ كإهْلال النّبيّ ﷺ، ومسْلمٌ في صحيحه ١٥٥ (١٢٢١) كتاب الحجّ- بابٌ في نسْخ التّحلّل من الْإحْرام والْأمْر بالتّمام.

فصحح رسول الله ﷺ إحالة «عليّ» رضي الله عنه على نيته، وعلى هذا عمّم «الشاطبي» رحمه الله القاعدة، وقال أن هذا في باب التأسي، إذ كل من يتأسى بأهل الصلاح يقصد التأسي بأفعالهم وما قصدوه بها.

وعلى هذا فمن أكل أو شرب أو لبس أو نام أو عاشر أهله أو داعب صبيًّا أو مازح إخوانه أو غير ذلك من المباحات، ويكون حين يفعلها إنما يفعلها لأن رسول الله ﷺ فعلها، فقد أحال على أزكى النيات وأرفع المقاصد، نية محمد ﷺ ومقصده، فهو تعبد ولا شك، وما أزكاه.

يقول الإمام «الشاطبي» رحمه الله: «ومنْ ذلك أن المقْصد الأوّل(١) إذا تحرّاه الْمكلّف يتضمّن الْقصْد إلى كلّ ما قصده الشّارع في الْعمل منْ حصول مصْلحةٍ أوْ درْء مفْسدةٍ، فإنّ الْعامل به إنّما قصْده تلْبية أمْر الشّارع، إمّا بعْد فهْم ما قصد، وإمّا لمجرّد امْتثال الْأمْر، وعلى كلّ تقْديرٍ، فهو قاصدٌ ما قصده الشّارع، وإذا ثبت أنّ قصْد الشّارع أعم المقاصد وأولها وأولاها، وأنّه نورٌ صرْفٌ لا يشوبه غرضٌ ولا حظٌّ، كان الْمتلقّي له على هذا الْوجْه آخذًا له زكيًّا وافيًا كاملًا، غيْر مشوبٍ ولا قاصرٍ عنْ مراد الشّارع، فهو حرٍ أنْ يترتّب الثّواب فيه للْمكلّف على تلْك النّسْبة.

---

(١) يشْمل المقاصد الأولى الضّروريّة الخمْس، وما كان عنْ أمْرٍ شرْعيٍّ فامْتثله المكلّف لا على وجْه الحظّ بلْ على وجْه الامْتثال.

وأمّا القصْد التّابع[1] فلا يترتّب عليْه ذلك كلّه؛ لأنّ أخْذ الْأمْر والنّهْي بالْحظّ أوْ أخْذ الْعمل بالْحظّ قدْ قصره قصْد الْحظّ عنْ إطْلاقه، وخصّ عمومه، فلا ينْهض نهوض الْأوّل.

شاهده قاعدة: «**الْأعْمال بالنّيّات**»، وقوْله عليْه الصّلاة والسّلام: «**الْخيْل لرجل أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجلٍ وزرٌ، فأمّا الّذي هي له أجْرٌ، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرْجٍ أوْ روْضةٍ، فما أصابتْ في طيلها ذلك منْ الْمرْج أو الرّوْضة كان له حسناتٍ، ولوْ أنّها قطعتْ طيلها ذلك، فاستنّت شرفًا أوْ شرفيْن كانتْ آثارها وأرْواثها حسناتٍ له، ولوْ أنّها مرّتْ بنهرٍ، فشربتْ منْه لمْ يردْ أنْ يسْقي به كان ذلك له حسنات**»، فهي له أجْرٌ في هذا الْوجْه من الْحديث لصاحب الْقصْد الْأوّل؛ لأنّه قصد بارْتباطها سبيل الله، وهذا عامٌّ غيْر خاصٍّ، فكان أجْره في تصرّفاته عامًا أيْضًا غيْر خاصٍّ، ثمّ قال عليْه الصّلاة والسّلام: «**ورجلٌ ربطها تغنّيًا وتعفّفًا ولمْ ينْس حقّ الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له سترٌ**»، فهذا في صاحب الْحظّ الْمحْمود لمّا قصد وجْهًا خاصًّا وهو حظّه، كان حكْمها مقْصورًا على ما قصد، وهو السّتْر، وهو صاحب الْقصْد التّابع، ثمّ قال عليْه الصّلاة والسّلام: «**ورجلٌ ربطها فخْرًا ورياءً ونواءً لأهْل الْإسْلام، فهي على ذلك وزرٌ**»، فهذا في الْحظّ الْمذْموم الْمسْتمدّ منْ أصْل

---

(١) وهو ما كان على وجْه الحظّ لا على وجْه الامْتثال.

متابعة الْهوى، ولا كلام فيه هنا.

ويجْري مجْرى الْعمل بالْقصْد الْأوّل الاقْتداء بأفْعال رسول الله ﷺ، أوْ بالصّحابة أو التّابعين؛ لأنّ ما قصدوا يشْمله قصْد الْمقْتدي في الاقْتداء، وشاهده الْإحالة في النّيّة على نيّة الْمقْتدى به، كما في قوْل بعْض الصّحابة في إحْرامه: «بما أحْرم به رسول الله ﷺ»، فكان حجّةً في الْحكْم كذلك يكون في غيْره من الْأعْمال»[1].

❁❁❁❁

▪ كيْف أقْوى على اسْتحْضار النّيّات في كلّ عملٍ؟:

وهو سؤالٌ مهمٌّ .. ويشْغل الكثيرين..

والإجابة هنا أن هذا يستلزم دوام ذكر الله، وهذا هو الذكر المطلوب، فذكر الله في كل وقت بحسب ذلك الوقت، وبهذا أمر الله تعالى، ﴿**خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٦٣**﴾ [البقرة]، فلا بد من ذكر الله وذكر أمره تعالى دوما، فيكون هو المقصود من كل عمل.

وهذا بدوره لا يتحقق إلا بمعنى آخر، وهو معنى عظيم ولا بد منه، وهو عكوف القلب على الله تعالى..

(١) الموافقات (٢/ ٣٤٠-٣٤٢).

فقلب المؤمن العابد السائر إلى ربه تعالى، الراحل عبر الأطباق والمراحل، المهاجر إلى الجنة، صاحب قلب متعلق بالله ليس تعلقًا مؤقتًا؛ بل هو تعلق دائم فيه عكوف للقلب على الله، يحوم حول العرش؛ هذا مكانه وموطنه، كما روي عن أصحاب رسول الله ﷺ: «كنّا نسير على الأرْض وأرْواحنا في السّماء»..

فكما أن ثمة قلوب «تحوم حول الحش ومزابل الدنيا» فثمة قلوب «تحوم حول العرش»، ولا يحصر ما بينهما إلا رب العالمين.

هناك مكان قلبك، فخبئه هناك، وألْزمه به، واجعله وديعتك هناك، ولا تهبط به، فأنت مخلوق غالٍ، ولو تطلعت لحضرة القدس وولجته والتزمته لتغير الحال وبرزت للعمل من هناك، فتعمل من أجله وبه، هو المقصود وهو المعين، سبحانه.

فلو ألْزمت قلبك بهذا لعشت بين الناس بجسدك لكن روحك في المحل اللائق والمكان السامي.

ولو حدث هذا ليسر عليك العمل المتوجه إلى الله بكل مباح وكل قول وكل سكوت، فتكون راحلًا دائمًا.. إلى الجنة.

خطْوةٌ أخْرى..

أعْمال القلوب

خطوة تدبر معاني العبادات وأن يعقل الإنسان ما يقول وما يفعل في تعبداته، وأن يعقل معاني ما يمتثله من فعل واجب وترك محرم، كانت خطوة لتعميق معنى التعبد..

ولكن ثمة خطوة أخرى وهي فارقة بين عبد وعبد، وإليها ينظر الرب تعالى مع الأعمال الظاهرة، وهي أعمال القلوب..

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» أنه إذا استوى عبدان في عمل ظاهر ولكن أحدهما أفضل من الآخر في أعمال القلوب لكان الأخير أكثر إيمانًا وأرفع درجة من صاحبه.

ويقول «ابن القيم» رَحِمَهُ اللَّهُ أن ربّ تسبيحة من عبد أفضل من تسبيح أهل الأرض، ورب سجدة من عبد أفضل من سجودهم، والسجود في ظاهره متساوٍ، ولو كان اختلافٌ فهو فيما قارنه من أعمال القلوب.

ونحن نرجو من وراء هذا الكتاب عمق التعبد وقوة الصلة بالله تعالى وصدقها، ولهذا نذكر أمثلة لأعمال القلوب؛ أولًا ليس حصرًا لها، وثانيًا ليس الكلام إيفاء بحق كل عبودية كما تستحق، وإنما هو التنبيه والتذكير وذكر

جملة مختصرة تدل على أهمية الباب؛ فمن أعمال القلوب..

• اليقين:

وهو ينتظم العلم والعمل، ففي جانب العلم يفيد استقرار العلم حتى يكون بصيرة فيرى الحق بقلبه، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ]، فعبّر تعالى عن العلم بالرؤية، ولهذا دلالاته؛ فقد رأوا بقلوبهم؛ إذ صار لها أبصارٌ ترى، وسمعٌ يسمع، ولسانٌ ينطق..

قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: «رأيْت الجنّة والنّار بعيْني، قالوا له كيْف؟ قال: رآهما رسول الله ﷺ بعينه، وعيْن رسول الله ﷺ أوْثق عنْدي منْ عيْني»[1]، وآخر من التابعين، «عامر بْن عبْد قيْسٍ»، يقول: «لوْ كشف الغطاء ما ازْددْت يقينًا»[2].

(١) أوْرده ابْن القيّم في «مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» (٢/ ٤٠٠) بلفْظ: «وقال بعْضهمْ: رأيْت الْجنّة والنّار حقيقةً. قيل له: وكيْف؟ قال: رأيْتهما بعيْنيْ رسول الله ﷺ. ورؤْيتي لهما بعيْنيْه: آثر عنْدي منْ رؤْيتي لهما بعيْني؛ فإنّ بصري قدْ يطْغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ».

(٢) أوْرده ابْن القيّم في «مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» (٢/ ٣٩٨). وعزا ابْن عقيْلٍ الحنْبليّ مثْله إلى أبي بكْرٍ رضي الله عنه، قال ابْن مفْلحٍ في «الآداب الشّرْعيّة والمنح المرْعيّة» (١/ ٢٩٥): «قال ابْن عقيلٍ في الْفنون: يخْطر بقلوب الْعلماء نوْع يقظةٍ، فإذا نطقوا بها وبحكْمها =

واليقين في جانب العمل هو استقرار العمل في القلب بلا تردد أو اضطراب أو خلل؛ بل هو رسوخ إرادة العمل بلا تردد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]، فالريبة هنا تدخل في الأعمال، كالجهاد - كما في الآية- فمن لا يوفي العمل المأمور به فيمتثل أحيانا ويعصي أحيانًا فهو ريب في الإرادة، وأما صاحب اليقين مستوفي الإيمان الواجب فهو مجاهد حيث أمر بالمال والنفس لا يقصّر ولا يتردد ولا تضطرب إرادته.

ولهذا فقد عرّضت الآية بمسلمي الأعراب لاضطرابهم في الجهاد وعدم استيفائهم شأنه.. وهذا يصْدق على جميع الواجبات والتكاليف الشرعية.

- **تعْظيم الأمْر ومهابة الربّ:**

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، فطبيعة الإيمان إجلال الله تعالى وإجلال أمره وإجلال نبيه ﷺ وما أرسله به.

=

نفرتْ منْها قلوب غيْرهمْ، ولوْ منْ الْعلماء، ولا أقول الْعوامّ، ومثّل بأشْياء منْها قوْل أبي بكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لوْ كشف الْغطاء ما ازْددْت يقينًا».

ومن تعظيم الله تعالى تعظيم حرمته، ولذا شرع الجهاد لمحو مسخوطاته وإقرار محابّه.

ولهذا كان بعض السلف يبكي إذا عصي الله، ولو لم يعصه هو نفسه، وذلك لانتهاك حرمة الله وحدوده.

ولهذا آثار كثيرة، فيرتدع العابد عن المعصية من أجل الله، وإذا ذكّر تذكر ولم يتمادَ، وتراجع عن غضبه لأجل الله إن كان غضبه خطأ، ويقطع مزاحه إن تمادى فيما لا يرضي ربه، ويكف شهوته إذا ذكّر بالله، ولم يمنعه خوفه على جاهه أو منزلته أو مكانته من التراجع مراعاة لحق الله؛ فيزيد الله مهابته ومحبته في القلوب.

- **الذّلّ والانْكسار والافْتقار إلى الله تعالى:**

وهو أساس التعبّد والعمل..

والفقر وصف ذاتي للعبد يلازم ذاته ولا يتصور مفارقته له؛ إذ هو لازم له من حيث هو مخلوق.. كما أن الغنى وصف ذاتي للرب تعالى من حيث هو خالق.

والعبد مفتقر إلى الله تعالى من جهتين:

١. **من جهة الربوبية..** فهو مفتقر إلى ربه تعالى من حيث الخلق والرزق والقيومية وإصلاح أمره وحاله، فما شاء الله كان وما لم يشأ الله لم يكن،

والعبد باعتبار نفسه عدم محض، وإنما هو بربه.

٢. **من جهة الألوهية**..فهو فقير إلى عبادة ربه يحتاج إلى حبه وعبادته وقصده، والعمل النافع المصلح والباقي للعبد هو ما كان لله، فما ليس له لا يُصْلِحُهُ ولا ينفعه ولا يدوم له.

- **الحبّ:**

فإنما خلق الله القلب ليحب الله..

وبحبه يجد العبد حلاوة الإيمان فقد اشترطها رسول الله ﷺ لمن أكمل محبته لله وفرّع عليها، فلا يحب إلا له، وكراهة ما يضادها كما يكره أن يقذف في النار.

وبالحب يستعذب التعب والبذل لرب العالمين..

وقمة التعبير عن الحب هو الجهاد في سبيل الله، وجعل الله الجهاد علامة المحبّين، ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ** ﴾ [المائدة].

وعنوان المحبة هو بذْل الدم والمهج والأرواح له تعالى، وهي فيه قليلة..

والله يُحَبُّ لذاته، كما يُحَبُّ لنعمه وعطاياه، والثاني باب للأول، والأول هو المقصود؛ أن يحب الله لذاته، ولا يكون هذا إلّا عن معرفة، والمعرفة تأتي

بـالقرآن والتفكـر والتـدبر في خلقـه، وفي قَـدَرِهِ، وفي حـال نفـسه، كمـا تعرفـه القلوب بما فيها من فطرة وبما يتنزل فيها من العلم.

حبّ الله نعيم في ذاتـه، ويستلزم طاعتـه التـي هـي سبب النعيم الـدنيوي والأخروي، بينما حبّ غيره عذاب في نفسه وفي أثره؛ فمن أحب شيئًا دون الله عُذِّبَ به.

الله فقط هو الذي يحبك لك ولنفعك ويطلبك لك، فهـو لا يتكثّر بـك ولا يتقـوّى بأحـد؛ ولكنـه يحبـك لينفعـك ويعطيـك ويهبـك الخيـر، أمـا غيـر الله فيطلبك لنفسه إما يأنس بك أو ينتفع بمالك أو قوتك أو علمك أو غير ذلك.

- **التّوكّل:**

وهو معنى يلتئم مـن اليقـين والأخـذ بالأسـباب وحسن الظـن والتفـويض والاعتماد الكامل على الله، مع استفراغ العبد وسعه فيما يقدر عليه، وقـد قرنـه الله سـبحانه بالعبــادة، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هـود:١٢٣]، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، ولا قدرة لعبد على عمل إلا بحوله وقوتـه فهـو الـذي يعين.

والتوكل على الله يكون في أمر الدنيا وأمر الدين والآخـرة؛ فالتوكـل يكـون في التوبـة والعلـم والهدايـة وفـتح القلـوب والرشـاد والـدعوة وهدايـة الخلـق والجهاد ودفع الظالـم وصلاح الخلق، فهو كنز عظيم لمن تمكن من قلبه وقام

بقلبه، ولهذا قال ﷺ: «**لا حوْل ولا قوّة إلّا بالله كنْزٌ منْ كنوز الجنّة**»[(١)].

المتوكل أقوى من غيره، ويقطع في لحظات ما يقطع غيره في أيام، هو أقوى في العبادة وأصبر على التكاليف وأسرع في الوصول، ولخواص المتوكلين باب للجنة، باب من لا حساب عليه، وهو الباب الأيمن من أبوابها.

- **التّعلّق بالخالق المسبِّب سبْحانه:**

وهو قريب من عبودية التوكل، وهو قطع نظر القلب إلى المخلوق؛ فالله تعالى أمرنا أن نأخذ بالأسباب ونهانا عن الاعتماد عليها، لأنها في النهاية جزء سبب؛ إذ لا بد من أسباب معاونة ولا بد من صرف الموانع لينتج المسبب؛ وعلى هذا فأي سبب متخذ هو في الحقيقة جزء سبب يفتقر إلى رب العالمين لإكمال الأسباب المعاونة وصرف الموانع المناوئة، لينتج السبب الذي باشرناه ما نريد من النتائج والثمار.

فالتعلق بالله تعالى فلاح، ومن تعلق بمخلوق خُذِلَ، وهو مما تضمنته

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٤٢٠٥) كتاب المغازي- باب غزْوة خيْبر، منْ حديث أبي موسى الأشْعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبْد الله بْن قيْسٍ**». قلْت: لبّيْك يا رسول الله، قال: «**ألا أدلّك على كلمةٍ منْ كنْزٍ منْ كنوز الجنّة**» قلْت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمّي، قال: «**لا حوْل ولا قوّة إلّا بالله**».

الآيـة الكريمـة: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢ ﴾ [الإسْـراء]، فمن تعلق بمخلوق والْتفت قلبه إليه لا ينجح في إدراك مطلوب، فله نصيب من الآية، وله نصيب أيضًا من قوله: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ﴾ [الحـج].. فتتنازعه الأسباب التي توزع نظره بينها.

- **الأنْس بالله سبْحانه:**

ولا بد فيه من اليقين والمحبة؛ولهذا كان بعض الصالحين يستوحش من كثرة المخالطة، ولما سئل «ابْن المبارك» عنْ وحْدته في بيْته كثيرًا: ألا تسْتوْحش؟ فقال: «كيْف أسْتوْحش وهو القائل أنا جليس منْ ذكرني؟»[1].

والمؤمن في طريقه، وما يلاقي من اختبارات ومشاق وطول رحلة وقلة رفيق وكثرة مناويء يكون هذا الأنس سلواه، ومن أنس بالله وقرّت به عينه قرّت به كل عين.

---

(١) رواه البيْهقيّ في الزّهْد الكبير (١٣٣) عنْ نعيْم بْن حمّادٍ قال: كان ابْن الْمبارك يكْثر الْجلوس في بيْت، فقيل له: ألا تسْتوْحش، فقال: «كيْف أسْتوْحش وأنا مع النّبيّ ﷺ وأصْحابه»، وكذا وأوْرده الذّهبيّ في «سير أعْلام النّبلاء» (٨/ ٣٨٢) بنحو لفْظ البيْهقيّ، وأوْرد الذهبيّ أيْضًا في السّير (٨/ ١٧٥) عنْ عبْد الله بن محمّدٍ الكرْمانيّ، قال: «دخلْت على محمّد بن النّضْر، فقلْت: كأنّك تكْره مجالسة النّاس؟ قال: أجلْ! كيْف أسْتوحش، وهو يقوْل: أنا جليس منْ ذكرني».

- **الاطْمئْنان إلى الله والإخْبات له والخشوع:**

وهو عنوان العبودية، فالإيمان ليس مجرد التصديق بل هو إمساك القلب لمعاني الإيمان واحتضانها كما تحتضن الأم وليدها، بمحبة واطمئنان، فتَقِرُ في القلب؛ فالإيمان أقرب إلى الإقرار منه إلى التصديق.

ومع الإطمئنان يأتي الخشوع والسكون، وهو الإخبات لله تعالى وللعلم الذي علّمه عباده.

- **الرّضا:**

وهو من أسرع ما يوصل العبد إلى ربه بلا جهد جوارح، وأصله أن يرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

والرضا يكون عن شرع الله وأمره، فالكاره لشرعه كافر به، ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩**﴾ [محمّد]، وأما الرضا بقدره فيكون في المصائب لا في الذنوب والمعايب؛ ومن رضي بالذنوب محتجًّا بهذا فقد خالف أمر مولاه، فمولاه أبغضها وسخطها.

فنرضى بما قدّره تعالى نظرا إلى ما قضاه، ونسخط ما سخطه هو تعالى من الكفر - وأهله- والفسوق والعصيان، ونكافحها بما أمر، مستعينين به كما أمر، ونحب الإيمان والطاعات وأهلها.. والرضا هو «باب الله الأعْظم، ومسْتراح العابدين، وجنّة الدّنيا، ومنْ لمْ يدْخلْه في الدّنيا لمْ يتذوّقْه في

الآخرة»[1].

والرضا الصادق يتحقق بعد القضاء لا قبله، ولهذا قال ﷺ: «**وأسْألك الرّضا بعْد الْقضاء**»[2]؛ إذ هو قبل القضاء عزم على الرضا، وليس الرضا نفسه، وقد ينفسخ العزم عند الحقائق ولا يتحقق الرضا، أما بعد القضاء فهو الرضا حقًّا.

ولهذا أنكر شيخ الإسلام على بعض الصالحين - مع فضله- قوله: «أرْجو أنْ أكون قدْ عرفْت طرفًا من الرّضا. لوْ أنّه أدْخلني النّار لكنْت بذلك راضيًا»!‏[3]، وقال هذا خطأ من وجهين، خطأ في ذاته كما أنه عزم قد ينفسخ..

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ورفع درجاته: «وأمّا التّألّم بالنّار فهو أمْرٌ ضروريٌّ ومنْ قال: لوْ أدْخلني النّار لكنْت راضيًا فهو عزْمٌ منْه على الرّضا. والْعزائم قدْ تنْفسخ عنْد وجود الْحقائق ومثْل هذا يقع في كلام طائفةٍ مثْل سمنون الّذي قال: وليْس لي في سواك حظٌّ فكيْفما شئْت فامْتَحِنِّي؛ فَابْتُلِيَ بعسْر الْبوْل فجعل يطوف على صبْيان الْمكاتب ويقول: ادْعوا لعمّكمْ

---

(١) مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢/ ١٧٤) بتصرف.

(٢) رواه ابْن حبّان في صحيحه (١٩٧١) كتاب الصّلاة- باب صفة الصّلاة، منْ حديث السّائب بْن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوْرده الألْبانيّ في «التّعْليقات الحسان» (٣/ ٤٠١) وقال: «صحيحٌ».

(٣) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٦٨٩).

الْكذّاب. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [آل عمْران]»[١].

• التّواضع:

والمقصود به أن يكون حقيقة لا تصنعًا، ليس بتواضع العظماء! ولا استيفاء شكلي؛ وهذا لا يتحقق إلا عندما يرى العبد نفسه وتتكشف له حقيقتها، ومن لم يدرك جهلها وظلمها وقبحها وحمقها وما تورده من الهلكة، لم يعرف فضل ربه تعالى عليه ولم يتواضع لربه ولخلقه كما أمر..

والتواضع يمنع إعجاب النفوس وبغي الأيدي والألسن..

بينما يرى العابد نفسه أوضع شيء في ذات الله، ويرى خيرية المسلمين، ويصفهم بما فيهم من صفات حسنة؛ فيعظمها ولو بصفة الإسلام وحدها، ولا يحتقر مسلمًا أبدًا..

فالنفس مكمن كل شر، فيستعاذ من شرها؛ فكان ﷺ يستعيذ من شر نفسه: «**اللّهمّ إنّي أعوذ بك منْ شرّ نفْسي، ومنْ شرّ كلّ دابّةٍ أنْت آخذٌ بناصيتها**»[٢]، وعلّم هذا الدعاء لخير الأمة بعده للصدّيق الأعظم «أبي بكر»

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٢٤١).

(٢) رواه ابْن السّنّيّ في «عمل اليوْم واللّيْلة» (٥٧) باب ما يقول إذا أصْبح، منْ حديث أبي الدّرْداء رضي الله عنه، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة» (٦٤٢٠) وقال: «ضعيفٌ جدًّا».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أعوذ بك منْ شرّ نفْسي، ومنْ شرّ الشّيْطان وشرْكه»(١)، وعلّم «عمران بن حصين» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دعاء عندما أسلم: «اللّهمّ ألْهمْني رشْدي، وأعذْني منْ شرّ نفْسي»(٢).. فالخير لا يكون إلا من الله، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النّساء]، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النّساء:٧٩]، ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ:٥٠].

يقول «ابن القيم»: «منْ له بصيرةٌ بنفْسه، وبصيرةٌ بحقوق الله، وهو صادقٌ في طلبه لمْ يبْق له نظره في سيّئاته حسنةً الْبتّة، فلا يلْقى الله إلّا بالْإفْلاس الْمحْض، والْفقْر الصّرْف، لأنّه إذا فتّش عنْ عيوب نفْسه وعيوب عمله علم أنّها لا تصْلح لله، وأنّ تلْك الْبضاعة لا تشْترى بها النّجاة منْ عذاب الله، فضْلًا عن الْفوْز بعظيم ثواب الله، فإنْ خلص له عملٌ وحالٌ مع الله، وصفا له معه

---

(١) رواه أحْمدٌ في مسْنده (٦٣)، وقال شعيْب الأرْنؤوط (١/ ٢٢٧): «إسْناده صحيحٌ»، والتّرْمذيّ في جامعه (٣٣٩٢) أبْواب الدّعوات- باب ما جاء في الدّعاء إذا أصْبح وإذا أمْسى، كلاهما منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٤٤٠٢) وقال: «صحيحٌ».

(٢) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٣٤٨٣) أبْواب الدّعوات، وقال: «هذا حديثٌ غريبٌ وقدْ روي هذا الحديث عنْ عمْران بْن حصيْنٍ منْ غيْر هذا الوجْه»، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٤٠٩٨) وقال: «ضعيفٌ». ورواه أحْمدٌ في مسْنده (١٩٩٩٢) بلفْظ: «اللهمّ قني شرّ نفْسي، واعْزمْ لي على أرْشد أمْري»، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٣٣/ ١٩٩): «إسْناده صحيحٌ على شرْط الشّيْخيْن».

وقْتٌ شاهد منّة الله عليْه به، ومجرّد فضْله، وأنّه ليْس منْ نفْسه، ولا هي أهْلٌ لذلك، فهو دائمًا مشاهدٌ لمنّة الله عليْه، ولعيوب نفْسه وعمله، لأنّه متى تطلّبها رآها.

وهذا منْ أجَلِّ أنْواع الْمعارف وأنْفعها للْعبْد، ولذلك كان سيّد الاسْتغْفار: «**اللّهمّ أنْت ربّي لا إله إلّا أنْت، خلقْتني، وأنا عبْدك، وأنا على عهْدك ووعْدك ما اسْتطعْت، أعوذ بك منْ شرّ ما صنعْت، أبوء لك بنعْمتك عليّ، وأبوء بذنْبي، فاغْفرْ لي، إنّه لا يغْفر الذّنوب إلّا أنْت**».

فتضمّن هذا الاسْتغْفار الاعْتراف من الْعبْد بربوبيّة الله، وإلهيّته وتوْحيده، والاعْتراف بأنّه خالقه، الْعالم به، إذْ أنْشأه نشْأةً تسْتلْزم عجْزه عنْ أداء حقّه وتقْصيره فيه»[1].

والتواضع في القلب، وما في القلب من عملٍ وحالٍ يستلزم أعمالًا وأحوالًا ظاهرة، ولهذا تجد أثر الكبر ظاهرًا كما ترى أثر التواضع كذلك.

وكان ﷺ الإمام في هذه العبودية، كما هو الإمام في كل عبودية ﷺ؛ فلما أخبرنا بما أمره الله أن يخبرنا به أنه سيد ولد «آدم» قال مبلّغًا لا مفتخرًا: «**وأنا سيّد ولد آدم يوْم الْقيامة، ولا فخْر**»[2]، ثم ساق حديث شفاعة بدء الحساب

---

(١) مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١/ ٢٢١).

(٢) رواه أحْمدُ في مسْنده (٢٥٤٦) منْ حديث ابْن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال شعيْب الأرْنؤوط (٤/ ٣٣٢): =

يوم القيامة وهو المقام الذي يغبطه فيه الأولون والآخرون؛ بأبي هو وأمي ﷺ.

وتبعه الصالحون؛ فقال «عرْوة بْن الزّبيْر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأيْت عمر بْن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عاتقه قرْبة ماءٍ، فقلْت: يا أمير المؤْمنين! لاينْبغي لك هذا!! فقال: لمّا أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلتْ نفْسي نخْوةٌ، فأردْت أنْ أكْسرها»(١).

وقال «مالك بْن دينارٍ»: «لوْ اجْتمع النّاس على أنْ يضعوني كاتّضاعي عنْد نفْسي ما قدروا على ذلك»(٢)، وقال له رجلٌ: «يا مرائي! فقال له مالكٌ: كيْف عرفْتني؟ ما عرفني غيْرك»!(٣).

=

«حسنٌ لغيْره»، وكذا التّرْمذيّ في جامعه (٣١٤٨) أبْواب تفْسير القرْآن- باب ومنْ سورة بني إسْرائيل، منْ حديث أبي سعيدٍ الخدْريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ».

(١) روى القصّة القشيْريّ في رسالته (ص٢٦٨-٢٦٩) باب الخشوع والتواضع، واللّفْظ له، وكذا ابْن عساكر في تاريخ دمشْق (٤٤/ ٣١٨) عنْ عبيْد الله بْن عمر أنّ عمر بْن الخطّاب حمل قرْبةً على عنقه، فقال له أصْحابه: «يا أمير المؤْمنين، ما حملك على هذا؟ قال: إنّ نفْسي أعْجبتْني فأردْت أنْ أذلها». وبنحْوه أوْرده الذّهبيّ في «سير أعْلام النّبلاء» (راشدون/ ص٨٣).

(٢) أوْرد أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأوْلياء» (٩/ ٢٧٤) مثْله عنْ أبي سليْمان الدّارانيّ، قال: «لو اجْتمع النّاس كلّهمْ على أنْ يضعوني كاتّضاعي عنْد نفْسي ما أحْسنوا»، وروى مثْله ابْن الجوْزيّ في «صفة الصّفْوة» (ص٨١٩) عنْ أبي سليْمان أيْضًا بلفظ: «ما قدروا على ذلك»، والأثر مشْهورٌ عنْه دون مالك بْن دينارٍ.

(٣) أوْرده ابْن الجوْزيّ في صفة الصّفْوة (ص٦٥١) عنْ بشْر بْن الحارث قال: «قال رجلٌ لمالك بْن

=

رأى «محمد بن واسع» - أحد العبّاد- ابنًا له يمشي مشية منكرة، فقال له موبّخًا: «أتدْري بكمْ اشْتريْت أمك؟ بثلاثمائة درْهمٍ، وأبوك - لا كثر الله في المسْلمين منْ أمْثاله- أنا، وأنْت تمْشي هذه المشْية؟!»(١).

وبلغ «عمر بْن عبْدالعزيز» أنّ ابْنًا له اشْترى خاتمًا بألْف درْهمٍ، فكتب إليْه: «بلغني أنّك اشْتريْت خاتمًا وفصه بألْف درْهمٍ، فإذا أتاك كتابي هذا فبعْ الخاتم، وأشْبعْ به ألْف بطْنٍ، واتّخذْ خاتمًا بدرْهميْن، واجْعلْ فصه حديدًا صينيًّا، واكْتبْ عليْه: رحم الله امْرءًا عرف قدْره»(٢).

- **الاسْتجابة لأمْر الله تعالى.. بلْ وسرْعة هذه الاسْتجابة:**

فهذه عبودية مأمور بها ومنظور إليها؛ فلا يُنْظَرْ إلى القيام بالعمل فقط، بل ولسرعة الاستجابة له، ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنْفال:٢٤].

=

دينارٍ: يا مرائي، قال: متى عَرَفْتَ اسْمي؟ ما عَرَفَ اسْمي غيْرُك»، وكذا أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٨/ ٣٣٩).

(١) أوْرده الغزاليّ في «إحْياء علوم الدّين» (٣/ ٣٤٠) بلفْظ: «ورأى محمّد بْن واسعٍ ولده يخْتال، فدعاه، وقال: أتدْري منْ أنْت؟ أمّا أمّك فأشْتريها بمائتيْ درْهمٍ، وأما أبوك فلا أكْثر الله في المسْلمين مثْله».

(٢) حكاه القشيْريّ في رسالته (ص٢٧٠) باب الخشوع والتواضع.

وقد استبطأ ربنا سبحانه خشوع المؤمنين بعد أربع سنوات من إسلام الأولين، كما قال «عبد الله بن مسعود» رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «لمْ يكنْ بيْن إسْلامنا وبيْن قوْله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦]، إلّا أرْبع سنواتٍ»(١).

ومن استجاب وأسرع الأوبة نجعت فيه الموعظة فلم يُبْقِ على خللٍ عَلِمَهُ إلا وأصلحه، أو أمر كان يَجْهَلُهُ إلّا ولَبَّاهُ، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرْقان].

ومن خالف هذه العبودية ولم يستجب لما ذكّر به أبقى عيوبًا تصير كالعقارب والحيات يربيها الإنسان تحت ثوبه، وقد ترْدي به لأنها سبب لقسوة القلوب واكتساب السيئات على وجه الإصرار عليها فيقلّ معها الحياء من رب العالمين، وهذا من أقبح ما يواجه به العبد ربه.

وهذه العبودية ضرب الصحابة فيها مثلًا عاليًا، ككسرهم دنان الخمر في الطرقات لمّا نزل تحريمها ومسارعة نساء الأنصار للاعتجار بمروطهن

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٢٤ (٣٠٢٧) كتاب التّفْسير- باب قوْله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد].

محتجبات لما نزلت آية الحجاب، وتركهم الأموال الزائدة عن رؤوس الأموال لما نزل تحريم الربا وتركهم دماء الجاهية، وهكذا...

وهي لا تتم إلا بشدة الحب والخوف واليقين والتعظيم، فيصبح العبد كالجندي في الميدان.

- **الخوْف:**

الله عز وجل يخاف لذاته وقدره وعظم حقه، وحقائق الآخرة من أعظم أسباب الخوف؛ من القبر وهول المطلع، وطول الموقف، واستلام الصحف، ونصْب الموازين، وعبور الصراط، والوقوف بين يدي رب العالمين، والنار دار عذاب الله..

وسبب الخوف هو عدم الثقة في العمل الموجب للنجاة أنه قد استوفى حقه.

فحق الله تعالى عظيم، ومقابلتنا لحقه لا تمكن، ولو سجد ساجد أو ركع راكع طول عمره لا يكفي حقه تعالى على وجه المقابلة.

وغفلتنا ومخالفتنا كثيرة، وما نطيع فيه تعتريه الآفات والأخلاط، ويخاف العبد من الرياء المرافق، أو العجب المخالط، أو منّة أو أذى أو غيره مما يحبط العمل بعد تمامه، بل ويخاف المؤمن الردة وتقلب القلوب ولهذا دعا الراسخون في العلم: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾ [آل عمران:٨].

كذلك لا يدري أحد كيف نظر ربنا تعالى إلى عملنا إذ إن الله ينظر إلى حقيقة الأعمال والقلوب وليس للظاهر المجرد، فلا ندري كيف وقع العمل عند الله، ثم يخشى العبد ألا يدوم العمل، ثم يخشى من السيئات التي تحبط الحسنات، ثم يخشى من عدم الموت على العمل الصالح.. قال «علي» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يرْجُوَنَّ عبْدٌ إلا ربَّه، ولا يَخَافَنَّ إلّا ذنْبَه»[1]. فإن أصابنا شرٌ فهو مسبب عن تفريطنا وتقصيرنا، وإن كان بقدر الله؛ فهو حينئذ عدل منه تعالى.

- **الرّجاء:**

الله عز وجل يرجى لذاته، فلا ينجي منه إلا هو، والله تعالى واسع الرحمة، ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر:٧]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النّساء]، ففي التفسير قال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه إن بَقِيَتْ حسنة واحدة بعد المقاصة بين الحسنات والسيئات ضاعفها الله وأدخل صاحبها بها الجنة.

كما رجّى تعالى عباده منه، قلْ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزّمر:٥٣].

---

(١) أوْرده أبو الحسن الماوَرْديّ في «أدب الدّنْيا والدّين» (ص٨٦)، وابْن الجوْزيّ في «صفة الصّفْوة» (ص١٢١).

كذلك في الحديث، عنْ أبي كبْشة السّلوليّ، سمعْت عبْد الله بْن عمْرٍو رضي الله عنهما، يقول: قال رسول الله ﷺ: **«أرْبعون خصْلةً أعْلاهنّ منيحة العنْز، ما منْ عاملٍ يعْمل بخصْلةٍ منْها رجاء ثوابها، وتصْديق موْعودها، إلّا أدْخله الله بها الجنّة»**، قال حسّان: فعددْنا ما دون منيحة العنْز، منْ ردّ السّلام، وتشْميت العاطس، وإماطة الأذى عن الطّريق، ونحْوه فما اسْتطعْنا أنْ نبْلغ خمْس عشْرة خصْلةً[1].

بل جاء أن «إبليس» يشرئب بعنقه يوم القيامة لما يرى من رحمة الله تعالى للمؤمنين رجاء أن تناله![2]..

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٢٦٣١) كتاب الهبة وفضْلها والتّحْريض عليْها- باب فضْل المنيحة.

(٢) روى الطّبرانيّ في المعْجم الأوْسط (٥٢٢٧)، والمعْجم الكبير (٣٠٢٢) عنْ حذيْفة رضي الله عنه قال: سمعْت رسول الله ﷺ يقول: **«والّذي نفْسي بيده ليدْخلنّ الله الْجنّة الْفاجر في دينه، الأحْمق في معيشته، والّذي نفْسي بيده ليدْخلنّ الله الْجنّة مؤْمنًا قدْ محشتْه النّار، والّذي نفْسي بيده ليغْفرنّ الله يوْم الْقيامة مغْفرةً لا تخْطر على قلْب بشرٍ، والّذي نفْسي بيده ليغْفر الله يوْم الْقيامة مغْفرةً يتطاول لها إبْليس رجاء أنْ تصيبه»**، قال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد»: «رواه الطّبرانيّ في الْكبير والْأوْسط، وفي إسْناد الْكبير سعْد بْن طالبٍ: أبو غيْلان، وثّقه أبو زرْعة، وابْن حبّان، وفيه ضعْفٌ، وبقيّة رجال الْكبير ثقاتٌ». وله في المعْجم الأوْسط (٥٠٨٢) عنْ جابر بْن عبْد الله رضي الله عنهما أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«أنا سيّد ولد آدم ولا فخر، وأوّل منْ تنْشقّ عنْه الأرْض ولا فخر، وأوّل منْ ينْفض التّراب عنْ رأْسه ولا فخر، وأوّل داخلٍ الْجنّة ولا فخر، ما بال أقْوامٍ يزْعمون أنّ رحمي لا تنْفع، ليْس كما زعموا، إنّي لأشْفع، وأشفّع حتّى إنّ منْ أشْفع له ليشْفع فيشفّع، حتّى إنّ إبْليس ليتطاول في الشّفاعة»**، قال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد» (١٠/ ٣٧٦): «رواه الطّبرانيّ في الْأوْسط، ورجاله وثّقوا

=

والله تعالى ترجى منه الدنيا والآخرة، فهو المقصود لكل نازلة، وهو المصمود إليه عند كل حادثة؛ فالله تعالى هو الصّمد، والله تعالى ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الـرّحْمن:٢٩]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [الأنْبياء:٩٠].

- **الصّبْر:**

يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية»: «فالصّبْر والْيقين بهما تنال الْإمامة في الدّين»[1]، وعبر به في القرآن عن عمل القلب كله لأنه جعل قسيما لليقين وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السّجْدة:٢٤].

في الصبر لا بد من اليقين واستجماع القوة وثبات النفس وحبسها عن الشكوى وكفها عن الجزع، وهو الصبر الجميل؛ صبر لا شكوى فيه.

=

على ضعْفٍ كثيرٍ في عبيْد بْن إسْحاق الْعطّار، والْقاسم بْن محمّد بْن عبْد الله بْن محمّد بْن عقيلٍ»، وله في المعْجم الكبير (١٠٥١٣) عنْ عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه قال: «لا تزال الشّفاعة بالنّاس وهمْ يخْرجون من النّار، حتّى إنّ إبْليس الْأبالس ليتطاول لها رجاء أنْ تصيبه»، قال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد» (١٠/ ٣٨٠): «رواه الطّبرانيّ موْقوفًا، وفيه كثير بْن يحْيى صاحب الْبصْريّ، وهو ضعيفٌ».

(١) مجْموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

والصبر لله يعني الصبر ابتغاء وجهه تعالى، وليس ليقول الناس «قد صبر»، والصبر بالله أي الاستعانة في الصبر فلا قوة إلا بالله، ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [الأعْراف:١٢٦]، والصبر مع الله وهو الدوران مع الأمر؛ فحيث كان أمر الله دار معه، سواء كان على طاعة صبر أو عن معصية صبر أو على بلاء صبر.. وإنما يوفى الصابرون يوم القيامة أجرهم بغير حساب.

والصبر قوة كبيرة يحتاجها العبد، فالصابر يكتسب قوة، ولا صبر إلا بالله، فهو المُعِدُّ وهو المُمِدُّ وهو المعين.. ولذا أوصى ربنا تعالى بإرفاق الصبر بالمرحمة حتى لا يقسو العبد.

- **الاعْتصام بالله:**

وهو الثقة واليقين والتوكل، وهو مانع من النفاق ومن التضعضع والانهزام أمام العدو، وقد افتقده المنافقون، ولذا شرطه الله لهم في توبتهم علاجًا لهم، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النّساء:١٤٦]، وأمر الله المؤمنين في مواجهة عدوهم بالاعتصام به ليقْووا، وإذا أيّدهم فلا غالب لهم، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾... ثم قال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحجّ:٧٨].

والاعتصام بالله يقوّي العبد ويقيه الضعف، والاعتصام بكتابه يهدي العبد

ويقيه الضلالة؛ ولا بد منهما للنجاه؛ هداية ونصرة؛ وبهما سعادة العبد ووصوله.. والله الهادي.

• أنْ تضع نفْسك حيْث وضعك الله:

وهو أن تضع نفسك في المحل الذي أمرك الله أن تكونه، ولا تنشغل عما أمرك به إلى ما لم يأمرْك فتنقطع عن وظيفة الوقت، فلا تنشغل إلا باستيفاء العبودية المأمور بها الآن في هذا المحل وهذه الظروف التي تمر بها..

ولا بد أن تعلم أن الظروف المختلفة التي تمر بك ليست عشوائية، بل اعلم هذه الحقيقة الكبيرة: ﴿**قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ③﴾ [الطّلاق]، وكذلك حديث رسول الله ﷺ: «**تعْرض الْفتن على الْقلوب كالْحصير عودًا عودًا**»[1]. ومعنى هذا أن إمرار الفتن وتنويع الظروف وخلق الظروف المختلفة والحوائج المتعددة هذا أمر مقصود لرب العالمين، ولم يتم أمر من هذا إلا بإذنه ولا تمر ظروف أو أحداث إلا بعلمه، وهو تعالى يقصد أن يراك حيث أمر تعالى؛ فأر ربك من نفسك الخير وحقق العبودية التي أمرك بها ولا تقل لو تحسنت الظروف أو تغيرت أطعت الله، فهذا ليس لك؛ أنت عبدٌ ولست ربًّا، وأنت لا تحدد ما تقدمه ولا ظروف تعبدك؛ بل تمتثل ما أمر الله

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٢٣١ (١٤٤) كتاب الإيمان- باب بيان أنّ الإسْلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنّه يأْرز بيْن الْمسْجديْن، منْ حديث حذيْفة بْن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فهو الذي ﴿ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النّحل].. ومن ينتظر ظروفًا أخرى فسيضيع عمره منتظرًا ما لم يطلب منه.

كذلك أن تضع نفسك حيث يأمرك الله فتتقدم حين تكون العبودية هي أن تتقدم، وتتأخر حين تكون العبودية أن تتأخر، ولا تطلب أمرًا ليس لك.

واستعن في هذه العبودية بهذه الآية عن قول الملائكة ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الصّافّات]، فوقفت الملائكة حيث أمرها ربها لم تتقدم عمّا أمر ولم تتأخر؛ فلكلٍّ منهم محل وعبودية ووظيفة، ولها موقع في صفها وعبودية من التسبيح وعمل مأمورة به؛ لم تقصر عنها ولم تتقدم عليها..

واستعن في هذا بثناء ربك على نبيك ﷺ حيث مدحه بما قام به يوم المعراج فقال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النّجم]، يعني قد أمر رسول الله ﷺ أن ينظر، فنظر حيث أمر ولم يتعد ببصره ما أمر الله وأذن له فيه إلى ما لم يأمره به؛ فكان مدح ربك له.

ومثل هذا أدبه وحفظه لدعوة أخيه «سليمان» عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أمسك بشيطانٍ تفلّت عليه صلاته حتى وجد برد لعابه على يده وأوثقه أو أراد أن يوثقه، فتذكر دعوة «سليمان» عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص:٣٥]، ففك وثاقه وأطلقه، وقال ﷺ: «**ولوْلا دعْوة أخي سليْمان، لأصْبح**

مرْبوطًا بساريةٍ منْ سواري الْمسْجد، يتلاعب به صبْيان الْمدينة»[١].

وانتبه أيها السالك العابد؛ فهذا أمر مريح كثيرًا، ومربح كثيرًا، وتحتاجه التوجهات الإسلامية بل وعامة شعوبنا أن يتقن كل منا في موقعه، ولا يؤجل الإتقان لحلم أن يكون في موقع آخر!..

- **الإخْلاص:**

وهو العزيز بين الناس، مصلح القلوب وسبب بركة الأعمال، وهو الواصل بين العبد وربه، وهو شرط القبول، ومعه ينفع العمل القليل وبدونه يحبط العمل العظيم.

إن المجاهد المرائي المكاثر يبعث يوم القيامة مرائيًا مكاثرًا، والمخلص الصابر يبعث كذلك..

فمن حققه قال فيه ﷺ: «**أخْلصْ دينك يكْفك الْعمل الْقليل**»[٢]، قليل من العمل المخلص أدخل صاحبه الجنة، فقد سقى رجل كلبًا، لم يره أحد إلا

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (١١٧٨٠) منْ حديث أبي سعيد الخدْريّ رضي الله عنه، وقال شعيْب الأرْنؤوط (١٨/ ٣٠٣): «إسْناده حسنٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٣٢٥١) وقال: «وإسْناده جيّدٌ، رجاله ثقاتٌ رجال مسْلمٍ؛ غيْر مسرة بْن معْبدٍ، وهو صدوقٌ له أوْهامٌ».

(٢) رواه الحاكم في المسْتدْرك على الصّحيحيْن (٧٨٤٤) كتاب الرّقاق، منْ حديث معاذ بْن جبلٍ رضي الله عنه، وقال: «هذا حديثٌ صحيح الإْسْناد ولمْ يخرّجاه»، وقال الذّهبيّ في التّلْخيص: «غيْر صحيحٍ»، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٢٤٠) وقال: «ضعيفٌ».

ربه، فلم يراءِ أحدًا فملأ خُفَّهُ وسقى كلبًا شفقة للخلق وإحسانًا لبهيمة لا تعقل، ابتغاء مرضات ربه؛ فشكر الله له فغفر له وأدخله الجنة(١).

بل لمّا سقت بَغِيٌّ كلبًا، إحسانًا وابتغاء لمرضاة ربها، مع عدم وجود من ترائيه؛ بل أخلصت لربها ذلك العمل القليل، غفر لها بذلك(٢)؛ إذ إن ما قام بقلبها من الإخلاص أحرق ما كان من الذنوب.

بينما من جاهد وقاتل، بل وقتل، مرائيًا يفتقد الإخلاص، أو تعلّم وعلّم الناس طيلة عمره، لكن مرائيًا يفتقد الإخلاص، أو تصدق بالمال وأغدق على الخلق لكن أيضا مرائيًا يفتقد هذه العبودية.. فهؤلاء الثلاثة أول من تسعّر بهم النار يوم القيامة كما جاء في الحديث!(٣).

---

(١) روى البخاريّ في صحيحه (١٧٣) كتاب الوضوء- باب الماء الّذي يغْسل به شعر الإنْسان، عنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ ﷺ: «**أنّ رجلًا رأى كلْبًا يأْكل الثّرى من العطش، فأخذ الرّجل خفّه، فجعل يغْرف له به حتّى أرْواه، فشكر الله له، فأدْخله الجنّة**».

(٢) روى البخاريّ في صحيحه (٣٤٦٧) كتاب أحاديث الأنْبياء، عنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النّبيّ ﷺ: «**بيْنما كلْبٌ يطيف بركيّةٍ، كاد يقْتله العطش، إذْ رأتْه بغيٌّ منْ بغايا بني إسْرائيل، فنزعتْ موقها فسقتْه فغفر لها به**».

(٣) روى التّرْمذيّ في جامعه (٢٣٨٢) منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: حدّثني رسول الله ﷺ: «**أنّ الله تبارك وتعالى إذا كان يوْم القيامة ينْزل إلى العباد ليقْضي بيْنهمْ وكلّ أمّةٍ جاثيةٌ، فأوّل منْ يدْعو به رجلٌ جمع القرْآن، ورجلٌ قتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للْقارئ: ألمْ أعلّمْك ما أنْزلْت على رسولي؟ قال: بلى يا ربّ. قال: فماذا عملْت فيما علّمْت؟ قال: كنْت أقوم به آناء اللّيْل**
=

المخلص بلا ضجيج ولا جلجلة، المخلص موضوعي جاد، المخلص لا يغضب أو ينافس على أن يذكر أو يقدّم، المخلص محل طموحه وأجره تحقيق العمل الصواب في الدنيا ورعاية المصالح التي أمر الله بإقامتها ومحل أجره الآخرة، المخلص يستوي عنده المادح والذامّ، ويستوي عنده السّروالعلانية وحضور الناس وغيبتهم.. المخلص يكسبه العمل القليل – بإخلاصه– نورًا وبركة وأثرًا حسنًا.

المخلص يبقى لعمله أثرٌ، ويبارك الله له في الكلمة والصدقة والعمل والنصح، المخلص يخرج القول من قلبه فيصل لقلوب الآخرين، ويكتسب العمل توفيق الرب وإعانته.. أما غير المخلصين فقد قال بعض العبّاد: «قلْ لغيْر المخْلصين أريحوا أنْفسكمْ».

=

وآناء النّهار، فيقول الله له: كذبْت، وتقول له الملائكة: كذبْت، ويقول الله: بلْ أردْت أنْ يقال: إنّ فلانًا قارئٌ فقدْ قيل ذاك، ويؤْتى بصاحب المال فيقول الله له: ألمْ أوسّعْ عليْك حتّى لمْ أدعْك تحْتاج إلى أحدٍ؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عملْت فيما آتيْتك؟ قال: كنْت أصل الرّحم وأتصدّق، فيقول الله له: كذبْت، وتقول له الملائكة: كذبْت، ويقول الله تعالى: بلْ أردْت أنْ يقال: فلانٌ جوادٌ فقدْ قيل ذاك، ويؤْتى بالّذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: في ماذا قتلْت؟ فيقول: أمرْت بالجهاد في سبيلك فقاتلْت حتّى قتلْت، فيقول الله تعالى له: كذبْت، وتقول له الملائكة: كذبْت، ويقول الله: بلْ أردْت أنْ يقال: فلانٌ جريءٌ، فقدْ قيل ذاك، ثمّ ضرب رسول الله ﷺ على ركْبتي فقال: «يا أبا هريْرة، أولئك الثّلاثة أوّل خلْق الله تسعّر بهم النّار يوْم القيامة».

المخلص باحث ومشغول بنظر الرب له عن نظر غيره، وسمعه إياه عن سمع غيره، وعلمه به وبحاله عن علم من سواه، إرضاء ربه شغله، وسخط ربه هو مبحث هربه.. المخلص عزيز، فكن أنت تسعد أخاه، وتسترح كثيرًا حيث جعلت المقصود واحدًا، سلما له.

- **الصدْق:**

إن كان الإخلاص هو تفريد المطلوب فالصدق هو تفريد الطلب، كما قال «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فالصادق يبحث عن إرضاء رب واحد، والصادق يجمع نفسه كلها لا يبقي منها شيئا يتبطل، بل أعمل كينونته كلها لما طلب وقصد.

ومن صدق مع الله صدق الله معه، قال ﷺ لبعض أصحابه: «**إنْ تصْدق الله يصْدقْك**»، فصدق مع الله في طلب الشهادة بحربة في عنقه، فصدقه الله ورزقه الشهادة على الوجه الذي أراد فشهد له رسول الله ﷺ: «**صدق الله فصدقه**»(١).

الصدق لعزم القلوب، ﴿**فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١**﴾ [محمّد]، كما الصدق في الإخبار..

---

(١) رواه النّسائي في السّنن الصّغْرى (١٩٥٣) كتاب الجنائز- الصّلاة على الشّهداء، منْ حديث شدّاد بْن الهاد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٤١٥) وقال: «صحيحٌ».

والصدق في المواقف والأعمال، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب:٢٣]، فهذا صدق في موقف، فشهد الله لهم بهذا.

وللمؤمنين عهود كثيرة مع ربهم، ويجب الصدق في كل موطن حتى يوفي ما أمر به، وهذا لا يكتمل إلا بالموت وهو مقيم على الوفاء.. وهذا هو معنى قضاء النحب ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٣]، بمعنى قضى ما عليه من الواجب والعهد في كل موطن حتى مات على ذلك.. كما يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الصدق أن تجمع همك وقصدك وعمرك وطاقتك على ما أردت من رضوان ذي الجلال والإكرام.

وصِدْقُ الخَبَرِ يكون معه صِدْق الإرادة والعمل؛ فهو يهدي إلى البر، ويؤول بصدقه إلى أعلى المراتب بعد الأنبياء، «**حتّى يُكْتَبَ عنْد الله صِدِّيقًا**»(١).

فالصدق في الأخبار هو إصلاح للقوة العلمية الخبرية، وصلاح القوة

---

(١) رواه بهذا اللفْظ مسْلمٌ في صحيحه ١٠٤ (٢٦٠٧) كتاب البرّ والصّلة والآداب- باب قبْح الْكذب وحسْن الصّدْق وفضْله، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

العلمية الخبرية يؤدي إلى صلاح القوة الإرادية القصدية الطلبية، ولهذا أخبر أن الصدق يهدي إلى البر وهو صلاح الأعمال، في مقابل أن الخلل في القوة العلمية يؤدي إلى خلل آخر في العمل، فقال: «**وإنّ الكذب يهْدي إلى الفجور**»[1].

والصدق والإخلاص مريحان، يجمعان النفس على ربها، وعلى طريقه؛ فلا تشعب ولا تشتت ولا تبطل ولا عطلة ولا تواني.. فأخلص لربك واصْدق معه، واستعن به يعنك.. والله الموفق.

والصدق أجمع الأعمال، وهو يستلزم الخير كله، وكثيرا ما كان المربون من العلماء والشيوخ يوصون المتعلمين والسّالكين بالصدق والتزامه فهو يعين على بقية الأخلاق والأعمال، أعمال القلوب خاصة..

فالصدق يجعل الإنسان واضحًا قويًّا وله نوره وهيبته، قال بعض الأئمة أن ثلاثًا لا تخْطىء الصّادق: «الْحلاوة، والْملاحة، والْهيْبة»[2].. وقال تعالى عن يوم لقائه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]، صدق الله العظيم؛

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٠٩٤) كتاب الأدب- باب قوْل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التّوْبة]، وما ينْهى عن الكذب، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه.

(٢) مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢/ ٢٧٧).

فاللهم أنعم علينا بإرادة وجهك وحدك والصدق معك حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

الرّذائل لا تليـق بك

«التّخلّي عنْ الرّذائل»

- **الرّذائل لا تليق بك.. فانْفضْها عنْ نفْسك:**

من قام بأعمال القلوب أوجبت له صلاحًا لحاله، وتعمقت العبودية بقلبه، فكان حريًّا أن لا يشينه عيب يقبح به أو يغبّر على ما بلغ من الخير..

والتخلص من الرذائل من علامات جدية الطريق ونجع الموعظة وصدق التلقي عن الله تعالى..

إن العابد السالك، المهاجر إلى الجنة يتحسس ما به من أخلاق كما يتحسس الثوب، فهل في نفسه ما يشين هذا التعبد فيفسد ما يريد أن يلقى الله به؟، إذ إن للإنسان صورتين، صورة ظاهرة يراها الناس، وصورة باطنة وهي الأخلاق التي تتخلق بها.

ومع هذا فليس المطلوب هو التنقيب عما في النفس من عيب، بل المقصود المراجعة التي تنفض العيوب المشينة للنفس، والتذكر المُوجِب لنظافة ثوبه، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثّر]، وفسرت الثياب هنا بالنفس، كما

يقول «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

والمأخذ هنا ما قاله شيخ الإسلام أن يمضي في الطريق ولا يتكلف التفتيش عن العيوب بل كلما وجد عيبًا تركه وتخلص منه، لله تعالى..

يقول «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسألْت يوْمًا شيْخَ الْإسْلام ابْن تيْمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنْ هذه الْمسْألة، وقطْع الْآفات، والاشْتغال بتنْقية الطَّريق وتنْظيفها؟.

فقال لي جمْلة كلامه: النّفْس مثْل الْباطوس - وهو جُبُّ الْقَذَرِ- كلّما نبشْته ظهر وخرج. ولكنْ إنْ أمْكنك أنْ تَسْقُفَ عليْه، وتعْبره وتجوزه، فافْعلْ، ولا تشْتغلْ بِنَبْشِهِ. فإنّك لنْ تصل إلى قراره، وكلّما نبشْتَ شيْئًا ظهر غيْره.

فقلْت: سألْت عنْ هذه الْمسْألة بعْضَ الشّيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النّفْس مثال الْحيّات والْعقارب الّتي في طريق الْمسافر. فإنْ أقْبل على تفْتيش الطّريق عنْها، والاشْتغال بقتْلها: انْقطع. ولمْ يمْكنْه السّفر قطّ. ولكنْ لتكنْ همّتك الْمسير، والْإعْراض عنْها، وعدم الالْتفات إليْها. فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن الْمسير فاقْتلْه. ثمّ امْض على سيْرك.

فاسْتحْسن شيْخ الْإسْلام ذلك جدًّا، وأثْنى على قائله»(١).

---

(١) قال ابْن القيّم في «إغاثة اللّهْفان منْ مصايد الشّيْطان (١/ ٨٦)»: «وجمْهور المفسِّرين منْ السّلف ومنْ بعْدهمْ على أن المراد بالثِّياب هاهنا القلْب، والمراد بالطَّهارة إصْلاح الأعْمال والأخْلاق».

فلا بد من الاعتدال في الأمر، فلا يقعد العبد يبحث عن العيوب ويستخرجها متكلفا، كما لا يتعامى عن العيوب والآفات المانعة من التزكية والموجبة للهلاك ويهرب منها أو يتكبر على النصيحة؛ إنما هو التوسط والاعتدال.

ونحن هنا نذكر جملة من الرذائل، أردنا بها التنبيه على قبحها، وأن نلفت النظر إلى بعضها مما لا يلتفت إليه الكثير أنه رذيلة وقبيح.. والمقصود من هذا أن من وجد من هذا شيئا الْتفت إليه فأصلحه، لو كان صادقًا، فلعل وجود شيء من هذه الآفات يمنع عنه خيرًا كثيرًا، ولعله يؤذيه يوم لقاء ربه تعالى؛ فنقول وبالله التوفيق.

=

(١) مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢/ ٣١٣-٣١٤).

▪ رذائلٌ تصان عنْها النّفوس الشّريفة:

• رذيلة الشّرْك بالله تعالى:

وهو أعظم الرذائل، إذ إنه أعظم الظلم، لأنه صرْف حق الله الخالص إلى غيره، وإعطاء من لم يخلق ولم يرزق حق من خلق ورزق.. وهو مسبة لله تعالى؛ إذ إنه يستلزم اتهام الله تعالى في علمه فذهب - بزعمه- إلى غيره يوصل إليه حاجته، أو يطعن في رحمته إذ إنه ذهب - بزعمه- إلى غيره يعبده ليتوسط له عند ربه فيرحمه به، أو يطعن في كمال قدرته إذ إنه ذهب - بزعمه- إلى غيره تعالى يصرف إليه حق الله ليشفع عند الله بغير إذنه أو لمن لا يرضى.. أو يطعن في حكمته أو علمه أو رحمته أو عدله في تشريعه فابتغى الحكم عند غيره وأعطى لرذالة الخلْق أن يشرعوا له في الدماء والأموال والأعراض..

ولهذا قال تعالى للمشركين جميعًا: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصّافّات]، يعني فما هو ظنكم السيىء بعلمه أو رحمته أو حكمته أو قدرته أو كمال ربوبيته تعالى فدفعكم هذا الظن السيىء والمكفّر إلى أن تدعو من سواه وتتوجهوا إليه أو تتلقوا شرعًا من غيره وقانونًا من سواه؟!.

فالشرك مَسَبَّة لله، وهو أيضا مَسَبَّة للمدعو الصالح - لمن يدعو قبور الصالحين- لأنه يزعم أنه أمر به أو رضيه ممن فعله..وعابد الصالحين

المشرك بهم يكذب في هذا؛ إذ لو أن المدعو أمر بهذا أو رضي به فهو ليس بصالح بل ليس بمسلم، ولو كان مسلمًا صالحًا فهو ينكر هذا أشد الإنكار ويبرأ منه، وادّعاء العابد أن المدعو يرضى بهذا أو يأمر به هو سُبَّة له إذ نسب إليه أنه يرضى بعبادة غير الله، وهذا لا يفعله مسلم.

والشرك مَسَبَّة للمؤمنين لأنهم إذا أنكروا على المشركين شركهم، اتهمهم المشركون أنهم يعادون الصالحين ويسبّونهم..

بينما التوحيد تنزيه لله ولذا قال الله تعالى آمرًا نبيه أن يقول: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف]؛ فهو تنزيه لله تعالى في وصفه وفي التوجه اليه دون غيره.

- **العقوق:**

فأعظم الحقوق بعد الخالق هي للوالدين، والعقوق جحود بدل الوفاء لمن رباه في ضعفه وحاجته بلا حساب، ويجب الوفاء والبر عندما يتبدل الحال فيضعف من ربّى ويحتاج إليك..

يقول «الطبري»: «فلا تؤفّفْ منْ شيْءٍ تراه منْ أحدهما أوْ منْهما ممّا يتأذّى به النّاس، ولكن اصْبرْ على ذلك منْهما، واحْتسبْ في الْأجْر صبْرك عليْه

منْهما، كما صبرا عليْك في صغرك»[١].

ثم يروي عن «مجاهد»: «﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ... فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسْراء:٢٣]، إمّا يبْلغان عنْدك الْكبر فلا تقلْ لهما أفٍّ حين ترى الْأذى، وتميط عنْهما الْخلاء والْبوْل، كما كانا يميطانه عنْك صغيرًا، ولا تؤْذهما»[٢].

وقد لا تصل الأمور إلى هذا الحد، بل وغالبًا أنها لا تصل إلى هذا الحد، ولكن نذكّر بهذا في المعاملة العادية لأنه إذا وصل الأمر إلى هذا الحد من الاحتياج فأنت منهيٌّ عن التأفف مع إزالة الأذي مقابل ما أزالاه عنك في صغرك؛ فما بالك بما هو أقل من ذلك في المعاملات اليومية؟!.

نؤكد هنا على أمر مهم وهو أن الله تعالى أمر بالبر وهو يعلم تعالى اختلاف الطباع وظلم بعض الآباء وتقصير بعضهم وتنوع الأخلاق، ولم يكن شيء من هذا مانعًا من عموم وجوب البر، فانتبه.

«ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولّية، إلى الجيل الذاهب! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف،

---

(١) تفْسير الطّبريّ (١٤/ ٥٤٥) [الإسْراء:٢٣].

(٢) المصْدر السّابق بتمامه.

وتتلفت إلى الآباء والأمهات.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد؛ إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام؛ إلى الزوجات والذرية .. وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء؛ إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوّة ليذْكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف! وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله»[1].

ويدخل في العقوق عقوق أصحاب الفضل عمومًا، وهو جحود وخلق ذميم.

وأصحاب الفضل أعظمهم رسول الله ﷺ، فقد جعل الله تعالى أزواجه

---

(١) في ظلال القرْآن (٤/ ٢٢٢١) [الإسْراء:٢٣].

أمهاتنا، وهو فرع على أبوّته لنا؛ وذلك لأنه هو سبب حياة قلوبنا وحياتنا الأبدية عند رب العالمين، فهو أولى بالأبوّة وأوْلى بنا من أنفسنا.. ﷺ.

ثم أصحابه رضي الله عنهم الذين فتحوا الدنيا وأوصلوا لنا رسالة الله ودينه وشرعه، والعلماء كذلك.. بل كل صاحب نصيحة وتربية وإرشاد.

- **الزّنا:**

وهي الفاحشة التي تنكرها النفوس السوية والفطرة المستقيمة، هي كشف ستر، وهتْك عرض، وتسليم المرأة لجسدها لمن لا يملك ولمن لا يجوز لها، ووضع الرجل ماء النسل في وعاء محرم تنجّس بالمعصية وتلبّس بالفجور؛ فإما أن يهدر ماءه، أو يقتل ولده، أو يتركه يعيش ليحمل عار والديه أو يحمل الآثار الخلقية السيئة لهذه الجريمة.. كما هو خيانة لزوج في زوجه، وخيانة لولي المرأة في وليته، فما أفحشها! كما أنه كثيرًا ما يؤدي إلى القتل، غضبًا وغيرة، أو مواراة للجريمة.

أو تؤدي إلى ما هو أفدح بالمجاهرة والمكابرة والتبجح بها!!..

لهذه الجريمة تنفق ملايين ومليارات وإعلام وأزياء وسينما وغيرها كثير، بينما العفة من عناوين هذا الدين؛ سأل «هرقل» «أبا سفيان»، وسأل «النجاشيّ» «جعفر»: «ماذا يأْمركمْ؟»، فكانت الإجابة.. «قلْت: يقول: اعْبدوا الله وحْده ولا تشْركوا به شيْئًا، واتْركوا ما يقول آباؤكمْ، ويأْمرنا بالصّلاة

والزّكاة والصّدْق والعفاف والصّلة»[1].

• الـكِبْر:

وهو يمنع من دخول الجنة؛ فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر؛ فإما أن ينتفي من قلبه بتوبة أو بعقوبة أو بتكفير حسنة أخرى أو مقاصّة؛ لكن لا يدخل الجنة وهو متلبس بذرّة منه، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والْكبْر كلّه مباينٌ للْإيمان الْواجب فمنْ في قلْبه مثْقال ذرّةٍ منْ كبْرٍ لا يفْعل ما أوْجب الله عليْه ويتْرك ما حرّم عليْه بلْ كبْره يوجب له جحْد الْحقّ واحْتقار الْخلْق وهذا هو «الْكبْر» الّذي فسّره النّبيّ ﷺ حيْث سئل في تمام الْحديث، «فقيل: يا رسول الله الرّجل يحبّ أنْ يكون ثوْبه حسنًا ونعْله حسنًا. فمنْ الْكبْر ذاك؟ فقال: **لا، إنّ الله جميلٌ يحبّ الْجمال الْكبْر بطر الْحقّ وغمْط النّاس**»، وبطر الْحقّ جحْده ودفْعه وغمْط النّاس ازْدراؤهمْ واحْتقارهمْ فمنْ في قلْبه مثْقال ذرّةٍ منْ هذا يوجب له أنْ يجْحد الْحقّ الّذي يجب عليْه أنْ يقرّ به وأنْ يحْتقر النّاس فيكون ظالمًا لهمْ معْتديًا عليْهمْ فمنْ كان مضيّعًا للْحقّ الْواجب؛ ظالمًا للْخلْق، لمْ يكنْ منْ أهْل الْجنّة ولا مسْتحقًّا لها؛ بلْ يكون منْ أهْل الْوعيد. فقوْله: «**لا يدْخل الْجنّة**» متضمّنٌ لكوْنه ليْس منْ أهْلها ولا

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٧) كتاب بدْء الوحْي- كيْف كان بدْء الوحْي، منْ حديث أبي سفْيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مسْتحقًّا لها لكنْ إنْ تاب أوْ كانتْ له حسناتٌ ماحيةٌ لذنْبه أوْ ابْتلاه الله بمصائب كفّر بها خطاياه ونحْو ذلك زال ثمرة هذا الْكبْر الْمانع له منْ الْجنّة؛ فيدْخلها أوْ غفر الله له بفضْل رحْمته منْ ذلك الْكبْر منْ نفْسه؛ فلا يدْخلها ومعه شيْءٌ منْ الْكبْر»[1].

يعاقب أصحابه بالصّغار والإهانة يوم القيامة ويحشرون - كما جاء في الحديث- في صور الذرّ[2]، وهو صغار النمل، يطؤهم الناس بأقدامهم؛ معاملة لهم بنقيض المقصود، فإنهم لما تكبروا أهانهم الله..

والكبر مبدؤه من القلب.. ويظهر في كلمة أو إشارة أو مشية أو جلسة أو نظرة أو رفض قبول الحق والنصيحة.

والضابط هو وصف رسول الله ﷺ: «**بطْر الحقّ وغمْط النّاس**»[3]،

---

(١) مجْموع الفتاوى (٧/ ٦٧٧-٦٧٨).

(٢) روى التّرْمذيّ في جامعه (٢٤٩٢) منْ حديث عمْرو بْن شعيْبٍ، عنْ أبيه، عنْ جدّه، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**يحْشر المتكبّرون يوْم القيامة أمْثال الذّرّ في صور الرّجال يغْشاهم الذّلّ منْ كلّ مكانٍ، فيساقون إلى سجْنٍ في جهنّم يسمّى بولس تعْلوهمْ نار الأنْيار يسْقوْن منْ عصارة أهْل النّار طينة الخبال**»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٨٠٤٠) وقال: «حسنٌ».

(٣) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٤٧ (٩١) كتاب الإيمان- باب تحْريم الْكبْر وبيانه، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه.

والمعنى دفع الحق واحتقار الناس؛ هذا في التعامل مع الله، والآخر في التعامل مع الخلق.. عافانا الله وإياك يا سالك الطريق.

- **رذيلة الفخْر على الغيْر:**

بما وهبه الله، وقاعدته المتكررة ورمزه قول «قارون»: ﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ**﴾ [القصص:٧٨]، فنظر إلى السبب ولم ينظر إلى المسبب سبحانه، ومن أكمل له الأسباب سبحانه، ومن صرف عنه الموانع سبحانه..

بينما قاعدة المؤمن النظر إلى المعطي لا إلى العطية نفسها، والنظر في العطية إلى معنى الابتلاء والاختبار، ورمزه قول «سليمان» عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ [النّمْل:٤٠]، وعندما يرى النعمة يتذكر واجب شكرها يطلب المعونة على الشكر، ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ**﴾ [النّمْل:١٩].. فالنعم تزيد المؤمن انكسارًا لله، لا بطرًا ولا فخرًا على خلقه.. بل يكون كما قال الأعمى من بين الثلاثة الذين اختبروا من بني إسرائيل: «**قدْ كنْت أعْمى فردّ الله بصري، وفقيرًا فقدْ أغْناني**»[1]، ولا يجحد كما جحد الآخرون ولا يفخر كما فخروا.

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٣٤٦٤) كتاب أحاديث الأنْبياء- باب ما ذكر عنْ بني إسْرائيل، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- **احْتقار المسْلمين وازْدراؤهم:**

لقلّة مال، أو قلّة علم، أو تواضع مسكن، أو لحرمان من الولد، أو خمول شهرة وذِكْر، أو لرثاثة حال أو هيئة، أو تواضع وظيفة، أو لكونه أجيرًا عندك أو يعمل تحت سلطتك.. أو غير ذلك.

ولهذا قال ﷺ: «**بحسْب امْرئٍ من الشّرّ أنْ يحْقر أخاه الْمسْلم**»(١)، يعني يكفيه من الإثم الموجب للهلكة.

يكثر في النساء، تقارن بين بيتها وبيت غيرها، وأثاثها وغيرها، وولدها أو زوجها أو زينتها من الذهب أو غناها أو غير ذلك من نتن الدنيا، فتحتقر أختها، وقد قال رب العالمين: ﴿**لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾ [الحجرات:١١].

- **السّخْرية منْ الخلْق:**

بأي سبب كان، لفقر الغير أو جهله أو حتى قلّة ذكائه وصعوبة فهمه، أو لعيّ بيانه وعدم قدرته على الإيضاح لتلعثم أو بطء، السخرية من مشية أو طريقة أو أمر من الدنيا.. وهذا يدخل في اللمز والهمز وهو العيب باليد

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٣٢ (٢٥٦٤) كتاب البرّ والصّلة والآداب- باب تحْريم ظلْم الْمسْلم، وخذْله، واحْتقاره ودمه، وعرْضه، وماله، منْ حديث أبي هريْرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ.

واللسان، وقد توعد الله فاعله، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة].

عنْ «عبْد الله بْن مسْعودٍ» رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لوْ سخرْت منْ كلْبٍ، لخَشِيتُ أنْ أكون كلْبًا»[١]، وقال «أبو موسى الأشْعريّ» رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لوْ رأيْت رجلًا يرْضع شاةً في الطّريق، فسخرْت منْه خفْت أنْ لا أموت حتّى أرْضعَها»[٢]، وعن «الْأسْود» قال: كنّا عنْد عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، فسقط فسْطاطٌ على إنْسانٍ، فضحكوا، فقالتْ عائشة: لا سخْر؛ سمعْت رسول الله ﷺ يقول: «**ما منْ مسْلمٍ يشاك شوْكةً فما فوْقها، إلّا رفعه الله عزّ وجلّ بها درجةً، وحطّ عنْه خطيئةً**»[٣]، وقال «إبْراهيم النّخْعيّ»: «إنّي لأرى الشّيْء أكْرهه فما يمْنعني أنْ أتكلّم فيه إلّا مخافة أنْ أبْتلى بمثْله»[٤].

وقال «عمْرو بْن شرحْبيل»: «لوْ رأيْت رجلًا يرْضع عنْزًا فسخرْت منْه

---

(١) رواه هنّاد بْن السّريّ في الزّهْد (١١٩٤) (٢/ ٥٧٠).

(٢) رواه ابْن أبي شيْبة في مصنّفه (٢٥٥٤٤) كتاب الأدب- ما قالوا في النّهْي والْوقيعة في الرّجل والْغيبة.

(٣) رواه ابْن الجعْد في مسْنده (٨٧٥)، وأصْل القصّة رواها مسْلمٌ في صحيحه ٤٦ (٢٥٧٢) بلفْظ: عن الْأسْود، قال: دخل شبابٌ منْ قريْشٍ على عائشة وهي بمنًى، وهمْ يضْحكون، فقالتْ: ما يضْحككمْ؟ قالوا: فلانٌ خرّ على طنب فسْطاطٍ، فكادتْ عنقه، أوْ عيْنه أنْ تذْهب، فقالتْ: لا تضْحكوا، فإنّي سمعْت رسول الله ﷺ، قال: «**ما منْ مسْلمٍ يُشَاكُ شَوْكةً، فما فوْقها إلّا كُتِبَتْ له بها درجةٌ، ومُحِيَتْ عنْه بها خطيئةٌ**».

(٤) رواه البيْهقي في «الجامع لشعب الإيمان» (٦٣٥٣).

خشيت أنْ أكون مثْله»[١]، وقال يحْيى بْن معاذٍ الرّازيّ: «ليكنْ حظّ الْمؤْمن منْك ثلاث خصالٍ لتكون من الْمحْسنين: أحدها أنّك إنْ لمْ تنْفعْه فلا تضرّه. والثّاني إنْ لمْ تسرّه فلا تَغُمُّهُ. والثّالث إنْ لمْ تمْدحْه فلا تذمّه»[٢]، وقال «القرْطبيّ»: «منْ لقّب أخاه أوْ سخر منْه فهو فاسقٌ»[٣]، وقال «السّفارينيّ»: «إنّ كلّ منْ افْتَخَرَ على إخْوانه واحْتقر أحدًا منْ أقْرانه وأخْدانه أوْ سخر أوْ اسْتهْزأ بأحدٍ من المؤمنين فقد باء بالإثْم والْوزْر المبين»[٤]، وقال «ابْن حجرٍ الهيْتميّ»: «لا تحْتقرْ غيْرك عسى أنْ يكون عنْد اللهِ خيْرًا منْك وأفْضل وأقْرب»[٥].

• الغشّ:

يكبر الغش كجريمة مع عظم المسؤولية والمكانة والتوجيه والرياسة، «**منْ غشّنا فليْس منّا**»[٦].

---

(١) رواه وكيع بْن الجرّاح في الزّهْد (٣١٤) باب منْ قال: الْبلاء موكّلٌ بالْقوْل.

(٢) أوْرده أبو اللّيْث السّمرْقنْديّ في «تنْبيه الغافلين» (ص١٢٤)، باب الغيبة.

(٣) تفْسير القرْطبيّ (١٩/ ٣٩٢) [الحجرات:١١].

(٤) غذاء الألباب في شرْح منْظومة الآداب (١/ ١٠٤).

(٥) الزّواجر عنْ اقْتراف الكبائر (٢/ ٥) الكبيرة الثّامنة والتّاسعة والأرْبعون بعْد الْمائتيْن: الْغِيبَة والسّكوت عليْها.

(٦) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٦٤ (١٠١) كتاب الإيمان- باب قوْل النّبيّ ﷺ: «**منْ غشّنا فليْس منّا**»، =

غش التجارة وغش الإعلامي وغش القاضي وغش الحاكم وغش العالم..

بينما كان السلف يبالغون في النصيحة، ومن كان منهم تاجرًا لو سأله المشتري عن المبيع قال لا أرضاه لنفسي! وكانوا يظهرون عيوب مبيعاتهم، ولو بيعت على وجه الخطأ على أنها سليمة - وبها عيب- سعوا خلف المشتري لرد فرق الثمن.

- **الحسد:**

كثيرًا ما نخاف أن يحسدنا الناس بينما يجب أن نخاف أكثر أن نحسد غيرنا.

وهو ألم يجده الحاسد في نفسه ولا يزول إلا بزوال النعمة عن المحسود، وهو شعور قاتل ونار تأكل صاحبها لما يرى من فضل الله على غيره، وانطفاء ناره يكون بزوال النعمة عن أخيه أو أختها!.

وعلاجه أن يرى أنه ليس مقسّم الأمور، وأن وجود الحسد يأكل قلبه ويأكل معه معانٍ نبيلة كثيرة، وأن الدنيا ليست دار جزاء بل الكل مبتلى؛ في عطائه ليشكر، وفي حرمانه ليصبر، وهو لا يختار الحالة التي يختبره الله بها.

=

منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأن يداويها بالدعاء لصاحب النعمة بظهر الغيب فهو خصيصة الملائكة – تدعو للمؤمنين بالغيب– يداوي بها خصيصة الشياطين وهي الحسد، وليخش التمادي فيه فقد كفر قوم بسببه كاليهود، وآخرون قتلوا وسفكوا الدم كابن «آدم» الأول.

وليحذر من الحسد سواء كان في أمر الدنيا بمالها وأعمالها ومراكزها وشهواتها، أو في أمر الدين كالعلم والفهم والحفظ والشهرة والقبول بين الناس والصوت الحسن في كتاب الله، وغير ذلك.

وليداويه أيضًا بالرضا بما أعطي، وقَصْرِ النظر إلى ما كلف به لاستيفاء العبوديات التي أمره الله تعالى بها، ويعلم أن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، وليعلم أن الحسود لا يسود.

- الضّيق بنبوغ الآخرين ومحاولة وأْدهمْ أوْ تأْخيرهمْ:

وهو من جنس ما سبق وناتج عنه، ولا يحدث هذا إلا ممن كانت نفسه متقدمة على دينه، وطلب العلو متقدم على طلب التعبد، والخير في نفسه قليل، وحبه للمسلمين مدخول.

إنه يرى في نبوغ غيره خصمًا من قيمته؛ فتلك هي الآفة.. بينما المتجرد يجعل كتفه سلّمًا ومرقاة لغيره من المسلمين، ولمن بعده، ويرى أن في قوة غيره – من المسلمين– إضافة قوة للإسلام وأهله، ويرى أن جهده عند الله

مكتوب، ولو تقدم غيره ساعده ويكون عمل المتقدم في ميزان من علّمه الخير أو أرشده أو عاونه..

حتى لو لم يُرْشِدْهُ أو يساعده بل وجد تقدم غيره ونبوغه في جهاد أو قيادة أو علم أو فقه أو تصدق بمال أو إيصال خير، فرح بالخير للمسلم وفرح بهذه الإضافة للمسلمين..

ولو فتح الله على غيره في ماله أو دنياه فرح له بالخير وتمنى له ما يتمناه لنفسه وهو أن ينجح في اختبار المال.

لا يأنف الواثق والممتليء بالخير من أن يتعلم إلى آخر عمره، ولو تعلم ممن كان هو معلمًا له، ولا يأنف لو اتبع من كان هو قائدًا عليه قبل ذلك.. هكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ.

إن سؤال العابد هو: بم يأمرني الله الآن وفي هذه الحال؟ فهو مدرك أن جميع الأحوال هي اختبار مستمر حتى الممات، وقيامه بأمر العبودية هو همه الأعظم وقرّة عينه.

وبأمثال هؤلاء الأصفياء يأتي النصر ويرفع الله أمثاله في الآخرة حتى تشرئب إلى منازله الأعناق؛ فقد دخل الجنة رجل لم يكن صاحب كثير قيام وصيام نوافل بل بخلوّ قلبه من الغش والأحقاد للمسلمين، وهذا يحتاج إلى دفع مشاعر السوء السوداء، وبالمجاهدة يبلغ العبد هذا.. بلّغنا الله وإياك.

- **رذيلة البغْي:**

وهو ناتج الحسد ونتيجة حب الدنيا وتنافسها، حتى لو تلبّس باسم الدين.

وتغري به القوة؛ أن يرى الباغي قوة نفسه ولا يرى قوة من أقدره وقوّاه، وعليه أن يوقن بقدرة المعطي سبحانه أن يسلبها كما منحها.. والبغي من أسرع الذنوب جزاءً في الدنيا مع ما لصاحبه في الآخرة؛ قال ﷺ: «**ما منْ ذنْبٍ أجْدر أنْ يعجّل الله لصاحبه العقوبة في الدّنْيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغْي وقطيعة الرّحم**»(١).

وقد قرنه الله تعالى مع الفحشاء والمنكر، ونهى عنه عمومًا وإطلاقًا، لا يجوز بحال، فاحفظ حدك واتق الله ولا تبغ على غيرك.

واحذر أن ترى من غيرك ضعفًا في بدن أو مال فتبغي، واحذر أن ترى في غيرك ضعفًا في عقل أو بيان ويكون مظلومًا وأنت ألْسن وأقوى سطوة وأقدر على الجدال فتغلب المظلوم، فتكون قد ظَلَمْته ثانيًا، وقد رأينا أصحاب الجدال يظلمون أولًا، ثم يقهرون المظلوم في معرض البيان؛ فيلبسونه هو ثوب الظلم ويلبسون هم ثوب الضحية، فليحذروا عري يوم القيامة.

---

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٥١١) أبْواب صفة القيامة والرّقائق والورع، منْ حديث أبي بكْرة رضي الله عنه، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ».

• رذيلة الشّحّ والبخْل:

قال ﷺ: «وأيّ داءٍ أدْوى من الْبخْل»[١]، وقد ذمه القرآن أعظم ذم؛ إذ كل ذم للبخل بالنفقة في سبيل الله وإمساك اليد عنه هو ذم للبخل في أعظم واجبات المال وهي نصرة الدين.

والشح الصفة الملاصقة للإنسان وهو أشد من البخل، فهو بخل مع حرص، فيبخل ويأمر غيره ويكره وجود الإنفاق، ﴿يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النّساء:٣٧]، وكان «عبد الرحمن بن عوف» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يزيد في دعائه في الطواف على أن يقول: «اللّهمّ قني شحّ نفْسي»، استنباطا من قوله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشْر]؛ روى الإمام «الطبري» في تفسيره عنْ سعيد بْن جبيْرٍ، عنْ أبي الْهيّاج الْأسديّ، قال: «كنْت أطوف بالْبيْت، فرأيْت رجلًا يقول: اللّهمّ قني شحّ نفْسي. لا يزيد على ذلك، فقلْت له، فقال: إنّي إذا وقيت شحّ نفْسي لمْ أسْرقْ، ولمْ أزْن، ولمْ أفْعلْ شيْئًا، وإذا الرّجل عبْد الرّحْمن بْن عوْفٍ»[٢].

---

(١) رواه الحاكم في المسْتدْرك على الصّحيحيْن (٤٩٦٥) كتاب معْرفة الصّحابة، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «صحيحٌ على شرْط مسْلمٍ، ولمْ يخرّجاه»، وقال الذّهبيّ في التّلْخيص (٣،٢٤٢): «على شرْط مسْلمٍ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٧١٠٤) وقال: «صحيحٌ».

(٢) تفْسير الطّبريّ (٢٢/ ٥٣٠) [الحشْر:٩].

والبخل يكون بالمال، ويكون بالعلم، وعلى الوجهين فسر السلف آية النساء: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ [النّساء:٣٧]، فسرت بالبخل بالمال والبخل بالعلم(١).

ويدخل فيه البخل بالنفع بالنفس واللسان بالنصيحة وبيان الحق.. فقد جاء في الحديث أن المعونة بالبدن من الصدقة(٢).

وقد جاء أن الله تعالى يقول لجنة عدن: «**وعزّتي لا يجاورني فيك بخيلٌ**»(٣).

فكُنْ مِعطاءً واثقًا في خَلَفِ الله عليك ففسر بعض السلف قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ ﴾ [اللّيل]، أن الحسنى هي التصديق

---

(١) انْظرْ تفْسير الطّبريّ وابْن كثيرٍ وغيْرهما [النّساء:٣٧].

(٢) روى أحْمدُ في مسْنده (٨١٨٣) عنْ أبي هريْرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلّ سُلَامَى من النّاس عليْه صدقةٌ كلّ يوْمٍ تطْلع الشّمْس**»، قال: «**تعْدل بيْن الاثْنيْن صدقةٌ، وتعين الرّجل في دابّته تحْمله عليْها أوْ ترْفع له متاعه عليْها صدقةٌ**»، وقال: «**الْكلمة الطّيّبة صدقةٌ**»، وقال: «**كلّ خطْوةٍ تمْشيها إلى الصّلاة صدقةٌ، وتميط الْأذى عن الطّريق صدقةٌ**»، قال شعيْب الأرْنؤوط (١٣/ ٥١٢): «إسْناده صحيحٌ على شرْط الشّيْخيْن».

(٣) رواه ابْن أبي الدّنْيا في صفة الجنّة (٢٠) منْ حديث أنس بْن مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة» (١٢٨٥) وقال: «ضعيفٌ».

بـالخلف عليـك[١]، كقولـه تعـالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

واجعـل شـعارك قـول «محمـد» ﷺ لـ «بـلال» رضي الله عنه: «**أَنْفِـقْ بـلالًا، ولا تخْش مـنْ ذي العـرْش إقْـلالًا**»[٢]، لا أقـصد النفقـة إسـرافًا في أمـور الـدنيا، بـل النفقة في أوجه الخير، ولا إسراف في النفقة في الخير.

عنْ أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ دخل على بلالٍ، فوجد عنْده صبرًا منْ تمْرٍ، فقال: «**ما هذا يا بلال؟**» فقـال: تمْـرًا ادّخرْتـه لـك فقـال: «**ويْحك يا بلال، أما تخاف أنْ يكون له بخارٌ في النّار؟ أنْفقْ يا بلال، ولا تخْش منْ ذي الْعرْش إقْلالًا**»[٣].

(١) روى الطّبريّ في تفْسيره (٢٤/ ٤٦٢) عـن ابْن عبّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [اللّيْل]، يقـول: «وصدّق بالْخلف من الله».

(٢) رواه البزّار في البحْر الزّخّار (٩٨٩٣) مـنْ حـديث أبـي هريْـرة رضي الله عنه، وأوْرده الألْبـانيّ في «صـحيح الجامع الصّغير» (١٥١٢) وقال: «صحيحٌ».

(٣) رواه الطّبرانيّ في المعْجم الأوْسط (٢٥٧٢)، وفي المعْجـم الكبيـر (١٠٢٤) مـنْ حـديث أبـي هريْـرة رضي الله عنه، وقال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (٣/ ١٢٦): «رواه الطّبرانيّ في الْكبير، وفيه مبارك بْن فضالة، وهو ثقةٌ، وفيـه كـلامٌ، وبقيّـة رجالـه رجـال الـصّحيح، ورواه الطّبرانيّ في الأوْسط بإسْنادٍ حسنٍ».

- **خور القلْب وضعْفه وجبْنه:**

الخور والضعف والخلو من صلابة القلب ومن الثبات أمام المحن والأنواء..

بينما هذه المحن والشدائد لا بد منها؛ إذ أقسم الله تعالى أنْ سيكون بلاءٌ ليقابل بالصبر، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ [البقرة:١٥٥] [محمّد:٣١]، وتكررت في موضعين، و ﴿لَتُبْلَوُنَّ ﴾ [آل عمْران:١٨٦] في موضع آخر، واللام هنا هي الموطئة للقسم، ولذا يفسرها المفسرون بأنها قسم من الله تعالى.

ولا بد من إعداد الموقف قبلها؛ بجمع قوة القلب وشتات النفس واستخراج القوة الكامنة في الإنسان وإرفاقها بذكر الله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأنْفال:٤٥]..

فالتخلي عن المبدأ وانقلاب الرأس على العقب والانتكاس على الرؤوس هي خاصية الخامة التالفة ولا يصلح صاحبها لشيء، بينما الثبات هو خاصة المؤمن؛ حتى عجب منه المنافقون ومرضى القلوب فقالوا أن المؤمنين خدعهم دينهم والثقة فيه حتى ظنوا أنهم سينتصرون، ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنْفال:٤٩]، فرد الله عن المؤمنين: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنْفال].

- **رذيلة أتْباع الطّواغيت؛ التّلْقين والقوْلبة، والتّبعيّة العمْياء، وقبول الاسْتخْفاف:**

وقدْ أدْخلتْ «أممًا» النّار ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [سبأ:٣٣]، ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [غافر:٤٧]، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ [إبْراهيم:٢١]!..

وهي مخالفة للمنهج الذي يريده الله تعالى لعباده المؤمنين من العزة واستقلال الرأي وتحمل تبعته، والاتباع على علم وبصيرة وحجة.

وقد نهى الله خلقه أن يتبعوا ما لا يعلمون، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسْراء:٣٦]، ونعى تعالى قبول استخفاف العقول، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزّخْرف:٥٤]، بعد خطبة «فرعون» التي ذكرها القرآن ليبين مدى سخافة العقول التي قبلته..

المؤمن يستعصي على التضليل والإيحاء، ولا يقبل الاستخفاف، وهو يتبع الدليل ويرفض التقليد الأعمى، ويفرق بينه وبين التأسي الذي اتضح دليل صحة عمله، ومنهج المتأسَّى به، وتزكية الله له.

قال ﷺ: «**لا يكنْ أحدكمْ إمّعةً إنْ أحْسن النّاس أحْسن، وإنْ أساء النّاس**

أساء»[١]. وقال «عليٌّ» رَضِوَاللَّهُعَنْهُ فيمن ينعاه من الناس ويشكو منه: «أوْ حامل فقْهٍ لا بصيرة له في إحْيائه، ينْقدح الشّكّ في قلْبه لأوّل عارضٍ منْ شبْهةٍ»[٢]..

فمن العيب العظيم الدخول وسط الجموع لمجرد أنهم جموع؛ يستدفيء بالعدد ولا ينظر إلى الدليل لئلا يتعب نفسه بالحق إن كان مخالفًا لهم!.. كمن قال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشّعراء].

- **رذيلة تدنّي الاهْتمام بالمعالي.. وتعاظم الاهْتمام بالسّفاسف:**

إن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها[٣]..

والأخذ بالمعالي هو خصلة محمودة في العبادات والأخلاق والتعاملات والاهتمامات، وفي العلوم.

---

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٠٠٧) منْ حديث حذيْفة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا إمّعةً، تقولون: إنْ أحْسن النّاس أحْسنّا، وإنْ ظلموا ظلمْنا، ولكنْ وطّنوا أنْفسكمْ، إنْ أحْسن النّاس أنْ تحْسنوا، وإنْ أساءوا فلا تظْلموا**»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعْرفه إلّا منْ هذا الوجْه»، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٦٢٧١) وقال: «ضعيفٌ».

(٢) رواه أبو نعيْمٍ في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (١/ ٧٩) بلفْظ: «أوْ منْقادًا لأهْل الْحقّ لا بصيرة له في إحْيائه، يقْتدح الشّكّ في قلْبه، بأوّل عارضٍ منْ شبْهةٍ».

(٣) روى الطّبرانيّ في المعْجم الأوْسط (٢٩٤٠) عنْ سهْل بْن سعْدٍ السّاعديّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ معالي الأمور، ويكْره سفْسافها**»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٨٩٠) وقال: «صحيحٌ».

فالعلم بالقواعد الكليات والأخذ بالمحكم، والنظر والحكم به، ينجي من الضلالات.

الأخذ بالقواعد والأمور المهمة والأساسية مستقيم في النظر والحكم على الأشياء والأشخاص والواقع، والأخذ بالمعالي في ترتيب الإهتمامات؛ فقد رغّب رسول الله ﷺ في جنة الفردوس بعد إخباره أنها أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفها عرش الرحمن(١)، فلم يقل أنها قاصرة على أشخاص ولا تطلبوها بل أرشدنا إلى سؤال الله إياها؛ وبالتالي العمل على مستواها، وهكذا الأمور.

وقد مدح الناسُ كلمةَ «المتنبي» وتلقوها بالقبول وهو يقول:

إذا ما كنْت في شرفٍ مرومٍ ❁ فلا تقْنعْ بما دون النجوم

فطعْم الموْت في أمْرٍ حقيرٍ ❁ كطعْم الموْت في أمْرٍ عظيم

وهذا كان دأب أصحاب رسول الله ﷺ، فأخذوا بعزائم الأمور ومعاليها،

---

(١) روى البخاريّ في صحيحه (٧٤٢٣) كتاب التّوْحيد- باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التّوْبة]، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ في الجنّة مائة درجةٍ، أعدّها الله للْمجاهدين في سبيله، كلّ درجتيْن ما بيْنهما كما بيْن السّماء والأرْض، فإذا سألْتم الله فسلوه الفرْدوْس، فإنّه أوْسط الجنّة، وأعْلى الجنّة، وفوْقه عرْش الرّحْمن، ومنْه تفجّر أنْهار الجنّة**».

وفي العلم أخذوا أصله، وعندما تكلموا تكلموا في جوامعه وقواعده بما ينتظم عشرات، بل ومئات، المسائل.. فاستقامت لهم الأمور علمًا وعملًا، وعظم أمرهم وأثرهم.. فلا تلتفت إلى بنيّات الطريق وجوانبه وتفريعاته بل خذ الطريق الأعظم واسلك السبيل الأقوم والأسمى ولا تتدنى في اهتمام أو معرفة أو نقاش، أو – من باب أوْلى – في خصام، والله الهادي والعاصم.

إن علو الاهتمام وطلب المعالي مرتبط عند المسلم بتفكيره واهتمامه وهو مأخذ هذا الدين، فهذا الدين يطبع المؤمن بطابعه فهو يطلب الجنة وهي فوز عظيم، ويطلب أعلاها وهو الفردوس، ويطلب النظر إلى وجه ربه الكريم.

وهو مرتبط بتكاليف هذا الدين الذي يصبغ تفكيره ويرفع اهتمامه ودوافعه وغاياته وآماله بل وآلامه ومشاكله؛ فكلٌ على نفس المستوى.

فإذا تناقضت حياتك الشخصية ومشاكلك وآمالك وآلامك وطريقة حياتك من عمل إلى زواج إلى ارتباطات مختلفة مع هذه الأهداف العظيمة فهنا خلل لا بد أن تراجعه؛ فيجب أن تكون شخصية المؤمن واحدة؛ تؤمن وتتعبد، وتتخلق وتستهدف الأهداف العظيمة التي ربى الله عليها المسلمين.

• رذيلة الاهْتمام بالنّفْس في معارضة الدّين:

ومعنى هذا أن تكون نفسك هي مركز الاهتمام بدلًا من نصرة الدين في مواضع الأخطار التي تهدد بقاء الإسلام، فإنه ولوكانت النفس هي محور الاهتمام لنجاتها، ولكن نجاتها في نصرة دين الله وأن يبذلها وقت ما يأمر الله.

فالإسلام جاء بحفظ المقاصد الخمس المحفوظة في كل ملة، وهي الدين والنفس والعقل والمال والنسل، ولكنها ليست على مستوى ووزانٍ واحد، بل الدين مقدم على النفس، ولذا شرع الجهاد لنصرة الدين وإن أفضى إلى تلف بعض النفوس، صيانة للدين من جهة وصيانة للنفوس من جهة أخرى(١).

وقد عاب تعالى من قدم نفسه على دينه في موقف يتهدد الدين؛ قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ﴾ [آل عمران:١٥٤]! فأثناء خطر احتمال قتل رسول الله ﷺ وهزيمة المسلمين وتكالب الكفار على ثغرة المسلمين لا يكون الاهتمام حينئذ نجاة النفس بل يكون شخص رسول الله والإسلام، والإسلام باقٍ إلى قيام الساعة.

فأما من قَدَّمَ الدين على نفسه فقد تَنَزَّلَتْ عليه أَمَنَةٌ من الله تعالى؛ فحماه

---

(١) انْظرْ الموافقات للشّاطبيّ.

ونصره وحفظه.. هكذا الأمر فاعْقِلْهُ.

فالمؤمن متجرد، قد تدرب على إسقاط حظ نفسه فينزل دين الله من نفسه منزلة النفس؛ فهو يحيا لمبادئه ويعيش ليحقق ما يؤمن به في نفسه وفي الآخرين.. ونفسه ليست حاجزًا بينه وبين نصرة الحق؛ بل هي ملغاة الاعتبار في هذا الجانب، وهذه أحد مؤهلات الشهادة في سبيل الله، والله أعلم.

واعلم أنك بهذا تكسب نفسك، فما من مكسب أضمن من بيعها لله.

- رذيلة الفراغ والتّبطّل:

نعم، هي رذيلة ولا تتعجب من هذا.. وبيان الأمر إذا علمت أن الخير وجودي، وأما الشر فعدميّ، ومعنى ذلك أن الخير هو قوة موجودة وتوفيق من الله، وأما الشر فهو الخلو من الخير؛ فإذا خلا الإنسان من الخير ووكل إلى نفسه فليس له من نفسه إلا الظلم والجهل وهما سبب الشرور.

فهي قاعدة عامة في صلاح النفوس بالخير وفسادها بالخلو منه فيأتي الشر؛ إذ إن الشر لا يقاوم الخير ولا يغلبه..

وهو قاعدة أيضًا في المجتمعات، فإذا خلت من شريعة الله ودينه جاءتها الشرور وتصدر المبطلون والبطالون، وجاء الملاحدة والإباحيون وقوى أهل الشر فعبثوا بالأمم.

وهي قاعدة في تربية الأبناء فإذا لم يملؤوا بالخير ويشغلوا به، شغلوا

بالشر وجاءت الانحرافات..

ولهذا أثنى الإمام «الشافعي» رَحِمَهُ اللَّهُ على كلمة الصوفية «نفْسك؛ إنْ لمْ تشْغلْها بالحقّ شغلتْك بالباطل»(١).

• **الرِّياء:**

وهو ناتج من ضعف اليقين بالله تعالى، أو ضعف التعظيم وضعف ملاحظة نظر الإله سبحانه.

والرياء آفة محبطة للعمل، فتعبٌ ونصب وكدّ، وظن أن سيلاقيه غدًا، ثم حبوط وخسارة وقت الاحتياج وحسرة لا يعقبها استدراك..

الرياء في العبادة، وفي الأعمال..

والرياء في الأخلاق «النفاق الاجتماعي»، وهذا لا يعني جرح الناس ومواجهتهم بعيوبهم، بل الاعتدال بتجنب جرح الناس وتجنب نفاقهم في الوقت نفسه، فما عند المسلم من حسن الخلق ما يغنيه.

• **الوصوليّة والتّسلّق:**

وهي ذم الآخرين وتقديم النفس، ومدح من يملك، أو من يملك منصبًا حال امتلاكه – وقد يركله بعد ذلك– بينما المؤمن العابد لا يتملق أحدًا، بل

---

(١) منْ أقْوال الحسن البصْريّ، أوْردها ابْن تيْمية في «مجْموع الفتاوى» (٨/ ٢٢٣).

هو واثق في الله، وهو موضوعي ومتجرد وليس طالب دنيا في ذاتها بل يطلبها بنية الخير، ونية الخير تتعارض مع الوصول بطرق قذرة للمآرب، وتتعارض مع ظلم الناس من أجل النفس!.

- **رذيلة السمْعة:**

لا يقنع بسمع الله به؛ ولكن يسمّع بعمله ليسمع الناس به وقد توعده رسول الله ﷺ أن يسمّع الله به خلقه؛ بعيوبه[1]، وهذا ناتج من ضعف مراعاة ما يجب من طلب المؤمن لسمع ربه مستغنيًا به عن سمع خلقه، وطلبه نظر ربه إليه مستغنيًا به عن نظر غيره، وطلب علمه تعالى بحال العبد مستغنيًا به عن علم غيره.

- **رذيلة العجْب:**

المعجب بنفسه وبرأيه وهذا من نقص نفسه؛ إذ تمنعه رؤية نفسه من رؤية تقصيره، ومن رؤية عظم حق ربه عليه وتقصير نفسه مقابلها، وتمنعه رؤية نفسه رؤية الآخرين واحترامهم واحترام عقولهم وآراءهم وشخصياتهم، واحترام حقوقهم كذلك.. وهو من الشرك بالله تعالى ولكنه إشراك بالنفس بينما الرياء إشراك بالخلق!.

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٤٩٩) كتاب الرّقاق- باب الرّياء والسّمْعة، منْ حديث جنْدب بْن عبْد الله البجليّ رضي الله عنه قال النّبيّ ﷺ: «منْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومنْ يرائي يرائي الله به».

يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية»: «كثيرًا ما يقْرن النّاس بيْن الرّياء والْعجْب فالرّياء منْ باب الْإشْراك بالْخلْق، والْعجْب منْ باب الْإشْراك بالنّفْس، وهذا حال الْمسْتكْبر؛ فالْمرائي لا يحقّق قوْله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والْمعْجب لا يحقّق قوْله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، فمنْ حقّق قوْله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عنْ الرّياء، ومنْ حقّق قوْله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ خرج عنْ الْإعْجاب، وفي الْحديث الْمعْروف: «**ثلاثٌ مهْلكاتٌ: شحٌّ مطاعٌ وهوًى متّبعٌ وإعْجاب الْمرْء بنفْسه**»[1].

والعجب يظهر للعبد في نفسه وفي طريقة كلامه ونظرته للآخرين نظرة دونية.. وتبدو في مشيته وجلسته وطريقة حديثه ورفضه تلقي الحق من الآخرين..

قد يدفع الإنسان للعجب مالٌ أو عمل «دنيوي»، أو علم أو جمال أو قوة أو منصب أو شهرة أو منصب اجتماعي أو وجاهة اجتماعية.

الغريب في الأمر أن الإنسان قد يعجب بعبادته أو طاعته أو علمه؛ فيأنف من الجاهل والعاصي بدلًا من الإشفاق عليهم، ومثل هؤلاء مضرون لأنفسهم بشدة؛ فقد يحرمون الهداية والعبادة أو طعمها وقد يحرمون العلم..

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٧).

فيجب البراءة من المعصية، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشّعراء]، ولكن معها أيضا: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٣﴾ [الشّعراء:٣]، لشدة إشفاقه عليهم، وهم كافرون!.

كما هم مضرون لخلق الله؛ إذ يتعاملون مع الناس ومع إخوانهم ومع أقرانهم بتأفف وامتعاض.. حتى امتنعوا عن قبول النصيحة والتوجيه لإكمال ما ينقصهم؛ فأضروا أنفسهم والمسلمين، حتى يقول الناس: أفّ لهم ولأخلاقهم!.

- رذيلة المنّ:

وهو أن يرى الإنسان نفسه سببًا وحيدًا، والحقّ أنه جزء سبب قد وفّق أن يصنع معروفًا ليلقاه هو يوم القيامة! بينما لا يرى المؤمن نفسه في معروفه للآخرين..

وكان سلف الأمة لا يرون لأنفسهم فضلًا، بل يرون الفضل للفقير الآخذ للصدقة! فيقول بعضهم أن للفقير الفضل لأنه قبل مني صدقتي ولولاه لم أؤجْر.

- رذيلة التّكلّف والتّصنّع:

تكلف ما لا يعلم، تكلف ما لا يحسن، تكلف حال غير حقيقته، تكلف شخصية ليست هو، تكلف موقف لا يقوى عليه فإذ به يذل؛ يتلبس شخصية

ليست شخصيته؛ فيتكلف في كلامه وضحكه بل وفي جزعه، يتكلف في مشيته، بل ومعيشته وإنفاقه؛ فينفق لا لحاجته بل ليعيش حالًا ليست حاله..

تكلف عبادة لا يطيقها فينقطع عنها أو عن غيرها أو عنهما معًا..

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص]، وقال ﷺ: «**هلك الْمتنطّعون**»[1]، «هلك المتشدّقون»، «هلك المتفيْهقون»[2].

- **رذيلة العبوسة والتّجهّم:**

وكثيرًا ما تكون متصنعة، ولو كانت حقيقة فهي أقبح! فالعبوسة والوجه المكفهرّ تنقبض منه القلوب، وتنفر منه النفوس، وأما المؤمن فيألف ويؤلف، وكان رسول الله ﷺ بسّامًا، وفي وصفه في التوراة «الضّحوك القتّال»[3].

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٧ (٢٦٧٠) كتاب العلْم- باب هلك المتنطّعون، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) روى أحْمدُ في مسْنده (١٧٧٤٣) منْ حديث أبي ثعْلبة الخشنيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ أحبّكمْ إليّ وأقْربكمْ منّي، محاسنكمْ أخْلاقًا، وإنّ أبْغضكمْ إليّ، وأبْعدكمْ منّي مساوئكمْ أخْلاقًا، الثّرْثارون، الْمتشدّقون، الْمتفيْهقون**»، قال شعيْب الأرْنؤوط (٢٩/ ٢٧٩): «حسنٌ لغيْره، وهذا إسْنادٌ رجاله ثقاتٌ رجال الصّحيح، لكنّ مكْحولًا - وهو الشّاميّ- لمْ يسْمعْ منْ أبي ثعْلبة»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٥٣٥) وقال: «صحيحٌ».

(٣) قال ابْن القيّم في «زاد المعاد» (١/ ٩٣-٩٤): «وأمّا الضّحوك الْقتّال، فاسْمان مزْدوجان لا يفْرد أحدهما عن الْآخر، فإنّه ضحوكٌ في وجوه الْمؤْمنين غيْر عابسٍ ولا مقطّبٍ ولا غضوبٍ ولا فظٍّ،
=

المتصنع يتكلف جهامة وقتامة، ولكن في مجتمعات معينة، ليظهر شخصية مزوّرة أو اهتمامًا كاذبًا بقضايا لا يعيشها في الحقيقة؛ بينما في الوقت نفسه يعيش بشخصيته الحقيقية واهتماماته البسيطة في مجتمعات أخرى؛ فلكل مجتمع عنده قناع يلبس ووجه يظهر!.

والمتجهم الحقيقي أقبح وأشنع؛ إذ إنه الشخص الثقيل الذي كان السلف يكرهون مجالسته، قال بعضهم: «أشْعر أنّ الأرْض تميد منْ جهته»!.

البساطة واليسر، البشر وطلاقة المحيا صفات رسول الله ﷺ وصفات الألفة، لنفع الخلق وإيصال الخير، والله الهادي.

=

قتّالٌ لأعْداء الله لا تأْخذه فيهمْ لوْمة لائمٍ»، وقال في «هداية الحيارى» (ص٣٦٣): «وأمّا صفته ﷺ في بعْض الْكتب الْمتقدّمة بأنّه الضّحوك الْقتّال، فالْمراد به أنّه لا يمْنعه ضحكه وحسْن خلقه عن الْقتْل إذا كان حبًّا للهِ وحقًّا له، ولا يمْنعه ذلك عنْ تبسّمه في موْضعه، فيعْطي كلّ حالٍ ما يليق بتلْك الْحال». وقدْ نقل محمّد بْن يوسف الصّالحيّ في «سبل الهدى والرّشاد في سيرة خيْر العباد» (١/ ٤٨٣) قال: «روى ابْن فارسٍ عنْ ابْن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: اسْم النّبيّ ﷺ في التّوْراة: الضّحوك القتال، يرْكب البعير ويلْبس الشّمْلة ويجْتزئ بالكسْرة، وسيْفه على عاتقه. قال ابْن فارسٍ: سُمِّيَ بالضّحوك لأنّه ﷺ كان طيب النّفْس فكهًا على كثْرة منْ ينْتابه ويفد عليْه منْ جفاة العرب وأهْل البوادي، ولا يراه أحدٌ ذا ضجرٍ ولا قلقٍ، ولكنْ لطيفًا في النّطْق، رفيقًا في المسْألة».

- **ارْتداء أقْنعةٍ وحللٍ كاذبةٍ تصنّعًا:**

وهو قريب من الآفتين السابقتين ومن جنسهما..

وقد قال ﷺ: «**المتشبّع بما لمْ يعْط كلابس ثوْبيْ زورٍ**»(١)، فيرتدي ثوب العلماء وليس منهم، أو ثوب العبّاد وليس منهم، أو ثوب المجاهدين وليس منهم، أو حتى – في الاعتبارات الدنيوية- ثوب الأغنياء وليس منهم! وهذا يدل على نقص حال واضطراب نفْس؛ بينما الأكرم للعبد أن يكون على حقيقته وسجيته وطبيعته، وأن يكون صادق الحال، ويواجه حقيقة ما هو عليه؛ فإن استلزم إصلاحًا لنفسه أصلحها حقيقة لا تصنعًا، وإلا فهو على ما هو عليه، وإن أخجله ما هو عليه فليتغير للأحسن.

ولهذا كان الشيوخ المربون يوصون مريديهم بأمر جامع للاستقامة وهو الصدق، والصدق يستلزم الوضوح ويهدي الى البرّ حقيقة.. فاظفر بهذا ولا تدخل في أنفاق الالْتواء المعقدة والمرهِقة، بل والمخزية.

- **رذيلة الهلع والجزع وغياب الصّبْر والثّبات:**

المسلم لا يهلع للمصيبة ولا يستبد به الجزع، ولا يطيش أمام النعمة الدنيوية، ولا يستبد به البطر أيضا، فإنما المسلم عابد لله عز وجل؛ إن أعطي

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٥٢١٩) كتاب النّكاح، منْ حديث أسْماء رضي الله عنها.

عبد، وإن منع عبد، وإن بسط له أو قبض عنه، أو رفع في شأن الدنيا أو خفض فهو يلبس دائمًا ثوب العبودية في كل حال؛ ففي الضيق يصبر ويرضى ويسأل ويضرع وينتظر الفرج ويحسن الظن بربه، وفي العطاء يعلم أنه لا يستحق على الله شيئًا ولا يرى لنفسه فضلًا ولا ينظر لغيره نظرة دونية على وجه الازدراء، ويعرف لربه تعالى النعمة فيستفرغ الجهد في الشكر بأن يكون جاريًا على مقتضى مرضاة الرب في كل حال على حسب الاستطاعة.

قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الغنى والفقْر مطيّتان إلى الله تعالى، لا أبالي أيّهما ركبْت»[1].

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المعارج]؛ فالمسلم شخصية ثابتة في المحنة والمنحة؛ لا تبطره النعمة فينسى ويغتر، ولا تطير به المحنة فينقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

---

(١) أوْرده ابْن تيْمية في «مجْموع الفتاوى» (١١/ ١٢٣)، ونسبه محمّدُ بْن عليّ بْن عطيّة الحارثيّ في كتابه «قوت القلوب» (٢/ ١٠١١) إلى ابْن مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

- **رذيلة الجحود، وإنْكار الخيْر، أوْ التّعامي عنْه!:**

قد قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحْقِرَنَّ أحدُكمْ منْ المعْروف شيْئًا، ولوْ أنْ تلْقَى أخاك بوجْهٍ طَلْقٍ**»[1]، وقال ﷺ للنساء: «**لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولوْ فِرْسَن شاةٍ**»[2].

الفضل أصلًا لله تعالى، فإن عرف لربه فضله خضع قلبه وذلّ له، ثم انكفأت جوارحه تستفرغ الوسع في الخدمة والشكر للمنعم جل جلاله.. ومن هنا ينظر للناس أن الله تعالى أجرى الخير على أيديهم وأمره بشكر من أجري الخير على يديه؛ فإن الله تعالى يجري الفضل بقدره لخلقه على أيدي بعضهم لبعض، «**منْ لمْ يشْكرِ النّاس لمْ يشْكرِ الله**»[3]، يشكر الناس نظرًا إلى إرادتهم

---

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (١٨٣٣) أبْواب الأطْعمة- باب ما جاء في إكْثار ماء المرقة، عنْ أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحْقرنّ أحدكمْ شيْئًا من المعْروف، وإنْ لمْ يجدْ فلْيلْق أخاه بوجْهٍ طلْقٍ، وإنْ اشْتريْت لحْمًا أوْ طبخْت قدْرًا فأكْثرْ مرقته واغْرفْ لجارك منْه**»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٧٦٣٤) وقال: «صحيحٌ».

(٢) رواه أحْمدُ في مسْنده (٧٥٩١) منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه، وقال شعيْب الأرْنؤوط (١٣/ ٣٣): «إسْناده صحيحٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٧٩٨٩) وقال: «صحيحٌ».

(٣) رواه أحْمدُ في مسْنده (١١٢٨٠) وقال شعيْب الأرْنؤوط (١٧/ ٣٨٠): «حديثٌ صحيحٌ لغيْره»، وكذا التّرْمذيّ في جامعه (١٥٩٩) أبْواب البرّ والصّلة- باب ما جاء في الشّكْر لمنْ أحْسن إليْك، كلاهما منْ حديث أبي سعيدٍ الخدْريّ رضي الله عنه وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٦٥٤١) وقال: «صحيحٌ».

الخير وتوجههم نحوه ولو لم يملكوا تعبيرًا عنه إلّا القليل..

بل النظر إلى صفات الخير والحنو عليها والثناء عليها ومحاولة تنميتها هو باب عظيم للدعوة إلى الله تعالى، وهنا ننقل هذا الكلام الطيب والخيّر للأستاذ الشهيد «سيد قطب» رَحِمَهُ اللَّهُ.. لكن قبل نقله نقول أن هذا لا ينافي البراءة من العمل المخالف، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشّعراء]، لكن مع البراءة من المخالفة والانحراف يكون النظر إلى الجانب الخيّر لتنميته ومخاطبة الناس من خلاله، فلا بد من التوازن والجمع بين الأمرين.

يقول: «عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، نجد أن هناك خيرًا كثيرًا قد لا تراه العيون أول وهلة!.. لقد جربت ذلك؛ جربته مع الكثيرين.. حتى الذين يبدو في أول الأمر أنهم شريرون أو فقراء الشعور..

شيء من العطف على أخطائهم، وحماقتهم، شيء من الود الحقيقي لهم، شيء من العناية – غير المتصنعة– باهتماماتهم وهمومهم.. ثم ينكشف لك النبع الخيّر في نفوسهم ، حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم، في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك، متى أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص. إن الشر ليس عميقًا في النفس الإنسانية إلى الحد الذي نتصوره أحيانًا.

إنه في تلك القشرة الصلبة التي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء.. فإذا

أمنوا تكشفت تلك القشرة الصلبة عن ثمرة حلوة شهية.. هذه الثمرة الحلوة، إنما تتكشف لمن يستطيع أن يشعر من الناس بالأمن من جانبه، بالثقة في مودته، بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم،وعلى أخطائهم وعلى حماقتهم كذلك..

وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله، أقرب ممّا يتوقع الكثيرون.. لقد جربت ذلك، جربته بنفسي، فلست أطلقها مجرد كلمات مجنحة وليدة أحلام وأوهام!..

عندما تنمو في نفوسنا بذور الحب والعطف والخير نعفي أنفسنا من أعباء ومشقات كثيرة. إننا لن نكون في حاجة إلى أن نتملق الآخرين ؛لأننا سنكون يومئذ صادقين مخلصين إذ نزجي إليهم الثناء.

إننا سنكشف في نفوسهم عن كنوز من الخير وسنجد لهم مزايا طيبة نثني عليها حين نثني ونحن صادقون؛ ولن يعدم إنسان ناحية خيرة أو مزية حسنة تؤهله لكلمة طيبة.. ولكننا لا نطلع عليها ولا نراها إلا حين تنمو في نفوسنا بذرة الحب!..

كذلك لن نكون في حاجة لأن نحمل أنفسنا مؤونة التضايق منهم ولا حتى مؤونة الصبر على أخطائهم وحماقاتهم لأننا سنعطف على مواضع الضعف والنقص ولن نفتش عليها لنراها يوم تنمو في نفوسنا بذرة الحب! وبطبيعة

الحال لن نجشم أنفسنا عناء الحقد عليهم أو عبء الحذر منهم فإنما نحقد على الآخرين لأن بذرة الخير لم تنْم في نفوسنا نموًّا كافيًا ونتخوف منهم لأن عنصر الثقة في الخير ينقصنا!.

كم نمنح أنفسنا من الطمأنينة والراحة والسعادة، حين نمنح الآخرين عطفنا وحبنا وثقتنا، يوم تنمو في نفوسنا بذرة الحب والعطف والخير!.

حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحًا، أو أطيب منهم قلبًا، أو أرحب منهم نفسًا، أو أذكى منهم عقلًا، لا نكون قد صنعنا شيئًا كبيرًا.. لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبيل وأقلها مؤونة!.

إن العظمة الحقيقية أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع!.

إنه ليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا العليا ومثلنا السامية أو أن نتملق هؤلاء الناس ونثني على رذائلهم أو أن نشعرهم أننا أعلى منهم أفقًا.. إن التوفيق بين هذه المتناقضات وسعة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهد هو العظمة الحقيقية!»[١].

---

(١) أفْراح الرّوح (ص١٢-١٧).

• الفجور في الخصومة.. «النّذالة»:

نسيان سوابق الخير والمواقف الطيبة، وظهور إنسان جديد ممتليء شرًّا عند الخصومة، إنسان مطلع على عورات ويعلم ما لا يعلمه غيره ممن أمن له فشاوره في مشاكله وأشركه في خصوصياته، فيستغل هذا الفاجر في الخصومة هذه الفرصة ليؤذي المسلم أذًى لا يستطيعه غيره إذ إنه قد أمن له أخوه بما لم يأمن عليه غيره..

لكن أي أخٍ ذاك! لقد امتطى خصلة المنافقين واحتضنها صدره وانطلق يقطّع عرض أخيه ويفشي سره ليشفي غيظه الشيطاني ونطحه الحيواني؛ فاللهم إنا نعوذ برحمتك.

لقد أمست النذالة في أوقاتنا هذه مشكلة قومية، خاصة مع الانقلاب ومن تبعه من إسلاميين وغير إسلاميين، بل هو خلق عام في جاهليتنا اليوم[1].

بينما المؤمن يحفظ العهد قال ﷺ: «**وإنّ حسْن الْعهْد من الْإيمان**»[2]. فلم

---

(١) كما حدث في أعْقاب الانْقلاب الذّي حدث في مصْر عام ٢٠١٣م.

(٢) رواه الحاكم في المسْتدْرك على الصّحيحيْن (٤٠) كتاب الإيمان، منْ حديث عائشة رضي الله عنها، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرْط الشّيْخيْن فقد اتّفقا على الاحْتجاج برواته في أحاديث كثيرةٍ ولَيْس له علّةٌ»، وقال الذّهبيّ في التّلْخيص (١/ ٦٢): «على شرْطهما، وليْستْ له علّةٌ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٢٠٥٦) وقال: «حسنٌ».

ينس «خديجة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد وفاتها بأكثر من عشر سنين، يهش لأختها ويكرم صديقاتها ويقول كلمته الجميلة: «**إنّها كانتْ تأْتينا زمن خديجة**»(١)، صلى عليك الله.

المؤمن بين أمرين عند الخصومة، إما العدل وقد شرع له، وإما الصفح والعفو وقد أحبه الله ورسوله ورغّبًا فيه؛ قال ﷺ: «**وما زاد الله عبْدًا بعفْوٍ إلّا عزًّا**»(٢). والمؤمن يحفظ السر ويصون العهد، وهو أصيل كريم، صبور أمين على العهود.

- **رذيلة الألدّ الخصم:**

جاء في صحيح «البخاري»: «باب الألدّ الخصم، وهو الدّائم في الخصومة: ﴿**لُدًّا** ۝٩٧﴾ [مرْيم]: «عوجًا»، قال: حدّثنا مسدّدٌ، حدّثنا يحْيى بْن سعيدٍ، عن ابْن جريْجٍ، سمعْت ابْن أبي مليْكة، يحدّث عنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالتْ: قال رسول الله ﷺ: «**أبْغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصم**»(٣).

قوله: «الألد» جمعه اللدد: وهو الأعوج في المناظرة الذي يروغ عن

---

(١) انْظرْ تخْريج الحديث السّابق بتمامه.

(٢) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٦٩ (٢٥٨٨) كتاب البرّ والصّلة والآداب- باب اسْتحْباب الْعفْو والتّواضع، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتاب البرّ والصّلة والآداب.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه (٧١٨٨) كتاب الأحْكام.

الحق، وهو المعوج عن الحق المولع بالخصومة والماهر بها. والألد في اللغة الأعوج.

قوله: «الخصم» الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو إثبات باطل.

فهو شديد الخصومة ومكثر منها، يكثر مآخذ الجدال وهو معوجّ في مآخذه، ينقلب في لحظة ولا يلين لأخيه، شديد الخصومة ومكثر منها، وفي جداله حاذق يغلب ولو بالكذب، وقد يغلب من ظلمه هو قبلها؛ فيجمع على المظلوم ظلمين، وعند الله تجتمع الخصوم..

في المقابل قال ﷺ: «**ألا أخْبركمْ بمنْ يحْرم على النّار أوْ بمنْ تحْرم عليْه النّار، على كلّ قريبٍ هيّنٍ سهْلٍ**»(1).

• سوء الظنّ وتهْمة المسْلمين والتّسرّع فيهمْ:

حرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة بيته الحرام(2)، ثم فسر رسول الله

---

(1) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٤٨٨) أبْواب صفة الْقيامة والرّقائق والْورع، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٢٦٠٩) وقال: «صحيحٌ».

(2) روى التّرْمذيّ في جامعه (٢٠٣٢) قال: ونظر ابْن عمر يوْمًا إلى البيْت أوْ إلى الكعْبة فقال: «ما أعْظمك وأعْظم حرْمتك، والمؤْمن أعْظم حرْمةً عنْد الله منْك»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، وروى ابْن ماجة في سننه (٢٩٣٢) عنْ عبْد الله بْن عمر رضي الله عنهما، قال: رأيْت رسول الله ﷺ يطوف =

ﷺ أوجه هذه الحرمة، فعَدّدَ منها حُرمَة عِرْضِهِ، فقال: «**دمه وماله وعِرْضه، وألا يظنَّ به إلّا خيْرًا**»[1].

لكن سوء الظن شائع؛ فعنْ إسْماعيل بْن أميّة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يسلم منْهنّ أحدٌ، الطّيرة، والظّنّ، والْحسد**»، قيل: فما الْمخرج منْهنّ؟ قال: «**إذا تطيّرْت فلا ترْجع، وإذا ظننْت فلا تحقّق، وإذا حسدْت فلا تبْغ**»[2].

ورواه «الطبراني» بلفظ: «**ثلاثٌ لازماتٌ لأمّتي: الطّيرة، والْحسد، وسوء**

=

بالْكعْبة، ويقول: «**ما أطْيبك وأطْيب ريحك، ما أعْظمك وأعْظم حرْمتك! والّذي نفْس محمّدٍ بيده، لحرْمة الْمؤْمن أعْظم عنْد الله حرْمةً منْك، ماله ودمه، وأنْ نظنّ به إلّا خيْرًا**»، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٥٠٠٦) وقال: «ضعيفٌ». وروى البيْهقيّ في «الجامع لشعب الإيمان» عنْ ابْن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الْكعْبة، فقال: «**ما أعْظم حرْمتك**»، وفي رواية أبي حازمٍ لمّا نظر رسول الله ﷺ إلى الْكعْبة، قال: «**مرْحبًا بك منْ بيْتٍ ما أعْظمك وأعْظم حرْمتك، ولْلمؤْمن أعْظم حرْمة عنْد الله منْك، إنّ الله حرّم منْك واحدةً وحرّم من الْمؤْمن ثلاثًا: دمه، وماله، وأن يظنّ به ظنّ السّوْء**»، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٣٤٢٠).

(١) انْظرْ التّخْريج السّابق.

(٢) رواه ابْن قتيْبة في «تأْويل مخْتلف الحديث» (ص١٧١-١٧٢)، وقال بعْده: « هذه الْألْفاظ أوْ نحْوها»، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة» (٤٠١٩) وقال: «ضعيفٌ... وبالجمْلة؛ فالحديث ضعيفٌ مرْسلًا ومتصلًا؛ لأنّ مداره على ابْن إسْحاق؛ وهو مدلّسٌ وقدْ عنْعنه»، وأشار إلى صحّة الشّطْر الآخر منْ الحديث في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٣٩٤٢).

الظّنّ»، فقال رجلٌ: ما يذْهبهنّ يا رسول الله ممّنْ هو فيه؟ قال: «**إذا حسدْت فاسْتغْفر الله، وإذا ظننْت فلا تحقّقْ، وإذا تطيّرْت فامْض**»[1].

يعني لا تتمادى مع الظن إلى التحقق، ولا تتمادى مع الحسد فتبغض أو تبغي، ولا تتمادى مع الطيرة فتقعد عما توجهت إليه، بل أبطله بالمخالفة وامض لما عزمت.

ونهى تعالى عن كثير من الظن؛ لأن بعضه إثم، فلأجل ترك هذا البعض يجب ترك الكثير، ونهى تعالى عن التسرع في المسلمين: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦**﴾ [الحجرات]، وعاب تعالى على من خاض في عرض أم المؤمنين «عائشة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بسبب تلقي الكلام، لا بالأُذُنِ ثم العقل والتفكر؛ بل تلقيه باللسان، ﴿**إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ**﴾ [النّور:١٥]، مع الكلام بغير علم.

وروى ابْن حزْمٍ عنْ عمْرو بْن عثْمان بْن عفّان قال: «أتى عمر بْن الْخطّاب رجلٌ قدْ فقئتْ عيْنه فقال له عمر: تحْضر خصْمك فقال له: يا أمير الْمؤْمنين أما بك منْ الْغضب إلّا ما أرى فقال له عمر: فلعلّك قدْ فقأْت عيْني خصْمك

(١) رواه الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٣٢٢٧) منْ حديث حارثة بْن النّعْمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الهيْثميّ في «مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد» (٨/ ٧٨): «رواه الطّبرانيّ، وفيه إسْماعيل بْن قيْسٍ الأنْصاريّ وهو ضعيفٌ».

معًا، فحضر خصْمه قدْ فقئتْ عيْناه معًا، فقال عمر: إذا سمعْت حجّة الْآخر بان الْقضاء»[١].

فالتأني في حق المسلم من أحسن الأمور، وأسلم..

وقد رأينا من يتأنى فيهم يرزق بالستر، ومن تسرع فيهم قد يعاقب بتعجيل الظفر بعيبه جزاءً وفاقًا، ستر الله جميع المسلمين.

- **تشهّي الوقوع على عوْرات المسْلمين، والفرح بالظَفَرِ بعوْرة المسْلم!:**

لا تتعجب؛ فكثيرٌ من يتعامل مع عيب أخيه وعورته أو سقطته بنهم وتشهّي أعظم من الطعام الحلو المشتهى! لا أدري؛ قد تبرد نار بعض النفوس العاجزة عن الاستقامة بأن تفرح وتنشر عيب المستقيم حتى لا يبقى أحد أحسن منها فيذكّرها بتأخرها.. وفي الحديث: «**يا معْشر منْ آمن بلسانه ولمْ يؤْمنْ قلْبه، لا تغْتابوا المسْلمين ولا تتبّعوا عوْراتهمْ؛ فإنّه منْ تتبّع عوْرة أخيه تتبّع الله عوْرته، ومنْ تتبع الله عوْرته فضحه ولوْ في جوْف بيْته**»[٢].

---

(١) المحلّى بالآثار (٨/ ٤٣٦).

(٢) رواه أحْمدُ في مسْنده (١٩٨٠١) عنْ أبي برْزة الْأسْلميّ رضي الله عنه قال: نادى رسول الله ﷺ حتّى أسْمع الْعواتق، فقال: «**يا معْشر منْ آمن بلسانه، ولمْ يدْخل الْإيمان قلْبه لا تغْتابوا الْمسْلمين، ولا تتّبعوا عوْراتهمْ؛ فإنّه منْ يتّبعْ عوْرة أخيه يتّبع الله عوْرته حتّى يفْضحه في بيْته**»، وقال شعيْب الأرْنؤوط =

في الجانب الآخر كان العبّاد يخافون أن يأثم المسلمون! فكان بعضهم يبكي أن عصى أخوه ربه، بل رفض أحد السلف أن يمشي مع أخيه في طريق ما، لأنهم سيمرون على قوم قد يغتابونهم؛ فقال له أخوه: وما عليك منهم؟ فقال: يأثم المسلمون![1].

فهذا العابد الورع كريم الخلق، خاف أن يكتسب المسلمون إثما بسببه! فكيف يفرح المسلم بسقوط أخيه وهو قطعة منه؟!!.

بل أعظم من هذا كيف يفرح بسقوط داعية أو عالم أو رمز للمسلمين، وفي هذا انخفاض لدين المسلمين؟!! وفي المقابل انظر إلى تعبد رسول الله

=

(٣٣/ ٤٠): «صحيحٌ لغيْره، وها إسْنادٌ حسنٌ»، ورواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٠٣٢) أبْواب البرّ والصّلة- باب ما جاء في تعْظيم المؤْمن، منْ حديث ابْن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفْظ: «يا معْشر منْ أسْلم بلسانه ولمْ يفْض الإيمان إلى قلْبه، لا تؤْذوا المسْلمين ولا تعيّروهمْ ولا تتّبعوا عوْراتهمْ، فإنّه منْ تتبّع عوْرة أخيه المسْلم تتبّع الله عوْرته، ومنْ تتبّع الله عوْرته يفْضحْه ولوْ في جوْف رحْله»، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعْرفه إلّا منْ حديث الحسيْن بْن واقدٍ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٧٩٨٥) وقال: «صحيحٌ».

(١) روى ابْن الجوْزيّ في «المنْتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٧/ ٢١-٢٢) عنْ الأعْمش قال: «خرجْت أنا وإبْراهيم النّخْعيّ ونحْن نريد الجامع، فلمّا صرْنا في خلال طرقات الكوفة، قال لي: يا سليْمان، قلْت: لبّيْك، قال: هلْ لك أنْ تأْخذ في خلال طرقات الكوفة كيْ لا نمرّ بسفهائها فينْظرون إلى أعْور وأعْمش فيغْتابونا ويأْثمون؟ قلْت: يا أبا عمْران، وما عليْك في أنْ نؤْجر ويأْثمون؟ قال: يا سبْحان الله، بلْ نسْلم ويسْلمون خيْرٌ منْ أنْ نؤْجر ويأْثمون».

ﷺ فيقول لأصحابه: «**لا يخبرني أحدٌ عنْ أصْحابي شيئًا، فإني أحبّ أنْ أخْرج إليْكمْ وأنا سليم الصّدْر**»[1]، صلى عليه الله في الأولين والآخرين.

- **التّجسّس:**

وهو يستعمل في طلب الشر، بينما التحسس يستعمل في طلب الخير والاطمئنان على المسلمين؛ فكان رسول الله ﷺ يتحسس أحوال المسلمين ومن هذا قوله: ﴿**يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾ [يوسف:٨٧].

أما التجسس فهو ناتج من الآفتين السابقتين وغيرهما من آفات ضعف النفوس، كالفراغ وتدني الاهتمامات وهبوط النفوس، بينما ندب الشرع إلى ستر المسلم، «**ومنْ ستر مسْلمًا، ستره الله في الدّنْيا والْآخرة**»[2]. «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موؤودة من قبرها»[3]. وقد مر الحديث «**يا معْشر منْ آمن**

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (٣٧٥٩) بلفْظ: «**لا يبلّغني أحدٌ عنْ أحدٍ منْ أصْحابي شيْئًا؛ فإنّي أحبّ أنْ أخْرج إليْكمْ وأنا سليم الصّدْر**»، وكذا التّرْمذيّ في جامعه (٣٨٩٦) أبْواب المناقب- بابٌ في فضْل أزْواج النّبيّ ﷺ، كلاهما منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه. وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٦٣٢٢) وقال: «ضعيفٌ».

(٢) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٣٨ (٢٦٩٩) كتاب الذّكْر والدّعاء والتّوْبة والاسْتغْفار- باب فضْل الاجْتماع على تلاوة الْقرْآن وعلى الذّكْر، منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابْن حبّان في صحيحه (٥١٧) كتاب البرّ والإحْسان- باب الجار، منْ حديث عقْبة بْن عامرٍ رضي الله عنه، وقال الألْبانيّ في «التّعْليقات الحسان» (٢/ ٥١٩): «والمرْفوع ثابتٌ دون قوْله «في قبْرها». وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة» (٢٨٠٨) (٦/ ٣٢٧) وقال: «فأرى أنّ =

بلسانه ولمْ يؤْمنْ قلْبه، لا تغْتابوا المسْلمين ولا تتبّعوا عوْراتهمْ؛ فإنّه منْ تتبّع عوْرة أخيه تتبّع الله عوْرته، ومنْ تتبع الله عوْرته فضحه ولوْ في جوْف بيْته»[1].

• الغيبة:

تشتهي كثير من النفوس المريضة لوْك سيرة المسلم وذكر عيبه والتنقيص منه، فالغيبة ذكرك أخاك بما يكره، وهو عيب فيه وليس افتراء عليه؛ أما في حال الافتراء فهو البهتان[2].

الغيبة تذكر بها أخاك وهو غائب لا يستطيع دفعك عن لوْك عرضه، فأشبه الصّور بها هو أن تأكل لحمه وهو ميت[3]؛ إذ إن العرض كاللحم، وغيابه عنك

=

الحديث بهذا اللّفْظ «موْؤودة» حسنٌ على الأقلّ».

(١) سبق تخْريجه قريبًا.

(٢) روى مسْلمٌ في صحيحه ٧٠ (٢٥٨٩) كتاب الْبرّ والصّلة والْآداب- باب تحْريم الغيبة، عنْ أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنّ رسول الله ﷺ، قال: «**أتدْرون ما الْغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعْلم، قال: «**ذكْرك أخاك بما يكْره**»، قيل: أفرأيْت إنْ كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إنْ كان فيه ما تقول، فقد اغْتبْته، وإنْ لمْ يكنْ فيه فقدْ بهتّه**».

(٣) قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢**﴾ [الحجرات]، وروى أبو داود في سننه (٤٤٢٨) منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث رجْم ماعز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فسمع النّبيّ ﷺ رجليْن منْ أصْحابه يقول أحدهما لصاحبه: انْظرْ إلى هذا الّذي ستر الله عليْه، فلمْ تدعْه نفْسه حتى رجم رجْم الْكلْب، فسكت عنْهما، ثمّ سار ساعةً حتّى مرّ بجيفة حمارٍ شائلٍ

=

كغياب روحه وهو ميت، وعجزه عن دفع نهمك لعرضه بسبب غيابه، يشبه عجزه عن أكلك لحمه وهو ميت بسبب غياب روحه.. كف عن عرض أخيك، لمْ تكلّف إحصاء عيوبه وتسجيلها، لست حفيظًا عليه ولا وكيلًا على عمله ولا أنت مجازيه.

عقب الأفراح والمجامع يرجع بعض الناس إلى بيوتهم فيراكمون جبالًا من الغيبة عما شاهدوه، وبلا داع.

من أعظم أساب الغيبة الفراغ، فراغ القلوب من الاهتمامات العالية ومن الانشغال بإصلاح عيوب النفس ومن الاستعداد الحق للقاء الله.

ومن علاجه أن تنظر فيما تقول وما الفائدة في قوله!..

وإذا كنت سامعًا للغيبة ولم تنكرها أثمت أيضًا، إذا لم تنكر إذ رضيت، وإلا فيجب الإنكار أو المفارقة، وإذا مال قلبك فاسأله ما الفائدة فيما تسمعه! مع مراعاة ما هو مستثنى من الغيبة كالفاسق المجاهر للتحذير منه، وكالنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفع الأمر للقاضي.

=

برجْله، فقال: «**أيْن فلانٌ وفلانٌ؟**» فقالا: نحْن ذان يا رسول الله، قال: «**انْزلا فكلا منْ جيفة هذا الْحمار**»، فقالا: يا نبيّ الله، منْ يأْكل منْ هذا؟ قال: «**فما نلْتما منْ عرْض أخيكما آنفًا أشدّ منْ أكْلٍ منْه، والّذي نفْسي بيده، إنّه الْآن لفي أنْهار الْجنّة ينْقمس فيها**»، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (١٣٣٣) وقال: «ضعيفٌ».

من أفضل طرق علاجها كما قال السلف أن تفترض أخاك خلف أقرب جدار يسمع ما تقول فيه، فقل ما تحب أن يسمعه.. واتق الله؛ فقليل من خلا من هذه الآفة.

• النّميمة:

وهي السعي بين الناس ونقل الكلام على وجه الإفساد، وقال ﷺ: «**لا يدْخل الْجنّة نمّامٌ**»(١) وفي لفظ «**قتاتٌ**»(٢) والمعنى واحد. وقد أخبر بعذاب رجل في قبره لنميمته، وكان الرجل يراها أمرا صغيرًا(٣)..

إن خراب النفوس، وتشاحنها، والبغضاء بين الناس، وخراب البيوت، وإفساد المودة والصداقات، وتعادي الإخوة، وفض علائق الخير وصلات الإحسان بين الناس؛ كل هذا لا تحبه نفس عابدة ولا فطرة مستقيمة؛ فليرتدع

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٦٨ (١٠٥) كتاب الإيمان- باب بيان غلظ تحْريم النّميمة، منْ حديث حذيْفة بْن اليمان رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٠٥٦) كتاب الأدب- باب ما يكْره من النّميمة، منْ حديث حذيْفة بْن اليمان رضي الله عنهما.

(٣) روى البخاريّ في صحيحه (٢١٦) كتاب الوضوء- بابٌ: من الكبائر أنْ لا يسْتتر منْ بوْله، عن ابْن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال: مرّ النّبيّ ﷺ بحائطٍ منْ حيطان المدينة، أوْ مكّة، فسمع صوْت إنْسانيْن يعذّبان في قبورهما، فقال النّبيّ ﷺ: «**يعذّبان، وما يعذّبان في كبيرٍ**»، ثمّ قال: «**بلى، كان أحدهما لا يسْتتر منْ بوْله، وكان الآخر يمْشي بالنّميمة**». ثمّ دعا بجريدةٍ، فكسرها كسْرتيْن، فوضع على كلّ قبْرٍ منْهما كسْرةً، فقيل له: يا رسول الله، لم فعلْت هذا؟ قال: «**لعلّه أنْ يخفّف عنْهما ما لمْ تيْبسا**».

امرؤ مالت نفسه إلى الشر؛ فنار الشر والبغضاء المشتعلة لا تترك أحدًا، بل تأكل ما حولها. واجتماع المسلمين وتآلفهم من أعظم نعم الله تعالى عليهم، ويجب حفظها.

• طلب الرّياسة:

قال بعض السلف أنها آخر ما يخرج من رؤوس الصّدّيقين(١)..

وهي سبب في كفر «فرعون» وإبليس واليهود ورؤساء النصارى وهرقل، بينما في الشرع هناك فضل في خمول الذكر يعني عدم الشهرة، قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله يحبّ الْعبْد التّقيّ، الْغنيّ، الْخفيّ**»(٢). وأيضا قول رسول الله ﷺ: «**ربّ أشْعث أغْبر ذي طمْريْن مدْفوعٍ بالأبْواب، لوْ أقْسم على الله لأبرّه**»(٣). وقال ﷺ: «**الشّعْثة رؤوسهمْ الخمصة بطونهمْ المغْبرّة أقْدامهمْ، الّذين إذا**

---

(١) قال ابْن قدامة المقْدسيّ في «مخْتصر منْهاج القاصدين» (ص٢٠٩): «ولذلك قيل: آخر ما يخْرج منْ رؤوس الصّدّيقين حبّ الرّياسة».

(٢) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١١ (٢٩٦٥) كتاب الزّهْد والرّقائق، منْ حديث سعْد بْن أبي وقّاصٍ رضي الله عنه.

(٣) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٣٨ (٢٦٢٢) كتاب البرّ والصّلة والآداب- باب فضْل الضّعفاء والْخاملين، منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه، بلفْظ: «**ربّ أشْعث، مدْفوعٍ بالْأبْواب لوْ أقْسم على الله لأبرّه**»، وكذا الترمذيّ في جامعه (٣٨٥٤) أبْواب المناقب- باب مناقب البراء بْن مالكٍ رضي الله عنه، من حديث أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، بلفظ: «**كمْ منْ أشْعث أغْبر ذي طمْريْن لا يؤْبه له لوْ أقْسم على الله لأبرّه منْهم البراء بْن مالكٍ**».

حضروا لمْ يؤْبهْ لهمْ، وإنْ غابوا لمْ يفْتقدوا، لوْ قسم نور أحدهمْ يوْم القيامة على أهْل الموْقف لوسعهمْ»[1]؛ وذلك لخلوص أعمالهم وقلة تبعاتهم، وهذه الآفات موجودة في الشهرة.

وفي الحديث أيضا أن: «**الإمارة خزْيٌ وندامةٌ يوْم القيامة**»[2]؛ وذلك لعظم المسؤولية وضعف النفوس؛ فلا شيء أسلم من العافية ما وجدت إلى ذلك سبيلًا، ولا تتقدم إلا إذا تعين عليك الأمر ولم تجد من يكفيك.

- **غلبة الشّهْوة وتحكّمها في الإنْسان وتحْريكها له:**

خسر رجل آتاه الله آياته، وخصّه بها، خسر ما آتاه الله بسبب غلبة الشهوة عليه، للمال أو النساء أو الحنين للقوم... الخ، أو لغيرها من نتن الأرض..

﴿ **وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ** ﴾ الآيات [الأعْراف].

---

(١) رواه أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٢/ ٨١)، وأوْرده ابْن الجوْزيّ في صفة الصّفْوة (ص٥٣٥) منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة» (٦٢٧٦) وقال: «منْكرٌ جدًّا».

(٢) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٦ (١٨٢٥) كتاب الإمارة- باب كراهة الْإمارة بغيْر ضرورةٍ، منْ حديث أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه، بلفْظ: «**يا أبا ذرٍّ، إنّك ضعيفٌ، وإنّها أمانة، وإنّها يوْم الْقيامة خزْيٌ وندامةٌ، إلّا منْ أخذها بحقّها، وأدّى الّذي عليْه فيها**».

بينما جاء في الأثـر: أن الله سبحانه وتعالى يحب العقـل الكامـل عنـد ورود الشهوات ويحب البصر الناقد عند ورود الشبهات[1].

مـع غلبـة الـشهوة يكـون سـقوط الهمـة ودنـاءة الاهتمـام وخـسة الإرادة والتدني الحيواني وانطماس البصيرة وتلف الفطرة وفقدان العلم ورفع حـواجز الخير والهبوط انحدارًا إلى أسفل سافلين.. فاللهم سلّم.

ومـع غلبـة الـشهوة تكـون حرارتهـا المتقـدة في قلـب صـاحبها قـد غلبـت صبره، ولو غلـب صـبره شـهوته لرفعـه الله، فلمـا غلبـت شـهوته صـبره انـتكس وانتكست معه الفطرة.

غلبة الشهوة تعني تلطخ الضمير وتلوث الفطرة ووهن القلب.

والعلاج في الصبر لله والتصبر به، والاستعاضة بالمباح، والرغبة فيمـا عنـد الله من جنس ما ترك؛ أعظم وخيرًا، والانـشغال بالمعـالي والغايـات العظيمـة، وعــدم الفــراغ، وامــتلاء الحيــاة بالأهــداف العظيمــة والعمــل والتخطـيط لإنجازهـا، والرياضـة سـبيل أيـضا، والـسمو الروحـي بالتعبـد؛ فيغلـب القلـب

---

(١) رواه أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٦/ ١٩٩)، والبيْهقيّ في الزّهْد الكبير (٩٥٤) وقـال: «تفـرّد بـه عمـر بْـن حفْـصٍ»، والقـضاعيّ في مـسْند الـشّهاب (١٠٨٠) جميعهـمْ مـنْ حـديث عمْران بْن حصيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرْفوعًا، ومداره على عمر بْن حفْصٍ، وقدْ ضعف، وأوْرده ابْن تيْمية في غيْر موْضعٍ منْ «مجْموع الفتاوى» ووصفه بالإرْسال (٧/ ٥٤٠)، (٢٩/ ٤٤).

والروح سعار الميل الشهواني.

ومن استقرت مراكبه ملأ حب الله قلبه واستغنى به عن حب غيره، واستمتع وتلذذ بالقرب منه ذكرًا وعبادة وقصدًا حتى يجعل بقية اللذّات في مواضعها وفي حجمها، ومن استقر في قلبه الخوف من الله تعالى طرد منه الشهوات المحرمة.. والله الهادي والعاصم.

- **إطْلاق البصر وتتبّع الحرمات:**

وهو من جنس ما سبق، وكف البصر أول مرة أيسر مما بعده، وينجي من مهالك ومن تعلق القلوب وتشوف النفوس وخلل الاهتمامات والميل العظيم بعد ذلك.. وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسْراء:٣٢]، فهو نهي عن القرب وليس عن مجرد الفعل، فهو نهي عن الفعل وعمّا يؤدي إليه؛ وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النّور:٣٠]، فنهى عن مبدأ المحرم وغايته؛ فالنظر مبدأ المحرم وارتكاب فاحشة الزنا هي الغاية، وأخبر بأن في هذا زكاة للنفوس؛ تطهيرًا من شرها وتنميةً لخيرها.

- **داء الكلام!:**

أوَداءٌ هو؟!!.. نعم، وأيّما داء!..

زرع سريع، وحصاده ضخم التأثير، بخير كان أو بشرٍّ..

الأصل أن يؤمر الإنسان أن يتكلم بالخير وأن يصمت عن الشر[١]، ولكن لما غلب الطيش وكثرة الكلام غير النافع أوصى رسول الله ﷺ بحفظه فقال لـ «معاذ بن جبل» رضي الله عنه: «**أمْسكْ عليْك هذا**»[٢]، وأشار إلى لسانه..

وأوصى كثير من السلف بحفظ اللسان، حتى قالوا أنه: «ما منْ شيْءٍ أحقّ بِطُولِ حبْسٍ منْ اللّسان»[٣]، وكان بعضهم يعاقب نفسه لو تكلمت فيما لا يعنيها بصوم سنة!..

ودخل «عمر» على «أبي بكْرٍ» رضي الله عنهما، فوجده يمسك لسانه، فقال له: «مهْ!»، فقال: «هذا الّذي أوْردني الموارد»[٤].

---

(١) روى البخاريّ في صحيحه (٦٠١٨) كتاب الأدب- بابٌ: منْ كان يؤْمن بالله واليوْم الآخر فلا يؤْذ جاره، منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ كان يؤْمن بالله واليوْم الآخر فلا يؤْذ جاره، ومنْ كان يؤْمن باللّه واليوْم الآخر فلْيكْرمْ ضيْفه، ومنْ كان يؤْمن بالله واليوْم الآخر فلْيقلْ خيْرًا أوْ ليصْمتْ**».

(٢) رواه أحْمدُ في مسْنده (٢٢٠١٦)، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٣٦/ ٣٤٥): «صحيحٌ بطرقه وشواهده»، وكذا الترْمذيّ في جامعه (٢٦١٦) أبْواب الإيمان- باب ما جاء في حرْمة الصّلاة، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٥١٣٦) وقال: «صحيحٌ».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه أبو يعْلى في مسْنده (٥)، وابْن السّنّيّ في «عمل اليوْم واللّيْلة» (٧) باب حفْظ اللّسان واشْتغاله بذكْر الله تعالى، والبيْهقيّ في «الجامع لشعب الإيمان» (٤٥٩٦)، وأوْرده الألْباني في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٥٣٥).

ولا بد من النظر فيما تكتب الملائكة، واليقين بلقاء الله وإحصاء الكلمات وأثرها وما أثّرت في غيره من خير أو شر.. ويسأل العابد نفسه ماذا أستفيد من هذه الكلمة؟.

يقول «الحسن البصري» أنه منذ خمسة عشرة عامًا لم يتكلم بكلمة إلا سأل نفسه قبلها أتكتب له أم عليه؟، فكان ذلك الإمام ورفعه الله تعالى.

وعنْ الرّبيع بْن منْذرٍ قال: سمعْت أبي يقول: كان عنْد الرّبيع بْن خثيْمٍ رهْطٌ، فجاءتْه ابْنته فقالتْ: يا أبتاه أذْهب ألْعب؟ فقال: اذْهبي فقولي خيْرًا، غيْر مرّةٍ، قال: فقال القوْم: أصْلحك الله، وما عليْك أنْ تقول لها؟ قال: وما عليّ أنْ لا يكْتب هذا في صحيفتي![1].

نعم هو تدقيق منه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لكننا نطلب مراجعة الكلمة المحرمة والآثمة والمغتابة والجارحة والتافهة!.

- **التَّهَوُّك والحيرة.. «التّردّد»:**

وهو ناتج إما من ضعف العلم والبينة والبرهان، وعلاجه أن يطلب الدليل والعلم والبينة، ولهذا كانت البصيرة من الفرائض التي أمر الله تعالى بها، وقد أمر تعالى بطلب الدليل والبرهان، وأمر بالتفكر فيما خلق، وفيما أنزل، وفي

---

(١) صفة الصّفْوة (ص٥٤٤).

حقائق الأمور وتقليبها، ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ:٤٦].

أو يكون التَّهَوُّك والحيرة والتردُّد ناتجًا من ضعف الإرادة، بينما وجّه الله تعالى لقوة الإرادة؛ فمدح أولي العزم من الرسل، وذكر عن معصية «آدم» عليه السلام: ﴿فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه]، فلامه على هذا، وأمر نبيه ﷺ بالعزم: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وأمر تعالى عمومًا بالصبر والاعتصام به والتوكل عليه والمضي في الطريق.

وعاب تعالى التراجع عن الخير فقال: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾ [الأنعام:٧١]، وفسّرها الصحابة والتابعون أن الآية مثال لرجل كان على هدى مع رفقة صالحة ثم تراجع وانحرف وظفرت الشياطين به بسبب هواه،﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾، ونزلت به في أغراض الأرض وشهواتها، بينما أصحابه المهتدون لا يزالون يدعونه للرجوع إلى الهدى ليعود، لكنّ الحيران المتردد غارق في حيرته.. هدانا الله وإياك ورشّدنا.

وهنا تعلم قيمة الثبات وقيمة الرشد والمعنى العظيم للآية، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ ﴾ [الحجرات]، صدق الله العظيم وشملنا بفضله العظيم.

- **رذيلة ضعْف الإرادة.. والتّبعيّة والإمّعيّة والاعْتماد على الآخرين:**

وهو أمر غريب وحالة متفردة تعتري الإنسان وهي أن يعاني الإنسان من وجود إرادته! ويبحث عمن يتحملها عنه ويأخذ القرارات نيابة عنه!!.

بينما جاء القرآن بأمر فصْل، وكرّر بيانه مرارًا، وهو أن التنازل عن الإرادة جريمة، وأوضح أن قومًا، بل أممًا، دخلوا النار بسبب ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ [إبراهيم:٢١]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ [الأعراف]! ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النّحل]..

وذكر رسول الله ﷺ أن من أهل النار هذا الصنف: «وأهْل النّار خمْسةٌ»، ثم ذكر أولهم: «**الضَّعيف الّذي لا زَبْرَ له، الّذين همْ فيكمْ تَبَعًا لا يبْتغون أهْلًا ولا مالًا**»[1] ومعنى «لا زَبْرَ له» يعني لا عقل له يردعه عن المحرّم، و«همْ فيكمْ

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٦٣ (٢٨٦٥) كتاب الْجنّة وصفة نعيمها وأهْلها- باب الصّفات الّتي يعْرف بها في الدّنْيا أهْل الْجنّة وأهْل النّار، منْ حديث عياض بْن حمْارٍ المجاشعيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تبعٌ» فلا إرادة ولا همة، «لا يبْغون أهْلًا ولا مالًا»، هو سقوط الهمة عن أمر الدنيا والآخرة وهو أمر مذموم، فالله تعالى يحب صاحب الهمة لا ساقطها، ويقرر شيخ الإسلام أن سقوط الهمة عن أمر الدنيا والآخرة لا يمدح صاحبها بل يذم، وهو من أهل النار.

إن النار يدخلها من غوى «في إرادته وشهوته» اتباعًا لغيره، ومن ضلّ «في فهمه وعلمه» اتباعًا لغيره..

إنك ستحاسب وحدك، وتموت وحدك وتقبر وحدك وتحشر وحدك، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم]، فإن تنازلت عن إرادتك وشخصيتك اليوم فستعود لك حين موتك لتبكي على تضييعك لإرادتك وأخذك لقرارك.. وستعلم حينها أن من امتلك إرادته ونجا لم يكن يملك أمرًا حرمت أنت منه، بل أمرًا تنازلت أنت عنه، وستعلم أن من تبعته في باطل غوايةً أو ضلالًا لم يكن يزيد عنك شيئًا.

إن الطواغيت والمستبدين المحليين، والدول المستعمرة، يحاولون صنع هذا النموذج، والقرآن في المقابل يصنع نموذجًا مقابلًا متحرّرًا ومتحكمًا في إرادته، وآخذًا لقراره على بصيرة وبينة، ويمضي في الطريق لا يلتفت ولا يتراجع، وإن عاقه عائق فتوقف قليلًا أو اعتراه حائل لا يلبث أن ينتفض وينفض العائق ويمضي، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ

﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].. ولذا كان الإسلام حياة جديدة، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].. صدق الله.

وليكن في بالك أن قوة الإرادة ومضاء العزيمة لا يناقض المشورة؛ فأقوى الخلق وأعلاهم همة وأمضاهم عزيمة، رسول الله ﷺ، كان أكثر الناس مشاورة، لكن كان إذا اتخذ قراره وعزم توكل على الله ولم يتراجع حتى يقضي الله له.

إن المرء العاقل، والخامة المنظمة والشخصية السوية يستطيع:

١. **أولًا**: أن يحدد البدائل، ويعطي لكل بديل قيمته وأهميته، وتنمية البدائل للوصول للأفضل وتلافي العيوب.

٢. **ثانيًا**: الاختيار الصحيح، ولا عليك أن تخطيء فهو ليس عيبًا طالما بذلت وسعك وجهدك وستتعلم، فمع التجربة والتكرار يتحسن الاختيار وتصبح الإصابة أكثر.

٣. **ثالثًا**: القدرة على تحديد الهدف والعمل والجد والمثابرة، والتصميم الذي يعين في الوصول إلى الغايات الصحيحة شرعًا.

- **الالْتـواء:**

وهو ناتج من الضعف والاستسلام له، وهو من شيم المنافقين..

وهو داء منتشر ومتعمق في بيئاتنا التي سيطر عليها الخوف والقمع لعقود طويلة؛ إذ إنه من نواتج الاستبداد الذي يفسد الشعوب على المدى الطويل ويخرج لنا - ومنّا- خامات تالفة لا تصلح لشيء؛ لا لتحمل قضايا ولا لإخلاص لمبدأ ولا ثبات على معتقد.

لقد أصبح الكثير من الناس يحتمون بهذا الخلق الذميم، حتى لم تعد تستطيع أن تقف على حقيقتهم بسهولة، وأما الصادق الواضح فقليل هو وعملة نادرة.. بل لقد أصبح هذا الخُلُق الذميم مشكلةً قوميةً!!.

لا سبيل للتخلص منه إلا بالصدق ومواجهة النفس ومواجهة حقائق الأمور، للإنسان أن يعمل ويواجه بقدر ما يقدر عليه، ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وللمؤمن ألا يُحَمِّلَ نفسه ما لا يطيق؛ لأنه «**لا ينْبغي للمؤْمن أنْ يُذِلَّ نفْسَه**»[(١)]، وهذا المأخذ سيكسب الإنسان قوة على مدى الأيام واختلاف المواقف؛ لأن الوضوح ومحاولة الارتقاء الحقيقي ستثمر، وجمع

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (٢٣٤٤٤)، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٣٨/ ٤٣٥): «إسْناده ضعيفٌ»، وكذا التّرْمذيّ في جامعه (٢٢٥٤) أبْواب الفتن، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، كلاهما منْ حديث حذيْفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٧٧٩٧) وقال: «صحيحٌ».

العزيمة والتشجع سيؤتي ثمرته مع الأيام، وأعظم ذلك كله التوكل على الله؛ فما أقواه وأقوى صاحبه!.

لكن لا عذر في الالتواء وعمق المسارب ووعورة الدروب لتصل إلى حقيقة معتقد أو مشاعر أو مواقف أو مبادئ الإنسان؛ إذ هو الخاسر في هذه الحال، كما تخسر القضايا والمباديء والعقائد حين لا تجد نفوسًا سوية تحملها.

بل هذا داء عام في العالم المعاصر؛ لقد كان العربي الجاهلي فظًّا وجاهلًا وغليظًا في رفضه، لكن ميزته أنه كان واضحًا، فلو آمن لكان بنفس القوة في الخير.. أما اليوم فميوعة الشهوات والْتواء وتلف خاماتٍ وضعف نفوس.

- الكذب.. جامع الشّرور وأصْلها:

وهو الرذيلة المستلزمة لعامة الشرور، «**وإنّ الكذب يهْدي إلى الفجور**»[1]؛ والمعنى أن الكذب خلل في القوة العلمية، ومن ثم يؤدي إلى الخلل في القوة العملية وهو الفجور.

بينما الصدق هو صحة واستقامة القوة العلمية ومن ثم يؤدي إلى صلاح واستقامة القوة العملية ولهذا قال ﷺ: «**وإنّ الصّدْق يهْدي إلى البرّ**»[2] ولهذا

(١) سبق تخْريجه.

(٢) سبق تخْريجه مع سابقه.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر]، فأخبر أن الصدق والتصديق يقتضي التقوى، بل والإحسان.

الكذب يكون في الكلمة بالكذب في الأخبار والوعود؛ وهو المعنى المتبادر بين الناس.

والكذب يكون في الادعاء فيدعي حالًا ليس له.. وعند الموقف يتهاوى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠]، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت]، فجعل الصدق والكذب في الادعاء.

والكذب يكون في الموقف، فمن الناس من يصدق في الموقف وآخرون يكذبون، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [محمّد]، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التّوبة].. بينما ثبت «أنس بن النضر» رضي الله عنه – وأمثاله– ووفى بما عاهد الله عليه؛ فإنه لما غاب عن قتال يوم بدر قال: «لئنْ أشْهدني الله قتال المشْركين ليرينّ – روايتان

بالفتح والضم على الياء- الله ما أصْنع»، فلما كان يوم أُحُد وانكشف الناس تقدَّم واعتذر عن إخوانه الذين تراجعوا، وتبرأ مما فعل الكفار؛ وقاتل حتى كان به بضع وثمانون ضربة بين ضربة ورمية وطعنة، قال «أنس بْن مالكٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكنّا نُرى أنَّ هذه الآية نزلتْ فيه وفي أمْثاله، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحْزاب:٢٣][1].

والكذب يكون في المنهج؛ فمن سلك سبيل الله فقد صدّق الله وصدق مع الله وصدق عن الله، قال الله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩].

وكما سبق فالصدق يجعل صاحبه خليقًا بالتقوى ويوصف بالإحسان، ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزّمر]، وقد حسن جزاؤهم جدًّا؛ فتجاوز الله لهم عن أسوأ ما فعلوا - والأقل سوءا أولى من باب أوْلى- وجازاهم بأعلى مستوى وصلوا إليه، ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ

(١) متّفقٌ عليْه، رواه البخاريّ في صحيحه (٢٨٠٥) كتاب الجهاد والسّير- باب قوْل الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحْزاب:٢٣]، ومسْلمٌ في صحيحه ١٤٨ (١٩٠٣) كتاب الإمارة- باب ثبوت الْجنّة للشّهيد.

أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزّمر].

بينما من ترك المنهج الرباني فهم الكاذبون، بل وهم الخليقون بهذا الوصف دون غيرهم؛ إذ كفروا بالله أو ارتدوا عن دينه، ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ [النّحل]، فجعل تعالى أولى الناس بوصف الكذب من كفر وافترى على الله، ومن ارتدّ عن دينه هو أولى بوصف الكذب لأنه ادّعى أن دين الله باطل ولذا ارتدّ عنه، وهي من أعظم شهادات الكذب على الإطلاق.

وجعل تعالى منهجهم دعوة إلى النار، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ ... وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ ... أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٢١].

فإن تعددت وكَثُرَت عليك الأمور، فالْزم تجنب الكذب، والْزم في المقابل الصدق تظفر بخير كثير.. جعلنا الله وإياك ممن يقول الله فيهم يوم القيامة: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة:١١٩].

❁❁❁❁

▪ تعْليقٌ عامٌّ على ترْك الرّذائل:

جاء في الأثر: «**اجْتنبْ المحارم تكنْ أعْبد الناس**»[1]، إذ إن تركها يمنع الحجب التي ترين على القلوب وتعرضه للجراح؛ إذ إن «الذّنوب جرّاحاتٌ؛ وربّ جرْح وقع في مقْتلٍ»[2].. وقد توقع العبد في هاوية غضب الرب، وقد تسقطه من عين الله.

ومن الكلمات المهمة كلمة «سهل التستري» رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول: «أعْمال البر يفْعلها البرّ والفاجر، ولكنّ ترْك الذّنوب لا يقْوى عليْها إلّا صدّيق»[3].

---

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٣٠٥) أبْواب الزّهْد- بابٌ: منْ اتّقى المحارم فهو أعْبد النّاس، مرْفوعًا عنْ أبي هريْرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ يأْخذ عنّي هؤلاء الكلمات فيعْمل بهنّ أوْ يعلّم منْ يعْمل بهنّ**»؟ فقال أبو هريْرة: فقلْت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعدّ خمْسًا وقال: «**اتّق المحارم تكنْ أعْبد النّاس، وارْض بما قسم الله لك تكنْ أغْنى النّاس، وأحْسنْ إلى جارك تكنْ مؤْمنًا، وأحبّ للنّاس ما تحبّ لنفْسك تكنْ مسْلمًا، ولا تكْثر الضّحك، فإنّ كثْرة الضّحك تميت القلْب**»، وقال: «هذا حديثٌ غريبٌ لا نعْرفه إلّا منْ حديث جعْفر بْن سليْمان والحسن لمْ يسْمعْ منْ أبي هريْرة شيْئًا. هكذا روي عنْ أيّوب، ويونس بْن عبيْدٍ، وعليّ بْن زيْدٍ، وروى أبوعبيْدة النّاجيّ، عن الْحسن، هذا الْحديث قوْله: ولمْ يذْكرْ فيه عنْ أبي هريْرة، عن النّبيّ ﷺ»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٠٠) وقال: «حسنٌ».

(٢) الفوائد لابْن القيّم (ص٥٥).

(٣) رواه أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (١٠/ ١٩٦) بلفْظ: «ليس منْ عمل بطاعة الله صار حبيب الله ولكنْ من اجْتنب ما نهى عنْه الله صار حبيب الله، ولا يجْتنب الْآثام إلّا صدّيقٌ مقرّبٌ، وأمّا أعْمال الْبرّ يعْملها الْبرّ والْفاجر»، وأيْضًا (١٠/ ٢١١) بلفْظ: «أعْمال الْبرّ يعْملها الْبرّ =

وترك المحارم تصفية للقلب ليؤتي ثمرة ومقتضى ما فيه مما فطر عليه من العلم والفطرة السوية ومحبة الله وإرادته، وبهذا يطْهر الوعاء الذي يحمل العلم وهو محل قصد الربِّ ومحبته وإرادة وجهه، وفي المقابل هو محل نظر الربِّ سبحانه.

فالذنوب نجاسات تعْلق بالقلوب ويجب التطهر منها، ولهذا جاء في الحديث الدعاء: «**اللّهمّ باعدْ بيْني وبيْن خطاياي، كما باعدْت بيْن المشْرق والمغْرب، اللّهمّ نقِّني من الخطايا كما يُنَقَّى الثَّوْب الأبْيض من الدَّنس، اللّهمّ اغْسِلْ خطاياي بالْماء والثَّلْج والبرَدِ**»(١).

وهنا تُؤتِي العبادة أثرها وعائدها على القلب ومقتضاها، إذ إن العبادة لها مقتضيات، ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ**﴾ [العنكبوت:٤٥]، ﴿**كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣**﴾ [البقرة].. ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١**﴾ [البقرة]، ﴿**وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩**﴾ [البقرة].

=

والْفاجر ولا يجْتنب الْمعاصي إلّا صدّيقٌ».

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٧٤٤) كتاب الأذان- باب ما يقول بعْد التّكْبير، منْ حديث أبي هريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، ولم تؤت عباداته لله مقتضياتها الأخلاقية والواقعية فليراجعها فإن بها خللًا منع من ذلك، والله الهادي والموفق للخير.

- **قاعدةٌ نفيسةٌ:**

ومما ينبغي معرفته أن من المحارم ما يكفي مجرد الترك لها لامتثال الأمر كترك الربا والغيبة والنميمة وأمثال ذلك.

ومن الذنوب ما لا يتم تركها إلا بوجود عمل آخر، كالرياء لا يتم تركه إلا بتحقيق الإخلاص، والنفاق لا يتم تركه إلا بالاعتصام والإخلاص، ومثل كتمان العلم لا يتم التخلص منه إلّا ببيان الحق والصدع به، والتخلف عن الجهاد لا تتمّ التوبة منه إلّا بالنفير.. وأمثال ذلك.

- **قاعدةٌ ربّانيّةٌ.. لا تيْأسْ، فالحياة ممْكنةٌ في أيّ لحْظةٍ:**

هنا قاعدة كبيرة وطوق نجاة دائم.. ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد:١٧]، والمعنى أنه مهما وصلت القلوب إلى حال من اليأس منها، بل إلى الموت؛ فإن الله تعالى يحييها كما يحيي تعالى برحمته الأرض بعد موتها..

من أي نقطة في وحل المحرمات وصلت إليها يمكن أن ترجع.. فقط ارجع، وعد فالله أوْلى بك، يمكن أن تغتسل من ذنوبك وتتطهر منها، في الأثر

«أوْحى اللهُ إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: يا داود لوْ يعْلم المدْبرون عنّي انْتظاري لهمْ ورفْقي بهمْ وشوْقي إلى ترْك معاصيهمْ، لماتوا شوْقًا إليّ ولتقطّعتْ أوْصالهمْ لمحبّتي، يا داود هذه إرادتي بالمدْبرين عنّي، فكيْف بالمقْبلين عليّ»[1]، والأصح سندًا منه قوله ﷺ في الصحيحين: «لَلَّهُ أشدُّ فرحًا بتوْبة عبْده حين يتوب إليْه، منْ أحدكمْ كان على راحلته بأرْض فلاةٍ، فانْفَلَتَتْ منْه وعليْها طعامه وشرابه، فأيِسَ منْها، فأتى شجرةً، فاضْطجع في ظلّها، قدْ أيِسَ منْ راحلته، فبَيْنَا هو كذلك إذا هو بها، قائمةً عنْده، فأخذ بخطامها، ثمّ قال منْ شدَّة الْفرح: اللهمّ أنْت عبْدي وأنا ربّك، أخْطأ منْ شدّة الْفرح»[2].

وهو تعالى ينتظر رجوعك كل ليل وكل نهار، «يبْسط يده باللّيْل ليتوب مسيء النّهار، ويبْسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيْل»[3].

لا تتلقى هذا على أن تتباطأ فقد تهلك هناك ويدركك الأجل، ولكن نقول

---

(١) أوْرده القشيْريّ في «الرّسالة القشيْريّة» (ص٥٣٦) باب الشّوق، وكذا الغزاليّ في «إحْياء علوم الدّين» (٤/ ٣٢٦)، منْ غيْر إسْنادٍ.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٣٠٨) كتاب الدّعوات- باب الدّعْوة، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومسْلمٌ في صحيحه ٧ (٢٧٤٧) كتاب التوْبة- بابٌ في الْحضّ على التّوْبة والْفرح بها، واللّفْظ له، منْ حديث أنس بْن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٣١ (٢٧٥٩) كتاب التّوْبة- باب قبول التّوْبة من الذّنوب وإنْ تكرّرت الذّنوب والتّوْبة، كتاب منْ حديث أبي موسى الأشْعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ارجع بأعجل ما يكون، ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ**﴾ [آل عمران:١٣٣]، فالعجلة إلى الله والمسارعة إليه عبودية.

* * *

أنْت أوْلى بالفضائل

التّحلي بالفضائل

التخلي عن الرذائل لا يكفي في نفسه؛ إذ إن المطلوب من ترك الرذائل تخلية القلب وفطرته ليتلقى الهدى، ولتأخذ في الخير وتتحلى بالفضائل؛ فالخير وجودي، ولا بد أن يغرس ويؤتي ثماره حتى يملأ قلب الإنسان وحياته فيمنع الشر ويقطع الطريق على الرذائل أن تتسلل إلى الإنسان.

ونذكر هنا عناوين سريعة، بعضا منها أشرنا إليه ضمنًا كنقيض للرذائل، ونذكر بعضًا نرى أنه يستحق أن يفْرد بالذكر إما لأهميته في نفسه أو أهميته بخصوص واقعنا، وإما لعدم التنبه له في التوجيه الإسلامي المعاصر.

ولهذا نقول أن من الفضائل المهمة التي ينبغي التحلي بل والتدرع بها..

- **الصّدْق والوفاء:**

كقوة علمية وتؤدي لصلاح القوة العملية، كما سبق..

والصدق المطلوب في الكلمة والخبر والوعد، وفي الموقف والعهد، وفي المنهج المتخذ وطريقة الحياة..

والصدق هو تفريد الطلب، وهو أن تأتي بكافة نفسك لربك، لا تترك منها شيء متبطلًا أو موزعًا على أغراض أخرى؛ ومن شعر بالخوف وأدرك عظمة

ما نحن مقدمون عليه أمام الله تعالى جدّ في الرحيل وصدق في الطلب.

والصدق في المواقف المتخذة هو حصيلة صدق سابق؛ فيوفّي صاحبه وقت الحاجة، ويوفقه الله للوفاء والثبات.

والموقف تربية، والوفاء فيه هو قفزة وسموّ يحدث مع الوفاء والصدق في محله؛ وهو تربية للنفس وارتفاع بها، وتربية للغير وقدوة حسنة، هكذا ربّى رسول الله ﷺ أصحابه، وهكذا ربّى أصحابه من بعدهم، بل وعلّموا الدنيا كلها، وأسلم الناس بسببهم ودخلوا في دين الله أفواجًا للصدق في المواقف، كما أسلم الكثير من أهل «حمص» لما قام به «أبو عبيدة» رضي الله عنه معهم، وكما أسلم من اليهود والنصارى خلق كثير، وكما أسلم الناس في شرق آسيا؛ وكما أسلم أقباط مصر وبربر أفريقيا - واستعربوا جميعًا- كلهم كان إسلامهم بسبب الصدق في مواقف مكلّفة لأصحابها ويغرمون بسببها؛ لكن الصدق يحول بينهم وبين الخيانة والخذلان والإخلاف في مواطن الوفاء؛ لهذا ألحقنا خلق الصدق بخلق الوفاء؛ لأنهما شريكان وصنوان لا يفترقان، والله الموفق.

- الإِخْلاص:

وهو تفريد المطلوب سبحانه فلا يطلب غيره؛ وهو يستلزم اليقين؛ فلا بد من اليقين ومن التعظيم ومن سقوط ما دون الله تعالى من عين العبد؛ إذ لا شيء من هذه الدنيا يستحق الالتفات إليه والعمل من أجله.

وبالتالي ينصرف بكلّيته وقلبه إلى الله والدار الآخرة، إذ هو يضنّ بعمله وبلحظات عمره أن تكون لغير الله تعالى.

والقاعدة في الإخلاص أن تدرك بقلبك وتضع أمام ناظريك هذا المعنى؛ أنه ليس هناك غير الله إلهٌ تتوجه إليك بقلبك، وليس هناك غير الله من يستحق أن تلتفت إليه، وليس هناك من حمْده زين، وذمه شيْن غير الله، بل الله وحده مدحه هو الزَّيْن وذمه هو الشَّيْن، وما سواه فإن مدحوك والله يعلم خلافه فمدحهم ساقط يوم القيامة وبلا قيمة في الدنيا ولا في الآخرة، وسينقلب إلى ذم عاجلًا أو آجلًا.

كما أن ذم الناس لك بالباطل لن يضرّك إن كان الله تعالى يعلم خلاف ما يقولون؛ فقد ذمّوا الرسل ولم يضروا الرسل بذمّهم بل أبقى الله مدحهم في العالمين، وذم الرافضة أصحاب رسول الله ﷺ وأبقى الله ذكر أصحاب رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة.. وهكذا الأمر فلا تلتفت إليهم والْزم البحث عن مدح ربك فهو الزيْن، وابتعد عن ذمه تعالى فهو الشين.

وليس هناك من تبحث عن نظره أن يراك إلا الله، ولا من تبحث عن أن يسمع كلامك إلا الله، ولا من تبحث عن أن يعلم بقلبك وحالك إلا الله..

وهنا يستوي المادح والذامّ، والسر والعلن وإقبال الناس وإدبارهم..

والمخلص موضوعي جادٌّ لا يبهرج ولا يزخرف، يبلغ الهدف ويعمل

بجد، ومبارك في خطوه ومؤيد في عمله، وهو أقوى من غيره، مستبشر ومبشر وراجي الخير ومنتظر الوعد، ووعد الله للمخلص أنه: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [الليل].

- **طلب المعالي والتّرفّع عنْ الدّنايا:**

في الأهداف، والغايات، والأخلاق، والخصومات، والاهتمامات..

ومثل هذا يتغافل عن كثير من الصغائر والدنايا والخلافات المتقزمة، فاهتمامته أعلى وأكثر شغلًا عن أن يهبط أو يستجيب لهبوط من تدنّى اهتمامه أو لدواعي السفاسف.

- **البساطة واليسْر:**

فهو واضح، قريب، سهل، هين ليّن، هش بش، يألف ويؤلف، ويحب ويحب؛ يندمج في مجتمعه بسهولة، وفي الصف المجاهد كذلك، إنه لبنة صالحة لأن يشد غيره إليه في تراصّ لبنات من أجل إقامة هذا الدين وفعل الخير.

قال تعالى لنبيه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص]، وفي الحديث: «**آكل كما يأْكل الْعبْد، وأجْلس كما يجْلس الْعبْد فإنّما أنا عبْدٌ**»[1].

---

(١) رواه أبو يعْلى الموْصليّ في مسْنده (٤٩٢٠) منْ حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، دون قوْله «**فإنّما أنا عبْدٌ**»، =

وفي الحديث: «هوّنْ عليْك، فإنّي لسْت بملكٍ، إنّما أنا ابْن امْرأةٍ منْ قريْشٍ، كانتْ تأْكل القديد»[١].

سهل في كلامه ومنطقه؛ غير متقعر ولا متفيهق ولا متشدق، سهل في مشيته غير متعجرف يكاد ينكسر! سهل في ملبسه وطعامه وشرابه، في علمه وعمله وعبادته، وفي جملة أموره، ولو خير بين الأمور اختار أيسرها، ما لم يكن إثما، كما فعل نبيه ﷺ[٢].

الشهادات والألقاب والأموال ليست حواجز بينه وبين الناس، وليست منْسيةً له أنه عبد، بل هو هو؛ العبد البسيط والمتواضع وسهل المعاملة، ومثل هذا فليبشر بمعاملة من الله من جنس ما عامل به خلقه وعبيده.

=

والبيْهقيّ في «الجامع لشعب الإيمان» (٥٥٧٢) عنْ يحْيى بْن أبي كثيرٍ مرْسلًا. وأوْرد الألْبانيّ الموْصول في «صحيح الجامع الصّغير» (٧)، والمرْسل كذلك (٨) وقال فيهما: «صحيحٌ».

(١) رواه الحاكم في «المسْتدْرك على الصّحيحيْن» (٤٣٦٦) كتاب المغازي والسّرايا، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه، منْ غيْر لفْظ «فإنّي لسْت بملكٍ»، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرْط الشّيْخيْن، ولمْ يخرّجاه»، وقال الذّهبيّ في التّلْخيص (٣/ ٥٠): «على شرْط البخاريّ ومسْلمٍ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٧٠٥٢) وقال: «صحيحٌ».

(٢) روى البخاريّ في صحيحه (٣٥٦٠) كتاب المناقب- باب صفة النّبيّ ﷺ، عنْ عائشة رضي الله عنها، أنّها قالتْ: «**ما خيّر رسول الله ﷺ بيْن أمْريْن إلّا أخذ أيْسرهما، ما لمْ يكنْ إثْمًا، فإنْ كان إثْمًا كان أبْعد النّاس منْه**»، وكذلك مسْلمٌ في صحيحه ٧٧ (٢٣٢٧) كتاب الفضائل- باب مباعدته ﷺ للْآثام واخْتياره من الْمباح، أسْهله وانْتقامه لله عنْد انْتهاك حرماته.

وقد مرّ حديث رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار؟ قالوا بلى يارسول الله قال على كل هيّن ليّن قريب سهل»(١).

• التّواضع وهضْم النّفْس:

فالمؤمن، عبد الله، لا يرى نفسه شيئًا؛ إنما هو بربه، وحيث وضعه ربه وأفضل عليه.

ومنة الله عليه بأمر ديني أو دنيوي لا يعني أن ينسب المنة لنفسه، ومهما أجرى الله على يديه من الخير فلا يعني هذا بلوغه المعالي ولا يعني ذلك الانتفاشة والاستطالة على عبيده، بل يجب أن يعلم هذا الحديث: «**إنّ الله ليؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر**»(٢)، وهذا ما يخيف الصالحين ويخفف من سوْرة نفوس العاملين مهما قدموا لهذا الدين.

تواضع المؤمن يعرف في كلامه وملبسه وفي سمته وهديه، وفي تقديمه

---

(١) رواه أحْمدُ في مسْنده (٣٩٣٨)، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٧/ ٥٣): «حسنٌ بشواهده»، وكذا التّرْمذي في جامعه (٢٤٨٨) أبْواب صفة الْقيامة والرّقائق والْورع، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، كلاهما منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٢٦٠٩) وقال: «صحيحٌ».

(٢) رواه أحْمدُ في مسْنده (٨٠٩٠) منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه، وقال شعيْب الأرْنؤوط (١٣/ ٤٥٤): «صحيحٌ على شرْط الشّيْخيْن»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (١٨١٣) وقال: «صحيحٌ».

لإخوانه على نفسه؛ بل يرى نفسه في ساقة إخوانه، إلّا أن يقدموه في أمر يحسنه، فيسد ثغرة لله فيتقدم؛ لأن في هذا مرضاة ربه ومصلحة المسلمين، لا ليظهر أو يترأس على الخلق.

- **شدّة البأْس:**

تواضع المؤمن ولينه هو مع إخوانه، وأما في مواجهة الكافرين وفي حمل المؤمن لقضيته فهو شديد البأس صلب المراس صلب الموقف، حازم وحاسم في توجهه، يموت دون مبدئه، مؤثّرا بالتثبيت والثبات فيمن حوله.. فلله دره من خامة طيبة.

أخي إنّني اليوْم صلْب المراس ❋ أدكّ صخور الجبال الرّواسي
غدًا سأشيح بفأْس الخلاص ❋ رؤوس الأفاعي إلى أنْ تبيدْ[1]

- **الجدّيّة والمثابرة:**

فالمؤمن جادٌّ في أهدافه فلا يدّعي أهدافًا غير منطقية..

وإذا استهدف أمرا فهو ذو نفس طويل وصبر ومثابرة طالبًا إحدى الحسنيين؛ النصر أو الموت دون هدفه.

(١) منْ قصيدةٍ بعنْوان «أخي أنْت حرٌّ وراء السّدود» للأسْتاذ «سيّد قطْب» رَحِمَهُ اللهُ.

لا ينسى قضيته أبدًا، ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة]؛ فلا ييأس ولا ينسى؛ فلا تنسيه الأيام ولا سعة الدنيا ولا ضيقها ولا شواغل تفاصيل الحياة قضيته..

فهو يرتب حياته على أساسها ووفقها إلى أن يلقى الله عز وجل فيكفيه شرفًا أن يموت وغبار الطريق إلى الله في قدميه.

- **منظّمٌ.. نفْسيًّا وعقْليًّا:**

فهو متزن العاطفة؛ لا يسمح لأحد ولا لشيء أن يستبدّ به أو يبتزه من خلال عاطفة كاذبة أو دغدغة مشاعر، فينسى عقله وقيمه ومبادئه أو ينسى حقائق الفطرة وبداهة العقول؛ كما هو مدخل المضلين مع أتباعهم..

إن المؤمن يعرف ماذا يريد ويرتب على وفقه حياته ترتيبًا صحيحًا؛ مرتب في عمله وإنفاقه وشخصه وبيته وولده؛ غير متطلع إلى الغير ولا مقارن لحاله بحال أحد، إلا من هو فوقه في الدين ليتأسى في الخير، ولمن دونه في الدنيا ليحمد الله؛ كما أمَرَ «محمد» ﷺ..

ولأن أمور الدنيا إنما هي زاد إلى الآخرة فهو يرتب حاله بما يحقق هدفه وهو الوصول إلى ربه سبحانه وتعالي موفيًا أمانته.

- **الكـرم:**

يتمرّس على البذل والعطاء، لو لـم يكـن كريمًـا بطبعـه تـدرّب حتـى يعتـاد على الكرم؛ فكما جاء في الحديث أن العلـم بـالتعلم والحلـم بـالتحلم[١]، فكـذا يكون الكرم والشجاعة بالتكرّم والتشجّع حتى يعتاد الخير.

كرم المال فيعطي ما فرض الله وما تعين عليه في موقف، وما يسر بـه لظـل يوم القيامة وليطفيء حر القبور، كما ينفق الطعام والكسوة.

ومن الكـرم كـرم العلـم، وكـرم النـصيحة، وكـرم الخلـق؛ فيبـذل مـن سـعة خلقـه وبـشاشة وجهـه للنـاس؛ كمـا في الحـديث: «**إنّكـمْ لـنْ تـسعوا النّـاس بأمْوالكمْ، ولكنْ يسعهمْ منْكمْ بسْط الْوجْه وحسْن الْخلق**»[٢].

- **الشّجاعـة:**

ننصح أن يتربى الأبناء في بيئة تكسبهم الشجاعة، وهكذا يكـون المـؤمن إذ

---

(١) روى الطّبرانيّ في المعْجم الأوْسط (٢٦٦٣) عنْ أبي الـدّرْداء رَضِوَاللَّهُعَنهُ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «**إنّـما الْعلْم بالتّعلّم، وإنّما الْحلْم بالتّحلّم، منْ يتحرّى الْخيْر يعْطه، ومنْ يتّق الـشّرّ يوقـه**»، وأوْرده الألْبـانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٢٣٢٨) وقال: «حسنٌ».

(٢) رواه البزّار في «البحْر الزّخّار» (٨٥٤٤)، وكذا أبو يعْلى الموْصليّ في مسْنده (٦٥٥٠)، كلاهمـا مـنْ حديث أبي هريْرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ، قال حسيْن سليم أسد (١١/ ٤٢٨): «إسْناده ضعيفٌ جدًّا»، وقـال الهيْثمـي في «مجْمـع الزّوائـد ومنْبـع الفوائـد» (٨/ ٢٢): «رواه أبـو يعْلـى والْبـزّار... وفيـه عبْـد الله بْـن سـعيدٍ الْمقْبريّ وهو ضعيفٌ».

الجبن خلق ذميم نفاه رسول الله ﷺ عن نفسه: «**ثمّ لا تجدوني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذّابًا**»(١)، والشجاعة والكرم قرينان، كما أن الجبن والبخل قرينان، وقد أمر النبي ﷺ بالاستعاذة منهما: «**وأعوذ بك منْ الجبْن والبخْل**»(٢).

واعلم أن كل ذم في القرآن لتخلف المنافقين والأعراب عن الجهاد هو ذم لجبنهم كخلق، لأنه مرض في قلوبهم منعهم من الإقدام مع رسول الله ﷺ.

والشجاعة تكتسب؛ فبالتشجع تكون، كما أن العلم بالتعلم والحلم وبالتحلم، وقد رغّب فيها رسول الله ﷺ ولو على قتل حية.. وهنا يكون المقدام الذي لا يهرب بين الجماهير ولو في الباطل ليسْلَم، بل هو المتقدم - بلا تهور - فيشهد للحق ويدحض الباطل، ويَظْهَرُ به ضعف الباطل وخوره.

- **المروءة:**

التي دفعت «موسى» كليم الله عليه السلام لينقذ ضعيفتين، ويسقي لهما لما فرّط قومهما في خلق المروءة، ومن المروءة أنه لم يستعمل هذا العمل لغرض أو هوى محرم؛ بل استعمله فيما أمر الله ووقف حيث أمر الله.

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه (٢٨٢١) كتاب الجهاد والسّير - باب الشّجاعة في الحرْب والجبْن، منْ حديث جبيْر بْن مطْعمٍ رضي الله عنه، بلفْظ: «**ثمّ لا تجدوني بخيلًا، ولا كذوبًا، ولا جبانًا**».

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه (٦٣٦٥) كتاب الدّعوات - باب التّعوّذ منْ عذاب القبْر، منْ حديث سعْد بْن أبي وقّاصٍ رضي الله عنه، بلفْظ: «**اللّهمّ إنّي أعوذ بك من البخْل، وأعوذ بك من الجبْن...**».

ومن المروءة ألا تفعل في السر ما تستحيي من فعله في العلانية ولو كان مباحًا لكن متدنيًا.

ومن المروءة أن تترك ما تسقط به من العيون لمنافاته مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ كالجلوس في مواضع شبهة أو مواضع تكثر فيها المعصية ولو لم تفعل المعصية بنفسك كالمقاهي، أو الأكل في الطريق أو بطريقة لا تليق أو المزاح الجارح أو الألفاظ النابية؛ إذ من المقصود للمؤمن أن يحتفظ بِسَمْتِ الكرام وهديهم ورزانة الصالحين.

واعلم أنه ليس من فراغ اشتراط علماء الحديث وصف المروءة لتحقق صفة العدالة فيمن يقبلون منه الحديث، لأن هذا من شيم العلم وما يقتضيه، وهو مظنة لحفظ العلم والديانة.

- **مقابلة السّيّئة بالحسنة.. «الفتوّة»:**

وهو خلق ذكره تعالى مؤهلًا لدخول الجنة، فبعد صفات متعددة قال تعالى: ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ**﴾ [الرّعْد]..

فمن أخلاق الكرام ألا يتشفى من خصمه في حال كونه مظلومًا وقادرًا على الانتقام والتشفي، فيستعلي على الموقف وعلى حظ نفسه ليكسب ما هو أزكى له، ﴿**وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمْران:١٣٤].

إلا أن يكون الأمر خاصًّا بدين الله، فيجب نصره وألا يتنازل عن شيء منه، بل يجب رفعة دين الله ونصرة الحق؛ فيجب التفريق بين حق الله وحق النفس؛ فحق النفس يندب فيه إلى العفو، وحق الله يجب الغضب له تعالى فلا تنتهك محارمه.

- **العفّة:**

ومعناها جميل كاسمها، وهو من العناوين الأخلاقية لهذا الدين، «**قال: ويأْمرنا بالصّلاة والصّدْق والعفاف والصّلة**»[1]، وهو من الأخلاق التي دعا بها رسول الله ﷺ ربه، وعلمها أمته: «**اللهمّ إنّي أسْألك الْهدى والتّقى، والْعفاف والْغنى**»[2].

العفة عن الشهوة الحرام وعن عرض غيرك، عفة النظرة وعفة الكلمة وعفة اللمسة وعفة الفرج عما حرم الله سبحانه وتعالى.

وكذا عفة البطن عن أكل ما حرم الله من سرقة وربا واختلاس ونهبة وشبهة وسحت ورشوة .. وأمثال هذه المحرمات.

والعفة ألا يستشرف إلى ما عند الناس ولا يسألهم ما في أيديهم؛ فيتعفف

---

(١) سبق تخْريجه منْ حديث ابْن عبّاسٍ عنْ أبي سفْيان رضي الله عنهم.

(٢) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٧٢ (٢٧٢١) كتاب الذّكْر والدّعاء والتّوْبة والاسْتغْفار- باب التّعوّذ منْ شرّ ما عمل ومنْ شرّ ما لمْ يعْملْ، منْ حديث عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنه.

عن النظر إلى الغير ويتعفف عن المسألة؛ ففي الحديث: «**ومنْ يسْتعْففْ يعفّه الله**».

والتعفف عن السؤال من الفضائل التي ندب إليها رسول الله ﷺ، وهي من كمال التوكل، وهي من صفات الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ولهذا أسرّ النبي ﷺ إلى بعض أصحابه ببيعة خصّهم بها، فقال: «**بايعوني على ألّا تسْألوا النّاس شيْئًا**»، قال الراوي فوجدت بعضهم يكون على جمله، فيسقط سوطه؛ فلا يقول لأحد ناولنيه، بل ينيخ جمله وينزل بنفسه ليأخذه[1].. وهذا حماية لجناب التوحيد إذ إن أصل المسألة لغير الله تعالى محرمة، وأبيح منها ما تدعو إليه الحاجة فيما يقدر عليه الإنسان وهو حي من خلال الأسباب والمسببات الظاهرة، وبقي ترك المسألة استغناء بالله تعالى في مجال الفضل، قال ﷺ: «**ومنْ يسْتعْففْ يعفّه الله، ومنْ يسْتغْن يغْنه الله**»[2].

---

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٠٨ (١٠٤٣) كتاب الزّكاة- باب كراهة الْمسْألة للنّاس، منْ حديث عوْف بْن مالكٍ الأشْجعيّ رضي الله عنه، قال: كنّا عنْد رسول الله ﷺ، تسْعةً أوْ ثمانيةً أوْ سبْعةً، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» وكنّا حديث عهْدٍ ببيْعةٍ، فقلْنا: قدْ بايعْناك يا رسول الله، ثمّ قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، فقلْنا: قدْ بايعْناك يا رسول الله، ثمّ قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، قال: فبسطْنا أيْدينا وقلْنا: قدْ بايعْناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «**على أنْ تعْبدوا الله ولا تشْركوا به شيْئًا، والصّلوات الْخمْس، وتطيعوا - وأسرّ كلمةً خفيّةً- ولا تسْألوا النّاس شيْئًا**»، فلقدْ رأيْت بعْض أولئك النّفر يسْقط سوْط أحدهمْ، فما يسْأل أحدًا يناوله إيّاه.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه (١٤٢٧) كتاب الزّكاة- باب لا صدقة إلّا عنْ ظهْر غنًى، منْ حديث =

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصْل سؤال الْخلْق الْحاجات الدّنْيويّة الّتي لا يجب عليْهمْ فعْلها ليْس واجبًا على السّائل ولا مسْتحبًّا، بلْ الْمأْمور به سؤال الله تعالى والرّغْبة إليْه والتّوكّل عليْه. وسؤال الْخلْق في الْأصْل محرّمٌ، لكنّه أبيح للضّرورة، وترْكه توكّلًا على الله أفْضل قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشّرْح]، أيْ ارْغبْ إلى الله لا إلى غيْره وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التّوْبة]، فجعل الْإيتاء لله والرّسول لقوْله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشْر:٧]، فأمرهمْ بإرْضاء الله ورسوله. وأمّا في الحسْب فأمرهمْ أنْ يقولوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [التّوْبة:٥٩]، لا يقولوا: حسْبنا الله ورسوله. ويقولوا: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التّوْبة]، لمْ يأْمرْهمْ أنْ يقولوا: إنّا لله ورسوله راغبون، فالرّغْبة إلى الله وحْده»(١).

التعفف يكون مع الحاجة فيترك من أجل الله، استغناء به عن خلقه؛ استغناء بالمسبب تعالى عن السبب الْتفاتًا لرب العالمين وتركًا للمكروه

=

حكيم بْن حزامٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(١) مجْموع الفتاوى (١/ ١٨١).

وأخذًا بالمستحب، حماية لجناب التوحيد وخلوص المسألة لـرب العـالمين؛ فتاح العفة الاستغناء بالله عمّن سواه.

• الصّلـة:

بإطلاقها الذي استحبه الله تعالى وأطلقه في كتابه، ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرّعْد:٢١]، في مقابـل الفاسـقين ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة:٢٧].

وإطـلاق الـصلة مقـصود لله تعـالى؛ فتـشمل الـصلة مـع الله بوفـاء عهـده بالتوحيـد وامتثـال أمـره، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعْراف:١٧٢]؟، وصلة رسله بالتصديق والطاعة والمتابعة والتأسي، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائـدة:٧]، وصـلة أخوّة الإسلام والعقيدة، وصلة الـرحم، وخاصـة الوالـدين برًّا وصـلة وخدمـة وتعظيمًا وأدبًا ورحمـة، وصـلة الجـار بـالخير وكـف الـشر عنـه، وصـلة جـار الطريـق في شـارع أو مركبـة، وصـلة زميـل العمـل بـالخير والعـون، وصـلة أصحاب العهود السابقة من جـار سـابق وزميـل سـابق ومعرفـة، فـلا يجحـدها المؤمن، بل يذكرها ويصلها أو يبلّها بالخير.

• الشّعور بالمسْؤوليّة والإحْساس بالتّبعة:

إذا نظرت إلى عظمة الكون وسعته، وعرفت أن عدد النجوم أكثر من عدد التراب على الأرض، وعلمت أنه إلى الآن وصل الناس بالنظر بالتليسكوبات إلى مجرات تقع على بعد ١٣ مليار سنة ضوئية، ولم يصلوا بعد إلى آخر مواقعها، بل لا يزال هذا الكون الممتد.

وعلمت أن كل هذا، ما في السماوات والأرض، مخلوق من أجلك أنت ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [الجاثية:١٣]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**ابْن آدم، خلقْت كلّ شيْءٍ لك، وخلقْتك لي، فبحقّي عليْك لا تشْتغلْ بما خلقْته لك عمّا خلقْتك له**»(١).

فإذا علمت أن كل هذا مخلوق من أجل النظر إلى ما تقول وتعمل وتعتقد وتعزم وتتخذ من مواقف.. أنت المقصود من وراء كل هذا.

عندئذ تشعر بمسؤولية الكلمة، ومسؤولية الموقف، إيجابًا وسلبًا، مسؤولية كل عمل والنظر إلى ما ينتجه من آثار، مسؤولية المشاعر والعقائد والتفكير والتوجه، بل مسؤولية الحياة نفسها.. هذا حال العابد المهاجر في حياته؛ ولذا فهو من ناحية متحرج من أي خطأ أو تقصير، ومن ناحية أخرى

---

(١) أوْرده ابْن القيّم في «طريق الهجْرتيْن وباب السّعادتيْن» (ص٢٤١).

يجمع كل طاقته للقيام بالعبودية والطاعة والأمانة والتكليف والمصلحة كما أمره الله وكما يحب الله تعالى.

فنعم اللبنة ونعم الخامة التي تصلح بها الأمم حين يوضع في أي مجال عام يفيد الأمة، من سياسة أو اقتصاد أو إعلام أو مهام مجتمعية.

- **الإيجابيّة:**

تجاه أزمات الأمة وطموحها، تجاه حال المجتمع، وتجاه كل حدث يمر بك إذا ما امتلكت أي قدرة على عمل إيجابي، في مجال الأسرة والرحم والجار، أو الحال العام للأمة وقضاياها.

ولو عجز المسلم عن العمل الإيجابي الفعّال تبرأ من كل مخالفة وانحراف؛ ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿٢١٦﴾ ﴾ [الشّعراء]، وقال ﷺ: «**فمنْ كره فقدْ برئ، ومنْ أنْكر فقدْ سلم، ولكنْ منْ رضي وتابع**»[1]، وهذا عامٌّ في كل منكر ومعصية.

إن المسلم لا تصح عقيدته وإيمانه إلا بالبراءة من الشرك وأهله، ومن تبديل الشرائع، ومن الولاءات القومية والوطنية المقدمة على دين الله

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ٦٣ (١٨٥٤) كتاب الإمارة- باب وجوب الإنْكار على الأمراء فيما يخالف الشّرْع، وترْك قتالهمْ ما صلّوْا، ونحْو ذلك، منْ حديث أمّ سلمة رضي الله عنها.

والمعارضة له.

وهو مسؤول عن الانحرافات العامة وعن دوره في التغيير.. ومن العجز أن يسكت الجميع ويستقر الظلم وينتشر الفساد ويثمر ثماره البشعة، ويذوق الخلق مرارة العاقبة، وتضيع مقدرات الأمة وتنتشر الإباحية والإلحاد والعلمانية وتنحية الإسلام وشريعته وهويته ويحارب، ويعاني من الظلم ملايين، وتموت أحلام، ويقهر شباب أمة وتتخلف في ذيل الأمم؛ بينما هناك من يزعم أنه يتعبد لله لا يبالي بهذا ولا يأسى لها قلبه، ولا يسعى في تغيير الحال - إن لم يقرّ به!!- حتى يتصدّر للتغيير صنف آخر من الفاسدين أو محاربي الإسلام، ليأتوا بديلًا عن فساد آخر فيبقى الناس بين أنواع من العلمانيين وأصناف من الفاسدين وتبقى الأمة يهان دينها ويحارب وتستنزف في مقدراتها وتنهار!.

إن العلاقة بالله تعالى تجعل المؤمن شاعرًا بالمسؤولية رافضًا للظلم مبادرًا في الخير ساعيًا في التغيير، وهذا معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد واللسان والقلب، بحسب الاستطاعة وبحسب الأنسب لكل ظرف.. كما أن الإسلام هو محور الإصلاح للخلل العقدي، وللخلل الأخلاقي، وللانحراف في المال العام، ولمواجهة الاستبداد، وللمظالم عموما..والله المستعان.

- **المراقبة:**

الشعور بمعية الله تعالى، وقربه، ونظره إلى العبد وسمعه لما يقول وعلمه بخواطر نفسه؛ فيراقب الله في كل حال وفي كل حين؛ وهو شعور عميق يجعل العلاقة بالله علاقة حية نابضة مستمرة دائمًا وليست على فترات متقطعة! بل لا تغيب مراقبة الله عن قلب المؤمن أبدًا.. كما لا يغيب ذكْره تعالى.

وهذا يجعل ضميره حيًّا ويقظًا، ويجعل فيه من الحساسية تجاه كل مخالفة، بل يخشى من كل ما قد يضر في الآخرة؛ وهو الورع.

- **التّحرّر:**

هذه سمة فريدة لهذا الدين؛ فلا استعباد لهوى أو شهوة، ولا لسلطة أو حاكم، بل الجميع محاكم إلى شريعة محددة وقوانين واضحة، لا يستأثر بتفسيرها طبقة أو كهنوت بل من يملك أدوات الفهم والاجتهاد.

إذا قَصَرَ المؤمن خوفَه من الله فلم يَخَفْ غيرَه، عندئذ يتحرر من الخوف، خاصة من القوى الأرضية الظاهرة.. عقيدة واضحة؛ فالله وحده هو الضار النافع، فيتحرر من الأوهام.

وإفراد ربه بالطاعة يحرره من الهوى والشهوة فيملك هو شهوته، ويملك هواه فيخضعه للقوانين الربانية التي تصلحه وتصلح غيره.. يتحرر من كل ما يأسر قلبه سوى ربه تعالى.

يجب أن يتربّى على ذلك المؤمن، سواء كان فردًا، أو ما تتربى عليه الأسرة من العزة والإباء، وتعلم أبناءها ذلك.. وكذلك على مستوى الأمة التي تتعلم - وتمارس- هذه الحرية، في ظل عبودية الله وحده، فتحرر من الأوهام «الجبت»، ومن الأوضاع الظالمة «الطاغوت».

بهذا تعود للإنسان عزته وكرامته التي يجدها في هذا الدين، وبهذا المستوى عندما يُمَارَس فعلًا في واقع الأمة قائدًا ومهيمنًا على الحياة.

- عزيزٌ منيعٌ:

لا يُسْتَذَلُّ ولا يُسْتَبَاحُ؛ فهو مُهَابُ الجانب لاستقامته وقوته في أمره، ولما يأخذ من الأسباب المادية بحنكة حتى لا يُسْتَبَاحَ نهبةً للخلق.

المؤمن مُسْتَعْصٍ على التضليل والتخييل والإيهام؛ فعنده من العقل ما يمتنع به، «فالعقْل هو نورٌ في القلْب، يزْداد بالطّاعة»(١)، كما عند المؤمن من البصيرة والنور واليقين والحجة المتلقاة من الله تعالى، وعنده من القواعد ومنهج التفكير الذي استفاده من القرآن العظيم والشرع الحنيف ما ينور له عقله؛ فلا يستخف به طاغية ولا يتلاعب بعقله مأجورون.. إنه المؤمن.

---

(١) لابْن تيْمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

- **الاسْتغْناء بالله والكفاية به:**

يجد المؤمن في الله تعالى الكفاية ممن سواه فلا يذل لسلطان ولا لحاجة.

يستكفي بالله ويرضى به هاديًا ونصيرًا، ومُطْعِمًا وساقيًا، وشافيًا ومعافيًا، وساترًا وغافرًا، ومُعَلِّمًا ومُنجِيًا.

- **لا يسْتكين أمام قوى الباطل الظّاهرة:**

إن ظهرت قوى الباطل وانتفشت إلى حين؛ فنافقها الساقطون، يتأبّى المؤمن.. إنه لا ينكسر نفسيًّا أمام باطل ولا يركن ولا يستكين.. بل يبقى صلبًا بدينه صابرًا معتزًّا بالله وآملًا ومُستبشرًا في ربه تعالى وفي قَدَرِهِ في غَدِهِ القريب كما في غد الدنيا كلها يوم الدين.

لا يفارقه حسن ظنه بالله فهو واثق من ربه، وواثق من طريقه وخطوه..

- **محْسنٌ:**

محسن في علاقته بالله تعالى، يطلب المعالي، يطلب الإحسان في معاملة الخلق، فيجعل مستوى تعامله مع عبيد الله تعالى مستوى الفضل والإحسان؛ وهذا ليس سهلًا أبدًا، فالأمر ثقيل ولا بد من الدربة حتى يتطبع بهذا الخلق في علاقاته وتصرفاته.. وفي هذا جاء الأمر الجامع لمكارم الشيم ومحاسن الأخلاق، أخلاق النبوة: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعْراف]، وتفسيرها لرسول الله ﷺ وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ

سأل «جبْريل» عَلَيْهِ السَّلَام عن معناها فقال له: «**يا محمّد إنّ الله يأْمرك أنْ تصل منْ قطعك، وتعْطي منْ حرمك، وتعْفو عمّنْ ظلمك**»(١).. فاستعن بالله.

- **متفـاني:**

فهو متقن لما يعمل بإخلاص وتجرد، فلا يحتاج إلى من يراقبه؛ فوازعه الداخلي أكبر من أي مراقبة بشرية.

- **عنْد المؤْمن برْد اليقين وسكينة الاطْمئْنان:**

مطمئن في دينه وعقيدته، ليس عنده سُعُر الشك ونار الحيرة وتهوك المتردد، بل يقينه ناتج عن بصيرة وطمأنينة والصلة بالله والثقة فيه والأنس به، والاطمئنان إلى الله، والاطمئنان إلى قدره، بعيدًا عن الشك والحيرة والتردد فعنده الحجة والبرهان وهو على بينة من ربه.

- **قائمٌ بالقسْط والعدْل لله:**

فقيمة العدل مقدمة، لإقامة الحياة وإقامة الدين، يقيمها على نفسه أو والديه والأقربين.

لا يحول بينه وبين العدل شفقة على فقير أو ضعيف، ولا مهابة غني أو

---

(١) رواه الطّبريّ في تفْسيره (١٠/ ٦٤٣) [الأعْراف:١٩٩]، عنْ سفْيان بْن عييْنة عنْ رجلٍ قدْ سمّاه، هكذا مرْسلًا.

خوف سطوة قوي.

يقيم العدل والقسط على نفسه والآخرين ليثبت الحق في مكانه، ويعود إليه ويفيء ولو بعد حين، أما لو ضاع الحق فلن يجده هو بعد ذلك وإن طلبه.. فاعتبر.

فالخير كله في العدل الذي به قامت السماوات والأرض، وبه اطمأنت النفوس وبه يقوي صاحبه ويستقيم أمره وليس لأحد عليه سبيلًا.

- **أُمّةٌ واحدةٌ مع إخْوانه والمسْلمين:**

غير متنافر ولا منفرد، ولا يعرف الأنانية ولا الأثرة، بل يتعلم الإيثار إن لم يطبع عليه.

يفسح لأخيه، نفسيًّا وماديًّا، يعطي لغيره دوره واحترامه ويصبر عليه، ويضع نفسه حيث يجب أن يكون، ويصنع من نفسه لبنة يشد إخوانه إليه ويقْوى بهم ليحققوا الولاء الإسلامي؛ ويعرف - ويتذوق مع إخوانه- أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، كما يعلم أن الحب في الله لا يزيده ود ولا ينقصه جفاء..

متآخي متواد متزاور متناصح، مشارك لأفراح إخوانه وأحزانهم وأزماتهم وقضاياهم..

- **ذو حيلةٍ واسعةٍ.. «حسْن التصرّفِ»:**

في الخير؛ فهو حسن التصرف لدعوته ولدينه، وفي اكتساب رزقه، وتغلبه على عقباته فيكتسب قوة وخبرة.

وهذا لا ينافي الاستقامة ولا يعني الالتواء بل يعني حسن التصرف، فأمام الشخص المستقيم طرق مستقيمة كثيرة بتلطف وتدرج.

- **خشنٌ متجلّدٌ:**

وهذا أمر مهم، فالحضارة المخملية قد تتفوق علميًّا، لكن تكسب الناس طراوة وميوعة تفقدهم بها قدرتهم على التحمل والاضطلاع بالمهام الكبرى.

كذلك فإن تكاليف هذا الدين تكاليف عالية وجادة، ومن صدق في أخذها أكسبه هذا خشونة وتجلدًا؛ فالجهاد مقصود، والأمة لا بد أن تتصف بالجهاد وإلا ضرب الله تعالى عليها الذل، كما قال «أبو بكر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولذا فالمؤمن بعيد عن الطراوة والليونة والحياة المخملية، يتعلم العصامية والاعتماد على الذات، ويجيد التكسب وبذل الجهد والعرق والجمع بين الأشغال المختلفة، والتوازن بين عبادته وعمله وعلمه وتحصيله، واكتساب رزقه، وصلته بأهله ورحمه، وقيامه على بيته وعمله ودينه.

يربي نفسه ويخشنها، قال «عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اخْشوْشنوا وتمعْددوا وامْشوا

حفاةً ومنْتعلين، فإنّ النّعْمة لا تدوم»[١]، وكان «عمر» يعجب بالفتى فإذا لم

---

(١) رواه الطّبرانيّ في المعْجم الكبير (٨٤) منْ حديث الْقعْقاع بْن أبي حدْردٍ الْأسْلميّ – ليْستْ له صحْبةٌ– قال: قال رسول الله ﷺ: «**تمعْددوا، واخْشوْشنوا، وامْشوا حفاةً**»، ورواه ابْن أبي شيْبة في «الأدب» (٨٦) عنْ رجلٍ منْ أسْلم يقال له: ابْن أدْرع، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تمعْددوا، واخْشوْشنوا، وانْتضلوا، وامْشوا حفاةً**»، وأوْرده الألْبانيّ في «ضعيف الجامع الصّغير» (٢٤٨٢)، وقال: «ضعيفٌ جدًّا». وجمْلة الآثار الّتي تحضّ على الخشونة والصّلابة وترْك الخنوثة كثيرةٌ وإنْ لمْ يصحّ باللّفْظ السّابق منْ المرْفوع شيْءٌ، وقدْ روى مسْلمٌ في صحيحه ٣٤ (٢٦٦٤) كتاب القدر– بابٌ في الْأمْر بالْقوّة وترْك الْعجْز والاسْتعانة بالله وتفْويض الْمقادير لله، منْ حديث أبي هريْرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمؤْمن الْقويّ خيْرٌ وأحبّ إلى الله من الْمؤْمن الضّعيف، وفي كلٍّ خيْرٌ احْرصْ على ما ينْفعك، واسْتعنْ بالله ولا تعْجزْ، وإنْ أصابك شيْءٌ، فلا تقلْ لوْ أنّي فعلْت كان كذا وكذا، ولكنْ قلْ قدر الله وما شاء فعل، فإنّ لوْ تفْتح عمل الشّيْطان**». كما روى مسْلمٌ في صحيحه ١٢ (٢٠٦٩) كتاب اللّباس والزّينة، عنْ عاصمٌ الْأحْول، عنْ أبي عثْمان، قال: كتب إليْنا عمر رضي الله عنه ونحْن بأذْربيجان: «يا عتْبة بْن فرْقدٍ، إنّه ليْس منْ كدّك، ولا منْ كدّ أبيك، ولا منْ كدّ أمّك، فأشْبع الْمسْلمين في رحالهمْ ممّا تشْبع منْه في رحْلك، وإيّاكمْ والتّنعّم، وزيّ أهْل الشّرْك، ولبوس الْحرير، فإنّ رسول الله ﷺ نهى عنْ لبوس الْحرير»، ورواه ابْن حبّان مطوّلًا في صحيحه (٥٤٥٤) كتاب اللّباس وآدابه، عنْ قتادة، قال: سمعْت أبا عثْمان، يقول: أتانا كتاب عمر ونحْن بأذْربيجان مع عتْبة بْن فرْقدٍ: «أمّا بعْد، فاتّزروا وارْتدوا وانْتعلوا وارْموا بالْخفاف واقْطعوا السّراويلات، وعليْكمْ بلباس أبيكمْ إسْماعيل، وإيّاكمْ والتّنعّم وزيّ الْعجم، وعليْكمْ بالشّمْس فإنّها حمّام الْعرب، واخْشوْشنوا واخْلوْلقوا وارْموا الْأغْراض، وانْزوا نزْوًا، والنّبيّ ﷺ نهانا عن الْحرير إلّا هكذا: أصْبعيْه والْوسْطى والسّبّابة»، قال شعيْب الأرْنؤوط: «إسْناده صحيحٌ على شرْط مسْلمٍ، رجاله ثقاتٌ رجال الشّيْخيْن غيْر عليّ بْن خشْرم فمنْ رجال مسْلمٍ». وأمّا لفْظ «فإنّ النعْمة لا تدوم» فلمْ نجدْها مرْفوعةً ولا موْقوفةً فيما اطّلعْنا عليْه، وقال العجْلونيّ في «كشْف الخفاء» (١٥٧) (١/ ٦٨): «والمشْهور على الألْسنة: اخْشوْشنوا فإنّ النّعم لا تدوم».

يجد له حِرفة سقط من عينه.

يدرب المؤمن نفسه على شيء من الخشونة؛ فيترك فراشه وينام على الأرض أحيانًا، ويمشي في الظلام أحيانًا، يقوم بالمهمات الصعبة، يتعلم الإنتاج والصبر ليقطف الثمرة بعد ذلك.

والمؤمن يستفيد من أخطائه وتجاربه، ويعيد تقييم نفسه باستمرار؛ يكرر التوبة ويستمر في مراجعة نفسه وإصلاح حاله وتحسين خلقه وتنمية ملكاته.

- **ذو بصيرةٍ نافذةٍ وشكيمة قويّةٍ:**

فهو يرى بنور الله، وللطاعة والنظافة من المحرمات أثرها ومقتضاها، ثم يمضي بعزمه متوكلًا على الله في كل أمر.

- **نظيف القلْب والسّريرة:**

لا يضمر الشر، ولا يهواه، ولا يتمناه لنفسه ولا لإخوانه ومجتمعه وأمته. يفكر في الخير وتستولي عليه الفكرة فيه والقصد إليه.

كذلك نظيف اليد واللسان، والظاهر كالباطن - وجوبًا- بل يكون الباطن أفضل لو استطاع - على سبيل الاستحباب- سرّه كعلانيته بل أفضل لو استطاع.

كل إنسان له عيوبه، لكن المؤمن يصلح عيبه، ويستدرك ما فاته ويحسّن من تصرفه وأدائه مع الله تعالى ومع خلقه إلى آخر لحظة من عمره.. ولا تنس

التوكل عبد الله.

• عدم التّشاح في الحقوق:

وهي مأخذ يسير العمل، عظيم الأجر، نادر العملة، يصعب على النفوس المتحملة بالشحناء، ويسيرٌ على تلك النفوس الصافية.

وهي العفو عن الخلق وعدم المخاصمة الشديدة في الحقوق، وبذل النفس لله، وتوطئتها لإخوانه.

روى الطّبرانيّ عنْ قتادة، عنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيعْجز أحدكمْ أنْ يكون كأبي ضمْضمٍ**» قالوا: ومنْ هو أبو ضمْضمٍ؟، قال: «**رجلٌ كان إذا أصْبح يقول: اللّهمّ إنّي قدْ وهبْت نفْسي وعرْضي، فلا يشْتم منْ شتمه، ولا يظْلم منْ ظلمه، ولا يضْرب منْ ضربه**»[1].

ومثل هذا الرجل الذي بشّر رسول الله ﷺ أنه يدخل من هذا الباب وهو من أهل الجنة، وفي نهاية تقصي الصحابة عن حاله وعن الخصلة التي أوجبت

---

(١) رواه الطّبرانيّ في «مكارم الأخْلاق» (٥٣) باب فضْل كظْم الْغيْظ، وكذا ابْن السّنّيّ في عمل اليوْم واللّيْلة (٦٥) مرْفوعًا، ورواه أبو داود في سننه (٤٨٨٦) كتاب الأدب- باب ما جاء في الرّجل يحلّ الرّجل قدْ اغْتابه، موْقوفًا على قتادة، وقال الألْبانيّ في «إرْواء الغليل» (٢٣٦٦) (٨/ ٣٢-٣٣): «ضعيفٌ... وإسْناده صحيحٌ إلى قتادة»، أيْ أنه أشار إلى ضعْف الرّواية المرْفوعة وصحّة المقْطوعة.

له هذا فوجدوها: «غيْر أنّي أبيت ليْس في قلْبي غشٌّ على مسْلمٍ، ولا أحْسِد أحدًا منْ المسْلمين على خيْرٍ ساقه الله إليْه»(١).

إن الحقد يأكل قلوب أصحابه، وإن الحقد حمل ثقيل ثقيل، مرهق للنفوس وخانق للأنفاس، تنوء به الظهور ومن الخير أن تضعه عن عاتقك؛ لأنه سيبطيء خطاك، ويشغلك، ويقلل فاعليتك ويبني حواجز تمنعك عن رؤية الخير فيمن تكرههم ويمنع إمكانية التواصل معهم، وهذه خسارة مشتركة.

كم من الجهد نخسره في التشاحّ، وكم من العمر نخسره في الجدال والخصام، وكم من خير تعطل بسبب عدم التوافق بين مؤمنين!! وكم من تباعد بين رفقاء الطريق لم يفرضه عليهم العدو، بل فرضته حواز النفوس وضغائن القلوب وقد كفوا عدوهم شر القتال!! فاللهم غفرانك، واللهم رحماك.

بينما العفو خلق وشعور يريح صاحبه كثيرًا، ويريح المسلمين؛ إذ ليس

---

(١) رواه النّسائيّ في السّنن الكبْرى (١٠٦٣٣) كتاب عمل اليوْم واللّيْلة، بلفْظ: «غيْر أنّي لا أجد في نفْسي غلًّا لأحدٍ من الْمسْلمين، ولا أحْسده على خيْرٍ أعْطاه الله إيّاه»، وكذا الطّبرانيّ في «مكارم الأخْلاق» (٧٢) باب فضْل سلامة الصّدْر وقلّة الْغلّ للْمسْلمين، كلاهما منْ حديث أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، قال الألْباني في مقدمة سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة في طبْعته الأولى للطّبْعة الجديدة (١/ ٢٦): «وإسْناده صحيحٌ على شرْط الشّيْخيْن».

هناك صراع وتناحر على الحقوق ومشاكسة المسلمين على أغراضه.. وهي هبة يهبها الله تعالى لمن يشاء، والله الهادي للخير.

❁❁❁❁

▪ تعْليقٌ عامٌّ على الفضائل:

ما مر معنا من الفضائل ليس حصرًا لها، بل هي مجموعة للامتثال وللمثال.

وهذه الفضائل بطبيعتها تحتاج إلى جهد، ووقت، لتستقر في القلب وتتمكن منه وتصبح حالًا للإنسان وطبعًا له، كأنما خلق بها وجبل عليها، كما مر معنا في صفة رسوخ العلم.

ويجب أن نعلم أنه ما من فضيلة إلا وتحوزها بتضحية وصبر؛ فالظروف ليست دائمًا مواتية، ولهذا كان الصبر جاريًا في ترك كل رذيلة وفي القيام بكل فضيلة.. فقد تترك الرذائل مع احتياج أو شدة خوف أو سطوة شخص أو سياط شهوة، وقد يتطلب القيام بالفضائل تضحيات وصبر وترك لحظوظ النفس وتسامي للموقف، وكل هذا معلوم لله تعالى ومعمول حسابه فيما أمر، لا تظن شيئًا من هذا يفوت رب العالمين!..

ولهذا كان التدرع بالصبر خير زاد وهو ملازم لك طول الطريق حتى الإستقرار على الخير ورسوخه بإذن الله تعالى.

ومع كثرة ما أوردنا قد تجدك مفتقدًا للبعض منها، وهذا لا يدعوك إلى الإحباط، فبالتوبة من الخلق الذميم وكثرة المحاولة للتزيّن بالفضائل والتوكل على الله تعالى ينبل الإنسان ويلحق بالصالحين ويُدْلِف بينهم نفسه.

إننا نتشرف بالمحاولة وبذل الجهد، ويقسم الله تعالى لنا ما شاء من بلوغ الخير، بل إننا يجب أن نموت ونحن نتمسك بالخير ونسعى في الكمال، ونراجع أنفسنا وننفض عنها ما يشين ونحاول أنْ نُلحِقها بالصالحين؛ فلعله عذر أمام الله تعالى فيكمل لك الخير ويبلغك إياه في الآخرة، مع الجزاء الحسن عن المحاولة المستمرة، ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت:٦٩].. صدق الله العظيم.

❁❁❁❁

- **مأْخذ أصْحاب رسول الله ﷺ في الفضائل وترْبية الله ورسوله لهمْ:**

قاعدةٌ ذهبيّةٌ..

يشير الإمام «الشاطبي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن المسلمين في «مكة» تربّوا على أصول الأخلاق بإطلاقات دون تحديد، فأُمِرُوا بالعدل المطلق وبالإحسان بإطلاق وبإيتاء ذي القربى دون تحديد أنصبة أو حدود معينة.

وأن هذا كان مقصودًا كي يوغلوا في هذه الإطلاقات بأقصى جهدهم إيغالًا في العبودية لله تعالى بأقصى ما تقدر عليه طاقتهم؛ فكانوا في هذا روّادًا ورموزًا.

فلما انتقلوا إلى المدينة لحقتهم الأنصار في هذه التربية وهذا المنهج..

ولكنه لما اتسعت رقعة الإسلام وبدأ التشاح في الحقوق أخذوا يبينون للناس الحدود الحاسمة للحقوق والواجبات والأنصبة لتصلح لهم ولسائر الخلق بعد ذلك؛ وبقوا هم والأنصار يتعاملون بالإطلاقات المكية ويوغلون في الخير بأعلى جهد يستطيعونه، وتبعهم في ذلك الصفوة والأئمة.. رضي الله عن السابقين.

وبقي مثل هذا الإطلاق في الأخلاق والندب إلى الإيغال في الإحسان والإيتاء مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النّحْل:٩٠]... الآية، بقي مندوبًا إليه تشرئب إليه الأعناق وتتطاول

إليه النفوس؛ فيقسم الله تعالى لمن شاء أن يوغل كالسابقين؛ فيكون أسمح وأصبر وأكثر عفوا وصدقة وبذلًا للخير.. وإذا احتاج أصحاب التشاح في الحقوق والبخل بها إلى معرفة الحدود الحاسمة بينها لهم الفقهاء وقضى بها القضاة، وبقي الترغيب في الخير تربية لثلة تريد أن تغير الواقع وتصلح سير التاريخ.

ولا بد أن يكون هناك أشخاص لا يستسلمون لبيئاتهم ومستوياتها بل يخطون لأنفسهم خطًّا للمعالي، ويأخذون أنفسهم بالعزائم، ثم يرفعون مجتمعاتهم إلى مستوى الحياة بهذا الدين.

وهنا رأيت أن أختم فصل «التحلي بالفضائل» بهذه القاعدة في التربية الخاصة بأصحاب رسول الله ﷺ والتي أشار إليها الإمام «الشاطبي»، وقد أطلت النفس في النقل عنه لنفاسة القاعدة ونفاسة بيانه لها رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فهو كلام أغلى من الذهب.. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وبيان ذلك أنّ الْمشْروعات الْمكّيّة وهي الْأوّليّة كانتْ في غالب الْأحْوال مطْلقةً غيْر مقيّدةٍ، وجاريةً على ما تقْتضيه مجاري الْعادات عنْد أرْباب الْعقول، وعلى ما تحْكمه قضايا مكارم الْأخْلاق، من التّلبّس بكلّ ما هو معْروفٌ في محاسن الْعادات، والتّباعد عنْ كلّ ما هو منْكرٌ في محاسن الْعادات، فيما سوى ما الْعقْل معْزولٌ عنْ تقْريره جمْلةً منْ حدود الصّلوات وما أشْبهها، فكان أكْثر ذلك موْكولًا إلى أنْظار الْمكلّفين في تلْك الْعادات، ومصْروفًا إلى اجْتهادهمْ ليأْخذ كلٌّ بما لاق به وما قدر عليْه منْ

تلْك الْمحاسن الْكلّيّات، وما اسْتطاع منْ تلْك الْمكارم في التّوجّه بها للْواحد الْمعْبود، منْ إقامة الصّلوات فرْضها ونفْلها حسْبما بيّنه الْكتاب والسّنّة، وإنْفاق الْأمْوال في إعانة الْمحْتاجين، ومؤاساة الْفقراء والْمساكين منْ غيْر تقْديرٍ مقرّرٍ في الشّريعة، وصلة الْأرْحام قربتْ أوْ بعدتْ، على حسب ما تسْتحْسنه الْعقول السّليمة في ذلك التّرْتيب، ومراعاة حقوق الْجوار وحقوق الْملّة الْجامعة بيْن الْأقارب والْأجانب، وإصْلاح ذات الْبيْن بالنّسْبة إلى جميع الْخلْق، والدّفْع بالّتي هي أحْسن، وما أشْبه ذلك من الْمشْروعات الْمطْلقة الّتي لمْ يُنَصّ على تقْييدها بعْد.

وكذلك الْأمْر فيما نهي عنْه من الْمنْكرات والْفواحش، على مراتبها في الْقبْح، فإنّهمْ كانوا مثابرين على مجانبتها مثابرتهمْ على التّلبّس بالْمحاسن.

فكان الْمسْلمون في تلْك الْأحْيان آخذين فيها بأقْصى مجْهودهمْ، وعاملين على مقْتضاها بغاية موْجودهمْ، وهكذا بعْد ما هاجر رسول الله ﷺ إلى الْمدينة، وبعْد وفاته وفي زمان التّابعين.

إلّا أنّ خطّة الْإسْلام لمّا اتّسعتْ، ودخل النّاس في دين الله أفْواجًا ربّما وقعتْ بيْنهمْ مشاحّاتٌ في الْمعاملات، ومطالباتٌ بأقْصى ما يحقّ لهمْ في مقْطع الْحقّ، أوْ عرضتْ لهمْ خصوصيّاتٌ ضروريّاتٌ تقْتضي أحْكامًا خاصّةً، أوْ بدرتْ منْ بعْضهمْ فلتاتٌ في مخالفة الْمشْروعات، وارْتكاب الْممْنوعات، فاحْتاجوا عنْد ذلك إلى حدودٍ تقْتضيها تلْك الْعوارض الطّارئة، ومشْروعاتٍ

تكْمل لهمْ تلْك الْمقدّمات، وتقْييداتٍ تفْصل لهمْ بيْن الْواجبات والْمنْدوبات والْمحرّمات والْمكْروهات...»[١].

«... فأنْزل الله تعالى ما يبيّن لهمْ كلّ ما احْتاجوا إليْه بغاية البيان: تارةً القرْآن، وتارةً بالنّسْبة؛ فتفصّلتْ تلْك الْمجْملات الْمكّيّة، وتَبَيَّنتْ تلْك الْمُحْتملات، وقُيِّدَتْ تلْك الْمُطْلَقَات، وخُصِّصَتْ بالنّسْخ أوْ غيْره تلْك الْعمومات ليكون ذلك الْباقي الْمحْكم قانونًا مطّردًا وأصْلًا مسْتنًّا، إلى أنْ يرث الله الْأرْض ومنْ عليْها، وليكون ذلك تمامًا»[٢].

«فإنّ الْأحْكام الْمكّيّة مبْنيّةٌ على الْإنْصاف من النّفْس، وبذْل الْمجْهود في الامْتثال بالنّسْبة إلى حقوق الله أوْ حقوق الْآدميّين.

وأمّا الْأحْكام الْمدنيّة، فمنزّلةٌ في الْغالب على وقائع لمْ تكنْ فيما تقدّم منْ بعْض الْمنازعات والْمشاحّات، والرّخص والتّخْفيفات وتقْرير الْعقوبات - في الْجزْئيّات لا الْكلّيّات، فإنّ الْكلّيّات كانتْ مقرّرةٌ محْكمةٌ بمكّة- وما أشْبه ذلك، مع بقاء الْكلّيّات الْمكّيّة على حالها، وذلك يؤْتى بها في السّور الْمدنيّات تقْريرًا وتأْكيدًا، فكملتْ جمْلة الشّريعة والْحمْد لله بالْأمْرين وتمّتْ واسطتها بالطّرفيْن، فقال الله تعالى عنْد ذلك: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ

(١) الموافقات (٥/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) المصْدر السّابق (٥/ ٢٣٧).

نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [الْمائدة:٣].

وإنّما عنى الْفقهاء بتقْرير الْحدود والْأحْكام الْجزْئيّات الّتي هي مظانّ التّنازع والْمشاحّة والْأخْذ بالْحظوظ الْخاصّة، والْعمل بمقْتضى الطّوارئ الْعارضة، وكأنّهمْ واقفون للنّاس في اجْتهادهمْ على خطّ الْفصْل بيْن ما أحلّ الله وما حرّم، حتّى لا يتجاوزوا ما أحلّ الله إلى ما حرّم، فهمْ يحقّقون للنّاس مناط هذه الْأحْكام بحسب الْوقائع الْخاصّة، حين صار التّشاحّ ربّما أدّى إلى مقاربة الْحدّ الْفاصل، فهمْ يزعونهمْ عنْ مقاربته ويمْنعونهمْ عنْ مداخلة الْحمى، وإذا زلَّ أحدُهمْ يُبيَّن له الطّريق الْموصّل إلى الْخروج عنْ ذلك في كلّ جزْئيّةٍ آخذين بحجزهمْ تارةً بالشّدّة، وتارةً باللّين فهذا النّمط هو كان مجال اجْتهاد الْفقهاء، وإيّاه تحرّوْا.

وأمّا سوى ذلك ممّا هو منْ أصول مكارم الْأخْلاق فعْلًا وترْكًا، فلمْ يفصّلوا الْقوْل فيه لأنّه غيْر محْتاجٍ إلى التّفْصيل، بل الْإنْسان في أكْثر الْأمْر يسْتقلّ بإدْراك الْعمل فيه؛ فوكلوه إلى اخْتيار الْمكلّف واجْتهاده؛ إذْ كيْف ما فعل فهو جارٍ على موافقة أمْر الشّارع ونهْيه، وقدْ تشْتبه فيه أمورٌ ولكنْ بحسب قرْبها من الْحدّ الْفاصل؛ فتكلّم الْفقهاء عليْها منْ تلْك الْجهة فهو من الْقسْم الْأوّل، فعلى هذا كلّ منْ كان بعْده منْ ذلك الْحدّ أكْثر كان إعراقه في مقْتضى الْأصول الْكلّيّة أكْثر.

وإذا نظرْت إلى أوْصاف رسول الله ﷺ وأفْعاله تبيّن لك فرْق ما بيْن

الْقسْمين، وبوْن ما بيْن الْمنْزلتيْن، وكذلك ما يؤْثر منْ شيم الصّحابة واتّصافهمْ بمقْتضى تلْك الْأصول، وعلى هذا الْقسْم عوّل منْ شهر منْ أهْل التّصوّف، وبذلك سادوا غيْرهمْ ممّنْ لمْ يبْلغْ مبالغهمْ في الاتّصاف بأوْصاف الرّسول ﷺ وأصْحابه، وأمّا غيْرهمْ ممّنْ حاز من الدّنْيا نصيبًا فافْتقر إلى النّظر في هذه الْجزْئيّات والْوقائع الدّائرة بيْن النّاس في الْمعاملات والْمناكحات؛ فأجْروْها بالْأصول الْأولى على حسب ما اسْتطاعوا، وأجْروْها بالْفروع الثّواني حين اضْطرّوا إلى ذلك؛ فعاملوا ربّهمْ في الْجميع، ولا يقْدر على هذا إلّا الْموفّق الْفذّ، وهو كان شأْن معاملات الصّحابة كما نصّ عليْه أصْحاب السّير.

ولمْ تزل الْأصول ينْدرس الْعمل بمقْتضاها لكثْرة الاشْتغال بالدّنْيا والتّفْريع فيها؛ حتّى صارتْ كالنّسْي الْمنْسيّ، وصار طالب الْعمل بها كالْغريب الْمقْصى عنْ أهْله، وهو داخلٌ تحْت معْنى قوْله عليْه الصّلاة والسّلام: «**بدأ هذا الدّين غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ؛ فطوبى للْغرباء**»[1].

«كان الْمسْلمون قبْل الْهجْرة آخذين بمقْتضى التّنْزيل الْمكّيّ على ما أدّاهمْ إليْه اجْتهادهمْ واحْتياطهمْ؛ فسبقوا غاية السّبْق حتّى سمّوا «السّابقين» بإطْلاقٍ، ثمّ لمّا هاجروا إلى الْمدينة ولحقهمْ في ذلك السّبْق منْ شاء الله من

(١) المصْدر السّابق (٥/ ٢٣٨-٢٤٠).

الْأنْصار، وكملتْ لهمْ بها شعب الْإيمان ومكارم الْأخْلاق، وصادفوا ذلك وقدْ رسختْ في أصولها أقْدامهمْ، فكانت المتمّات أسْهل عليْهمْ؛ فصاروا بذلك نورًا حتّى نزل مدْحهمْ والثّناء عليْهمْ في مواضع منْ كتاب الله، ورفع رسول الله ﷺ منْ أقْدارهمْ، وجعلهمْ في الدّين أئمّةً؛ فكانوا هم الْقدْوةَ الْعظْمى في أهْل الشّريعة، ولمْ يتْركوا بعْد الْهجْرة ما كانوا عليْه، بلْ زادوا في الاجْتهاد وأمْعنوا في الانْقياد لما حدّ لهمْ في الْمكّيّ والْمدنيّ معًا.

لمْ تزحْزحْهم الرّخْص الْمدنيّات عن الْأخْذ بالْعزائم الْمكّيّات، ولا صدّهمْ عنْ بذْل الْمجْهود في طاعة الله ما متّعوا به من الْأخْذ بحظوظهمْ وهمْ منْها في سعةٍ، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الْبقرة:١٠٥].

فعلى تقْرير هذا الْأصْل منْ أخذ بالْأصْل الْأوّل واسْتقام فيه كما اسْتقاموا فطوبى له، ومنْ أخذ بالْأصْل الثّاني فبها ونعْمتْ، وعلى الأوّل جرى الصّوفيّة الْأول، وعلى الثّاني جرى منْ عداهمْ ممّنْ لمْ يلْتزمْ ما الْتزموه، ومنْ ههنا يفْهم شأْن الْمنْقطعين إلى الله فيما امْتازوا به منْ نحْلتهم الْمعْروفة؛ فإنّ الّذي يظْهر لبادئ الرّأْي منْهمْ أنّهم الْتزموا أمورًا لا توجد عنْد الْعامّة، ولا هي ممّا يلْزمهمْ شرْعًا؛ فيظنّ الظّانّ أنّهمْ شدّدوا على أنْفسهمْ، وتكلّفوا ما لمْ يكلّفوا، ودخلوا على غيْر مدْخل أهْل الشّريعة.

وحاش لله! ما كانوا ليفْعلوا ذلك وقدْ بنوْا نحْلتهمْ على اتّباع السّنّة وهمْ باتّفاق أهْل السّنّة صفْوة الله من الْخليقة، لكنْ إذا فهمْت حالة الْمسْلمين في

التّكْليف أوّل الْإسْلام، ونصوص التّنْزيل الْمكّيّ الْمحْكم الّذي لمْ ينْسخْ، وتنْزيل أعْمالهمْ عليْه؛ تبيّن لك أنّ تلْك الطّريق سلك هؤلاء، وباتّباعها عنوْا على وجْهٍ لا يضادُّ الْمدنيّ الْمفسّر.

فإذا سمعْت مثلًا أنّ بعْضهمْ سئل عمّا يجب من الزّكاة في مائتيْ درْهمٍ، فقال: «أمّا على مذْهبنا؛ فالْكلّ لله، وأمّا على مذْهبكمْ؛ فخمْسة دراهم»، وما أشْبه ذلك؛ علمْت أنّ هذا يسْتمدّ ممّا تقدّم؛ فإنّ التّنْزيل الْمكّيّ أمر فيه بمطْلق إنْفاق الْمال في طاعة الله، ولمْ يبيّنْ فيه الْواجب منْ غيْره، بلْ وكّل إلى اجْتهاد الْمنْفق، ولا شكّ أنّ منْه ما هو واجبٌ، ومنْه ما ليْس بواجبٍ والاحْتياط في مثْل هذا الْمبالغة في الْإنْفاق في سدّ الْخلّات وضروب الْحاجات، إلى غايةٍ تسْكن إليْها نفْس الْمنْفق؛ فأخذ هذا الْمسْئول في خاصّة نفْسه بما أفْتى به، والْتزمه مذْهبًا في تعبّده، وفاءً بحقّ الْخدْمة، وشكْر النّعْمة وإسْقاطًا لحظوظ نفْسه، وقيامًا على قدم الْعبوديّة الْمحْضة حتّى لمْ يُبْقِ لنفْسه حظًّا وإنْ أثْبتَه له الشّارعُ اعْتمادًا على أنّ لله خزائنَ السّموات والْأرْض، وأنّه قال: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه:١٣٢]، وقال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧﴾ [الذّاريات]، وقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذّاريات]، ونحْو ذلك.

ونحْو ذلك؛ فهذا نحْوٌ من التّعبّد لمنْ قدر على الْوفاء به، ومثْله لا يُقَالُ

في ملْتزمه: إنّه خارجٌ عن الطّريقة، ولا مُتكَلِّف في التّعبّد، لكنْ لمّا كان هذا الْميْدان لا يسْرح فيه كلّ النّاس قيّد في التّنْزيل الْمدنيّ حين فرضت الزّكوات؛ فصارتْ هي الْواجبة انْحتامًا، مقدّرةٌ لا تتعدّى إلى ما دونها، وبقي ما سواها على حكْم الْخيرة؛ فاتّسع على الْمكلّف مجال الْإبْقاء جوازًا، والْإنْفاق ندْبًا؛ فمنْ مقلٍّ في إنْفاقه ومنْ مكْثرٍ؛ والْجميع محْمودون؛ لأنّهمْ لمْ يتعدّوْا حدود الله، فلمّا كان الْأمْر على هذا اسْتفْسر الْمسْئول السّائل ليجيبه عنْ مقْتضى سؤاله.

ومنْهمْ منْ لا ينْتهي في الْإنْفاق إلى إنْفاذ الْجميع، بلْ يبْقي بيده ما تجب في مثْله الزّكاة حتّى تجب عليْه، وهو مع ذلك موافقٌ في الْقصْد لمنْ لمْ يبق شيْئًا، علْمًا بـ «أنّ في الْمال حقًّا سوى الزكاة»، وهو يتعيّن تحْقيقًا، وإنّما فيه الاجْتهاد؛ فلا يزال ناظرًا في ذلك مجْتهدًا فيه ما بقي بيده منه شيء، متحمّلًا منْه أمانةً لا ينْفكّ عنْها إلّا بنفاذه، أوْ كالْوكيل فيه لخلْق الله، سواءٌ عليْه أعدّ نفْسه منْهمْ أمْ لا. وهذا كان غالب أحْوال الصّحابة، ولمْ يكنْ إمْساكهمْ مضادًّا لاعْتمادهمْ على مسبّب الْأسْباب سبْحانه وتعالى...

وأمّا منْ أبْقى لنفْسه حظًّا فلا حرج عليْه، وقدْ أُثْبِتَ له حظّه من التّوسّع في الْمباحات على شرْط عدم الْإخْلال بالْواجبات، وهكذا يجب أنْ يُنْظَرَ في كلّ

خصْلةٍ من الْخصال الْمكّيّة حتّى يُعْلَمَ أنّ الْأمْر كما ذكر...»[1].

والله أعلم وهو الموفق للخير والصواب، وهو الآخذ بأيدينا إلى الخير وإلى المعالي.

* * *

(١) المصْدر السّابق (٥/ ٢٤١-٢٤٤).

معايشة منْ أنْعم الله عليْهمْ

■ معايشة الصالحين:

فلْنكنْ صرحاءً..

إن كثيرًا من الناس ليس في اهتمامهم موضوع التربية، ولا الرقيّ في تلك المدارج، ولا يقلقهم النزوع عن المحرمات ولا استيفاء الفرائض؛ إنما كان هذا هو شأن الجيل الفريد، أصحاب «محمد» ﷺ، وهم الذين كانوا يخافون على أنفسهم النفاق بمعنى عدم استيفاء الواجبات المأمورين بها..

ولنكن صرحاء أيضا؛ إن ما غلب على زماننا هو الخامات التي دخلها فسادٌ كثيرٌ من سفاهةٍ وخفةٍ إلى ميوعة ترف أو ميوعة شهوة إلى الْتواء واستهتار، إلى استجابة للاستبداد والفرح به والإعجاب والتقدير للمستبدين.. إلى غير ذلك.

لم نفقد فيهم الأمل ولا حسن الظن، ولا تركنا قضاياهم، بل هم همّنا وشغلنا أن نأخذ بأيدينا وأيديهم وأن نظهر بهم على عدوهم لا أن نظهر عليهم.

لكن هذا أمر، وأما التأثر والتأسي والاحتكاك والمعايشة والانطباع أمر آخر.

بل من الضروري أن نؤكد أن ترك نفوسنا للتأثر بالبيئات المعاصرة أمر خطير على ديننا وآخرتنا كما هو خطير على دنيانا.. إن من الحقائق الكبيرة المهملة أن العالم لا يمشي بلا تخطيط أو بلا قوى تريد فرض اتجاهات معينة؛ بل هناك قوى بشرية معها المال والإعلام ومن ثم السياسة والحروب، وللسخرية أنها أيضًا تملك الدراسات.

وهذه القوى تتجه إلى سفاهة العالم وإلحاده وإباحيته المؤدية لتدميره..

وبغض النظر عن معارضة البعض لهذه الحقائق لأسباب ليس هذا محل بيانها، ولكن التعامي لن يؤثر والإنكار لا يغير حقيقة الاتجاهات السائدة والسائرة.

في النهاية نجد ما نلمسه الآن من البيئات المعاصرة وهي داعية إلى التفلت بل والمعارضة لأمر الله وتمادى الأمر إلى التشكيك في الثوابت والغيبيات؛ كما أنها بيئات ناتجة من الاستبداد، والاستبداد يستعمل الإباحية والإلحاد، كما يتعمد تعمدًا إلى تسفيه الناس وتسطيح العقول والإغراق في التفاهة تحت عنوان الفن والإعلام وغيرها.

لهذا ولغيره من الأسباب قد يجد سالك الطريق إلى ربه تعالى غربة ووحدة وقد يعاني من وحشة في الطريق وتأثرات غير محمودة بمن حوله.

نؤكد هنا ونكرر.. أنه لا بد أن يكون هناك أشخاص لا يستسلمون لبيئاتهم

ومستوياتها بل يخطون لأنفسهم خطًّا للمعالي، ويأخذون أنفسهم بالعزائم، ثم يرفعون مجتمعاتهم إلى مستوى الحياة بهذا الدين..

ومع ما تقدم من خطوات يجب أن يظفر العبد بصحبة مختلفة يتأثر بها ليحقق أمرين؛ **خروجه** من التأثر بالواقع المعاصر وبيئاته وخاماته، **وليعود** هو يؤثر فيه ويرفعه ويغيره إلى الأحسن والأرضى لله تعالى؛ والأرفع للأمة، والأصلح للبشرية والأبقى امتدادًا للخير.

ومن هنا فلا بدّ من التأثر بشخصيات أخرى قد سلكت الطريق وبلغت منتهاه واستقرت عند ربها وماتت على الخير وشهد الله تعالى لها بالخير ورضي عنهم وأثنى عليهم، وكذا من استفاض الثناء عليهم في الأمة وشهدت له بالخير من أئمة الهدى ورموز الخير.

ولهذا يجب النظر إلى خيرة البشرية الذين هم ﴿ **خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ** ﴿٧﴾ ﴾ [البينة].. وقد ضمّن الله تعالى من ذكْرهم ما يكفي لهذا المقصد العظيم في كتابه وكذا السنة، والمقصود هنا هو معرفة حال هؤلاء الكرام للمعايشة والاحتكاك والتأثر.. بغرض الاستشراف إلى المعالي والقيم؛ فإن لم نعايش صفات غير صفاتنا وأخلاقًا أسمى وأعلى فلن نندفع لشيء ذي بال في هذه الحياة.

وليكن في علمك أن كل هذا مندرج تحت قوله تعالى ﴿ **صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفاتحة:٧]، وبقوله تعالى ﴿ **فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام:٩٠].. والله

الموفق والموصل للخير بإذنه تعالى.

❁❁❁❁

▪ الأنْبياء خيْر الخلْق وسادات الأوْلياء وقمّة البشريّة:

نقطة الإنطلاق هنا هو الالتفات إلى حقيقة أن ما ذكره تعالى عن الأنبياء من كلمات ومواقف وردود أفعال ووصف الله لهم لم تكن سردًا مجردًا، بل كانت الكلمات والمواقف والانفعال تفصح عن شخصيات وترسم ملامحها وتوضح حقيقة وغور ما وراءها من صفات وإيمان ومذاق هذا الإيمان في نفوسها.. إنها تجربة ثرية جدًّا، قد نضيّعها إن لم نعشها ونفهمها وقرأنا القرآن همّنا آخر السورة كما كان يحذّر «عبد الله بن مسعود» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسنضرب أمثلة سريعة للتذكير لا للحصر لتأخذ على منوالها؛ نقصد من الأمثلة التنبيه للمأخذ والباب العظيم.. ولكن الجهد هنا عليك في المعايشة المستمرة معهم وقراءة القرآن بمأخذ مختلف، وهو طلب الانطباع بهم ومعرفة ملامحهم النفسية والشخصية ومعرفة تذوّقهم للإيمان وتصورهم للأمور ووزنهم للأحداث والأشخاص، ومعرفة القيم التي رسخت في نفوسهم؛ لو فعلْتَ هذا ستجدهم أحياء في قلبك وحياتك تعايشهم ويعايشونك.

- **لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة الخليل عليه السلام.. وضوحٌ وقوّةٌ وإقْدامٌ:**

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ
﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنْبياء].

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾
أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟
ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنْبياء].

هنا تبدو الشخصية التي تحمل العقل النظيف والفطرة النظيفة والوضوح الكامل.

تلمح الشخصية المبادئة للتغيير والإصلاح وإنكار الانحراف..

شخصية قوية ترفض عبء التقليد وثقل الواقع الاجتماعي والسياسي المبني على تلك العقائد المنحرفة..

تلمح الشخصية العملية المتقدمة لكي تسقط الباطل وتتقدم بالحق بقدر استطاعته وجهده وسعة تصرفه.

الثبات في المواقف العظمى، مواقف الإشهاد، ونصرة الحق على يديه بثبات متفرد حيث يقف وحده، فلا يلين ولا يطلب الدفء الجمعي على حساب الحق.

- **لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة نوحٍ وهود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.. توكّلٌ وإشْهادٌ وثباتٌ:**

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس].

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود].

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود].

إنها شخصيات متفردة، إيمان عميق يدفعهم للوقوف فرادى أمام أمم ومجتمعات وجيوش وأموال ومصالح متشابكة، لم يترددوا في الإدلاء بالحق واضحًا قويًّا، ووْصم أقوامهم بما يستحقون، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود].. الوقوف فرادى.. الإشهاد ببراءتهم من باطل قومهم.. التحدي واستدعاء ما عند قومهم من قوة وحيلة واثقين في جانبهم وربهم، حتى قال «ابن القيم» أن أهل العلم قالوا أن «هودًا» لم تكن معه معجزة مادية كغيره لكنه كانت معجزته في توكله وثقته بربه.. أتدري معنى هذا؟ معناه أنه قد صار إيمانهم آية!.

أرأيت أعجب من هذا؟.. ليس طلب آية للإيمان؛ بل صار الإيمان نفسه آية على صحة الرسالة.. نعم لا تتعجب؛ هكذا يصنع الإيمان بالنفوس.

- **لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة أيّوب وإخْوانه الكرام عليهم السلام.. صبْرٌ وعبوديّةٌ وخشوعٌ:**

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

إنها قسمات وملامح لشخصية عابدة متضرعة لا تضجر، لكنها تدعو

وتنكسر، لا ينسب السوء لربه، يدعو بطريقة عميقة الخشوع؛ حيث يعرض حاله على الله ويذكر من أسماء الله ما يصلح حاله ويغمره بالعافية، لقد كان دعاء، بل ودعاء عميقًا..

ثم بيان لجملة أخرى من الصالحين يشير إلى صفة الصبر ودورها في بناء هذه الشخصيات ليتفضل الله عليها بهذا الطريق.

ومثل هذا ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨]، ويكرر الصبر الجميل مع زيادة البلاء؛ بل ويستبشر بما يتجاوز معطيات الواقع، لكنه استبشار يوافق عظم رحمة رب العالمين وقدرته ولطفه تعالى.

- لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة يونس عليه السلام:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

شخصية أوّابة رجاعة، شخص عليم، حيث علم من أين أُتِيَ، وعَلِمَ رسالة الله تعالى إليه في البلاء، وعَلِمَ باب الرجعة، فرفع بالتوبة درجات وصار مثالًا لكل من يعمل ما يُلَام عليه كيف يعود وبأي طريق..

وهكذا كانوا جميعًا فيذكر استغفار «إبراهيم» عليه السلام ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [إبراهيم:٤١]، و «موسى» عليه السلام ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾

[الأعـــراف:١٥١]، و «داود» عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص]..

فكانوا سادة الأوابين الرجاعين المنيبين لـرب العـالمين، ومثـالًا للبشرية إلى قيام الساعة تدعوها دومًا للرجوع.

- **لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

[الأنْبياء].

إنها شخصية سائلة متضرعة، داعية راغبة وراهبة، يصفها الله بالخشوع الحقيقي؛ إنهم لا يتصنعون ولا يراؤون، بل هو الخشوع والرغب والرهب؛ فهم قدوة العبّاد وسادات الأولياء.

وفي دعائه يعلم أن الله خالق السبب والمسبب، وأنه لو أراد أمرًا لهيأ له أسبابه؛ فيدعو بطلاقة حتى دعا بما يخرج عن مألوف الخلق، متخطيًا الوسائل والتواضعات البشرية المتعارف عليها، ضارعًا طامعًا في الرحمة العامة والقدرة الطليقة لرب العالمين.. وإنه ليقابل برحمة غامرة وقريبة، ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ [مريم]، أرأيت؟.

• لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة يعْقوب عليه السلام وبنيه الكرام.. وقلقٌ على أغْلى ما تمْلك البشريّة؛ العقيدة الصّحيحة:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

شخصية فريدة.. ترى العقيدة أغلى ما تملك وأغلى ما في الحياة وأغلى ما يورث، وفي أحرج لحظات العمر عند الوفاة يبدي قلقه على هذا الإرث ويستوثق من بنيه.

ومثل هذا الإمام الجليل الخائف من تقلّب القلوب ومن أي هوى يتسلل، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]، وتلمح مع علمه وتعبده ووجله من ربه، شفقةً عظيمة وطلبًا للمغفرة والهداية لقوم لم يخلقوا بعد!.

• مشْهدٌ شاخصٌ حيٌّ.. يعْملان ويضْرعان:

عمل دؤوب وتراب يعفّر نبيين كريمين من بناء بيت الله لمناسك تبقى من بعدهما، ومع العمل والتراب والجهد والعرق والنصب لا يعجبان بالعمل، بل يضرعان ويهتفان بطلب بالقبول، إنه العلم والعبودية والتضرع الدائم،

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

- **شفقةٌ ومحبّةٌ لقومٍ لمْ يخْلقوا بعْد:**

كما ترى دعاء ومحبة لذرية لم تأت بعد، قلق على دينهم وعقيدتهم، طلب امتداد العقيدة في ذريتهما من بعدهما، يتكرر مشهد القلق على العقيدة، تلك أغلى ما يملك المسلم الذي لمس الإيمان شغاف قلبه واستقر فيه.

- **إلْحاحٌ في الدّعْوة والبيان.. عدم الملل أوْ التّباطؤ عنْ البلاغ:**

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟
ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ
ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ
وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾
أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا
﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح].

تقرير جهد لم يأل عنه ولم يقصر، دأب في الدعوة، تكرار وتنويع، تخويف وترهيب وترغيب وتحبيب، لفت أنظارهم للآيات وتعددها، تعظيم لله ولحقه.. إنه شخصية يتكلم بما يشعر ويؤمن ويرى، حريّ أن تقف أمامه كثيرًا وتعيش معه كثيرًا.. وتعرف شعوره بالإيمان وانطباع الإيمان في قلبه.

- **في نفوسهمْ يقينٌ وبيّنةٌ:**

كل منهم يؤكد هذه الحقيقة، ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام:٥٧]، ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود:٢٨]، يجدون مسّ وذوق وطعم حقيقة الإيمان ببديهة لا يمكن أن يخالفوها؛ فإن الحق يجدونه في قلوبهم ساكنًا يعمرها، وموّارًا يدفعهم للحركة والمواقف، ويضطرهم اضطرارًا للقيام به فيستبشعون المخالفة.

- **يحدّدون أنّ الأمان في الطّاعة.. والهلاك في المعْصية:**

يبدون رعدة وخشية من المعصية والمخالفة، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود]، وقال «نوحٌ» عليه السلام لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود]، إنهم يجدون الأمان في طاعة ربهم والرعب والضياع والخسار والهلاك في المعصية، ولن يقدموا عليها هذا هو إعلانهم.

وهي رسالة لكل من ضعف أمام الباطل وطلب الأمان في اللجوء إليه؛ يعلنون هم أن موطن الأمان هو كنف الله وطاعته، وأنه ستجري الأقدار بما يؤيد الحق ويرفعه ويخذل الباطل ويدحضه، عاجلًا أو آجلًا، فتدرّعوا بالطاعة وتمسكوا بالصبر والاعتصام حتى يأتي وعد الله، وسيأتي.

- **يقينٌ فائقٌ وثقةٌ مبْهرةٌ.. آيةٌ على صحّة الإيمان والطّريق:**

ثقة مبهرة تتغلب على معطيات الأسباب والمسببات وتستعلي فوق الأوضاع المادية، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشّعراء].

تحدٍ سافر وجريء ومربك للطغاة، علت كلماتهم كلمات الطغاة وأدحضت حججهم شبهات المجرمين بل وعلا تهديدهم للطغاة تهديد الطغاة لهم؛ حتى اهتزت جيوشهم وعروشهم وكروشهم وأسس أوضاعهم حتى استجدوا السحرة الخدّاعين واستأجروهم ودفعوا لهم ليساندوهم؛ بل وذلوا أمام السحرة المأجورين يعدونهم بالأجرة وفوقها القرب أيضًا!..

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن

كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ
بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشّعراء].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشّعراء].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ
فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسْراء].

- **عمْق إيمانٍ ومحبّةٍ لربّ العالمين:**

شوق جارف، وحب متيم بصاحبه لربه تعالى، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ [الأعْراف:١٤٣].

عجلةٌ إلى الله لتحقيق رضاه، ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه].

- **غضبٌ لمحارم الله أنْ تنْتهك:**

غضب لله وإنكار للمخالفة وتعظيم للحرمة، ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ

أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ ﴾ [الأعْراف:١٥٠].

- **قوّة علْمٍ وعبادةٍ.. شهد لهمْ بها ربّ العالمين:**

علم ويقين وبصيرة، قوة في العبادة والطاعة، انشغال كامل بذكر الآخرة والجنة هي شغلهم وتفكيرهم وشوقهم، ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ ﴾ [ص]، ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢ ﴾ [الشّعراء].

- **افْتقارٌ للطّاعة:**

يضرعون للطاعة، فلا يقفون موقف الطاعة إلا بالله، ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾ [إبْراهيم:٤٠]، ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ ﴾ [الأنْعام].

- **انْشغال دائمٌ بيوْم الحساب:**

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١ ﴾ [إبْراهيم].

- **تجْريد التّوْحيد لله.. ورفْضهمْ أنْ يرْفعوا فوْق مكانتهمْ:**

عدم ادّعاء ما ليس لهم، حماية لحق ربهم، ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ

مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ
أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة].

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ
ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة].

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [هود:٣١].

- بمثْل هذا فلْنتعاملْ:

على هذا تعامل مع سيرة الأنبياء ومواقفهم وكلامهم وخوفهم ورجائهم وثقتهم ويقينهم وتنزيههم ربهم. عبّاد كرام، وقادة للأمم، قادة للحياة بكل مجالها، وأبقوا الهدى يرثه السعداء، وأبقوا شخصياتهم يتأثر بها الأصفياء؛ فلله درهم كم هي قيمتهم في البشرية.

لقد أعطونا أملًا عجيبًا أن يصل بعض البشر إلى مكانة أن يلقي الله سلامه عليهم، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الصّافّات]، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الصّافّات]، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الصّافّات]، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ

﴿١٣٠﴾ ﴾ [الصافّات].

ووصلوا إلى درجة أن يقول الله عنهم: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص]، وعن آخر: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

فقط تذكر هذا وأنت تنظر إلى خير من أنجبت البشرية؛ فلن يأتي أحد خير من الأنبياء.

❁❁❁❁

خيْر خلْق الله:

وعندما تذكر في الخلق «محمدًا» ﷺ..

فاذكر تلك الشخصية المحورية، والتي غيرت حياة البشرية إلى يوم الدين.

واذكر أنه ما عبد عابد من بعده ولا سبح مُسَبِّح ولا سجد مُصَلٍّ ولا حج ولا جاهد ولا صلح أمر أحد من بعده إلا على منهجه.. قرر قيم الخير ومارسها ووجه إليها وربّى عليها أصحابه، وقرّر الأحكام الربانية بما تضمنته من الأمر بكل مصلحة والنهي عن كل مفسدة، وتقرير كل خير ونفي كل شر، وأمر بالعدل وقرره ورغّب في الإحسان ومارسه، وأرسى أحكام وقيم العدل مطلقةً على كل أحد في كل أحد في كل حال، وحرم الظلم مطلقًا من كل أحد في كل أحد على كل حال.

وسيرته ﷺ وسنّته مفصلة ومعروضة للخلق؛ كلماته وأحواله ومواقفه وردوده وانفعالاته، معروضةً لتعلم كيف عاش وكيف تكلم وكيف تعامل مع حياتنا هذه وكيف حقق عبودية ربه تعالى.

ولكن فقط نلقي نظرة خاطفة عما ورد في القرآن العظيم عنه، بقصد أن تعرف قيمة ما تنظر فيه من سنته وسيرته؛ أما النظر المفصّل فهو منوط بك أن تنظر إليه وإلى حياته وتقترب منه بقلبك بقصد المعايشة والتأثر والانطباع؛

فأنت الفائز حينئذ أن تعيش مع أفضل وأسمى وأرفع مخلوق دبّ على هذه الأرض وتشرفت به الحياة ﷺ.

لقد رضي الله عنه بإطلاق، ورضي سيرته ومنهجه، وارتضاه أسوة للناس بلا محاشاة ولا استثناء، وجعله أسوة بإطلاق، ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب:٢١].

ظهر في القرآن مراعاته ﷺ ومحبة الله الخاصة له، وانظر في مثل هذه الدقائق الفائقة، ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ** ﴾ [الضّحى:٣]، فنفى ترك الله له، ولكن لما جاء في نفي البغض لم يقل «وما قلاك»، ولكن حذف الكاف حتى يبعد عنه اقتران حرف الكاف بلفظ البغض فيكون موجهًا له ولو على سبيل النفي! ليس للحفاظ على عجز الآية فحسب، بل لأن المعنى بالفعل يقتضي هذا؛ فهي رحمة ومحبة خاصة لهذا النبي الكريم ﷺ(١)، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا قَلَىٰ ۝٣** ﴾ [الضّحى].

سجّل الله تعالى تحركاته: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ** ﴾ [آل عمران:١٢١].. ويذكّر بموقف سابق: ﴿ **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤** ﴾ [آل عمران].

---

(١) راجعْ في هذا كتب البلاغة العربيّة، وكتب الإعْجاز البلاغيّ للقرْآن الكريم.

يذكر مَعِيَّة الله الخاصة له في كل شأن يفيض فيه، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس:٦١]، فيذكر عمله منفردًا تنويهًا لشأنه، وقراءته للقرآن تشريفًا لهذا العمل، ثم يذكر عمل بقية الخلق؛ فأفرد عمله تنويهًا، وسماه شأنًا، لعظم ما يقوم به، ثم ذكر عمل بقية الخلق؛ فانظر لتلك المكانة؛ ومن ثم فاعلم قيمة الشخصية التي يجب أن تعايشها .

جعل نفسيته وشخصيته نموذجًا للبشرية، فذكر تعالى دقائق نفسه وخلجات صدره مطروحة للناس؛ فيذكر كثيرًا شدة حرصه على إيمان الناس وشفقته عليهم ورحمته بهم؛ حتى كاد أن يقتل نفسه حزنًا عليهم، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]، وغيرها كثير.

يذكر حزنه وما يعتريه، ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣]، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجْر]؛ فضيقه وحزنه مما يلاقي من أعدائه محل مراعاة وتسجيل ومواساة.

يذكر خلجات نفسه؛ فلما أمر أن يتزوج طليقة من تبنّاه، لبيان حرمة التبني وإنهاء آثاره؛ فلما خشي وقْع الأمر على نفوس الناس قال: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ [الأحزاب:٣٧]..

يذكر ما يؤذيه وما يحرجه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

يذكر حال أزواجه وطلبهن زيادة النفقة، ويتولى الله تعالى تخييرهن لعدم إشغال هذا القلب الكبير المكلف ببلاغ الحق للبشرية وتربيتها وإقامة الدين وبناء الأمة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب].

جعله أسوة وآل بيته الكرام، فذكر أحداث بيته معروضًا لا يخفي حاله؛ بل يذكر ويعاتب ويعقّب ويجعله نموذجًا ليحتذى، فيذكر اتفاق زوجتين على أمر دفعتهما إليه الغيرة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التّحريم].

يقول الأستاذ الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها ﷺ إنسانًا تتمثل فيه هذه العقيدة

بكل خصائصها، وتتجسم فيه بكل حقيقتها، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها، إنسانًا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها، ضليع التكوين الجسدي، قوي البنية، سليم البناء صحيح الحواس، يقظ الحس، يتذوق المحسوسات تذوقًا كاملًا سليمًا، وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة، حيّ الطبع، سليم الحساسية، يتذوق الجمال، متفتح للتلقي والاستجابة.

وهو في الوقت ذاته كبير العقل، واسع الفكر، فسيح الأفق، قوي الإرادة، يملك نفسه ولا تملكه.. ثم هو بعد ذلك كله.. النبي.. الذي تشرق روحه بالنور الكلي، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج، والذي ينادى من السماء، والذي يرى نور ربه، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر، فيسلم عليه الحصى والحجر، ويحن له الجذع، ويرتجف به أحد - الجبل!- ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها؛ فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها.

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابًا مفتوحًا لأمّته وللبشرية كلها، تقرأ فيه صور هذه العقيدة، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية. ومن ثم لا يجعل فيها سرًّا مخبوءًا، ولا سترًا مطويًّا، بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي. حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر. بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في

كشف هذه المواضع في حياة الرسول ﷺ للناس! إنه ليس له في نفسه شيء خاص. فهو لهذه الدعوة كله. فعلام يختبئ جانب من حياته ﷺ أو يخبأ؟. إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة وقد جاء ﷺ ليعرضها للناس في شخصه، وفي حياته، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه. ولهذا خلق. ولهذا جاء.

ولقد حفظ عنه أصحابه ﷺ ونقلوا للناس بعدهم - جزاهم الله خيرًا- أدق تفصيلات هذه الحياة، فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية، لم تسجل ولم تنقل.. وكان هذا طرفًا من قدر الله في تسجيل حياة هذا الرسول، أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول. فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة»[1].

يرفع ذكره ويشرح صدره ويرضى عنه ويرضيه ويعده بالرضا، ويقرن رضاه تعالى برضى نبيه، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التّوبة:٦٢]، وشهادته بشهادته، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التّوبة:٩٤].

(١) في ظلال القرْآن (٦/ ٣٦٠٩-٣٦١٠) [التّحْريم].

هذه الشخصية العظيمة تحتاج أنت إلى معايشتها والانطباع بها، فهو نعمة الله مهداة إلينا، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ [إبْراهيم:٢٨]، ففسر الصحابة والتابعون النعمة هنا بأنها «محمد» ﷺ.

كثير من المؤمنين يتمنى رؤياه، وهذا من علامات الإيمان بلا شك، ولكن المعايشة هي المطلوبة، وهي المؤثرة؛ وأن تراه وأنت مقصر غير ما تراه وأنت تعايش كلامه وعمله وأمره ونهيه وموعظته فتنطبع به وتتأثر ويترك عليك بصمته .. وهذا ممنوح لك فيما حفظه الله لنا من ذكْره المحفوظ في القرآن والسنة المفصلة لكل حاله وليله ونهاره.. فهل ثمة خير من «محمد» ﷺ لتعيش معه؟ ومن ثم فما يمنعك؟ وإذن فكم تخسر إن لم تفعل؟!.

❁❁❁❁

▪ معايشة الجيل الفريد:

وبعد النبي الكريم يأتي صحبه الكرام، جيل فريد أثنى الله عليهم ورضي عنهم ورضي سيرتهم واشترط ليرضى عمن بعدهم أن يأتوا خلفهم وعلى سيرتهم وأن يستغفروا لهم، ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [التَّوْبة:١٠٠].

تفكيرهم وكلامهم وشعورهم وإيمانهم وعدم تكلفهم وبساطتهم

وعمقهم ورجحان عقولهم، توبتهم وسرعة رجوعهم.

يذكر مواقفهم ومبايعتهم وأن يده كانت فوق أيديهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:١٠]، ويذكر موقفهم ومكانهم تشريفًا لهم.. يثني عليهم ويخبرأنه علم ما في قلوبهم من الصدق، وأن رضاه عنهم كان عن علم بحقيقة حالهم واتجاهات قلوبهم ومشاعر نفوسهم مع أعمالهم العظيمة، فلم يكن ظاهرًا متصنعًا، بل كان عملًا وحالًا وحقيقةً، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

وجعل سبيلهم سبيلًا مرضيًّا يتوعد تعالى من خالفه، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النّساء:١١٥].

ألقى الله عليهم سلامه وأمر نبيَّه ببلاغ سلامه تعالى عليهم، وأن يبدأهم بالسلام، وأن يخبرهم بما أعَدَّ لهم من معاملة، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:٥٤]، ويكرر هذا السلام: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[النّمل:٥٩]، ويأمره أن يخصّهم بخطابه وموعظته: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبْراهيم].

يحتج بهم على من كفر أو ادعى عدم الوضوح أو عدم القدرة، ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشّورى].

يقرر بهم الموازين ويعلن أنهم أولياؤه دون كبراء المشركين، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنْعام:٥٣].

يقرر بهم خيرية الأمة، وهم أحق من دخل في الوصف؛ إذ هم تربية يد رسول الله ﷺ، وهم الجيل المخاطب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ﴾ [آل عمْران:١١٠].

هؤلاء الذين خاطبهم الله واختارهم لصحبة نبيه وفتح بهم القلوب؛ فتح بهم البلاد وغيّر بهم التاريخ، خير أصحاب الأنبياء، لما رآهم قساوسة الشام ورهبانهم أقسموا أن هؤلاء خير من حواريي «عيسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ.

موصوفون في الكتاب الأول وخاصة الشيخين «أبوبكر» و «عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا..

انظر في شخصياتهم وعايشهم وانطبع بهم وتأثر..

كان «ابن المبارك» له كتاب «الزهد والرقائق»، وكان ينفرد بنفسه كثيرًا يراجعه فيه وله نشيج وبكاء، وكان إذا سُئِلَ: ألا تسْتوْحش؟ قال: «كنْت مع أصْحاب «محمّدٍ» ﷺ».

حزم وإيمان وعلم وقوة «أبي بكر» رضي الله عنه يوم الإسراء، ويوم الهجرة، ويوم وفاة رسول الله ﷺ..

ويوم الرِّدَّة أدلى الصحابة برأيهم متراجعين عن القتال، ورأى «أبو بكر» رضي الله عنه أن الأمر سينخرق لو تراجعوا أو انتظروا، وأدلى برأيه؛ فقالوا له رأيك خير لنا وأنت أعلمنا وخيرنا وأشفقنا علينا وأنصحنا لنا، فكان علمه العميق وقوته المتقدمة حتى راجعه «عمر»، فقال له: «أخوّار في الإسلام؟ جئتني بخذلانك؟!»[1].

(١) قال السّيوطيّ في تاريخ الخلفاء (ص٧٦): «أخْرج الإسْماعيليّ عنْ عمر رضي الله عنه قال: لمّا قبض رسول الله ﷺ ارْتدّ منْ ارْتدّ منْ العرب، وقالوا: نصلّي ولا نزكّي، فأتيْت أبا بكْرٍ فقلْت: يا خليفة رسول الله! تألّفْ النّاس وارْفقْ بهمْ، فإنّهمْ بمنْزلة الوحْش، فقال: رجوْت نصْرتك وجئْتني بخذْلانك، جبّارًا في الجاهليّة خوّارًا في الإسْلام، بماذا عسيْت أنْ أتألّفهمْ؟ بشعْرٍ مفْتعلٍ أوْ بسحْرٍ مفْترى؟ هيْهات هيْهات! مضى النّبيّ ﷺ وانْقطع الوحْي، والله لأجاهدنّهمْ ما اسْتمْسك السّيْف في يدي وإنْ منعوني عقالًا، قال عمر: فوجدْته في ذلك أمْضى منّي وأحْزم، وأدّب النّاس على أمورٍ هانتْ على كثيرٍ منْ مؤنتهم حين وليتهمْ».

تقدم ورفع معه الجميع وقضى على فتنة كاد الإسلام فيها أن ينتهي قال «وكيع» وغيره: «لوْلا أبو بكْرٍ لذهب الإسْلام»(١).

«عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. بحزمه وعدله وقوته، ورحمته وشفقته، وخشيته وبكائه، حسن تصرفه وإعداده للأمور أقرانها قبل أن تنزل، انْهدّ الفرس أمام جيوش أصحابه، وفتح جنده بيت المقدس الذي نبكي عليه الآن، وفتح مصر ليستوطنها الإسلام وتصبح كنانة الله ما رفع الله عنها الطواغيت.

«عثمان» بكرمه وحيائه وتعبده، «علي» بعلمه وزهده وشجاعته وجهاده وحكمته.

«الزبير» و «طلحة» و «ابن عوف» و «أبو عبيدة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذي كان لا يطلب شيئًا من الدنيا ولا ينافس عليها ولا على إمارة ولا شيء؛ فكان أمينًا حق أمين كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

رجل يهتز له عرش الرحمن في مدة عاشها في الإسلام، حوالي ست أو

---

(١) رواه أحْمدُ في فضائل الصّحابة (١١٤).

(٢) روى البخاريّ في صحيحه (٣٧٤٤) كتاب أصْحاب النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- باب مناقب أبي عبيْدة بْن الجرّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنْ أنس بْن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ لكلّ أمّةٍ أمينًا، وإنّ أميننا أيّتها الأمّة أبو عبيْدة بْن الجرّاح**».

سبع سنوات(١)، ورجل تسمع الملائكة لقراءته(٢)، وآخران يخرجان من عند رسول الله ﷺ فيضيء لهما نور مادي طول الطريق فلما افترقا افترق معهما النور لشعبتين(٣).

---

(١) روى مسْلمٌ في صحيحه ١٢٤ (٢٤٦٦) كتاب فضائل الصّحابة رضي الله عنهم- باب منْ فضائل سعْد بْن معاذٍ رضي الله عنه، عنْ عنْ جابرٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«اهْتزّ عرْش الرّحْمن لموْت سعْد بْن معاذٍ»**.

(٢) روى مسْلمٌ في صحيحه ٢٤٢ (٧٩٦) كتاب صلاة الْمسافرين وقصْرها- باب نزول السّكينة لقراءة الْقرْآن، عنْ أبا سعيدٍ الْخدْريّ رضي الله عنه، أنّه حدّث أنّ أسيْد بْن حضيْرٍ بيْنما هو ليْلةً يقْرأ في مرْبده، إذْ جالتْ فرسه، فقرأ، ثمّ جالتْ أخْرى، فقرأ، ثمّ جالتْ أيْضًا، قال أسيْدٌ: فخشيت أنْ تطأ يحْيى، فقمْت إليْها، فإذا مثْل الظّلّة فوْق رأْسي فيها أمْثال السّرج، عرجتْ في الْجوّ حتّى ما أراها، قال: فغدوْت على رسول الله ﷺ، فقلْت: يا رسول الله بيْنما أنا الْبارحة منْ جوْف اللّيْل أقْرأ في مرْبدي، إذْ جالتْ فرسي، فقال رسول الله ﷺ: **«اقْرأ ابْن حضيْرٍ»** قال: فقرأْت، ثمّ جالتْ أيْضًا، فقال رسول الله ﷺ: **«اقْرأ ابْن حضيْرٍ»** قال: فقرأْت، ثمّ جالتْ أيْضًا، فقال رسول الله ﷺ: **«اقْرأ ابْن حضيْرٍ»** قال: فانْصرفْت، وكان يحْيى قريبًا منْها، خشيت أنْ تطأه، فرأيْت مثْل الظّلّة فيها أمْثال السّرج، عرجتْ في الْجوّ حتّى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ: **«تلْك الْملائكة كانتْ تسْتمع لك، ولوْ قرأْت لأصْبحتْ يراها النّاس ما تسْتتر منْهمْ»**.

(٣) روى ابْن حبان في صحيحه (٢٠٣٠) كتاب الصلاة- فصْلٌ في القنوت، عنْ أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه: «أنّ أسيْد بْن حضيْرٍ، ورجلًا آخر من الْأنْصار، تحدّثا عنْد رسول الله ﷺ، ليْلةً حتّى ذهب من اللّيْل ساعةٌ، في ليْلةٍ شديدة الظّلْمة، ثمّ خرجا منْ عنْد النّبيّ ﷺ ينْقلبان، وبيد كلّ واحدٍ منْهما عصاه، فأضاءتْ عصًا أحدهما لهما حتّى مشيا في ضوْئها، حتّى إذا افْترقتْ بهما الطّريق أضاءتْ بالْآخر عصاه، فمشى كلّ واحدٍ منْهما في ضوْئها حتّى بلغ أهْله»، وقال شعيْب الأرْنؤوط (٥/ ٣٧٦): «إسْناده صحيحٌ على شرْطهما».

رجل يصبر على مرض فتزوره الملائكة تؤنسه[(١)]..

من «ذي البجادين» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال «عبد الله بن مسعود» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تمنّيْت لوْ كنْت مكانه ودفنني رسول الله بيده»[(٢)]، إلى «جليبيب» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يضع

---

(١) لعلّ هذا ما ورد في الحديث الّذي رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٦٧ (١٢٢٦) عنْ مطرّفٍ، قال: قال لي عمْران بْن حصيْنٍ: أحدّثك حديثًا عسى الله أنْ ينْفعك به: إنّ رسول الله ﷺ «جمع بيْن حجّةٍ وعمْرةٍ، ثمّ لمْ ينْه عنْه حتّى مات، ولمْ ينْزلْ فيه قرْآنٌ يحرّمه، وقدْ كان يُسَلَّم عليّ، حتّى اكْتويْت، فتركْت، ثمّ تركْت الْكيّ فعاد»، أوْ ما رواه مالكٌ في الموطّأ عنْ عطاء بْن يسارٍ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مرض الْعبْد بعث الله تعالى إليْه ملكيْن، فقال: انْظرا ماذا يقول لعوّاده، فإنْ هو إذا جاءوه، حمد الله وأثْنى عليْه، رفعا ذلك إلى الله عزّ وجلّ وهو أعْلم، فيقول: لعبْدي عليّ إنْ توفّيْته أنْ أدْخله الْجنّة، وإنْ أنا شفيْته أنْ أبْدل له لحْمًا خيْرًا منْ لحْمه، ودمًا خيْرًا منْ دمه، وأنْ أكفّر عنْه سيّئاته**»، قال الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٢٧٢) (١/ ٥٥١): «وهذا سندٌ مرْسلٌ صحيحٌ... ثمّ رأيْته موْصولًا عنْ مالكٍ، أخْرجه أبو الحسيْن الأبنوسيّ في جزْءٍ فيه فوائدٌ عوالٍ حسانٌ منْتقاةٌ غرائبٌ». قَالَ «ابْنُ حَجَر» فِي «فَتْح الباري» (١/ ١٢٤) كتاب الإيمان: «وقد ثبت عن عمران بن حصين أنه كان يسمع كلام الملائكة، والله أعلم»، وَقال «المُباركفوري» في «تحفة الأحوذي» (٢/ ٧١): «عِمران بن حصين... كان من علماء الصحابة وكانت الملائكة تسلم عليه، وهو ممن اعتزل الفتنة».

(٢) روى ابْن هشامٍ في السّيرة النّبويّة (٤/ ١٧١) قال: وحدّثني محمّد بْن إبْراهيم بْن الْحارث التّيْميّ، أنّ عبْد الله بْن مسْعودٍ كان يحدّث، قال: قمْت منْ جوْف اللّيْل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزْوة تبوك، قال: فرأيْت شعْلةً منْ نارٍ في ناحية الْعسْكر، قال: فاتّبعْتها أنْظر إليْها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكْرٍ وعمر، وإذا عبْد الله ذو الْبجاديْن الْمزنيّ قدْ مات، وإذا همْ قدْ حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفْرته، وأبو بكْرٍ وعمر يدلّيانه إليْه، وهو يقول: أدْنيا إليّ أخاكما، فدلّياه إليْه، فلمّا هيّأه لشقّه قال: اللّهمّ إنّي أمْسيْت راضيًا عنْه، فارْض عنْه. قال: يقول وعبْد الله بْن مسْعودٍ: يا ليْتني كنْت صاحب =

رسول الله ﷺ رأسه على فخذه الشريف ويمسح عن وجهه التراب وهو شهيد ويقول: «قتل سبْعةً وقتلوه، هذا منّي وأنا منْه، هذا منّي وأنا منْه»[١]. إلى «حنظلة» رضي الله عنه غسيل الملائكة[٢]، إلى رجل يأمر الله نبيه أن يقرأ عليه سورة بعينها، ويسميه باسمه[٣]، إنهم عشرات ومئات بل وآلاف من جيل أخرجه القرآن إخراجًا وصنعه صناعة وصاغه صياغة وصنع بهم قَدَرَهُ.

هرب الروم أمامهم وتحصّنوا فقال لهم «خالدٌ» رضي الله عنه: «لوْ صعدْتمْ إلى السّماء لأصْعدنا الله إليْكمْ أوْ أهْبطكمْ إليْنا».

رجل ممن أسلم متأخرًا امتلأ بالحكمة بهذا الدين، فلما وفد على «رستم»

=

الْحفْرة.

(١) رواه مسْلمٌ في صحيحه ١٣١ (٢٤٧٢) كتاب فضائل الصّحابة رضي الله عنهم- باب منْ فضائل جليْبيبٍ رضي الله عنه، منْ حديث أبي برْزة الأسْلميّ رضي الله عنه.

(٢) روى ابْن هشامٍ في السيرة النّبويّة (٣/ ٧٩) قال: «والْتقى حنْظلة بْن أبي عامرٍ الْغسيل وأبو سفْيان، فلمّا اسْتعْلاه حنْظلة بْن أبي عامرٍ رآه شدّاد بْن الْأسْود، وهو ابْن شعوبٍ، قدْ علا أبا سفْيان. فضربه شدّادٌ فقتله. فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ صاحبكمْ - يعْني حنْظلة- لتغسّله الْملائكة**. فسألوا أهْله ما شأْنه؟ فسئلتْ صاحبته عنْه. فقالتْ: خرج وهو جنبٌ حين سمع الْهاتفة».

(٣) روى البخاريّ في صحيحه (٣٨٠٩) كتاب مناقب الأنْصار- باب مناقب أبيّ بْن كعْبٍ رضي الله عنه، عنْ أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، قال النّبيّ ﷺ لأبيٍّ: «**إنّ الله أمرني أنْ أقْرأ عليْك** ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ [البيّنة:١]»، قال: وسمّاني؟ قال: «**نعمْ**» فبكى.

قائد الفرس قال له: «كنّا نظنّ فيكمْ العقول والأحْلام، إنّ هذا ملْكٌ زائلٌ!»[١]، وزال بالفعل.

حفنة منهم تفتح مصر ويصنع «عقبة» البطولات في شمال إفريقية، فدفنه أهل الصحراء في موقع استشهاده وقالوا عن قبره: «سيّدي عقْبة المؤْمن المجاهد».. يرى بعضهم حربةً نفذت من صدره فيصيح: «فزْت وربّ الكعْبة»[٢]، وآخر يهتف: «واهًا لِريحِ الجنّة، أجدها منْ دون أُحُدٍ»[٣]، وثالث

---

(١) هو المغيرة بْن شعْبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أثْناء حديثه مع «رسْتمْ» قائد الفرْس.

(٢) روى البخاريّ في صحيحه (٢٨٠١) عنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «بعث النّبيّ ﷺ أقْوامًا منْ بني سليْمٍ إلى بني عامرٍ في سبْعين، فلمّا قدموا قال لهمْ خالي: أتقدّمكمْ فإنْ أمّنوني حتّى أبلّغهمْ عنْ رسول الله ﷺ، وإلّا كنْتمْ منّي قريبًا، فتقدّم فأمّنوه، فبيْنما يحدّثهمْ عن النّبيّ ﷺ إذْ أوْمئوا إلى رجلٍ منْهمْ فطعنه، فأنْفذه، فقال: الله أكْبر، فزْت وربّ الكعْبة، ثمّ مالوا على بقيّة أصْحابه، فقتلوهمْ إلّا رجلًا أعْرج صعد الجبل، قال همّامٌ: فأراه آخر معه، «فأخْبر جبْريل عَلَيْهِ السَّلَامُ النّبيّ ﷺ، أنّهمْ قدْ لقوا ربّهمْ، فرضي عنْهمْ، وأرْضاهمْ»، فكنّا نقْرأ: أنْ بلّغوا قوْمنا أنْ قدْ لقينا ربّنا فرضي عنّا، وأرْضانا ثمّ نسخ بعْد، فدعا عليْهمْ أرْبعين صباحًا على رعْلٍ وذكْوان وبني لحْيان وبني عصيّة الّذين عصوا الله ورسوله ﷺ».

(٣) روى مسْلمٌ في صحيحه ١٤٨ (١٩٠٣) كتاب الإمارة- باب ثبوت الْجنّة للشّهيد، عنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «عمّي الّذي سمّيت به لمْ يشْهدْ مع رسول الله ﷺ بدْرًا»، قال: «فشقّ عليْه، قال: أوّل مشْهدٍ شهده رسول الله ﷺ غيّبْت عنْه، وإنْ أراني الله مشْهدًا فيما بعْد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصْنع، قال: «فهاب أنْ يقول غيْرها»، قال: «فشهد مع رسول الله ﷺ يوْم أحدٍ»، قال: فاسْتقْبل سعْد بْن معاذٍ، فقال له أنسٌ: يا أبا عمْرٍو، أيْن؟ فقال: واهًا لريح الْجنّة أجده دون أحدٍ، قال: «فقاتلهمْ حتّى قتل»، قال: «فوجد في جسده بضْعٌ وثمانون منْ بيْن ضرْبةٍ وطعْنةٍ ورمْيةٍ»، قال: «فقالتْ أخْته -

=

عندما يموت يقول رسول الله ﷺ لابنه: «**يا جابر ما لي أراك منْكسرًا**»؟ قلْت: يا رسول الله اسْتشْهد أبي، وترك عيالًا وديْنًا، قال: «**أفلا أبشّرك بما لقي الله به أباك**»؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: «**ما كلّم الله أحدًا قطّ إلّا منْ وراء حجابٍ، وأحْيا أباك فكلّمه كفاحًا. فقال: يا عبْدي تمنّ عليّ أعْطك. قال: يا ربّ تحْييني فأقْتل فيك ثانيةً. قال الرّبّ عزّ وجلّ: إنّه قدْ سبق منّي أنّهمْ إليْها لا يرْجعون**»(١).

يجتمع منهم اثنان ليلة أُحُد فيقول أحدهما للآخر: «ألا ندْعو؟»، فيدعوان فانظر بم يدعوان..

عنْ إسْحاق بْن سعْد بْن أبي وقّاصٍ قال: حدّثني أبي أنّ عبْد الله بْن جحْشٍ قال يوْم أحدٍ: «ألا نأْتي ندْعو الله؟»، فخلوْا في ناحيةٍ، فدعا سعْدٌ قال: «يا ربّ، إذا لقينا الْقوْم غدًا، فلقّنِي رجلًا شديدًا بأْسه شديدًا حرْده؛ فأقاتلُه فيك ويقاتلُني، ثمّ ارْزقْنِي عليْه الظّفَر حتّى أقْتلَه وآخذَ سلبه»، فأمّن عبْد الله بْن

=

عمّتي الرّبيّع بنْت النّضْر- فما عرفْت أخي إلّا ببنانه، ونزلتْ هذه الْآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب:٢٣]»، قال: «فكانوا يروْن أنّها نزلتْ فيه وفي أصْحابه».

(١) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٣٠١٠) أبواب تفْسير القرْآن- بابٌ: ومنْ سورة آل عمْران، وقال «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ منْ هذا الْوجْه». وقال الألْبانيّ في «التّعليقات الحسان» (٦٩٨٣): «حسنٌ».

جحْشٍ، ثمّ قال: «اللهمّ ارْزقْني غدًا رجلًا شديدًا حَرْدُهُ، شديدًا بأْسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثمّ يأْخذني فيَجْدَعُ أنْفي، فإذا لقيتك غدًا قلْت: يا عبْد الله، فيم جُدِعَ أنْفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك ﷺ، فتقول: صدقْت»، قال سعْد بْن أبي وقّاصٍ: «يا بنيّ، كانتْ دعْوة عبْد الله بْن جحْشٍ خيْرًا منْ دعْوتي...»[1].

آخر يخرج أحب ماله حديقة كانت له في مقابل نخلة بالجنة، ثم ينادي امرأته بعد أن جعلها صدقة، فلا يدخلها وينادي على امرأته: «يا أمّ الدّحْداح اخْرجي منْ الحديقة، فقدْ جعلْتها لله»، فقالت: «ربح البيْع»[2].

قوم لما فكروا أن يلتفتوا إلى إصلاح معاشهم ودنياهم أنزل إليهم: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

---

(١) رواه البيْهقيّ في السّنن الكبْرى (١٢٨٩٨) كتاب قسْم الفيْء والغنيمة- باب السلب للقاتل.

(٢) روى الحاكم في «المسْتدْرك على الصّحيحيْن» (٢١٩٤) كتاب البيوع، عنْ أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، أنّ رجلًا قال: يا رسول الله، إنّ لفلانٍ نخْلةً، وأنا أقيم حائطي بها، فمرْه أنْ يعْطيني أقيم حائطي بها. فقال له النّبيّ ﷺ: «**أعْطها إيّاه بنخْلةٍ في الْجنّة**»، فأبى وأتاه أبو الدّحْداح فقال: بعْني نخْلك بحائطي، قال: ففعل، قال: فأتى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنّي قد ابْتعْت النّخْلة بحائطي فجعلها له. فقال النّبيّ ﷺ: «**كمْ منْ عذْقٍ رداحٍ لأبي الدّحْداح في الْجنّة**» مرارًا، فأتى امْرأته، فقال: يا أمّ الدّحْداح اخْرجي من الْحائط، فإنّي بعْته بنخْلةٍ في الْجنّة، فقالتْ: قدْ ربحْت الْبيْع أوْ كلمةً نحْوها. وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرْط مسْلمٍ»، وقال الذّهبيّ في التّلْخيص (٢/ ٢٤): «على شرْط مسْلمٍ».

بعضهم جهّز جيشًا، والبعض كان يعمل طول النهار، يحامل على ظهره بغرض أن يمتلك مالًا ليتصدق آخر النهار ولو بمدّ من التمر!..

مات بعضهم في شرق الدنيا في «أرمينية» و «أذربيجان» مجاهدين، وبعضهم إلى «برقة»، وأبناؤهم وصلوا إلى المغرب الأقصى يحملون الهدى للناس، ويقولون لو أسلمتم كنتم إخواننا أو دعوا الإسلام في طريقه..

يأتي جيش بغنائم ويأتي تلميذ من تلاميذ الصحابة بحق من عاج به جواهر ترجح كل ما أتى به الجيش، فيلقيه في الغنائم ثم يختفي لئلا يعلم فيمدح(١).

جعل الله تعالى هذا الجيل هو خير القرون بمعنى أنهم هم المقياس في العلم والعمل، والفهم والعقائد، والعبادة والسياسة الراشدة.

- **عجزْت يا قلم.. إنّهمْ أصْحاب «محمّدٍ» ﷺ!:**

إنني آثرت هنا أن أوجه إلى قيمتهم لتبحث عن معايشتهم، في السيرة والمواقف وكتب السيرة مملوءة بأخبارهم المبهرة، وفي السنة كذلك مثل الكتب التي تكفلت بهذا مثل «حياة الصحابة» لـ «الكاندهلوي»، وتراجمهم وتعريفاتهم لـ «الذهبي» و «ابن حجر» وغيرهم.

«صفة الصفوة» لـ «ابن الجوزي» و «حلية الأولياء» لـ «أبي نعيم»، كلها

(١) هو عامر بن عبد القيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

بدأت بالصحابة فمن بعدهم من أئمة التابعين، فانظر إلى هؤلاء الكرام هم أوْلى من تعيش معهم ثم تعود فتصلح زمنك، لا أقصد الانسحاب من الواقع بل المعايشة والرجوع إلى الواقع باستمرار لكن بروح متشبعة بالأولين، بالجيل الفريد.. ألحقنا الله بهم في الصالحين.

▪ شخْصيّات الكتاب العزيز:

وهي شخصيات مؤمنة وقفت مواقف لم يتصوروا أن تخلد في الذكر الحكيم، يتعلم منها المؤمنون إلى يوم القيامة..

السحرة الذين آمنوا واستشهدوا، وبعد طلب الأجرة من فرعون صاروا معلّمين له وللبشرية بعده، في الصباح سحرة فجرة وفي آخر النهار شهداء بررة، ثبات وإيمان وثقة وتضحية وشعور عميق باليوم الآخر وبخطورة الذنب وقيمة مغفرته.. تغير كامل، راجع كلماتهم ومواقفهم وتعبيرهم عن إيمانهم وموقفهم وشعورهم بهذا الدين.. فببساطة ويسر يقولون للتهديد حتى تهاوى فرعون بوعيده: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشّعراء]، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه].

يتراجع جيش كامل عن المواجهة، فيبرز رجلان يخافون ربهما ونعمه عليهما وعلى قومهما فيثبتون ويثبتون قومهم؛ يتراجع القوم ويفوز الرجلان،

لم نعلم اسمهما ولكن لا يضرهما، فقد علما بموقفهما وصار الموقف عنوانًا واسمًا، ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣].

يهدد المشركون الرسل بالقتل، فينتفض رجل مستخفٍ بإيمانه فيسعى صارخًا معلنًا توحيده وإيمانه، مدافعًا عن الرسل ومحذّرًا قومه من قتْلهمْ، وناصحًا قومه بطيبة فريدة؛ فقتلوه فنصح ثانية بعد موته وتمنى لهم الخير قبل أن يدخل الجنة.. شخصية فريدة، وطيبة عجيبة.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس].

يهدد فرعون بقتل «موسى» عليه السلام، فينتفض أمير مؤمن مستخفٍ بإيمانه فيلقي بإيمانه ويعلن بموقفه ويحذرهم وينصحهم في خطبة سجلها ذو الجلال والإكرام إلى يوم القيامة في أعلى كتبه وأفضلها وأجمعها.. لم يكن نبيًّا، بل كان صدّيقًا كريمًا يخوفهم بأس الله في الدنيا ويوم التناد، ويذكّرهم بما

سبق من الرسل كـ «يوسف» عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومستنكرًا دعوته لهم إلى الجنة ودعوتهم له إلى النار، ثم اليقين والتوكل.. فأنجاه الله وأعلى ذكْره، رَحِمَهُ اللَّهُ، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨]، ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر:٢٩].. ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر]...

شهداء الأخدود لا نعلم أسماءهم، لكن اسمهم في موقفهم؛ درس لكل مؤمن يمس شغاف قلبه وهو يرى العقيدة تعلو على الجسد وعلى ألم النيران، يتهاوون في النار عظماء وتتهاوى قوة الطغاة وأسلحتهم معهم.. فيحيا شهداء الأخدود إلى يوم القيامة عند ربهم وفي قلب كل مؤمن، ويركل قاتلوهم ملعونين في المزابل، ثم في أخاديد نيران رب العالمين إلى الأبد.. ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج]..

إنك تخرج من كل هذا بنتيجة واحدة.. نعم ممكن!..

ممكن أن تكون شيئًا، ببساطة وعمق، بإخلاص وصدق، بثبات ويقين، يصنع الله منك شيئًا، ويتولى سبحانه صناعتك، ويعظّم أثرك، وهناك في الجنة

ترى ملْكك.. مرة ثانية.. نعم ممكن، والله المستعان.

❁❁❁❁

- **معايشة العُبَّاد والصّالحين:**

بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم جاءت قرون مفضلة وخيّرة، حملت الهدى علماء وعُبَّادًا ومجاهدين وصالحين وكرامًا منفقين.

في الإسلام أئمة هدى لم تعدم منهم الأمة أفرادًا وجماعات ومدارس علمية وتوجهات إصلاحية.

أئمة العلم والفقه والحديث والسنة والأصول، أئمة العُبَّاد والزهّاد.. أئمة المحبين وآثارهم وكلماتهم وأقوالهم وأفعالهم.

أئمة المجاهدين وبطولاتهم وفناء حياتهم على ظهور الخيل من أجل الله تعالى..

الأئمة العادلون بعد الراشدين كـ «عمر بن عبد العزيز» وكثير من الخلفاء بعدهم حسنت سيرتهم جدًّا واقتربوا من الأولين بقدر استطاعتهم، ورجالات الإسلام الأقوياء؛ منهم من نشر الإسلام في الهند والصين وشرق آسيا، ومنهم في الغرب من فتح المغرب ونزل جنوبا جنوب الصحراء ومنهم من سار شمالًا للأندلس.

تاريخ مليء بالنجوم ما بين عابد وعالم ومجاهد ومنفق كريم وعادل ومتأبٍّ على الظلم مقاومٍ له.

كانت مجتمعات بشرية نعم، لكن كان فيها تيارات الهدى وخيرون

كثيرون وأئمة وقفوا ضد المظالم وحملوا الحق ونصروه.

كان العلماء وجدهم وجهدهم وتضحياتهم وتحملهم المشاق في طلب العلم وسهرهم الليالي وقطعهم الفيافي وعدم التفريط في لحظة من أعمارهم.. بعضهم يطلب الحديث أو مسألة فقه وهو يحتضر حتى يقول جليس له: الآن تطْلب المسْألة؟ فقال: «أموت وأنا أعْرفها خيْرٌ منْ أنْ أموت وأنا أجْهلها»؛ قال: «فذاكرْته إيّاها وصحّحها لي»! يقول: «ثمّ خرجْت فسمعْت صوْت صراخ أهْله عليْه وأنا عنْد الباب»!.

قال «ابن الجوزي»: «أنّهمْ علموا أنّ زيادة العلْم هنا زيادةٌ في ملْك الآخرة ودرجاتهمْ هناك».

وكان العُبَّاد في قيامهم وصيامهم وذكرهم، في خوفهم وحبهم، في ورعهم الشديد حتى أن بعضهم - شعيْب بن حرْب- كان لا يضع جصًّا «طلاء» على جدران بيته من الخارج؛ لأن هذا شغل لجزء ولو زهيد من طريق المسلمين!.. حتى قال «أحمد بن حنبل» رَحِمَهُ اللهُ عنه: «لقدْ دقّق شعيْبٌ يرْحمه الله»[1].

جزعهم من المخالفة والتقصير، مهابتهم لله ورقّة قلوبهم وخشوعهم،

(١) أوْرده أحْمد في كتاب الورع منْ رواية المرْوزيّ عنْه (١١٤) (ص٣٧).

عفّتهم الشديدة، صبرهم وتوكلهم وعمق صلتهم بالله تعالى.

المجاهدون وبطولات متوالية وسنون متتالية حتى يخرج بعضهم وامرأته حامل فيعود وابنه عالم يجتمع عليه الخلق.

راجع «حلية الأولياء» لأبي نعيم وانظر في «صفة الصفوة» لابن الجوزي؛ عش معهم خير لك من معايشتنا! ثم عد إلينا بأحسن مما ذهبت وأرفع نفسًا وأعمق إيمانًا؛ سيتركون عليك أثرًا ويطبعون على قلبك بطابعهم، ولا بد.. ثم اطبع من حولك وارفع بيئتك وأثّر فيها بالخير.

مع هؤلاء عِشْ واحْتَكَّ بهم، وانطبع بهم واخرج من نفق الواقع المعاصر ومن رخاوة العناصر الموجودة إلى أفق وضيء ومستوى سامٍ وأوج تشرئب إليه الأعناق.. هنا تنْبل شخصياتنا إذ عاشت مع الكرام فتكْرم وتسمو وتنطبع وتتأثر، وستجد أثرهم عليك وعلامات على قسمات شخصيتك، وعندئذ أنت الفائز.

❁❁❁❁

▪ حتّى لا تعْتذر!..

قد تأتي النفس فتقول كانوا في زمن جميل، وكان الجو العام يساعدهم، وكان الإسلام هو المقدّم والقائد؛ بينما اليوم الإسلام محارب ومطارد والبيئة معادية والأمر أصعب بكثير.

ورغم أن هذا الكلام خطأ بالنسبة لما واجه الصحابة من واقع صعب ومتجذر وغشيم! ولما وجده من دونهم من المجددين أمثال الإمام «أحْمد» وشيخ الإسلام «ابن تيْمية» والشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رَحِمَهُ اللَّهُ في بلاد «نجْد»... إلخ، ولكن رغم ذلك نقول..

حتى هذا اليوم الذي نعيشه تفرز الأمة رجالًا عظامًا يتسامون على واقعهم ويتأثرون تأثرًا خارجيًا عنه؛ بالقرآن وقضاياه والحديث وسيرة الأولين، وهم في أنفسهم خامات نفيسة، فلما أخلصوا أخلصهم الله تعالى له، وغيّر بهم، وهداهم وهدى بهم، وشقوا للهدى طريقًا وحفظوا للحق كلمته، وللإيمان دوره..

حاولت قوًى كثيرة للكفر والشر والنفاق إلغاء الإسلام وإلغاء دوره، حتى يندرس هذا الدين ويصبح أثرا بعد عين، ثم يعفى أثره لتستقر قوى الشر والباطل، وحاولت إتلاف الخامات البشرية وإخراج قطعان ضالة من البشرية تتهارج تهارج الحُمُرِ بين شهوات وإلحاد ونَهَمٍ ثم ذبح أو نفوق كنفوق

الدواب.

فرجع هؤلاء الكرام بالإسلام إلى الصدارة والإهتمام، وصار هو محور الصراع اليوم، ولو تأخر نصره إلى حين..

يزعجون به الكفر والشر والنفاق، ويعيدون للإسلام خطه وكلمته فيعيدون الإسلام إلى الوجود الفاعل ويوصلونه إلى أجيالنا ببطولة وتضحية؛ فيدفعون أعمارهم من أجله.. يفهمونه للخلق ويوصلون مبادءه ويقدمون الخير ويحملونه للناس في تضحية عجيبة وعميقة ومبهرة، إلى هذه اللحظات.

انظر سِيَرَ هؤلاء الصالحين والعظماء وعايشهم وانطبع بهم وفي أفقهم تأمّل وفي مستواهم تأْمل.. أنت الفائز أخاه.

لن أذكر أسماء، حتى لا يختلف أحد على التقييم، وحتى لا ننسى أشخاصًا فيظن الناس سوءًا، ولكن نلفت النظر إلى هذه الثلة القيّمة والنجوم المضيئة، فلا تترك أثر هؤلاء ولا تمر عليهم مرور الكرام، بل توقف وانظر كيف خرجوا عن تأثير البيئات وصنعوا أحداثًا عظامًا؛ ما بين مجدد ومحيي للأمة إلى مؤصل لقضايا يرويها بدمه إلى مجاهد دوّخ المجرمين، إلى عالم يحفظ العلم ويلقيه في وجه الدنيا ولو كرهت، إلى قعيد على كرسي أحيا أمة وأحرج أصحاءها.

إلى أسر كرام تقدم نفسها وأبناءها للإسلام، إلى أمهات بسيطة تقدم أبناءها للشهادة وتربيهم للجهاد وتدفع بهم وترى أن هذا جزء من التربية، وأخرى تقف مضحية بعد استشهاد ابنها وهدم منزلها ثم تهتف: «ولا يهمنا.. فدا الأقصى»، وأخرى تقدم أبناءها لمقاومة الطغيان وتبديل الشرائع ثم تهتف أنا صابرة فداء الإسلام.

إنهم كثير وكثير فتعلق بالثُّريا واترك بنيات الطريق، بلّغنا الله وإياك، أخاه وأختاه.

❊ ❊ ❊

القمّة المبْتغاة

بيْن يديْك.. فلماذا تتأخّر؟

تجْريد التّوْحيد

- أسْمى حالات الإنْسان:

إن أفضل حالة للإنسان هو تحقيق كمال لا إله إلا الله بأقصى ما تقتضي؛ وهو تحقيق المقصود من خلقه، فالمقصود من خلق الإنسان هو إفراد الله بالعبادة والتوجه والتعلق؛ فقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات]، أي ليفردون بالعبادة وليس المقصود مجرد الأداء إذ هناك من المشركين من يعبد الله ويعبد معه غيره.

والحالة الأسمى للإنسان هي انجذاب الروح بكلّيتها لله تعالى، وسلامة القلب من كل ما سواه من حيث القصد والمحبة والتوجه والتعلق والطاعة؛ فتخرج منه كل علقة لغيره تعالى؛ بحيث يسلم كاملا لله وحده؛ فلا ينازع القلبَ هوى ولا شهوةٌ، ولا مقتضياتُ النفس وحظوظُهَا؛ بل يخلص القلب وتخلص الروح توجها إلى الله تعالى، فيستغني بحبه عن حب من سواه، وبطاعته عن طاعة من سواه، وبتعظيمه عن تعظيم من سواه، وبالخوف منه والرجاء فيه عن الخوف ممن سواه أو الرجاء فيمن سواه.. وهكذا جميع

مفردات العبادة.

فينفي منازعة مراد الرب الشرعي الديني بأي مراد آخر؛ إذ إن النفس مخلوقة والهوى مخلوق لله تعالى وهما غير الله، فلا يشرك العابد بربه هوًى وإن دق، ولا شهوة وإن تسللت، ولا حظوظ نفس تنازع طاعة الله، ولا طاغوتًا ظاهرًا أو قوًى خفيةً وإن خوّف بهما؛ فقد كفر بالجبت والطاغوت.. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام].

وهذا أكثر الخلق راحة، وأعظمهم قوة، وأسرعهم إلى الله سيرًا، وأطوعهم لله تعالى؛ فمن حقق التوحيد وجرّد القلب لله تعالى أكمل الطاعة إذ لا منازع للقلب عن توجهه إلى الله قصدًا وحبًّا وتعظيمًا وطاعة وخضوعًا وذلًّا؛ وهذا هو الفناء السني؛ فناء النبيين والمرسلين والصّدّيقين والصالحين؛ إذ من لا شركة في توجهه أعظم طاعة وأسرع وأقوى ممن ينازع بالأهواء والشهوات والمخاوف فهي آلهة منازعة لشرك خفي يُضْعِفُ القلْبَ ويُفْسِدُهُ بحسبه.

وكلما تسلل منازع عاد العبد فاستغفر وحقق التوحيد، وقام بلا إله إلا الله وقالها على وجه نفي كل منازع من دقيق الشرك وعظيمه وخفيه؛ ومثل هذا يصحّ قلبه ويسلم ويحيا، ومثل هذا لا يعمل إلا لله ولا يعمل إلا بالله تعالى،

ولا يعمل لله إلا بما شرع.

❁❁❁❁

▪ حقيقة الإخْلاص:

إن أول هذا الدين وآخره، وظاهره وباطنه هو التوحيد، وجمع هذا الدين في قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، ومن جاء ربه تاركًا دقيق الشرك وعظيمه، وكبيره وصغيره، أحرق هذا التوحيد ذنوبه ومعاصيه.

ومثل هذا يكمل طاعة الله تعالى إذ إن حقيقة الإخلاص هي انجذاب القلب بكليته إلى الله تعالى محبةً وطاعةً وخضوعًا واستسلامًا وقصدًا وطلبًا، فإذا حدث هذا لم يبق في قلب العبد إرادة معصية لله تعالى، ومن مات على هذا كان من أهل السعادة.

والمقصود الأعظم من التربية هي الوصول إلى حال لا يوجد فيه مزاحمة في القلب لغير الله تعالى تألها ومحبة وطاعة واستسلامًا وخضوعًا وخوفًا وتعظيمًا وقصدًا وطلبًا واسترضاءً، فلا توجد في القلب علقة لغير الله ولا مزاحمة للمقصود الأعظم وهو الله سبحانه؛ فتنتفي إرادة الهوى ومزاحمة الشهوة وتنتفي المخاوف من غيره سلطانًا كان أو غير ذي سلطان، فلا انشغال للقلب إلا به تعالى قصدًا وإنابة.

وأما الهوى والشهوة فيأخذها بيد الطاعة والعبودية ومن تحت إذن

الشارع؛ فهو يحصّلها في النهاية لكن عن طريق العبودية لا على مقتضى الحظ.

❁❁❁❁

▪ قيمة كمالات التّوْحيد وأثرها في النّجاة:

أصل التوحيد هو الخروج من الشرك الأعظم بصرف حقوق الله تعالى الخالصة إليه وحده فلا يعبد إلا هو، ولا يقبل إلا شرعه، ولا يحب شيئا أعظم من محبته تعالى.. مع التصديق والإقرار.

ولكن للتوحيد كمالات يتفاوت فيها الناس تفاوتًا عظيمًا، فمنهم من تزاحم الشهوات تحقيق كمال هذا التوحيد فيقع في المعصية؛ إذ كم من محابّ لهواه وشهواته تزاحم، وكم من مخاوف أيضًا قد تزاحم قلبه، وكم من إرادات مناوئة تزاحم أن يكون كمال إرادة القلب لله تعالى، فيقع العبد في الشرك الأصغر بسبب هذا، فيمنع الزكاة لحب المال أو يقع في شهوة محرمة لمزاحمة حبها ما ينبغي من خلوص وتحقيق كمال المحبة لله تعالى بحيث لا تقع تلك المزاحمة.

وهذا ينقص من سلامة القلب بحسبه، ويعرّضه للوعيد بحسب ما وقع في قلبه من الخلل وما أدى إليه من فساد ومعصية.

يقول «ابن تيمية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهؤلاء منْ جنْس مانع الزّكاة الّذي تقدّم فيه

الْوعيد ومنْ جنْس عبْد الدّينار والدّرْهم والْقطيفة والْخميصة فإنّ ذلك لمّا أحبّ الْمال حبًّا منعه عنْ عبادة الله وطاعته صار عبْدًا له. وكذلك هؤلاء؛ فيكون فيه شرْكٌ أصْغر ولهمْ منْ الْوعيد بحسب ذلك»(١).

ويقول: «... وإنْ كان مراده جنْس الشّرْك؛ فيقال: ظلْم الْعبْد نفْسه كبخْله - لحبّ الْمال- ببعْض الْواجب هو شرْكٌ أصْغر، وحبّه ما يبْغضه الله حتّى يكون يقدّم هواه على محبّة الله شرْكٌ أصْغر ونحْو ذلك. فهذا صاحبه قدْ فاته منْ الْأمْن والاهْتداء بحسبه ولهذا كان السّلف يدْخلون الذّنوب في هذا الظّلْم بهذا الاعْتبار»(٢).

ومن الناس من يحقق كمال التوحيد حتى تحرق قوة توحيده ذنوبه، وتبدد أشعته ضباب معصيته؛ فلا يبقي توحيده ذنبًا؛ لأنه نفى من قلبه أي إرادة لمعصية الله تعالى.

يقول «ابن القيم» رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا منْ رجحتْ حسناته على سيّئاته أفْلح ولمْ يعذّبْ، ووهبتْ له سيّئاته لأجْل حسناته، ولأجْل هذا يغْفر لصاحب التّوْحيد ما لا يغْفر لصاحب الْإشْراك، لأنّه قدْ قام به ممّا يحبّه الله ما اقْتضى أنْ يغْفر له، ويسامحه ما لا يسامح به الْمشْرك، وكلما كان توْحيد الْعبْد أعْظم، كانتْ

(١) مجْموع الفتاوى (٧/ ٧٢).

(٢) مجْموع الفتاوى (٧/ ٨٢).

مغْفرة الله له أتمّ، فمنْ لقيه لا يشْرك به شيْئًا الْبتّة غفر له ذنوبه كلّها، كائنةً ما كانتْ، ولمْ يعذّبْ بها.

ولسْنا نقول: إنّه لا يدْخل النّار أحدٌ منْ أهْل التّوْحيد، بلْ كثيرٌ منْهمْ يدْخل بذنوبه، ويعذّب على مقْدار جرْمه، ثمّ يخْرج منْها، ولا تنافي بيْن الْأمْريْن لمنْ أحاط علْمًا بما قدّمْناه...

اعْلمْ أنّ أشعّة لا إله إلّا الله تبدّد منْ ضباب الذّنوب وغيومها بقدْر قوّة ذلك الشّعاع وضعْفه، فلها نورٌ، وتفاوت أهْلها في ذلك النّور - قوّةً، وضعْفًا- لا يحْصيه إلّا الله تعالى. فمن النّاس منْ نور هذه الْكلمة في قلْبه كالشّمْس. ومنْهمْ منْ نورها في قلْبه كالْكوْكب الدّرّيّ. ومنْهمْ منْ نورها في قلْبه كالْمشْعل الْعظيم. وآخر كالسّراج الْمضيء، وآخر كالسّراج الضّعيف.

ولهذا تظْهر الْأنْوار يوْم الْقيامة بأيْمانهمْ، وبيْن أيْديهمْ، على هذا الْمقْدار، بحسب ما في قلوبهمْ منْ نور هذه الْكلمة، علْمًا وعملًا، ومعْرفةً وحالًا.

وكلّما عظم نور هذه الْكلمة واشْتدّ أحْرق من الشّبهات والشّهوات بحسب قوّته وشدّته، حتّى إنّه ربّما وصل إلى حالٍ لا يصادف معها شبْهةً ولا شهْوةً، ولا ذنْبًا، إلّا أحْرقه، وهذا حال الصّادق في توْحيده، الّذي لمْ يشْركْ بالله شيْئًا، فأيّ ذنْبٍ أوْ شهْوةٍ أوْ شبْهةٍ دنتْ منْ هذا النّور أحْرقها، فسماء إيمانه قدْ حرستْ بالنّجوم منْ كلّ سارقٍ لحسناته، فلا ينال منْها السّارق إلّا

على غرّةٍ وغفْلةٍ لا بدّ منْها للْبشر، فإذا اسْتيْقظ وعلم ما سرق منْه اسْتنْقذه منْ سارقه، أوْ حصّل أضْعافه بكسْبه، فهو هكذا أبدًا مع لصوص الْجنّ والْإنْس، ليْس كمنْ فتح لهمْ خزانته، وولّى الْباب ظهْره»[1].

❁❁❁❁

▪ النّجاة لمنْ سلم له قلْبه:

ولهذا إنما ضمن الفلاح يوم القيامة لمن خلص قلبه سالمًا لله، وسلم من كل مراد أو محبوب أو مقصود أو مخوف أو معظّم سوى الله تعالى؛ وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشّعراء]، وهو نفس المعنى في قوله تعالى في الحديث القدسي: «**لوْ أتيْتني بقراب الأرْض خطايا ثمّ لقيتني لا تشْرك بي شيْئًا لأتيْتك بقرابها مغْفرةً**»[2].

وهو معنى الحديث: «**فإنّ الله قدْ حرّم على النّار منْ قال: لا إله إلّا الله، يبْتغي بذلك وجْه الله**»[3].

---

(١) مدارج السّالكين بيْن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٣٥٤٠) أبْواب الدّعوات، منْ حديث أنس بْن مالكٍ رضي الله عنه، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعْرفه إلّا منْ هذا الوجْه»، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٤٣٣٨) وقال: «حسنٌ».

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه (٤٢٥) كتاب الصّلاة- باب المساجد في البيوت، منْ حديث عتْبان بْن =

ولبيان معنى هذه الأحاديث ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشّعراء]، يقول «ابن رجب الحنبلي»: «فإنْ كمل توْحيد الْعبْد وإخْلاصه لله فيه، وقام بشروطه كلّها بقلْبه ولسانه وجوارحه، أوْ بقلْبه ولسانه عنْد الْموْت، أوْجب ذلك مغْفرة ما سلف من الذّنوب كلّها، ومنعه منْ دخول النّار بالْكلّيّة. فمنْ تحقّق بكلمة التّوْحيد قلْبه، أخْرجتْ منْه كلّ ما سوى الله محبّةً وتعْظيمًا وإجْلالًا ومهابةً، وخشْيةً، ورجاءً وتوكّلًا، وحينئذٍ تحْرق ذنوبه وخطاياه كلّها ولوْ كانتْ مثْل زبد الْبحْر»[1].

ويشرحها «ابن القيم» بقوله: «لمْ يشْركْ بالله ألْبتّه»، وهذا نص كلامه: «فلوْ لقى الموحّد - الّذي لمْ يشْركْ بالله شيْئًا ألْبتّة- ربه بقراب الأرْض خطايا أتاه بقرابها مغْفرةً، ولا يحْصل هذا لمنْ نقص توْحيده؛ فإنّ التّوْحيد الخالص الّذى لا يشوبه شرْكٌ لا يبْقى معه ذنْبٌ، فإنّه يتضمّن منْ محبّة الله وإجْلاله وتعْظيمه وخوْفه ورجائه وحْده ما يوجب غسْل الذّنوب ولوْ كانتْ قراب الأرْض، فالنّجاسة عارضةٌ والدّافع لها قويٌّ»[2].

يقول الشيخ «عبد الرحمن بن حسن»: «السّلامة منْ الشّرْك: كثيره وقليله،

=

مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١٧).

(٢) إغاثة اللهْفان منْ مصائد الشّيْطان (١/ ١٠٦).

صغيره وكبيره، ولا يسْلم منْ ذلك إلّا منْ سلم الله تعالى»[١].

فكان بيان كمال التوحيد في هذه التعبيرات المختلفة «من سلم من الشرك الأكبر والأصغر والخفي والدقيق» و «لم يشرك ألبتة» و «ترك جميع أنواع الشرك» كما مرّ معنا تعبير أهل العلم، فهذا لا يدخل النار ابتداءً، ويكون الحديث في حقه على ظاهره.

❁❁❁❁

▪ غلبة الشّرْك الخفيّ على النّفوس.. وهو سبب المعاصي والذّنوب:

يقول «ابن تيمية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والشّرْك غالبٌ على النّفوس، وهو كما جاء في الْحديث، «**وهو في هذه الْأمّة أخْفى منْ دبيب النّمْل**»، وفي حديثٍ آخر «قال أبو بكْرٍ: يا رسول الله، كيْف ننْجو منْه، وهو أخْفى منْ دبيب النّمْل؟ فقال النّبيّ ﷺ لأبي بكْرٍ: **ألا أعلّمك كلمةً إذا قلْتها نجوْت منْ دقّه وجلّه؟ قلْ: اللّهمّ إنّي أعوذ بك أنْ أشْرك بك وأنا أعْلم، وأسْتغْفرك لما لا أعْلم**»[٢].

وكان عمر يقول في دعائه: «اللّهمّ اجْعلْ عملي كلّه صالحًا، واجْعلْه

---

(١) فتْح المجيد شرْح كتاب التّوْحيد (ص٥٤).

(٢) رواه البخاريّ في الأدب المفْرد (٧١٦) باب فضْل الدّعاء، وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الأدب المفْرد» (ص٢٦٥) وقال: «صحيحٌ».

لوجْهك خالصًا، ولا تجْعلْ لأحدٍ فيه شيْئًا»[١].

وكثيرًا ما يخالط النّفوس منْ الشّهوات الْخفيّة ما يفْسد عليْها تحْقيق محبّتها لله وعبوديّتها له، وإخْلاص دينها له. كما قال شدّاد بْن أوْسٍ: «يا بقايا الْعرب إنّ أخْوف ما أخاف عليْكمْ الرّياء والشّهْوة الْخفيّة»[٢].

قيل لأبي داود السّجسْتانيّ: وما الشّهْوة الْخفيّة؟ قال: «حبّ الرّئاسة»[٣]، وعنْ كعْب بْن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنْ النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**ما ذئْبان جائعان أرْسلا في زريبة غنمٍ بأفْسد لها منْ حرْص الْمرْء على الْمال والشّرف لدينه**»[٤].

فبيّن ﷺ أنّ الْحرْص على الْمال والشّرف في فساد الدّين لا ينْقص عنْ

---

(١) رواه أحْمدُ في الزّهْد (٦١٧).

(٢) رواه أبو نعيْم في «حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء» (٧/ ١٢٢)، مرْفوعًا بلفْظ: «**يا نعايا الْعرب، إنّ أخْوف ما أخاف عليْكم الرّياء، والشّهْوة الْخفيّة**»، وكذا البيْهقيّ في «الزّهْد الكبير» (٣١٦)، ورواه أبو داود في «الزهْد» (٣٦٦) موْقوفًا على شدّاد بْن أوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه الطّبريّ في «تهْذيب الآثار» في مسْند عمر، مرّةً مرْفوعًا (١١٢٠)، ومرّةً موْقوفًا (١١٢١). وأوْرد الألْبانيّ المرْفوع في «سلْسلة الأحاديث الصّحيحة» (٥٠٨) وقال: «وهذا إسْنادٌ حسنٌ، رجاله ثقاتٌ رجال مسْلمٍ غيْر عبْد الله بْن بديْل»، وأوْرد الموْقوف في الاسْتدْراكات على السّلْسلة الصّحيحة (٢/ ٧٠٣) وقال: «وهذا إسْنادٌ صحيحٌ، وهو أصحّ منْ المرْفوع».

(٣) أوْرده ابْن تيْمية في «مجْموع الفتاوى» (١٨/ ١٦٢).

(٤) رواه التّرْمذيّ في جامعه (٢٣٧٦) أبْواب الزّهْد، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ». وأوْرده الألْبانيّ في «صحيح الجامع الصّغير» (٥٦٢٠) وقال: «صحيحٌ».

فساد الذّئْبيْن الْجائعيْن لزريبة الْغنم، وذلك بيّنٌ؛ فإنّ الدّين السّليم لا يكون فيه هذا الْحرْص، وذلك أنّ الْقلْب إذا ذاق حلاوة عبوديّته لله ومحبّته له لمْ يكنْ شيْءٌ أحبّ إليْه منْ ذلك حتّى يقدّمه عليْه، وبذلك يصْرف عنْ أهْل الْإخْلاص لله السّوء والْفحْشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

فإنّ الْمخْلص لله ذاق منْ حلاوة عبوديّته لله ما يمْنعه منْ عبوديّته لغيْره، ومنْ حلاوة محبّته لله ما يمْنعه عنْ محبّة غيْره، إذْ ليْس عنْد الْقلْب لا أحْلى ولا ألذّ ولا أطْيب ولا ألْين ولا أنْعم منْ حلاوة الْإيمان الْمتضمّن عبوديّته لله، ومحبّته له، وإخْلاصه الدّين له، وذلك يقْتضي انْجذاب الْقلْب إلى الله فيصير الْقلْب منيبًا إلى الله خائفًا منْه راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق].

إذْ الْمحبّ يخاف منْ زوال مطْلوبه وحصول مرْغوبه، فلا يكون عبْدًا لله ومحبّه إلّا بيْن خوْفٍ ورجاءٍ؛ قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسْراء:٥٧].

وإذا كان الْعبْد مخْلصًا له اجْتباه ربّه فيحْيي قلْبه، واجْتذبه إليْه فينْصرف عنْه ما يضادّ ذلك منْ السّوء والْفحْشاء، ويخاف منْ حصول ضدّ ذلك؛

بخلاف الْقلْب الّذي لمْ يخْلصْ لله، فإنّه في طلبٍ وإرادةٍ وحبٍّ مطْلقٍ، فيهْوى ما يسْنح له ويتشبّث بما يهْواه، كالْغصْن أيّ نسيمٍ مرّ بعطْفه أماله فتارةً تجْتذبه الصّور الْمحرّمة وغيْر الْمحرّمة؛ فيبْقى أسيرًا عبْدًا لمنْ لوْ اتّخذه هو عبْدًا له لكان ذلك عيْبًا ونقْصًا وذمًّا.

وتارةً يجْتذبه الشّرف والرّئاسة، فترْضيه الْكلمة وتغْضبه الْكلمة ويسْتعْبده منْ يثْني عليْه ولوْ بالْباطل، ويعادي منْ يذمّه ولوْ بالْحقّ.

وتارةً يسْتعْبدهمْ الدّرْهم والدّينار، وأمْثال ذلك منْ الْأمور الّتي تسْتعْبد الْقلوب، والْقلوب تهْواها فيتّخذ إلهه هواه ويتّبع هواه بغيْر هدًى منْ الله.

ومنْ لمْ يكنْ خالصًا لله عبْدًا له قدْ صار قلْبه مُعَبَّدًا لربّه وحْده لا شريك له، بحيْث يكون الله أحبّ إليْه منْ كلّ ما سواه، ويكون ذليلًا له خاضعًا وإلّا اسْتعْبدتْه الْكائنات، واسْتوْلتْ على قلْبه الشّياطين، وكان منْ الْغاوين إخْوان الشّياطين، وصار فيه منْ السّوء والْفحْشاء ما لا يعْلمه إلّا الله، وهذا أمْرٌ ضروريٌّ لا حيلة فيه؛ فالْقلْب إنْ لمْ يكنْ حنيفًا مُقْبلًا على الله مُعْرضًا عمّا سواه وإلّا كان مشْركًا»[1].

❁❁❁❁

(١) الفتاوى الكبْرى (٥/ ٢٠٣-٢٠٤).

- **منْ أكْمل التّوْحيد أكْمل الطّاعة:**

كما قال شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله: «ومثْل هذا ما في الصّحيحيْن: عنْ ابْن عبّاسٍ أنّ «**النّبيّ ﷺ كان يقول: عنْد الْكرْب لا إله إلّا الله الْعظيم الْحليم، لا إله إلّا الله ربّ الْعرْش الْعظيم، لا إله إلّا الله ربّ السّموات وربّ الْأرْض ربّ الْعرْش الْكريم**» فإنّ هذه الْكلمات فيها تحْقيق التّوْحيد، وتألّه الْعبْد ربّه، وتعلّق رجائه به وحْده لا شريك له، وهي لفْظ خبرٍ يتضمّن الطّلب.

والنّاس وإنْ كانوا يقولون بألْسنتهمْ: لا إله إلّا الله، فقوْل الْعبْد لها مخْلصًا منْ قلْبه له حقيقةٌ أخْرى، وبحسب تحْقيق التّوْحيد تكْمل طاعة الله. قال تعالى: ﴿**أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾**﴾ [الفرْقان]»[1].

«وكلّما حقّق الْعبْد الْإخْلاص في قوْل: لا إله إلّا الله خرج منْ قلْبه تألّه ما يهْواه، وتصْرف عنْه الْمعاصي والذّنوب. كما قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف:٢٤]؛ فعلّل صرْف السّوء والْفحْشاء عنْه بأنّه منْ عباد الله الْمخْلصين، وهؤلاء همْ الّذين

---

(١) الفتاوى الكبْرى (٥/ ٢٣٤).

قال فيهمْ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢]، وقال الشّيْطان: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص].

وقدْ ثبت في الصّحيح: عنْ النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**منْ قال لا إله إلّا الله مخْلصًا منْ قلْبه حرّمه الله على النّار**». فإنّ الْإخْلاص ينْفي أسْباب دخول النّار؛ فمنْ دخل النّار منْ الْقائلين لا إله إلّا الله لمْ يحقّقْ إخْلاصها الْمحرّم له على النّار؛ بلْ كان في قلْبه نوْعٌ منْ الشّرْك الّذي أوْقعه فيما أدْخله النّار، والشّرْك في هذه الْأمّة أخْفى منْ دبيب النّمْل؛ ولهذا كان الْعبْد مأْمورًا في كلّ صلاةٍ أنْ يقول ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة].

والشّيْطان يأْمر بالشّرْك والنّفْس تطيعه في ذلك، فلا تزال النّفْس تلْتفت إلى غيْر الله. إمّا خوْفًا منْه، وإمّا رجاءً له، فلا يزال الْعبْد مفْتقرًا إلى تخْليص توْحيده منْ شوائب الشّرْك. وفي الْحديث الّذي رواه ابْن أبي عاصمٍ وغيْره عنْ النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**يقول الشّيْطان: أهْلكْت النّاس بالذّنوب وأهْلكوني بلا إله إلّا الله والاسْتغْفار فلمّا رأيْت ذلك بثثْت فيهمْ الْأهْواء فهمْ يذْنبون ولا يسْتغْفرون؛ لأنّهمْ يحْسبون أنّهمْ يُحْسنون صنْعًا**»(١)(١).

---

(١) رواه أبو يعْلى الموْصليّ في مسْنده (١٣٦)، وقال حسيْن سليم أسد (١/ ١٢٤): «إسْناده ضعيفٌ»، وأوْرده الألْبانيّ في «سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة» (٥٥٦٠) وقال: «موْضوعٌ». وأوْرده ابْن تيْمية في غيْر موْضعٍ منْ كتبه وعزاه إلى ابْن أبي عاصمٍ في «السّنّة».

- **حالات التّوْحيد مع الذّنوب:**

الأولى: أن يقوى التوحيد بكمالاته فيعصف بالذنوب، مثل حديث صاحب البطاقة الذي نشر له تسع وتسعون سجلا من الذنوب فطاشت أمام بطاقة مكتوب عليها لا إله إلا الله.

وكل مسلم له هذه البطاقة، ومن سيدخل النار ممن سيبقى فيها حتى تدركهم رحمة الله بقبول الشفاعات فيهم، لهم هذه البطاقة، فليست كل بطاقة إذًا تثقل أمام الذنوب وتطيش أمامها الخطايا؛ ولذا قال أهل العلم أن هذا الرجل كانت لكلمته من كمالات التوحيد وقوته ما أحرق الذنوب وثقل عليها وطاشت أمامه.

الثانية: أن تقوى الذنوب فتعصف بالتوحيد، ويموت الإنسان مبدِّلًا، مُشركًا بعد إيمان، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ [المنافقون:٣]، حرم من التوحيد ومات على الكفر بسبب تراكم الذنوب التي أزاغت قلبه وغلّفته فقسا ومات وجرؤ على اقتحام المكفرات لشهوة أو لمحبة لغير الله أو لخوف مما سواه؛ فاستجاب للشهوات أو للفتن أو للشبهات.. ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطفّفين].

=

(١) الفتاوى الكبْرى (٥/ ٢٣٥).

الثالثة: توحيد لا يقوى على حرق الذنوب وذنوب لم تَقْوَ على العصف بالتوحيد؛ فيبقى التوحيد موجبًا لعدم الخلود في النار، وتبقى الذنوب تعرّض صاحبها للوعيد، وهو في المشيئة منهم من يكفّر عنه بسكرات الموت أو عذاب القبر وضغطته أو أهوال القيامة، وتكون هذه عقوبته، وآخر تقوى ذنوبه أكثر فتولِجه النار، ولا يهلك على الله إلا هالك، لكنه لتوحيده يخرج ولو بعد حين وحينئذ ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر:٢].

❁❁❁❁

- **تحْريم النّار على منْ قال «لا إله إلّا الله» على أوْجهٍ:**

١. **أولا**: تحريم الخلود، وإن دخلها لذنوبه ومعاصيه.

٢. **ثانيا**: تحريم الدخول لنار معينة وهي نار المشركين.

وبهذين الوجهين يفسر العلماء نجاة أصحاب الذنوب من الموحدين، وهما يجتمعان لمن دخلها من عصاة الموحدين، عياذًا بالله من دخولها.

٣. **ثالثا**: تحريم الدخول ابتداء وهي لمن: «لم يشرك بالله ألبته» «لمن ترك الشرك عظيمه وخَفِيَّه وما دق وما جل» «يعني حقق كمال التوحيد النافي لإرادة الذنب أصلًا ، فيدفع إلى تكميل الطاعة لأنه دفع الهوى الدافع إلى المعصية».. وهذا مقصود هذا الفصل، وهو القمة المرجوة وطوق النجاة الذي يجب أن تعض عليه بالنواجذ.

يشرح شيخ الإسلام هذا الحديث وأمثاله مما جاءت به البشارات عن الصادق المصدوق فيشرحه شرحًا رائعًا موضحًا الحالات المختلفة بناء على الجمع بين الأحاديث فيقول: «في هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة بقوله: «خالصًا من قلبه» «غير شاك فيها» «بصدق ويقين» فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك؛ فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة وما يزن خردلة وما يزن ذرة »، وتواترت بأن كثيرًا ممن يقول لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار «من قال لا إله إلا الله» و« من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال.

وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته» وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس

مــن قولــه تعــالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزّخْرف].

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث؛ فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرّا على ذنب أصلًا فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء فإذًا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك؛ فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين لا تترك له ذنبا إلا محي عنه كما يمحو الليل النهار .

فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصرّ على ذنب أصلا؛ فيغفر له ويحرم على النار.

وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات كما في حديث البطاقة فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدْر ذنوبه.

وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مصرّا على ذلك فإنه يستوجب النار.

وإن قال لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر ولكنه لم يمت على

ذلك بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده فإنه في حال قولها كان مخلصا لكنه أتى بذنوب أوْهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك بخلاف المخلص المستيقن فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مصرًّا على سيئات فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات ، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم أو من يحسن صوته بالآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويحيون على ذلك ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها وقسا القلب عن قولها وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن واستبشر بذكر غير الله واطمأن إلى الباطل واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة وكره مخالطة أهل الحق فمثل هذا إذا

قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه وبفيه ما لا يصدقه عمله»[١].

ولتوضيح خلاصة ما قال شيخ الإسلام في كلامه النفيس هذا أن البشارة لنوعين والخوف لأمور:

- **أما البشارة:**

١. **البشارة الأولى**: لمن قالها بإخلاص تام نافيًا به إرادة الذنوب، ومحققًا خلوص القلب تمامًا للمراد الشرعي الديني، فلا يحب سواه ولا يعظم سواه ولا يطيع غيره، وهو تحقيق التوحيد السابق شرحه، وهو معنى «القلب السليم» المذكور في قوله تعالى عن «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ **إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾** ﴾ [الصافات]، وبهذا نعلم عظمة الثناء على «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الآية.

٢. **البشارة الثانية**: لمن قالها على وجه البراءة من الشرك الأعظم ، ويكون هذا ما قصده قلبه والتفت إليه ، ثم مات على ذلك فهذه حسنة عظيمة ترجح على سيئاته فيدخل الجنة.

- **وأما الخوف فمن أمور:**

١. **الأول**: على من قالها لا يعلم معناها، وإنما قالها تقليدًا فهذا هو المعرّض

---

(١) فتْح المجيد شرْح كتاب التوْحيد (ص٤٦-٤٧).

للفتنة عند الموت فقد يموت مبدلًا، ويفتن في قبره وهو الذي يقول فيه: «**هاه هاه، لا أدْري**»(١).

٢. **الثاني**: على من قالها بصدق وإخلاص؛ لكنه لم يمت عليها بل عاش بعدها واكتسب ذنوبًا أضعفت اليقين والإخلاص، فلم تقو على محو الذنوب وإحراقها، ثم مع الذنوب ضعف قلبه عن اليقين والإخلاص التام النافي للذنوب، فمات مصرًّا على الذنوب، ومعه التوحيد لكنه لا يقوى على حرق الذنوب؛ فهذا في المشيئة؛ قد أوجب له توحيده مآل الجنة وقد أعاقته الذنوب وعرّضته للنار، فإن غفرها الله له دخل الجنة ابتداء وإلا عذب أولًا ثم آل اليها.

٣. **الثالث**: أن يقسو قلبه في الدنيا بسبب الذنوب فيتجرأ على الكفر فيموت مبدلًا.. عياذًا بالله.

❁❁❁❁

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٧٥٣) كتاب السّنة- بابٌ في الْمسْألة في الْقبْر وعذاب الْقبْر، منْ حديث البراء بْن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوْرده الألْبانيّ في «مشْكاة المصابيح» (١٣١) وقال: «وإسْناده صحيحٌ».

▪ مقْصود التّرْبية:

ومن هنا نقول أن المقصود من التربية هو خلاصة وزبدة الرسالات الإلهية والكتب السماوية وهو انجذاب القلب والروح بكمالها إلى الله تعالى، ويكون مقصودك خلوص القلب كاملا لله تعالى فتحبه لا تحب سواه، ولا تحب إلا من يحب، لأنه يحبه، وبالقدْر الذي يحبه ومن الوجه الذي يحبه تعالى..

وتخافه لا تخاف سواه، ومثل هذا مرتاح القلب؛ فإنه لما شكا بعض العلماء للإمام «أحمد» خوفه من أمير يريده بسوء، فقال له: «لوْ صَححْتَ لمْ تخفْ أحدًا»[1]، أي لو صححت قلبك فخفت الله بحيث تستغني بالخوف منه عن الخوف ممن سواه لم تخف أميرًا ولا غيره.. وهذه قوة عظيمة.

وترجوه لا ترجو سواه، وتذل له لا تذل لسواه..

وتطيعه لا تطيع سواه، لا مشرعًّا سواه، ولا هوى ولا شهوة مزاحمة ولا حظَّ نفس، بل تستغني بطاعته عن طاعة من سواه..

وتعظمه لا تعظم سواه، وتقصده لا تقصد سواه، وترضيه لا تنشغل برضى من سواه، وتسعى إليه لا إلى من سواه، ويعكف قلبك عليه لا على من

---

(١) أوْرده ابْن تيْمية في مجْموع الفتاوى (١٠/ ١٠٠)، وابْن مفْلحٍ في «الآداب الشرْعيّة والمنح المرْعيّة» (٢/ ٣٢).

سواه، وترضى به لا ترضى بمن سواه..

وهكذا جميع تعبدات القلب وأنواع العبودية لله تعالى..

وتتعاهد قلبك وتراقبه؛ فكلما تسلل مزاحم إليه نفيته وأخلصت قلبك لله تعالى، فإن ما يتسلل إلى القلب يفسده أو يفسد منه ما ظفر به منك، وعندها تصدر المعصية وتتخلف الطاعة؛ فإذا أخلصت القلب كاملًا وعدت إليه تعالى خرجت من المعاصي وإرادتها وأصلحت ما فسد، ولهذا كان الأثر الذي مرّ من كلام «ابن تيمية» رَحِمَهُ اللَّهُ أن الشيطان يقول: «**أَهْلَكْت النّاس بالذّنوب، فأهْلكوني بلا إله إلّا الله والاسْتغْفار**»(١)..

❁❁❁❁

▪ كمْ يسْتحقّ هذا منْ عمرك لتحْقيقه؟:

إنها القمة المرادة التي ينتفي بها الهوى المخالف والفساد الحادث في القلب، وتنتفي بها الانشغالات المزاحمة والشركاء المتشاكسون والتمزق الحادث والمحير بين مختلف من تحبه ومن ترضيه ومن تخافه فيتمزق قلبك، ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾**﴾ [الحجّ:٣١]، فكل طائر من هوًى مراد أو سلطة مخوفة أو

---

(١) سبق تخريجه.

شهوة دافعة أو شاغل غير الله، لكل منها مزعة من القلب المحطم والمتمزق.. إلى حين أن يخلص لله، فإذا خلص لله تعالى صلح واستعلى على كل مخوف ونجا من كل مراد وارتاح من الشواغل وجعل الهمّ همًّا واحدًا..

تستغرق إذًا عمرك كله ساعيًا لهذه القمة ومحافظًا عليها ومتعاهدًا لها؛ فلا تغيب عنك لا إله إلا الله، وبها تصلح القلب وتتعاهده.. حتى الوفاة.

بها أنت أقوى الناس إذ لا خوف، وأنت أعز الناس إذ لا هوًى مذل، وأنت أطوع الناس لله إذ لا حظّ مناويء ولا شهوة منازعة.. فكل هذا خلص لله، فكمل له وذهبت إلى الله بكلّك.. فهو تحقيق الإخلاص وتحقيق الصدق..

هذا سنام الأمر، وقمة التربية التي يجب أن تكون عليها..

لهذا تعلم لماذا يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمّد:١٩]، وتعلم لماذا أمرنا أن نكررها باستمرار ولماذا نقولها في كل صلاة، فهي مصحّحة القلوب ومدار السعادة ونافية الهموم، ولهذا كانت دعاء الكرب بلا إله إلا الله؛ لأن الشرور من الذنوب، والذنوب هي المخالفة لأمر الله لمزاحمة هوًى أو غلبة شهوة مناوئة، والإخلاص نفي هذا كله فتنتفي الذنوب، فتنتفي سبب الكروب والغموم والهموم والشرور.

عندئذ تكون السعادة، وتكون الراحة، ويكون كمال العبودية، وتكون

رفعة الدرجات، فمن هؤلاء - لخلوص توكلهم وخصوصه- من يدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من تحرق لا إله إلا الله ذنوبه لأنه أحرقت كل مراد من قلبه وكل مخوف وكل معظم وكل مطاع إلا الله سبحانه، فإحراق هذا من القلب مقابل إحراق الذنوب من الصحف والشرور من الواقع..

بلَّغَنا الله وإياك أيها المهاجر إلى الله وإلى الجنة..

***

الخـتام

▪ أحْوال التّقْوى الثّلاثة:

وعلى ما سبق فللتقوى درجات ثلاثة، ذكرهـا شيخ الإسـلام «ابـن تيميـة» نقلا عن الشيخ العالم الرباني «عبـد القـادر الجيلاني» وشـرحها شيخ الإسلام وأوضح كلامه(١).

وهي أن التقوى درجات ثلاث..

الأولـى.. وهـي حـال التقـوى العامـة، وهـي الحـال التـي يكـون للـنفس شهواتها وميولها إلى المحرمات وعدم استقرارها على الطاعة؛ ولكن المـؤمن يكفّها عما حرم الله ويغلّب إرادة الطاعة ومراد الرب الشرعي الـديني ويغالـب هواه، وقد يتوسع في المباح بغير قـصد الاسـتعانة عـلى الطاعـة لكـن يجتنـب المحرمات، فهذا فَعَلَ الأمْر وتَرَكَ النّهْي، فنعم العمل ونعم الحـال هـو؛ إذ إنـه ترك المحـارم وقـام بـالأوامر مـع مغالبـة الـنفس ومجاهـدتها في الله لأنهـا تـأمره بالمخالفة..

«هو في مقام التّقْوى الْعامّة فإنّ لـه شـهواتٍ للْمحرّمـات ولـه الْتفـاتٌ إلـى

---

(١) انْظرْ مجْموع الفتاوى (١٠/ ٥٢٢-٥٢٩).

الْخلْق وله رؤْية نفْسه فيحْتاج إلى الْمجاهدة بالتّقْوى بأنْ يكفّ عنْ الْمحرّمات وعنْ تناول الشّهوات بغيْر الْأمْر فهذا يحْتاج أنْ يميّز بيْن ما يفْعله وما لا يفْعله وهو التّقْوى»(١).

الثانية.. وهي حال الحقيقة، وهي انتفاء إرادة المحرم من النفوس فلا يريد إلا ما يريد الله تعالى، فلا يبقى إلا المراد الشرعي الديني وكأنها أخلاق جبلّية فتنساق متتبعة لمواقع حب الله تحبها ومرادات الله الشرعية الدينية فتريدها وهي آمنة مطمئنة محبة مشغوفة بمحبة الله وطاعته؛ فيها تجد قرة عيونها وراحة نفوسها وسرور قلوبها، ﴿**أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة:٢٢]، فيسخط لما يسخطه الله ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، ويتعامل بربه، بأمره تعالى، فيمتثل الشرع بكلّيّته.. لكن قد تلحقه رؤية نفسه وحاله وينقص شهودها نعمة الله عليها في هذا الحال وعونه لها فقد يلحقها نقص ما من هذا الوجه.

الثالثة.. ويسميها حق الحق، وهي الدرجة السابقة لكن مع كمال واستقرار شهود النعمة في الطاعة ومعونة الله للعبد، ويرى حول ربه وقوته فيخضع لله ويذلّ له بالشكر على حال الطاعة نفسها؛ فيكون متلبسًا بالحمد مع الطاعة، ويستفرغ الوسع في الحمد كما هو مستفرغ للوسع في التّعبّد، وهذا

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٥٢٧).

مقتضى التسبيح بحمد الله.

وهؤلاء يقول «ابْن تيْمية» عنْهمْ أنّ الشّيْخ «عبْد القادر» سمّاهمْ «الأبْدال»، قال: «أمّا الّذي بعْده الّذين سمّاهمْ «الأبْدال» فهمْ الّذين لا يفْعلون إلّا بأمْر الْحقّ، ولا يفْعلون إلّا به فلا يشْهدون لأنْفسهمْ فعْلًا فيما فعلوه منْ الطّاعة؛ بلْ يشْهدون أنّه هو الْفاعل بهمْ ما قام بهمْ منْ طاعة أمْره. ولهذا قال: فاتّباع الْأمْر فيها مخالفتك إيّاك بالتّبرّي منْ الْحوْل والْقوّة.

فهؤلاء يشْهدون توْحيد الرّبوبيّة مع توْحيد الْإلهيّة فيشْهدون أنّ اللهَ هو الّذي خلق ما قام بهمْ منْ أفْعال الْبرّ والْخيْر فلا يروْن لأنْفسهمْ حمْدًا ولا منّةً على أحدٍ، ويروْن أنّ اللهَ خالق أفْعال الْعباد فلا يروْن أحدًا مسيئًا إليْهمْ ولا يروْن لهمْ حقًّا على أحدٍ إذْ قدْ شهدوا أنّ اللهَ خالق كلّ شيْءٍ منْ أفْعال الْعباد وغيْرها وهمْ يعْلمون أنّ الْعباد لا يسْتحقّون منْ أنْفسهمْ ولا بأنْفسهمْ على اللهِ شيْئًا، بلْ هو الّذي كتب على نفْسه الرّحْمة، ويشْهدون أنّه يسْتحقّ أنْ يعْبد ولا يشْرك به شيْءٌ، وأنّه يسْتحقّ أنْ يتّقى حقّ تقاته، وحقّ تقاته أنْ يطاع فلا يعْصى، ويذْكر فلا ينْسى، ويشْكر فلا يكْفر فيروْن أنّ ما قام بهمْ منْ الْعمل الصّالح فهو جوده وفضْله وكرمه له الْحمْد في ذلك.

ويشْهدون: أنّه لا حوْل ولا قوّة إلّا باللهِ. وأمّا ما قام بالْعباد منْ أذاهمْ فهو خلقه وهو منْ عدْله، وما تركه النّاس منْ حقوقهمْ الّتي يسْتحقّونها على النّاس فهو الّذي لمْ يخْلقْه وله الْحمْد على كلّ حالٍ على ما فعل وما لمْ يفْعلْ. ولهذا

كانوا منْكسرةً قلوبهمْ؛ لشهودهمْ وجوده الْكامل، وعدمهمْ الْمحْض، ولا أعْظم انْكسارًا ممّنْ لمْ ير لنفْسه إلّا الْعدم لا يرى له شيْئًا ولا يرى به شيْئًا. وصاحب الْحقيقة الّذي هو دون هذا قدْ شاركه في إخْلاص الدّين لله وأنّه لا يفْعل إلّا ما أمر به فلا يفْعل إلّا لله لكنْ قَصُرَ عنْه في شهود توْحيد الرّبوبيّة ورؤْيته وأنّه لا حوْل ولا قوّة إلّا بالله وأنّه ليْس له في الْحقيقة شيْءٌ. بلْ الرّبّ هو الْخالق الْفاعل لكلّ ما قام به وأنّ كمال هذا الشّهود لا يُبْقِي شيْئًا منْ الْعُجْب ولا الْكبر ونحْو ذلك»[1].

«وأمّا الثّالث: فقدْ تمّ شهوده في أنّه لا يفْعل إلّا لله وبالله. فلا يفْعل إلّا ما أمر اللهُ به، لله، ويشْهد أنّ اللهَ هو الّذي فعل ذلك في الْحقيقة ولا تكون له همّة إرادةٍ أنْ يفْعل لنفْسه ولا لغيْر اللهِ ولا يفْعل بنفْسه ولا بغيْر اللهِ تعالى»[2].

❁❁❁❁

- **التّوكّل يجْبر ضعْفك:**

فجماع الأمر هو الخروج من الحظ، والقيام بالحق، واستفراغ الوسع، وجمع النفس؛ على القيام بالتعبد والإيغال فيه؛ فالمعاملة كلها والحياة بأجمعها، أصلها وفرعها، هو قيام بقصد التعبد والاستعاضة بالله تعالى عن

---

(١) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٥٢٥-٥٢٧).

(٢) مجْموع الفتاوى (١٠/ ٥٢٨).

كل حظ؛ فالله تعالى ومحبته والقرب منه وإرضاؤه هو الحظ الأعظم، والدافع والمقصود والمعين والموصّل، عاملًا بحوله وقوته.

ومن يعمل بحوله وقُوَّته هو أسبق من غيره وأقوى من غيره وأقدر من غيره؛ لأنه عامل بالله، فما يقطعه الآخرون في سنوات يقطعه هو في لحظات.

إنّ منْ أعْظم ما يجب أنْ تقوم به هو تفْريغ قلْبك عنْ سوى الله إرادةً وحبًّا وطاعةً وتعْظيمًا وقصْدًا..

وأن تفتقر إلى الله وتتبرأ من الحول والقوة، وأن تخلص استعانتك بالله تعالى وقيام هذا حالًا في القلب..

يقوم بالقلب حال أنه لا يقدر أن يحرك شعرة أو ذرة إلا بقدرة الله وقدره، وهذا المعنى يستصحب في كل خطوة أو عمل، فإن تبت فتتوب إليه لا إلى غيره، وتتوب به لا بغيره؛ الأول هو تحقيق الألوهية والثاني تحقيق الربوبية.

تصبر له لا لغيره، وتصبر به لا بغيره، وتنيب إليه لا إلى غيره وتنيب به لا بغيره، فهو المقصود وهو المعين، توحيد القصد إليه هو تحقيق الألوهية، وتوحيد الاستعانة به هو تحقيق الربوبية.

إذا لم تعمل لن تحقق شيئًا ولن تعان، وإذا عملت فلن تحقق شيئًا إذا لم تستعن.

ولا بد من المران على التوكل؛ وبحسب قوة قيامه بالقلب وصدق العبد

فيه مع الله تعالى تكون سرعة الوصول، فلا بد أن تصل إلى الله به، فهو المقصود وهو المعين.

ومن قام بهذا ظفر بخير كثير؛ فإن الإنسان قد يبلغ في لحظة إلى القمة، كسحرة «فرعون»، إذ جاء موقف إشهاد لله فتساموا إليه وآمنوا، ثم جاء موقف إشهاد لله آخر وتهديد بسبب إيمانهم فشهدوا بالحق وثبتوا فيه فانتقلوا إلى ربهم شهداء سعداء.

وقد يستغرق آخر أزمانًا متفاوتة.. وقد يستغرق الإنسان عمره كله؛ يكون العمر نفسه والعمل الصالح المستمر والمستقر صدّيقية بالقول والعمل والقلب والحال، وشهادة بعمله كل لحظة لهذا الدين.

وقدْ ينْقطع آخرٌ في الطّريق إنْ لحق به عجْبٌ أوْ منٌّ أوْ غيْره، ولذا نوصي بالافْتقار؛ يقول «سهْل التّسْتريّ»: «أقْرب طريقٍ بيْن العبْد وربّه.. هو الافْتقار إلى الله تعالى»(١).

❁❁❁❁

(١) سبق تخْريجه.

▪ وصيّةٌ أخيرةٌ:

الوصية هي أن تجعل هذا محور حياتك، وتحقيقه هدفك، ولو كثرت عليك الأمور والشرائع فارجع إلى هذا القطب.

ولو تباطأْت فارجع إلى التوكل والحول الرباني والقوة الربانية..

ولو زاحم قلبك أمورٌ فارجع إلى تجريد التوحيد تنفض عنك به الشركاء المتشاكسة والأهواء المتنازعة ويتوجه وجهك وقلبك وجملتك إلى ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين!.

لن تصنع شيئًا بدون بذل الجهد والتكرار والقيام بعد كل كبوة ونفض الغبار عنك، ولن تصنع بجهدك شيئًا إلا بمعونته والتوكل عليه، فالأول هو التعبد والثاني هو الاستعانة، وبهذا أمرنا، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وسر إليه، واقطع المفاوز؛ به لن تجد هلكة ولن تستوحش طريقًا.. ستلمس الرحمة بيدك وتتذوقها بقلبك وستحوطك عنايته وستشعر بقربه؛ رحمته سابقة ونعمته سابغة، ورضاه أنْعم ما يشعر به قلبك، واصطفاؤه واجتباؤه فوق ما تتصور أو تتوقع.

هو سبحانه من سيأخذ بيدك، ويقيلك من عثرتك، وينفض عنك غبار العثرة.

وهو الذي يصفح ويعفو ويغفر، وإذا عدت من بعد وجفوة عاد هو إليك؛

يغفر الجفوة، ويعود بودّه، ويعوضك عن بعدك الذي تسببت فيه معصيتك وجفوتك!.

إنه سبحانه ينتظرك، ويناديك، ليغفر لك ويجتبيك.. وفي اللحظة التي تقول فيها أنا لا أصلح لخير، يناديك للمغفرة فيزكيك ويطهرك من المعايب ويسد خلّتك ويقيل عثرتك.

لو شعرت بطرف من قربه ورضاه لذبت حبًّا وتقطعت شوقًا وتلهف قلبك على لقائه ولآثرته على كل مخلوق بل على نفسك التي بين جنبيك.

إنه الله الذي يصبر ويحلم، ويعفو ويغفر، ويجتبي ويصطفي.. فإذا خلصت نفسك له فما ظنك به حينئذ؟.

إنه يحب أولياءه وينصرهم ويتخير لهم ما هو خير، ويخلصه لهم ويخبئه إلى حين يستأهلونه ويحفظونه، يؤخره عنك لا بخلًا بل تخليصًا له من الشوائب ولتنضج أنت لحمله.

قد تيأس من نفسك وتقول هي بذرة فاسدة لتلقى في التراب، ولكن خالقها يعلم غير ذلك فالرحيم الخبير يعلم أنها ستؤتي ثمرتها ولو بعد حين.

استقم فيصنع بك أقدارًا.. واخلص له فهو أحق بك منك وأقرب منك إليك، ويحيط بك حيث لا تحيط بنفسك.. واصدق معه يكن معك؛ فما أحد يستحق أن تجمع نفسك من أجله وعلى طاعته إلا هو.

هو سبحانه فوق عرشه، وهو يقرب منك كيف شاء لكن ستشعر بهذا، وسيجري سبحانه الكون والأقدار لأوليائه فيعزّهم وينصرهم، وينصر بهم الحق ويشرفهم به؛ فيقبضون الأجرة وهم ستار للقدرة.

إنك لست على هامش الحياة، بل أنت في قلبها، ولقد خلقت الحياة والكون من أجلك، وأنت خلقت من أجله؛ فالله الله أيها العبد المهاجر .

أيها المهاجر إلى الجنة.. رزقنا الله وإياك الوصول.

وصلّى الله وسلّم وبارك على أكْرم الخلْق «محمّدٍ»

وعلى آله وصحْبه وسلّم تسْليمًا كثيرًا إلى يوْم الدّين

❁ ❁ ❁

قائمة المراجع

❋ القرآن الكريم.

❋ كتب التفاسير وعلوم القرآن:

- أنْوار التّنْزيل وأسْرار التّأْويل المسمّى بتفْسير البيْضاويّ لناصر الدّين أبي الخيْر عبْد الله بْن عمر بْن محمّد الشّيرازيّ البيْضاويّ (ت٦٩١هـ)، ط دار إحْياء التّراث العربيّ ومؤسّسة التّاريخ العربيّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، خمْسة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، إعْداد وتقْديم محمّد عبْد الرّحْمن المرْعشْليّ.
- تفْسير القرْآن العظيم المعْروف بتفْسير ابْن كثيرٍ للإمام الحافظ عماد الدّين أبي الفداء إسْماعيل بْن عمر بْن كثيرٍ الدمشْقيّ (٧٠٠هـ- ٧٧٤هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، تسْعة مجلّدات، الطّبْعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، وضع حواشيه وعلّق عليْه محمّد حسيْن شمْس الدّين.
- تفْسير القرْآن العظيم المسْند عنْ رسول الله ﷺ والصّحابة والتّابعين للإمام الحافظ عبْد الرّحْمن بْن محمّد بْن إدْريس الرّازي ابْن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، ط مكْتبة نزار مصْطفى الباز، الرّياض، أرض الجزيرة (السّعوديّة)، عشرة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، تحْقيق أسْعد محمّد الطيّب.
- تيْسير الكريم الرّحْمن في تفْسير كلام المنّان المسمّى بتفْسير السّعْديّ للشيْخ عبْد الرّحْمن بْن ناصر بْن عبْد الله السّعْديّ (ت ١٣٧٦هـ)، ط مكْتبة العبيكان، الرّياض، جزيرة العرب (السعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

- جامع البيان عنْ تأْويل آي القرْآن المسمّى بتفْسير الطّبريّ للإمام أبي جعْفرٍ محمّد بْن جرير بْن يزيد بْن كثيرٍ الطّبريّ (٢٢٤هـ-٣١٠هـ)، ط دار هجر، الجيزة، مصْر، خمْسةٌ وعشْرون مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، تحْقيق الدّكْتور عبْد الله بْن عبْد المحْسن التّرْكيّ.
- الجامع لأحْكام القرْآن المسمّي بتفْسير القرْطبيّ لأبي عبْد الله محمّد بْن أحْمد بْن أبي بكْر القرْطبيّ (ت٦٧١هـ)، ط مؤسسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أرْبعةٌ وعشْرون مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، تحْقيق الدّكْتور عبْد الله بْن عبْد المحْسن التّرْكي.
- روائع التّفْسير: الجامع لتفْسير الإمام ابْن رجب الحنْبليّ للإمام زيْن الدّين عبْد الرّحْمن بْن أحْمد بْن رجب بْن الحسن السلاميّ البغْداديّ الدّمشْقيّ الحنْبليّ (٧٩٥هـ)، ط دار العاصمة، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدان، الطّبْعة الاولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، جمْع وترْتيب أبي معاذ طارق بْن عوض الله بْن محمّد.
- في ظلال القرْآن لسيّد قطْب (ت١٣٨٥هـ)، ط دار الشّروق، بيْروت، الشّام (لبْنان)، ستّة مجلّداتٍ، الطّبْعة الثّانية والثّلاثون، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
- الكشْف والبيان عنْ تفْسير القرْآن المسمّى بتفْسير الثّعْلبيّ للإمام أبي إسْحق أحْمد بْن محمّد بْن إبْراهيم الثّعْلبيّ النّيْسابوريّ (ت٤٢٧هـ)، ط دار إحْياء التّراث العربيّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، عشرة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، دراسة وتحْقيق الإمام أبي محمّد بْن عاشور، ومراجعة وتدْقيق الأسْتاذ نظير السّاعديّ.
- مدارك التّنْزيل وحقائق التّأْويل المعْروف بتفْسير النّسفيّ للإمام أبي البركات عبْد الله بْن أحْمد بْن محْمود حافظ النّسفيّ (ت٧١٠هـ)، ط دار الكلم الطّيّب، دمشْق، الشّام (سوريّة)، ثلاثة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، حققه وخرّج أحاديثه يوسف علي بديوي، وراجعه وقدّم له مُحْيي الدّين ديب مسْتو.
- معالم التّنْزيل في تفْسير القرْآن المسمّى بتفْسير البغويّ لأبي محمّد الحسيْن بْن مسْعودٍ البغويّ (ت٥١٠ أو ٥١٦هـ)، ط دار طيبة، الرّياض، جزيرة العرب (السّعوديّة)، ثمانية مجلّدات، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، حقّقه وخرّج أحاديثه محمّد عبْد الله النّمر وعثْمان جمْعة ضميريّة وسليْمان مسْلم الحرش.

- المنْتخب منْ كتاب الزّهْد والرّقائق للإمام الحافظ أبي بكْرٍ أحْمد بْن عليّ بْن ثابتٍ البغْداديّ الخطيب (ت٤٦٣هـ)، ط دار البشائر الإسْلاميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطبْعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، دراسة وتحْقيق وتعْليق د. عامر حسن صبْري.

كتب متون الحديث والآثار:

- الجامع المسْند الصّحيح المخْتصر منْ أمور رسول الله صلّى الله عليْه وسلّم وسننه وأيّامه المعْروف بصحيح البخاريّ لأبي عبْد الله محمّد بْن إسْماعيل بْن إبْراهيم البخاريّ (١٩٤هـ-٢٥٦هـ)، ط دار طوْق النّجاة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، تسْعة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٢هـ، تشرّف بخدْمته والعناية به محمّد زهيْر بْن ناصر النّاصر.
- المسْند الصّحيح المعْروف بصحيح مسْلمٍ لأبي الحسيْن مسْلمٍ بْن الحجّاج بْن مسْلمٍ القشيْريّ النّيْسابوريّ (٢٠٦هـ- ٢٦١هـ)، ط دار إحْياء الكتب العربيّة، القاهرة، مصْر، خمْسة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، تحْقيق محمّد فؤاد عبْد الباقي.
- الموطّأ للإمام أبي عبْد الله مالك بْن أنس بْن مالك بْن أبي عامرٍ الأصْبحيّ (٩٣هـ- ١٧٩هـ)، ط دار إحْياء التّراث العربيّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م، صحّحه ورقّمه وخرّج أحاديثه وعلّق عليْها محمد فؤاد عبْد الباقي.
- السّنن الصّغْرى للإمام أبي عبْد الرّحْمن أحْمد بْن شعيْب بْن عليّ النّسائيّ (٢١٤هـ/ ٨٢٩م-٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، ط مكْتب المطْبوعات الإسْلاميّة، حلب، الشّام (سوريّة)، تسْعة مجلّداتٍ، اعْتنى به ورقّمه وصنع فهارسه عبْد الفتّاح أبو غدّة، مطْبوعٌ مع حاشية السّنْديّ.
- الجامع الكبير المعْروف بسنن التّرْمذيّ لأبي عيسى محمّد بْن عيسى بْن سوْرة التّرْمذيّ (٢٠٩هـ/ ٨٢٤م- ٢٧٩هـ/ ٨٩٢ م)، ط مكْتبة ومطْبعة مصْطفى البابي الحلبيّ، القاهرة، مصْر، خمْسة مجلّدات، الطّبْعة الثّانية، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، تحْقيق وشرْح أحْمد محمّد شاكر.
- سنن أبي داود للإمام أبي داود سليْمان بْن الأشْعث الأزْديّ السّجسْتانيّ (٢٠٢هـ-٢٧٥هـ)، ط المكْتبة العصْريّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أرْبعة مجلّدات، تحْقيق محمّد محْيي الدّين عبْد الحميد.

- السّنن لأبي عبْد الله محمّد بْن يزيد بْن ماجة القزْوينيّ (٢٠٧هـ- ٢٧٥هـ)، ط دار الصّدّيق، الجبيل، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، حقّقه وعلّق عليْه وحكم على أحاديثه عصام موسى هادي.
- مسْند الإمام أبي عبْد الله أحْمد بْن محمّد بْن حنْبل الشّيْبانيّ (١٦٤هـ-٢٤١هـ)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، خمْسون مجلّد، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، الطّبْعة الأولى، المشْرف العام علي إصْدارها الدّكْتور عبْد الله بْن عبْد المحْسن التّرْكيّ، المشْرف علي تحْقيقها وتخْريج نصوصها والتّعْليق عليْها الشّيْخ المحدّث شعيْب الأرْنؤوط (١٩٢٨م- معاصر).
- الإحْسان في تقْريب صحيح ابْن حبّان للإمام أبي حاتم محمّد بْن حبّان بْن أحْمد التّميميّ البسْتيّ الخرسانيّ (بضْعٌ وسبْعون ومائتيْن منْ الهجْرة- ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م)، بترْتيب الإمام الأمير علاء الدّين أبي الحسن عليّ بْن بلْبان بْن عبْد الله الفاسيّ (٦٧٥ هـ- ٧٣٩ هـ)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، ١٨ مجلّد، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليْه شعيْب الأرْنؤوط.
- الأدب المفْرد للإمام أبي عبْد الله محمّد بْن إسْماعيل بْن إبْراهيم البخاريّ (١٩٤ هـ- ٢٥٦ هـ)، ط مكْتبة المعارف للنّشْر والتّوْزيع، الرّياض، جزيرة العرب (السعوديّة)، ثلاثة مجلّدات، الطّبْعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، حقّقه وقابله على أصوله سمير بْن أمين الزّهيريّ بتعْليقات الشّيْخ الألْبانيّ.
- البحْر الزّخّار المعْروف بمسْند البزّار للحافظ أبي بكْر أحْمد بْن عمْرو بْن عبْد الخالق العتكيّ البزّار (ت٢٩٢هـ)، ط مكْتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، جزيرة العرب (السّعوديّة)، ١٨ مجلّد، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، تحْقيق د. محْفوظ الرّحْمن زين الله.
- تعْظيم قدْر الصّلاة لأبي عبْد الله محمد بْن نصْر بْن الحجّاج المرْوزيّ (٢٠٢هـ- ٢٩٤هـ)، ط مكْتبة الدّار، المدينة المنوّرة، جزيرة العرب (السّعوديّة)، مجلّدان، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٦هـ، حقّقه وعلّق عليْه وخرّج أحاديثه وآثاره الدّكْتور عبْد الرّحْمن بْن عبْد الجبّار الفريْوائيّ.

- تهْذيب الآثار وتفْصيل الثّابت عنْ رسول الله ﷺ منْ الأخْبار (مسْند عمر بْن الخطّاب رضي الله عنه) للإمام أبي جعْفرٍ محمّد بْن جرير بْن يزيد بْن كثيرٍ الطّبريّ (٢٢٤هـ-٣١٠هـ)، ط مطْبعة المدنيّ، القاهرة، مصْر، مجلّدان، تحْقيق محْمود محمّد شاكر.
- الجامع لشعب الإيمان لأبي بكْر أحْمد بْن الحسيْن بْن عليّ البيْهقيّ (٣٨٤هـ-٤٥٨هـ)، ط مكْتبة الرّشْد، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، ١٤ مجلّد، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، الطّبْعة الأولى، حقّقه وراجع نصوصه وخرّج أحاديثه الدّكْتور عبْد العليّ عبْد الحميد حامد.
- الزّهْد للإمام أبي عبْد الله أحْمد بْن محمّد بْن حنْبل الشّيْبانيّ (١٦٤هـ-٢٤١هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، وضع حواشيه محمّد عبْد السّلام شاهين.
- السّنن لأبي محمّدٍ عبْد الله بْن عبْد الرّحْمن بْن الفضْل بْن بهْرام بْن عبْد الصّمد الدّارميّ (ت٢٥٥هـ)، ط دار المغْني للنّشْر والتّوْزيع، الرّياض، جزيرة العرب (السّعوديّة)، أرْبعة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، تحْقيق حسيْن سليم أسد الدّارانيّ.
- السّنن الكبْرى للإمام أبي عبْد الرّحْمن أحْمد بْن شعيْب بْن عليّ النّسائيّ (٢١٤هـ/ ٨٢٩م-٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، اثْنى عشر مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، قدّم له د. عبْد الله بْن عبْد المحْسن التّرْكي، وأشْرف عليْه شعيْب الأرْنؤوط، وحقّقه وخرّج أحاديثه حسن عبْد المنْعم شلبي وآخرون.
- السّنن الكبْرى لأبي بكْر أحْمد بْن الحسيْن بْن عليّ البيْهقيّ (٣٨٤هـ- ٤٥٨هـ)، ط دار هجر، الجيزة، مصْر، إحْدى وعشْرون مجلّدًا، الطّبْعة الاولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، تحْقيق مرْكز هجر للبحوث والدّراسات العربيّة والإسْلاميّة.
- صفة الجنّة للإمام الحافظ أبي نعيْم أحْمد بْن عبْد الله بْن أحْمد بْن إسْحق الأصْبهانيّ (٣٣٦هـ-٤٣٠هـ)، ط دار المأْمون للتراث، دمشْق، الشام (سوريّة)، ثلاثة مجلّداتٍ،الطّبْعة الثّالثة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دراسة وتحْقيق عليّ رضا بْن عبْد الله بْن عليّ رضا.

- صفة الجنّة للإمام أبي بكْر عبْد الله بْن محمّد بْن عبيْدٍ القرشيّ ابْن أبي الدّنْيا (٢٠٨-٢٨٠هـ)، ط مكْتبة ابْن تيْمية، القاهرة، مصْر، ومكْتبة العلم، جدّة، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، تحْقيق ودراسة عمْرو عبْد المنْعمْ سليم.
- العزْلة والانْفراد للإمام أبي بكْر عبْد الله بْن محمّد بْن عبيْدٍ القرشيّ ابْن أبي الدّنْيا (٢٠٨-٢٨٠هـ)، ط دار الوطن، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ضبط نصّه وقدّم له وعلّق عليْه وخرّج أحاديثه أبو عبيْدة مشْهور بْن حسن آل سلْمان.
- عمل اليوْم واللّيْلة للحافظ أبي بكْر أحْمد بْن محمّد بْن إسْحق الدّيْنوريّ الشّافعيّ المعْروف بابْن السّنّيّ (ت٣٦٤هـ)، ط دار الأرْقم، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، حقّقه وخرّج أحاديثه د. عبْد الرّحْمن كوثر ابْن الشّيْخ محمّد عاشق البرْني.
- فضائل الصّحابة للإمام أبي عبْد الله أحْمد بْن محمّد بْن حنْبل الشّيْبانيّ (١٦٤هـ-٢٤١هـ)، ط دار العلْم للطّباعة والنّشْر، جدّة، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدان، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٩٣م، حقّقه وخرّج أحاديثه وصيّ الله بْن محمّد عبّاس (لحساب جامعة أمّ القرى).
- كتاب الأدب للإمام أبي بكْر عبْد الله بْن محمّد بْن إبْراهيم بْن عثْمان بْن أبي شيْبة العبْسيّ (قيل ١٥٩هـ- ٢٣٥هـ)، ط دار البشائر الإسْلاميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، حقّقه وخرّج أحاديثه د. محمّد رضا القهْوجيّ.
- كتاب الزّهْد للإمام عبْد الله بْن المبارك المرْوزيّ (ت١٨١هـ) ويليه كتاب الرّقاق، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الثّانية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، حقّقه وعلّق عليْه حبيب الرّحْمن الأعْظميّ.
- كتاب الزّهْد للإمام هنّاد بْن السّريّ الكوفيّ (١٥٢هـ-٢٤٣هـ)، ط دار الخلفاء للكتاب الإسْلاميّ، الصّباحيّة، الكويْت، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م، حققه وخرّج أحاديثه عبْد الرحْمن بْن عبْد الجبّار الفرْيوائيّ.
- كتاب الزّهْد للإمام أبي سفْيان وكيع بْن الجرّاح بْن مليح الرّؤاسيّ (ت١٩٧هـ)، ط مكْتبة الدّار، المدينة المنوّرة، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطبْعة الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، حقّقه وقدّم له وخرّج أحاديثه وآثاره عبْد الرّحْمن عبْد الجبّار الفرْيوائيّ.

- كتاب الزّهْد الكبير للإمام أبي بكْر أحْمد بْن الحسيْن بْن عليّ البيْهقيّ (٣٨٤هـ- ٤٥٨هـ)، ط دار الجنان، ومؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، حقّقه وخرّج أحاديثه وفهْرسه الشّيْخ عامر أحْمد حيْدر.
- كتاب القبور للإمام أبي بكْر عبْد الله بْن محمّد بْن عبيْدٍ القرشيّ ابْن أبي الدّنْيا (٢٠٨-٢٨٠هـ)، ط مكْتبة الغرباء الأثريّة، المدينة المنوّرة، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، قدم له وضبط نصّه وخرّج نصوصه طارق محمّد سكلوع العموديّ.
- الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار المعْروف بمصنّف ابْن أبي شيْبة للإمام أبي بكْر عبْد الله بْن محمّد بْن إبْراهيم بْن عثْمان بْن أبي شيْبة العبْسيّ (قيل ١٥٩هـ- ٢٣٥هـ)، ط دار التّاج، بيْروت، الشّام (لبْنان)، سبعة مجلّدات، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٠م، الطّبْعة الأولى، تقْديم وضبْط كمال يوسف الحوت.
- كتاب الورع للإمام أبي عبْد الله أحْمد بْن محمّد بْن حنْبل الشّيْبانيّ (١٦٤هـ-٢٤١هـ)، برواية الإمام أبي بكْر أحْمد بْن محمّد بْن الحجّاج المرْوزيّ (ت٢٧٥هـ)، ط دار الصّميدي، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، تحْقيق سمير بْن أمينٍ الزّهيْريّ.
- المدْخل إلى السّنن الكبْرى للإمام أبي بكْر أحْمد بْن الحسيْن بْن عليّ البيْهقيّ (٣٨٤هـ- ٤٥٨هـ)، ط دار الخلفاء للكتاب الإسْلاميّ، الكويْت، مجلّدٌ واحدٌ، دراسة وتحْقيق الدّكْتور محمّد ضياء الرّحْمنْ الأعْظميّ.
- المراسيل للإمام أبي داود سليْمان بْن الأشْعث الأزْديّ السّجسْتانيّ (٢٠٢هـ-٢٧٥هـ)، ط مؤسّسة الرسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، حقّقه وعلّق عليْه وخرّج أحاديثه شعيْب الأرْنؤوط.
- المسْتدْرك على الصّحيحيْن لأبي عبْد الله محمّد بْن عبْد الله الحاكم النّيْسابوريّ (٣٢١هـ-٤٠٥هـ/ ١٠١٤م)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، خمْسة مجلّدات، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، الطّبْعة الأولى، دراسة وتحْقيق مصْطفي عبْد القادر عطا.

- مسْند ابْن الجعْد للإمام الحافظ عليّ بْن الجعْد بْن عبيْد الجوْهريّ (١٣٤هـ-٢٣٠هـ)، منْ رواية وجمْع الحافظ أبي القاسم عبْد الله بْن محمّدٍ البغويّ (٢١٤هـ-٣١٧هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الثّانية، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، مراجعة وتعْليق وفهْرسة الشّيْخ عامر أحْمد حيْدر.
- مسْند أبي يعْلى الموْصليّ للحافظ أحْمد بْن عليّ بْن المثنّى التّميميّ (٢١٠هـ-٣٠٧هـ)، ط دار المأْمون للتّراث، بيْروت، الشّام (لبْنان)، ستّة عشر مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، حقّقه وخرّج أحاديثه حسيْن سليم أسد.
- مسْند الشّهاب لأبي عبْد الله محمّد بْن سلامة بْن جعْفر بْن عليّ بْن حكْمون القضاعيّ المصْري (ت٤٥٤هـ)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدان، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، حقّقه وخرّج أحاديثه حمْدي عبْد المجيد السّلفيّ.
- المعْجم الأوْسط للإمام الحافظ أبي القاسم سليْمان بْن أحْمد الطّبرانيّ (٢٦٠هـ-٣٦٠هـ)، ط دار الحرميْن، القاهرة، مصْر، عشرة مجلّداتٍ، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، تحْقيق أبي معاذ طارق بْن عوض الله بْن محمّد وأبي الفضْل عبْد المحْسن بْن إبْراهيم الحسيْنيّ.
- المعْجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليْمان بْن أحْمد الطّبرانيّ (٢٦٠هـ- ٣٦٠هـ)، ط مكْتبة ابْن تيْمية، القاهرة، مصْر، خمْسةٌ وعشْرون جزْءًا، الطّبْعة الثّانيةٌ، حقّقه وخرّج أحاديثه حمْدي عبْد المجيد السلفيّ.
- مكارم الأخْلاق للإمام الحافظ أبي القاسم سليْمان بْن أحْمد الطّبرانيّ (٢٦٠هـ-٣٦٠هـ)، دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، كتب هوامشه أحْمد شمْس الدّين، مطْبوعٌ بعْد مكارم الأخْلاق لابْن أبي الدّنْيا.

❋ كتب التخريج والزوائد:

- إرْواء الغليل في تخْريج أحاديث منار السّبيل لمحمّد ناصر الدّين الألْبانيّ (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م-١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ط المكْتب الإسْلاميّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، تسْعة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

- التّعْليقات الحسان على صحيح ابْن حبّان وتمْييز سقيمه منْ صحيحه، وشاذّه منْ محْفوظه لمحمّد ناصر الدّين الألْبانيّ (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م-١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ط دار باوزير، جدّة، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، اثْني عشر مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- سلْسلة الأحاديث الصّحيحة وشيْءٌ منْ فقْهها وفوائدها لمحمّد ناصر الدّين الألْبانيّ (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م-١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ط مكْتبة المعارف للنّشْر والتّوْزيع، الرّياض، جزيرة العرب (السعوديّة)، سبْعة مجلّدات، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- سلْسلة الأحاديث الضّعيفة والموْضوعة وأثرها السّيّء في الأمّة لمحمّد ناصر الدّين الألْبانيّ (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م-١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ط مكْتبة المعارف للنّشْر والتّوْزيع، الرّياض، السعوديّة، ١٤ مجلّد، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، الطّبْعة الأولي للطّبْعة الجديدة.
- صحيح الجامع الصّغير وزيادته الفتْح الكبير لمحمّد ناصر الدّين الألْبانيّ (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م-١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ط المكْتب الإسْلاميّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، الطّبْعة الثّالثة.
- صحيح سنن أبي داود لمحمّد ناصر الدّين الألْبانيّ (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ط مكْتبة المعارف للنّشْر والتّوْزيع، الرّياض، جزيرة العرب (السعوديّة)، ثلاثة مجلّدات، الطّبْعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- ضعيف الجامع الصّغير وزيادته الفتْح الكبير لمحمّد ناصر الدّين الألْبانيّ (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م-١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ط المكْتب الإسْلاميّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّد واحد، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، الطبْعة الثّالثة.
- العلوّ للعليّ الغفّار في إيضاح صحيح الأخْبار وسقيمها للإمام شمْس الدّين محمّد بْن أحْمد بْن عثْمان الذّهبيّ (ت ٧٤٨هـ)، ط مكْتبة أضْواء السّلف، الرّياض، أرْض الجزيرة (السعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، اعْتنى به أبو محمّدٍ أشْرف بْن عبْد المقْصود.
- كشْف الخفاء ومزيل الإلْباس عمّا اشْتهر منْ الأحاديث على ألْسنة النّاس للشّيْخ إسْماعيل بْن محمّدٍ العجْلونيّ الجراحيّ (ت١١٦٢هـ)، ط مكْتبة القدْسيّ، القاهرة، مصْر، مجلّدان، ١٣٥١هـ.

- مجْمع الزّوائد ومنْبع الفوائد للإمام أبي الحسن نور الدّين عليّ بْن أبي بكْر الهيْثميّ (ت٨٠٧هـ) بتحْرير الحافظيْن العراقيّ وابْن حجرٍ، ط دار الكتاب العربيّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، عشرة مجلّداتٍ.

❋ كتب شروح الحديث والفقه والعقيدة والرقائق:

- الإبانة عنْ شريعة الفرْقة النّاجية ومجانبة الفرق المذْمومة لأبي عبْد الله عبيْد الله بْن محمّد بْن بطّة (ت٣٨٧هـ)، ط دار الرّاية، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، تسْعة مجلداتٍ، الطّبْعة الثّانية، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، تحْقيق ودراسة رضا بْن نعْسان معيطي.
- إحْياء علوم الدّين لأبي حامدٍ محمد بْن محمد الغزاليّ (ت٥٠٥هـ)، ط دار المعْرفة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أرْبعة مجلّداتٍ وملْحقٌ خامسٌ.
- الآداب الشّرْعيّة والمنح المرْعيّة لأبي عبْد الله محمّد بْن مفْلح بْن محمّدٍ شمْس الدّين المقْدسيّ (ت٧٦٣هـ)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، ثلاثة مجلّداتٍ، الطّبْعة الثّالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، حقّقه وضبط نصّه وخرّج أحاديثه وقدّم له شعيْب الأرْنؤوط وعمر القيّام.
- أدب الدّنْيا والدّين للإمام القاضي أبي الحسن عليّ بْن محمّد بْن محمّد بْن حبيبٍ البصْريّ البغْداديّ الشّهير بالماورْديّ (ت٤٥٠هـ)، ط دار اقْرأ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، شرْح وتعْليق محمّد كريم راجح.
- إعْلام الموقّعين عنْ ربّ العالمين للإمام أبي عبْد الله محمد بْن أبي بكْرٍ بْن أيّوب المعْروف بابْن قيّم الجوْزيّة (٦٩١هـ- ٧٥١هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، لبْنان، أرْبعة مجلّدات، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، رتّبه وضبطه وخرّج آياته محمّد عبْد السّلام إبْراهيم.
- إغاثة اللّهْفان في مصايد الشّيْطان العالمين للإمام أبي عبْد الله محمد بْن أبي بكْرٍ بْن أيّوب المعْروف بابْن قيّم الجوْزيّة (٦٩١هـ- ٧٥١هـ)، ط دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدان، الطّبْعة الأولى، ١٤٣٢هـ، حقّقه محمّد عزير شمْس، وخرّج أحاديثه مصْطفى بْن سعيد إيْتيْم.

- إيثار الحقّ على الخلْق في ردّ الخلافات إلى المذْهب الحقّ منْ أصول التوْحيد لأبي عبْد الله محمّد بْن المرْتضى اليمانيّ المشْهور بابْن الوزير (٧٧٥هـ-٨٤٠هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلدٌ واحدٌ، الطّبْعة الثانية، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- التّبْصرة للإمام أبي الفرج عبْد الرّحْمن بْن عليّ بْن محمّدٍ الجوْزيّ المعْروف بابْن الجوْزيّ (ت٥٩٧هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدان، الطّبْعة الثّانية، ١٤٢٣هـ-١٩٩٣م، تحْقيق د. مصْطف عبْد الواحد.
- تحْفة الأحْوذيّ بشرْح جامع التّرْمذيّ للحافظ أبي العلا محمّد بْن عبْد الرّحْمن المباركْفوريّ (١٢٨٣هـ- ١٣٥٣هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، لبْنان، عشْرةٌ مجلّدات، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، الطّبْعة الأولى.
- التّرْغيب والتّرْهيب للإمام الحافظ زكيّ الدّين عبْد العظيم بْن عبْد القويّ المنْذريّ (ت٦٥٦هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أرْبعة مجلّداتٍ، الطّبْعة الثّالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه إبْراهيم شمْس الدّين.
- تنْبيه الغافلين للإمام الفقيه أبي اللّيْث نصْر بْن محمّد الحنفيّ السّمرْقنْديّ (ت٣٧٣هـ)، ط مكْتبة الإيمان، المنْصورة، مصْر، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، تحْقيق السّيّد العربيّ.
- التّنْوير شرْح الجامع الصّغير للعلّامة محمّد بْن إسْماعيل الأمير الصنْعانيّ (ت ١١٨٢هـ)، ط مكْتبة دار السّلام، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، أحد عشر مجلّدًا، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، الطّبْعة الأولى، دراسة وتحْقيق محمّد إسْحق محمّد إبْراهيم.
- جامع العلوم والحكم للحافظ زيْن الدّين أبي الفرج عبْد الرّحْمن بْن شهاب الدّين البغْداديّ الدّمشْقيّ المعْروف بابْن رجب (ت ٧٩٥هـ)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدان، الطّبْعة الثّامنة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، تحْقيق شعيْب الأرْنؤوط وإبْراهيم باجس.
- الجواب الكافي لمنْ سأل عنْ الدّواء الشّافي المسمّى بالدّاء والدّواء للإمام أبي عبْد الله محمد بْن أبي بكْرٍ بْن أيّوب المعْروف بابْن قيّم الجوْزيّة (٦٩١هـ- ٧٥١هـ)، ط دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، أرْض الحجاز (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٩هـ، حقّقه محمّد أجْمل الإصْلاحيّ، وخرّج أحاديثه زائد بْن أحْمد النّشيزيّ، إشْراف بكْر بْن عبْد الله أبو زيْد.

- الرّسالة القشيْريّة للإمام أبي القاسم القشيْريّ النيْسابوريّ الشّافعيّ (ت٤٦٥هـ)، ط مؤسّسة دار الشّعْب، القاهرة، مصْر، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، تحْقيق الإمام عبْد الحليم محْمود ود. محْمود بْن الشّريف.
- رياض الصّالحين منْ كلام سيّد المرْسلين للإمام محْيي الدّين أبي زكريّا يحْيي بْن شرفٍ النّوويّ (٦٣١هـ- ٦٧٦هـ)، ط دار ابْن كثير، دمشْق، الشّام (سوريّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، تعْليق د. ماهر ياسين الفحْل.
- زاد المعاد في هدْي خيْر العباد للإمام أبي عبْد الله محمد بْن أبي بكْرٍ بْن أيّوب المعْروف بابْن قيّم الجوْزيّة (٦٩١هـ- ٧٥١هـ)، ط مؤسسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، ستّة مجلّداتٍ، الطّبْعة الثّالثة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليْه شعيْب الأرْنؤوط وعبْد القادر الأرْنؤوط.
- الزّواجر عنْ اقْتراف الكبائر للإمام شهاب الدّين أبي العبّاس أحْمد بْن محمّد بْن عليّ بْن حجر الهيْتميّ السّعْديّ الأنْصاري (ت٩٧٤هـ)، ط مطْبعة حجازي، القاهرة، مصْر، مجلّدان، ١٣٥٦هـ، وبهامشه كتابيْ كفّ الرّعاع عنْ محرّمات اللّهْو والسّماع، وكتاب الأعْلام بقواطع الإسْلام، له.
- شرْح العقيدة الطّحاوية للإمام القاضي عليّ بْن عليّ بْن محمّد بْن أبي العز الدّمشْقيّ (ت٧٩٣هـ)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدان، الطّبْعة العاشرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، حقّقه وعلّق عليْه وخرّج أحاديثه وقدّم له د. عبْد الله بْن عبْد المحْسن التّرْكيّ و شعيْب الأرْنؤوط.
- طريق الهجْرتيْن وباب السّعادتيْن لشمْس الدّين محمّد بْن أبي بكْر بْن أيّوب ابْن قيّم الجوْزيّة (٦٩١هـ-٧٥١م)، ط المطْبعة السّلفية، القاهرة، مصْر، مجلّدٌ واحدٌ، ١٣٧٥هـ، عني بتصْحيحه وإخْراجه محبّ الدّين الخطيب.
- غذاء الألْباب شرْح منْظومة الآداب للشّيْخ محمّد بْن أحْمد بْن سالم السّفارينيّ الحنْبليّ (ت١١٨٨هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدان، الطّبْعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ضبطه وصحّحه الشّيْخ محمد عبْد العزيز الخالديّ.

- الفتاوى الكبْرى للإمام تقيّ الدّين أبي العبّاس أحْمد بْن عبْد الحليم بْن تيْميّة (٦٦١هـ- ٧٢٨هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، ستّة مجلّدات، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م، تحْقيق وتعْليق وتقْديم محمّد عبْد القادر عطا ومصْطفي عبْد القادر عطا.
- فتاوى اللّجْنة الدائمة للبحوث العلْميّة والإفْتاء، ط دار المؤيد، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، ثلاثةٌ وعشْرون مجلّدًا، الطّبْعة الخامسة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، جمْع وترْتيب أحْمد بْن عبْد الرّزّاق الدّويش.
- فتْح الباري بشرْح صحيح البخاريّ للحافظ ابْن حجر أحْمد بْن عليّ العسْقلانيّ (٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م- ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، ط المكْتبة السّلفية، الجيزة، مصْر، أرْبعة عشر مجلّدًا، تمّ تخْريجه اسْتنادًا إلى مجْهودات الشّيْخ عبْد العزيز بْن بازٍ ومحمّد فؤاد عبْد الباقي و الشّيْخ محبّ الدّين الخطيب.
- فتْح المجيد شرْح كتاب التّوْحيد للشّيْخ عبْد الرّحْمن بْن حسن آل شيْخ (ت١٢٥٨هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة السّابعة، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م، بتحْقيق محمّد حامد الفقي.
- الفوائد للإمام أبي عبْد الله محمد بْن أبي بكْرٍ بْن أيّوب المعْروف بابْن قيّم الجوْزيّة (٦٩١هـ-٧٥١هـ)، ط دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، أرْض الجزيرة (السعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٩هـ، تحْقيق محمّد عزير شمْس وإشْراف الشّيْخ بكْر بْن عبْد الله أبو زيْد.
- قوت القلوب في معاملة المحْبوب ووصْف طريق المريد إلى مقام التّوْحيد للشّيْخ أبي طالبٍ المكيّ محمّد بْن عليّ بْن عطيّة (ت٣٨٦هـ)، ط مكْتبة دار التّراث، القاهرة، مصْر، ثلاثة مجلّدات، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، حقّقه وقدّم له وعلّق حواشيه د. محْمود إبْراهيم محمّد الرّضْواني.
- كتاب التّوْحيد الّذي هو حقّ الله على العبيد للشّيْخ محمّد بْن عبْد الوهّاب (ت١٢٠٦هـ)، ط جامعة الإمام محمّد بْن سعود، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدٌ واحدٌ، صحّحه وقابله على النّسْخة الخطّيّة د. عبْد العزيز بْن عبْد الرّحْمن السّعيد ود. أحْمد كحيل ود. لبيب السّعيد.

- مجْمـوع الفتـاوى للإمـام تقـيّ الـدّين أبـي العبّـاس أحْمـد بْـن عبْـد الحليـم بْـن تيْميـة الحـرّانيّ (ت٧٢٨هـ)، ط مجمّع الملك فهْدٍ لطباعة المصْحف الشّريف، المدينة النّبويّة، أرْض الجزيرة (السّعودية)، سبعةٌ وثلاثون مجلّدًا، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، جمْع وترْتيب عبْد الرّحْمن بْن محمّد بْن قاسم وساعده ابْنه محمّدٌ.
- مخْتصر منْهاج القاصدين للإمام نجْم الدّين أبي العبّاس أحْمد بْن عبْد الرّحْمن بْن قدامة المقْدسيّ (ت٦٨٩هـ)، ط مكْتبة دار البيان، دمشْق، الشّام (سوريّة)، ومؤسّسة علـوم القرْآن، بيْروت، الـشّام (لبْنان)، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، قدّم له الأسْتاذ محمّد أحْمد دهْمان، وعلّق عليْه شعيْب الأرْنـؤوط وعبْد القادر الأرْنؤوط.
- مدارج السّالكين بيْن منازل إيّاك نعْبد وإيّاك نـسْتعين للإمـام شـمْس الـدّين محمّـد بْـن أبي بكْـر بْـن أيّوب ابْن قيّم الجوْزيّـة (٦٩١هـ-٧٥١م)، ط دار الكتـاب العربيّ، بيْروت، الـشّام (لبْنـان)، ثلاثـة مجلّداتٍ، الطّبْعة الثّانية، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، بتحْقيق محمّد حامد الفقي.
- المسْتدْرك على مجْموع فتاوى شيْخ الإسْلام للإمام تقيّ الدّين أبي العبّاس أحْمد بْـن عبْـد الحليم بْن تيْمية الحـرّانيّ (ت٧٢٨هـ)، ط محمّـد بْـن عبْـد الـرّحْمن بْـن قاسـم، خمْسة مجلّداتٍ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٨هـ، جمعه ورتّبه وطبعه على نفقته محمّد بْن عبْد الرّحْمن بْن قاسم (ت١٤٢١هـ).
- مـشْكاة المـصابيح لأبـي عبْـد الله ولـيّ الـدّين محمّـد بْـن عبْـد الله الخطيـب العمـريّ التّبْريـزيّ (ت٧٤١هـ)، ط المكْتـب الإسْـلاميّ، بيْـروت، الـشّام (لبْنـان)، ثلاثـة مجلّـداتٍ، الطّبْعـة الثّانيـة، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، بتحْقيق محمّد ناصر الألْبانيّ.
- منْ فتـاوى أئمّـة الإسْـلام في الـصّيام لعبـد الله بـن أحمـد العـلّاف، ط دار الطـرفين، الطـائف، أرض الجزيرة (السعودية)، مجلد واحد، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- الموافقـات للعلّامـة المحقّـق أبـي إسْـحق إبْـراهيم بْـن موسـى بْـن محمّـد اللّخْمـيّ الـشّاطبيّ (ت٧٩٠هـ)، ط دار ابْن عفّان، الخبر، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، ستّة مجلّدات، الطّبْعة الأولـى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ضبط نصّه وقدّم له وعلّق عليْه وخرّج أحاديثه أبو عبيْدة مشْهور بْـن حسن آل سلْمان، تقديم فضيلة الشّيْخ العلّامة بكْر بْن عبْد الله أبو زيْد.

- هداية الحيارى في أجْوبة اليهود والنّصارى للإمام شمْس الدّين محمّد بْن أبي بكْر بْن أيّوب ابْن قيّم الجوْزيّة (٦٩١هـ-٧٥١م)، ط دار القلم، دمشْق، الشّام (سوريّة)، والدّار الشّاميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، تحْقيق ودراسة د. محمّد أحْمد الحاجّ.

❋ كتب السيرة والسير والتراجم والتاريخ:

- البداية والنّهاية للحافظ أبي الفداء إسْماعيل بْن عمر بْن كثيرٍ القرشيّ (٧٠١هـ-٧٧٤هـ)، ط دار هجر، القاهرة، مصْر، إحْدى وعشْرون مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، تحْقيق الدّكْتور عبْد الله بْن عبْد المحْسن التّرْكيّ.
- تاريخ بغْداد أوْ مدينة السّلام للإمام الحافظ أبي بكْرٍ أحْمد بْن عليّ بْن ثابتٍ البغْداديّ الخطيب (ت٤٦٣هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أرْبعة وعشْرون مجلّدًا، الطّبْعة الثّانية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دراسة وتحْقيق مصْطفى عبد القادر عطا.
- تاريخ جرْجان للحافظ أبي القاسم حمْزة بْن يوسف بْن إبْراهيم السّهْميّ (ت٤٢٧هـ)، ط عالم الكتب، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّد واحد، الطّبْعة الرّابعة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، تحْت مراقبة د. محمّد عبْد المعيد خان.
- تاريخ الخلفاء لجلال الدّين عبْد الرّحْمن بْن أبي بكْر السّيوطيّ (ت٩١١هـ)، ط مكْتبة مصْر، القاهرة، مصْر، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م، تحْقيق محمّد بْن نصْر أبي جبل.
- تاريخ مدينة دمشْق وذكْر فضْلها وتسْمية منْ حلّها منْ الأماثل أوْ اجْتاز بنواحيها منْ وارديها وأهْلها للإمام العالم الحافظ أبي القاسم عليّ بْن الحسن بْن هبة الله بْن عبْد الله الشّافعيّ المعْروف بابْن عساكر (٤٩٩هـ-٥٧١هـ)، ط دار الفكْر، بيْروت، الشّام (لبْنان)، تسْعةٌ وسبْعون مجلّدًا، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دراسة وتحْقيق محبّ الدّين أبي سعيد عمر بْن غرامة العمْرويّ.
- حلْية الأوْلياء وطبقات الأصْفياء للإمام الحافظ أبي نعيْم أحْمد بْن عبْد الله بْن أحْمد بْن إسْحق الأصْبهانيّ (٣٣٦هـ- ٤٣٠هـ)، ط دار الفكْر، بيْروت، الشّام (لبْنان)، عشرة مجلّداتٍ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- سبل الهدى والرّشاد في سيرة خيْر العباد، وذكْر فضائله وأعْلام نبوّته وأفْعاله وأحْواله في المبْدأ والمعاد لمحمّد بْن يوسف الصّالحيّ الشّاميّ (٩٤٢هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أرْبعة عشر مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، تحْقيق وتعْليق الشّيْخ عادل أحْمد عبْد الموْجود والشّيْخ عليّ محمّد معوّض.
- سير أعْلام النّبلاء للإمام شمْس الدّين محمّد بْن أحْمد بْن عثْمان الذّهبيّ (ت ٧٤٨هـ)، ط مؤسّسة الرّسالة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، خمْسة وعشْرون مجلّدًا، الطّبْعة الثّانية، ١٨٠٢هـ- ١٩٨٢م، تحْقيق شعيْب الأرْنؤوط وآخرون.
- السّيرة النّبويّة لأبي محمّدٍ جمال الدّين عبْد الملك بْن هشامٍ (ت٢١٣هـ)، ط دار إحْياء التّراث العربيّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أرْبعة مجلّداتٍ، حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصْطفى السّقّا وإبْراهيم الإبْياريّ وعبْد الحفيظ شلبي.
- صفة الصّفْوة للإمام أبي الفرج عبْد الرّحْمن بْن عليّ بْن محمّدٍ الجوْزيّ المعْروف بابْن الجوْزيّ (ت٥٩٧هـ)، ط دار الكتاب العربيّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، مجلّدٌ واحدٌ، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، تحْقيق خالد محمّد طرْطوسي.
- طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسيْن محمّد بْن محمد بْن أبي يعْلى (ت٥٢٦هـ)، ط مطْبعة السنّة المحمّديّة، القاهرة، مصْر، مجلّدان، وقف على طبْعه وصحّحه محمّد حامد الفقي.
- الكامل في التّاريخ لأبي الحسن عزّ الدّين عليّ بْن أبي الكرم محمّد بْن محمّد بْن عبْد الكريم المعْروف بابْن الأثير الجزريّ (ت٦٣٠هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، أحد عشر مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، تحْقيق أبي الفداء عبْد الله القاضي.
- كتاب جملٍ منْ أنْساب الأشْراف لأحْمد بْن يحْيى بْن جابر بْن داود البلاذريّ (ت٢٧٩هـ)، ط دار الفكْر، بيْروت، الشام (لبْنان)، ثلاثة عشر مجلّدًا، الطّبْعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، تحْقيق سهيْل زكار ورياض الزّرْكليّ.
- المنْتظم في تاريخ الأمم والملوك للإمام أبي الفرج عبْد الرّحْمن بْن عليّ بْن محمّدٍ الجوْزيّ المعْروف بابْن الجوْزيّ (ت٥٩٧هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، تسْعة عشر

مجلّد، الطّبْعة الثّانية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دراسة وتحْقيق محمّد عبْد القادر عطا ومصْطفى عبْد القادر عطا، راجعه وصحّحه نعيم زرْزور.

❋ كتب أخرى:

- أفْراح الرّوح للأسْتاذ سيّد قطْب (١٩٠٦م-١٩٦٦م)، ط دار ابْن حزْم، بيْروت، الشام (لبْنان)، كتيّبٌ واحدٌ، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
- تأْويل مخْتلف الحديث للإمام أبي محمّدٍ عبْد الله بْن مسْلم بْن قتيْبة الدّيْنوريّ (٢١٣هـ-٢٧٦هـ)، ط المكْتب الإسْلاميّ، بيْروت، الشّام (لبْنان)، ومؤسّسة الإشْراق، الدّوْحة، أرْض الجزيرة (قطر)، مجلّدٌ واحدٌ، الطّبْعة الثّانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، تحْقيق محمّد محْيي الدّين الأصْفر.
- جامع بيان العلْم وفضْله لأبي عمر يوسف بْن عبْد البرّ النّمريّ المالكيّ الأنْدلسيّ (ت٤٦٣هـ)، ط دار ابْن الجوْزيّ، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدان، الطبْعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، تحْقيق أبي الأشْبال الزّهيريّ.
- الجامع لأخْلاق الرّاوي وآداب السّامع والرّقائق للإمام الحافظ أبي بكْرٍ أحْمد بْن عليّ بْن ثابتٍ البغْداديّ الخطيب (٣٩٢هـ-٤٦٣هـ)، ط مكْتبة المعارف، الرّياض، أرْض الجزيرة (السّعوديّة)، مجلّدان، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، تحْقيق د. محْمود الطّحّان.
- روْضة العقلاء ونزْهة الفضلاء للإمام أبي حاتم محمّد بْن حبّان بْن أحْمد التّميميّ البسْتيّ الخرسانيّ (بضْعٌ وسبْعون ومائتيْن منْ الهجْرة- ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م)، ط مكْتبة السّنّة المحمّديّة، القاهرة، مصْر، مجلّدٌ واحدٌ، بتحْقيق محمّد حامد الفقي.
- المجالسة وجواهر العلْم لأبي بكْرٍ أحْمد بْن مرْوان بْن محمّدٍ الدّينوريّ القاضي المالكيّ (ت ٣٣٣هـ)، ط دار ابْن حزْم، بيْروت، الشّام (لبْنان)، الطّبْعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، خرّج أحاديثه وآثاره ووثّق نصوصه وعلّق عليْه أبو عبيْدة مشْهور بْن حسنْ آل سلْمان.
- المحلّى بالآثار للإمام أبي محمّد عليّ بْن أحْمد بْن سعيد بْن حزْمٍ الأنْدلسيّ الظّاهريّ (ت٤٥٦هـ)، ط دار الكتب العلْميّة، بيْروت، الشّام (لبْنان)، اثْنتا عشر مجلّدًا، الطّبْعة الثّانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، تحْقيق الدّكْتور عبْد الغفّار سليْمان البنْداريّ.

- وصايا العلماء عنْد حضور الموْت للإمام الحافظ أبي سليْمان محمّد بْن عبْد الله بْن أحْمد بْن ربيعة بْن زبْرٍ الرّبعيّ (٣٧٩هـ)، ط دار ابْن كثير، دمشْق، الشّام (سوريّة)، الطّبْعة الثّالثة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، حقّقه ووضع فهارسه صلاح محمّد الخيميّ، وراجعه وخرّج أحاديثه وعلّق عليْه الشّيْخ عبْد القادر الأرْنؤوط.

❋ ❋ ❋

المحتويات

مُقَدِّمَة ١

بداية الطّريـق ١٠

دارٌ منْقضيةٌ ١٠

صفْوٌ قليلٌ ١١

كدرٌ لا بدّ منْه ١٢

هناك ينْسى ١٣

منْ انْزعج فلْيرْحلْ إلى ما هو خيْرٌ ١٤

نصيحةٌ عمليّةٌ ١٦

دار أبينا ودارنا ١٧

قوْمٌ مسافرون ١٨

العـلْم واليقـين ١٩

البصيرة فريضةٌ ١٩

أحقّ وأهمّ شروط صلاح العمل وقبوله ٢٠

احْذرْ شرْك العبادة تحْت أيّ حجّةٍ ٢٢

واحْذرْ شرْك التّشْريع ٢٣

البدع العظام ضلالاتٌ مرْدودةٌ في وجْه صاحبها ٢٥

بدع غلاة المتصوّفة ٢٥

الرّافضة باب الضّلالات والزّنْدقة التّاريخيّ ٢٧

واحْذرْ الغلوّ ٣٠

لا يسْتقيم الطّريق إلّا باليقين ٣١
اطْلبْ اليقين.. فإنّ الطّريق لا يسْتقيم إلّا به ٣١
اليقين بالخالق ٣٣
اليقين باليوْم الآخر ٣٤
اليقين بالرّسالة والكتاب العزيز ٣٦
التّفكّر فضيلةٌ ٣٨
طريق التّذكّر ٤٠
ثمرة العلْم واليقين ٤٧
الناس في العلم ثلاثة أحوال ٤٧
أقْمارٌ تضيء ٥٠
قواعدٌ في طلب العلْم ٥٤
العلْم المحْمود ٥٤
مزالقٌ تحْذر ٥٥
علْمٌ منْ أجْل العمل ٥٥
الفريضة الّتي يجب طلبها في العلْم ٥٩
العلْم والتّزْكية ٦٢
أوْعى؟ قال: نعمْ. أزْكى؟ قال: لا ٦٢
أمْثلةٌ زاجرةٌ ٦٣
إبْليس علم.. لكنّه لمْ يزْكُ ٦٣
«أميّة بْن أبي الصّلْت» وعى.. لكنّه لمْ يزْكُ ٦٣
طريدًا غريبًا وحيدًا ٦٦
«أبو جهْلٍ» يعْلم الحقّ ويصدّق «محمّدًا» ﷺ! ٦٨
قوم اختيروا ثم نكصوا ٦٩
طمع مهلك! ٧١

مثال عظيم ٧٢
الطّريق صحيحٌ لكنّ العيْب في العزْم ٧٨
موْقفٌ في قصّةٍ ٧٨
آيةٌ محْوريّةٌ وحاسمةٌ ٧٩
جمْع العزْم.. والصّادقون ٨٠
صلاح الأمْر في.. «أوْزعْني» ٨٢
مكانة الأهْداف الأخْرى ٨٣
لماذا نعْبد الله؟ ٨٤
الإنْسان بطبيعته عابدٌ.. ولا بدّ ٨٤
إنّنا مماليكٌ ٨٥
إنّنا مدينون.. مغْمورون بالنّعم ٨٦
لأنّك مقْهورٌ وميّتٌ.. ومساقٌ إليْه ٨٨
الله خيْر شيْءٍ.. إنّه الصّمد ٨٩
فقراءٌ لعبادته ٩١
الجنّـــة.. دارنـا الأولى ٩٢
للعقيدة تكاليفٌ.. وللتّوْحيد مواقفٌ يسْتوْجبها ٩٢
ربح البيْع ٩٤
اليقين فارقٌ ٩٥
الجنّـــة.. دارنـا الّتي نـُرِيدُ ٩٨
جملٌ وقواعدٌ في فهْم الجنّة ٩٨
تشْبه الدّنْيا في الأسْماء فقطْ ١٠١
مخالفةٌ لذبول الدّنْيا ١٠٢
يريد الله أنْ ينعّم أهْلها ١٠٢
هذا الأدْنى فما بالك بالأعْلى ١٠٣

وصْف آخرهمْ دخولًا ١٠٤
حالةٌ نفْسيّةٌ فريدةٌ.. لا تتحمّلها في الدّنْيا ١٠٦
إطْلاق الأماني لأهْلها.. والكثير مخبأٌ لهمْ ١٠٩
المؤْمنات أعْلى وأجْمل ١١١
جملٌ عنْ الحور ١١١
كملوا في دار الكمال ١١٣
أفْراحٌ للرّوح مع الأنْفاس ١١٥
لله درّهمْ.. إنّهمْ مقرّبون ١١٧
ما نقص هنا فلأجْل الحظ هناك ١٢٢
الأثـر العمليّ التّرْبويّ لمعايشة الجنّة ووصْفها ١٢٣
أثر التّمادي في المحرّمات على القلوب ١٢٦
التّعبّد والامْتثال وإقامة أمْر الله ١٣٠
التّعبّد وقيمته ودوْره ١٣٠
الفرائض أوّلًا.. لأنّها أحبّ إلى الله ١٣٤
كيْف نتلقّى الأوامر والنّواهي بيد العبوديّة ونمْتثلهما؟ ١٣٧
امْتثال الظّاهر وخضوع الباطن ١٤٠
منْ ذاق الخيْر أوْغَلَ فيه ١٤٧
منْ نوافل الصّلاة ١٤٧
منْ نوافل الصيام ١٤٨
تلّاءٌ لكتاب الله العزيز ١٤٩
منْ نوافل الصّدقة: ١٤٩
مسبّحون مع الملائكة ١٥٢
الانْخلاع منْ الحظّ والقيام بالحقّ ١٥٧
معونةٌ.. تجدّ في الطّريق على سلم العبودية ١٥٨

رُكُون النّفْس للعبودية ١٦٠
ستأْتيك المعونة ١٦٢
ما فتح لك فالْزمْه ١٦٣
لا تلْزمْ غيْرك بما ألْزمْت به نفْسك ١٦٥
جملٌ مهمّةٌ ونافعةٌ في شأْن الأوْراد الّتي تلْتزم ١٦٦
قصْد الدّيْمومة ١٦٦
لا تلْتفتْ إلى مشقّة مخالفة الهوى.. فمخالفته صلاحٌ ١٧٠
وجود أثر العبادة ومقْتضاها علامةٌ على الامْتثال أوْ الخلل ١٧١
أصْل قضاء النّوافل.. طلبًا للدّيْمومة ١٧٢
التّوازن للمعاش ولبقيّة التّكاليف الشّرْعيّة ١٧٣
أسْواطٌ للنّفْس الحرون ١٧٤
سوْطٌ.. لحوق الفضيحة يرْدع النّفوس الشّريفة ١٧٦
سوْطٌ.. خوْف السّقوط منْ عيْن الله تعالى ١٧٩
سوْطٌ.. فظاعة آفات الدّنْيا ١٨٠
سوْطٌ.. عَوَادي الأيّام ١٨١
سوْطٌ.. أُفُول الموْت ١٨١
سوْطٌ.. حقيقة المُعَاينة ١٨٢
سوْطٌ.. القبْر وظاهره ١٨٣
سوْطٌ.. حقيقة القبْر ١٨٤
سوْطٌ.. هوْل المطْلع ١٩٠
سوْطٌ.. الحشْر العظيم ١٩١
سوْطٌ عظيمٌ.. الوقوف بيْن يدي الله ١٩٢
سوْط النّار.. دار خُلْد الأشْقياء ١٩٣
التّعامل مع أسْواط الخوْف ١٩٣

خيْريّة الخوْف.. والقدْر المطْلوب منْه ١٩٤
التّخْويف في القرْآن.. مرْتبطٌ بانْحرافاتٍ لردْعها ١٩٦
فقْه أسْواط الخوْف.. لترْبية النّفوس ١٩٧
النّـــار.. دار وعيد الله ٢٠١
أوْصاف دارٍ أعدّتْ.. لتتّقيها ٢٠٢
وقْفةٌ مع شدّة مشاهد العذاب في النّار ٢١٠
التّذْكير.. أنّنا عبيد الملك ٢١٠
هذه الحياة وهذا الدّين جدٌّ.. لا عبثٌ ولا هزْلٌ ٢١١
العقوبات.. للرّدْع عنْ الانْحراف ٢١١
قيام حقيقة التّعبّد بالقلْب وذوْق طعْمه ٢١٥
قيام عبوديّة الصّلاة بالقلْب ٢١٥
قيام معاني الذّكْر.. ومعْناه وعظيم ما يتضمّنه ٢٢١
إقامة الكتاب العليّ الحكيم ٢٢٤
قيام معاني الصّيام بالقلْب ٢٢٥
قيام معاني الصّدقة ومقْتضياتها بالنّفوس ٢٢٦
قيام معاني الحجّ بالقلْب ٢٢٧
قيام معاني التّعبّد في امْتثال الأحْكام عمومًا ٢٢٧
قيام معاني التّعبّد في ترْك المحرّمات ٢٢٩
قاعدةٌ عامّةٌ في ذكْر الله تعالى ٢٣١
ذكْر الله.. عنْد الشّدّة والمصيبة ٢٣٢
ذكْر الله.. عنْد المعْصية ٢٣٢
ذكْر الله.. عنْد الطّاعة ٢٣٢
ذكْر الله.. عنْد النّعْمة ٢٣٣
ذكْر الله.. عنْد الجهاد ووجوبه ٢٣٣

ذكْر الله.. عنْد الولد ٢٣٤
ذكْر الله.. عنْد الزّوْجة ٢٣٤
ذكْر الله.. عنْد المسْكن ٢٣٤
ذكْر الله.. عنْد الطّريق ٢٣٥
وفي عمله ٢٣٥
وفي الوالديْن والرّحم ٢٣٦
وعنْد العدو الكافر ٢٣٧
عنْد المريض ٢٣٧
عنْد المكْروب والمهْموم والمغْموم ٢٣٨
عنْد الشّهْوة ٢٣٨
وفي النّساء ٢٣٩
وعنْد المال الحرام ٢٣٩
عنْد الفراغ ٢٣٩
لتحْقيق عمْق العبوديّة.. اسْتحْضار النّيّات ٢٤١
بخْلٌ محْمودٌ.. بيد الحقّ لا بيد الحظّ ٢٤١
وإلّا كان نقْصًا في حقّ صاحبه ٢٤٣
وانْظرْ إلى مأْخذ العباد ٢٤٥
قواعد ومآخذ التّعبّد في اسْتحْضار النّيّات ٢٤٥
في البداية امْتثال النّصوص مقدمٌ ٢٤٦
قواعد الامْتثال ٢٤٩
أوّلًا: التّعبّد لله بقصْد إقامة كلّيّ الحياة ٢٤٩
ثانيًا: حرْمة إضْعاف الجسد وإتْلافه.. ووجوب تقْويته ٢٥٢
ثالثًا: التّعبّد بتناول المباحات.. بقصْد التقوّي على الطّاعة ٢٥٢
رابعًا: مراعاة حقّ الغيْر المتعلّق بالمباحات، فهي واجبةٌ بالنّظر إلى حقوقهمْ الواجبة عليْك ٢٥٤

خامسًا: التعبّد لله بقصْد الاسْتغْناء بالحلال عنْ الحرام ٢٥٥
سادسًا: التّعبّد لله بقبول هدْيه المنْعم سبْحانه ٢٥٦
سابعًا: التّعبّد لله بلزوم المأْخذ النّبويّ وتجنّب الطّريق المبْتدعة ٢٥٧
ثامنًا: مخالفة طرق الضلال والمبْتدعة ٢٥٨
تاسعًا: التّعبّد لله بالأخْذ بقواعد التّيْسير ورفْع الحرج ٢٥٩
عاشرًا: قاعدة التّأسّي ٢٥٩
كيْف أقْوى على اسْتحْضار النّيّات في كلّ عملٍ؟ ٢٦٣
أعْمال القلوب ٢٦٥
اليقين ٢٦٦
تعْظيم الأمْر ومهابة الربّ ٢٦٧
الذّلّ والانْكسار والافْتقار إلى الله تعالى ٢٦٨
الحبّ ٢٦٩
التّوكّل ٢٧٠
التّعلّق بالخالق المسبِّب سبْحانه ٢٧١
الأنْس بالله سبْحانه ٢٧٢
الاطْمئْنان إلى الله والإخْبات له والخشوع ٢٧٣
الرّضا ٢٧٣
التّواضع ٢٧٥
الاسْتجابة لأمْر الله تعالى.. بلْ وسرْعة هذه الاسْتجابة ٢٧٩
الخوْف ٢٨١
الرّجاء ٢٨٢
الصّبْر ٢٨٤
الاعْتصام بالله ٢٨٥
أنْ تضع نفْسك حيْث وضعك الله ٢٨٦

الإخْلاص ٢٨٨
الصدْق.. ٢٩١
الرّذائل لا تليق بك ٢٩٥
الرّذائل لا تليق بك.. فانْفضْها عنْ نفْسك.. ٢٩٥
رذائلٌ تصان عنْها النّفوس الشّريفة ٢٩٨
رذيلة الشّرْك بالله تعالى ٢٩٨
العقوق.. ٢٩٩
الزّنا.. ٣٠٢
الكبْر ٣٠٣
رذيلة الفخْر على الغيْر ٣٠٥
احْتقار المسْلمين وازْدراؤهم ٣٠٦
السّخْرية منْ الخلْق ٣٠٦
الغشّ.. ٣٠٨
الحسد ٣٠٩
الضّيق بنبوغ الآخرين ومحاولة وأْدهمْ أوْ تأْخيرهمْ........................ ٣١٠
رذيلة البغْي ٣١٢
رذيلة الشّحّ والبخْل ٣١٣
خور القلْب وضعْفه وجبْنه ٣١٦
رذيلة أتْباع الطّواغيت؛ التّلْقين والقوْلبة، والتّبعيّة العمْياء، وقبول الاسْتخْفاف ٣١٧
رذيلة تدنّي الاهْتمام بالمعالي.. وتعاظم الاهْتمام بالسّفاسف ٣١٨
رذيلة الاهْتمام بالنّفْس في معارضة الدّين ٣٢١
رذيلة الفراغ والتّبطّل ٣٢٢
الرّياء.. ٣٢٣
الوصوليّة والتّسلّق ٣٢٣

رذيلة السمْعة ٣٢٤
رذيلة العجْب ٣٢٤
رذيلـة المـنّ ٣٢٦
رذيلة التّكلّف والتّصنّع ٣٢٦
رذيلة العبوسة والتّجهّم ٣٢٧
ارْتداء أقْنعةٍ وحللٍ كاذبةٍ تصنّعًا ٣٢٩
رذيلة الهلع والجزع وغياب الصّبْر والثّبات ٣٢٩
رذيلة الجحود، وإنْكار الخيْر، أوْ التّعامي عنْه! ٣٣١
الفجور في الخصومة.. «النّـذالـة» ٣٣٥
رذيلة الألـدّ الخصم ٣٣٦
سوء الظنّ وتهْمة المسْلمين والتّسرّع فيهمْ ٣٣٧
تشهّي الوقوع على عوْرات المسْلمين، والفرح بالظَفَرِ بعوْرة المسْلم! ٣٤٠
التّجسّس ٣٤٢
الغيبـة ٣٤٣
النّميمة ٣٤٥
طلب الرّياسـة ٣٤٦
غلبة الشّهْوة وتحكّمها في الإنْسان وتحْريكها له ٣٤٧
إطْلاق البصر وتتبّع الحرمات ٣٤٩
داء الـكلام! ٣٤٩
التَّهَوُّك والحيرة.. «التّردّد» ٣٥١
رذيلة ضعْف الإرادة.. والتّبعيّة والإمّعيّة والاعْتماد على الآخرين ٣٥٣
الالْتـواء ٣٥٦
الكذب.. جامع الشّرور وأصْلها ٣٥٧
تعْليقٌ عامٌّ على ترْك الرّذائل ٣٦١

قاعدةٌ نفيسةٌ ٣٦٣
قاعدةٌ ربّانيّةٌ.. لا تيْأسْ، فالحياة ممْكنةٌ في أيّ لحْظةٍ ٣٦٣
أنْت أوْلى بالفضائل ٣٦٦
التّحلي بالفضائل ٣٦٦
الصّدْق والوفاء ٣٦٦
الإخْلاص ٣٦٧
طلب المعالي والتّرفّع عنْ الدّنايا ٣٦٩
البساطة واليسْر ٣٦٩
التّواضع وهضْم النّفْس ٣٧١
شدّة البأْس ٣٧٢
الجدّيّة والمثابرة ٣٧٢
منظّمٌ.. نفْسيًّا وعقْليًّا ٣٧٣
الكرم ٣٧٤
الشّجاعة ٣٧٤
المروءة ٣٧٥
مقابلة السّيّئة بالحسنة.. «الفتوّة» ٣٧٦
العفّة ٣٧٧
الصّلة ٣٨٠
الشّعور بالمسْؤوليّة والإحْساس بالتّبعة ٣٨١
الإيجابيّة ٣٨٢
المراقبة ٣٨٤
التّحرّر ٣٨٤
عزيزٌ منيعٌ ٣٨٥
الاسْتغْناء بالله والكفاية به ٣٨٦

لا يسْتكين أمام قوى الباطل الظّاهرة ٣٨٦
محْسـنٌ ٣٨٦
متفـاني........ ٣٨٧
عنْد المؤْمن برْد اليقين وسكينة الاطْمئْنان ٣٨٧
قائمٌ بالقسْط والعدْل لله ٣٨٧
أُمّـةٌ واحـدةٌ مع إخْوانه والمسْلمين ٣٨٨
ذو حيلةٍ واسعةٍ.. «حسْن التصرّفٍ» ٣٨٩
خشـنٌ متجـلّدٌ........ ٣٨٩
ذو بصيرةٍ نافـذةٍ وشكيمة قويّـةٍ........ ٣٩١
نظيف القلْب والسّريرة ٣٩١
عـدم التّشـاح في الحقوق........ ٣٩٢
تعْليقٌ عامٌّ على الفضائل ٣٩٤
مأْخذ أصْحاب رسول الله ﷺ في الفضائل وترْبية الله ورسوله لهمْ ٣٩٦
معـايشـة منْ أنْعم الله عليْهمْ........ ٤٠٦
معايشة الصالحين ٤٠٦
الأنْبياء خيْر الخلْق وسادات الأوْلياء وقمّة البشريّة ٤٠٩
لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة الخليل عليه السلام.. وضوحٌ وقوّةٌ وإقْدامٌ........ ٤١٠
لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة نوحٍ وهود عليهما السلام.. توكّلٌ وإشْهادٌ وثباتٌ........ ٤١١
لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة أيّوب وإخْوانه الكرام عليهم السلام.. صبْرٌ وعبوديّةٌ وخشوعٌ........ ٤١٢
لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة يونس عليه السلام ٤١٣
لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة زكريّا عليه السلام ٤١٤
لمْحةٌ منْ ملامح شخْصيّة يعْقوب عليه السلام وبنيه الكرام.. وقلقٌ على أغْلى ما تمْلك البشريّة؛ العقيدة الصّحيحة.. ٤١٥
مشْهدٌ شاخصٌ حيٌّ.. يعْملان ويضْرعان ٤١٥
شفقةٌ ومحبّةٌ لقوْمٍ لمْ يخْلقوا بعْد ٤١٦

إلْحاحٌ في الدّعْوة والبيان.. عدم الملل أوْ التّباطؤ عنْ البلاغ ٤١٦
في نفوسهمْ يقينٌ وبيّنةٌ ٤١٧
يحدّدون أنّ الأمان في الطّاعة.. والهلاك في المعْصية ٤١٧
يقينٌ فائقٌ وثقةٌ مبْهرةٌ.. آيةٌ على صحّة الإيمان والطّريق ٤١٨
عمْق إيمانٍ ومحبّةٍ لربّ العالمين ٤١٩
غضبٌ لمحارم الله أنْ تنْتهك ٤١٩
قوّة علْمٍ وعبادةٍ.. شهد لهمْ بها ربّ العالمين ٤٢٠
افْتقارٌ للطّاعة ٤٢٠
انْشغال دائمٌ بيوْم الحساب ٤٢٠
تجْريد التّوْحيد لله.. ورفْضهمْ أنْ يرْفعوا فوْق مكانتهمْ ٤٢٠
بمثْل هذا فلْنتعاملْ ٤٢١
خيْر خلْق الله ٤٢٣
معايشة الجيل الفريد ٤٢٩
عجزْت يا قلم.. إنّهمْ أصْحاب «محمّدٍ» ﷺ! ٤٤٠
شخْصيّات الكتاب العزيز ٤٤٢
معايشة العُبَّاد والصّالحين ٤٤٦
حتّى لا تعْتذر! ٤٤٩
القمّة المبْتغاة.. بيْن يديْك.. فلماذا تتأخّر؟ ٤٥٢
تجْريد التّوْحيد ٤٥٢
أسْمى حالات الإنْسان ٤٥٢
حقيقة الإخْلاص ٤٥٤
قيمة كمالات التّوْحيد وأثرها في النّجاة ٤٥٥
النّجاة لمنْ سلم له قلْبه ٤٥٨
غلبة الشّرْك الخفيّ على النّفوس.. وهو سبب المعاصي والذّنوب ٤٦٠

منْ أكْمل التّوْحيد أكْمل الطّاعة ٤٦٤
حالات التّوْحيد مع الذّنوب.. ٤٦٦
تحْريم النّار على منْ قال «لا إله إلّا الله» على أوْجهٍ.. ٤٦٧
مقْصود التّرْبية ٤٧٣
كمْ يسْتحقّ هذا منْ عمرك لتحْقيقه؟ ٤٧٤
الخـتام ٤٧٧
أحْوال التّقْوى الثّلاثة ٤٧٧
التّوكّل يجْبر ضعْفك ٤٨٠
وصيّةٌ أخـيرةٌ.. ٤٨٣
قَائِمَةُ المَرَاجِعِ ٤٨٦

***

الكُتُبُ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْ

دَارِ الفِطْرَةِ

١. **المَنْهَجُ الإِسْلَامِيُّ فِي التَّثَبُّتِ مِنْ الأَخْبَارِ وَالقَضَاءِ عَلَى الشَّائِعَاتِ**، لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ آل بُرَعِيّ.

٢. **الوَصِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ**، لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ آل بُرَعِيّ.

٣. **الجَامِعُ الأَكْبَرُ فِي صِفَةِ ذِي الطُّفْيَتَيْنِ وَالأَبْتَرِ**، لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ آل بُرَعِيّ.

٤. **فِي ظِلَالِ رَمَضَانَ وَصِيَامِهِ**، لِلأُسْتَاذِ مِدْحَت القَصْرَاوِيّ.

٥. **المُسْلِمُ بَيْنَ فَضِيلَةِ الصِّدْقِ وَرَذِيلَةِ الكَذِبِ**، لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ آل بُرَعِيّ.

٦. **مُهَاجِرٌ إِلَى الجَنَّةِ**، لِلأُسْتَاذِ مِدْحَت القَصْرَاوِيّ.